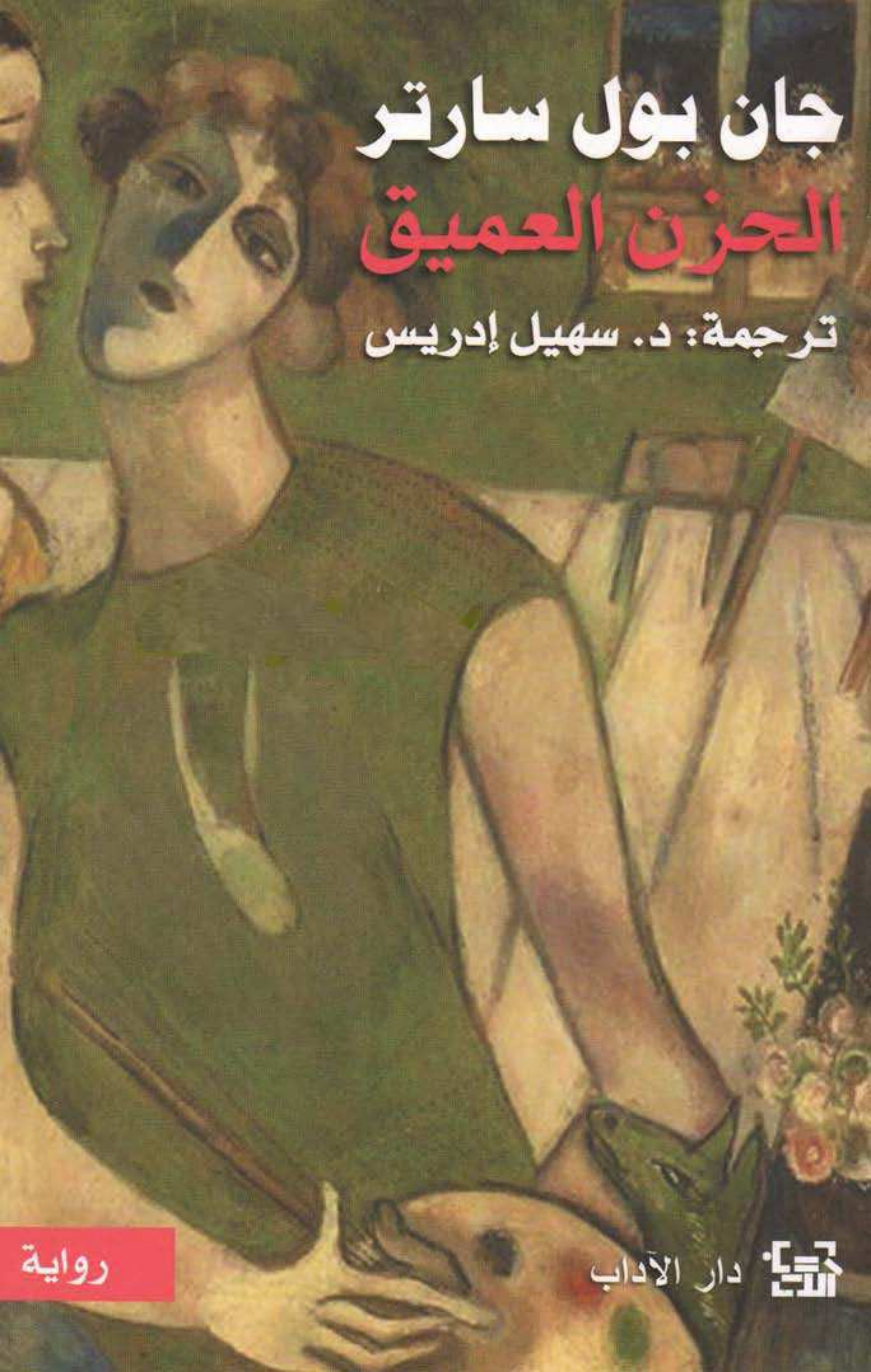
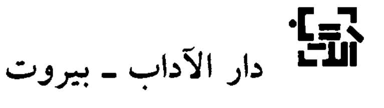

جان بول سارتر
الحزن العميق
ترجمة: د. سهيل إدريس
رواية
دار الآداب

الحزن العميق

جان بول سارتر

نقلها إلى العربيّة د. سهيل إدريس

رواية



دار الآداب ـ بيروت

الحزن العميق

جان بول سارتر / روائي وفيلسوف فرنسي

طبعة عام 2016

ISBN 978-9953-89-522-2

Jean-Paul Sartre

LA MORT DANS L'ÂME

Les Chemins de la liberté, III

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

ص.ب. 4123 ـ 11

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)

فاكس: 009611861633

e-mail: rana@daraladab.com

info@daraladab.com







daraladab.com

القِسم الأوّل

نيويورك، الساعة ٩ ق. ظ. السبت ١٥ حزيران ١٩٤٠

أخطبوط؟ تناول سكّينه، وفتح عينيه، كان ذلك حلمًا. لا، إنَّ الأخطبوط هنا، يجتذبه بأفواهه: الحرّ. إنَّه يرشح عرقًا. لقد نام حوالى الساعة الواحدة؛ وعند الساعة الثانية، أيقظه الحرّ، فقذف نفسه في مغطس بارد، ثم عاد إلى النوم من غير أن يمسح جسمه؛ وبعد ذلك مباشرة، عاد الكور يزفر تحت جلده، وعاد هو يرشح عَرَقًا. وعند الفجر أخذه النوم، فحلم بحريق؛ والآن، كانت الشمس بالتأكيد مرتفعة في السماء، وغوميز ما يزال يرشح: يرشح بلا انقطاع منذ ثمان وأربعين ساعة. وتنهّد قائلاً: «يا إلٰهي!» وهو يُمرّ يده الرطبة على صدره المبتلّ. لم يكن ذلك حرًّا؛ وإنّما كان مَرَضًا في المناخ: كان الهواء مُصابًا بالحمّى، يرشح عَرَقًا، وكان هو يرشح عَرَقًا في العَرَق. عليه أن ينهض، وأن يرشح وهو في قميصه. وانتصب: «أيّ حظّ! ليس لديّ قميص آخر». كان قد بلّل آخر قميص، الأزرق، لأنّه كان مضطرًّا إلى تغيير ثيابه مرَّتين في اليوم. أمّا الآن، فقد انتهى: سيلبس هذه الخرقة الرطبة المنتنة، إلى أن تُعاد الثياب من الغسل. ونهض واقفًا في حيطة، ولكن من غير أن يستطيع تجنّب فيض العرق، كانت القطرات تركض على جانبيه كالقمل،

وكان ذلك يدغدغه. القميص مدعوك، مكسّر في ألف ثنية، على مسند الأريكة. وجسّه: لا شيء يجفّ في هذا البلد القحبة! وكان قلبه يخفق، وفمه متخشّبًا من شدّة الجفاف، حتى كأنّه قد ثمل في ليلة البارحة.

ارتدى بنطاله، واقترب من النافذة فسحب الستائر: في الشارع كان النور أبيض كأنّه الكارثة، ثلاث عشرة ساعة أخرى من النور. ونظر إلى الطريق في ضيق وغضب. الكارثة «نفسها»: هناك، على الأرض الطينيَّة السوداء، تحت الدخان، كان الدم والصراخ؛ وهنا، بين البيوت الصغيرة ذات القرميد الأحمر، كان ثمّة نور، نورٌ فقط وعرق. ولكنّها كانت الكارثة «نفسها». مرّ زنجيّان وهما يضحكان، ودخلت امرأة إلى الصيدليّة. وتنهّد: «يا إلٰهي! يا إلٰهي!» كان ينظر إلى هذه الألوان جميعًا وهي تصرخ: حتى ولو كان لديّ الوقت، حتى ولو كان ذهني صافيًا، فكيف تريدونني أن «أرسم» في هذا النور! وقال: «يا إلٰهي! يا إلٰهي»!

دقّ جرس الباب، فقام غوميز يفتح، إنّه ريتشي.

قال ريتشي وهو يدخل:

ـ هذه عمليّة قتل.

فانتفض غوميز:

ـ ماذا؟

ـ هذا الحرّ: إنّه عمليّة قتل. (وأضاف في عتاب) كيف: ألم ترتد ثيابك؟ إنّ رامون ينتظرنا في الساعة العاشرة.

فهزّ غوميز كتفيه:

ـ لقد نمت متأخِّرًا.

نظر إليه ريتشي وهو يبتسم، فأضاف غوميز بحيويّة:

ـ إنّ الحرّ لا يُطاق، ولا أستطيع أن أنام.

فقال ريتشي بلهجة حليمة:

ـ هكذا يكون كلّ شيء في بداياته. . وسوف تعتاده. (ونظر إليه في

تنبُّه) هل تأخذ أقراص ملح؟

ـ طبعًا، ولكنَّ ذلك لا يحدث عندي أثرًا.

فهزّ ريتشي رأسه، وتلوّنت ملاطفته ببعض القسوة: «فلا بدّ» للأقراص من منع العرق. فإذا لم تكن تؤثّر على غوميز، فلأنّ غوميز «لم يكن» كسائر الناس. وقال ريتشي فجأة وهو يقطّب حاجبيه:

ـ ولكن عجبًا! كان ينبغي أن تكون معتادًا: فالطقس حارّ كذلك في إسبانيا.

وفكّر غوميز في أصباح مدريد الجافّة الفاجعة، وفي ذلك النور الرائع الذي كان كذلك أملاً، فوق «الألكالا»، وهزّ رأسه:

ـ ليس هو الحَرّ نفسه.

ـ قال ريتشي في لهجة اعتزاز:

ـ إنّه أقلّ رطوبة، أليس كذلك؟

ـ نعم. وأكثر إنسانيّة.

وكان ريتشي يحمل جريدة، فمدّ غوميز يده ليتناولها منه، ولكنّه لم يجرؤ، وسقطت اليد، وقال ريتشي بمرح:

ـ إنّه يوم عظيم: عيد «ديلاوار»، أنا من هناك، كما تعلم.

وفتح الجريدة على الصفحة الثالثة عشرة، فرأى غوميز صورة: كان «لاغوارديا» يصافح يد رجل ضخم، وكان كلاهما يضحك في استسلام. وقال ريتشي:

ـ هذا الشخص إلى اليسار، هو حاكم «ديلاوار»، وقد استقبله لاغوارديا أمس في «وورلد هول». وكان استقبالاً عظيمًا.

وكان غوميز يرغب في انتزاع الجريدة منه وفي النظر إلى الصفحة الأولى. ولكنّه فكّر: «خراء!» ودخل غرفة الحمّام، فأجرى في المغطس ماءً باردًا وحلق ذقنه بسرعة. وإذ كان يدخل إلى المغطس، صاح به ريتشي: ـ أين أصبحت؟

ـ لقد أفلست تمامًا. فليس لديَّ بعدُ أيّ قميص، وقد بقي معي ثمانية عشر دولارًا. ثم إنّ مانويل عائد يوم الاثنين، فيجب أن أُعيد له شقتّه.

ولكنّه كان يفكِّر في الجريدة: كان ريتشي يقرأ وهو ينتظره، وقد سمعه غوميز يقلِّب الصفحات. وتجفّف بعناية، ولكن عبثًا: فقد كان الماء يفور في المنشفة. وارتدى وهو يرتعش قميصه الرطب وعاد إلى غرفة النوم.

ـ مباراة عمالقة.

فنظر غوميز إلى ريتشي من غير أن يفهم.

ـ مباراة البيسبول أمس. لقد ربح «العمالقة».

ـ آه، نعم، البيسبول...

وانحنى ليعقد سير حذائه. وكان يجهد، من تحت، لقراءة عناوين الصفحة الأولى، وانتهى إلى السؤال:

ـ وباريس؟

ـ ألم تسمع الراديو؟

ـ ليس لديّ راديو.

قال ريتشي بهدوء: ـ انتهت، صُفِّيت. لقد دخلوها هذه الليلة. واتّجه غوميز نحو النافذة، فألصق جبينه بالزجاج المحرِق، ونظر إلى الشارع، هذه الشمس اللَّامجدية، هذا النهار اللَّامجدي. لن يكون ثمّة بعدُ إلّا نهارات لامجدية. وانفتل، وتداعى للسقوط على سريره.

قال ريتشي: ـ عجِّل، إنّ رامون لا يحبّ الانتظار.

ونهض غوميز ثانية. وكان قميصه قد أصبح للعصر، وذهب يعقد ربطة عنقه أمام المرآة:

ـ هل هو موافق؟

ـ مبدئيًّا، نعم. ستُّون دولارًا في الأسبوع على أن تقدِّم صفحة المعارض. ولكنّه يريد أن يراك.

قال غوميز: ـ سيراني، سيراني.

والتفت فجأة:

ـ إنّني بحاجة إلى سلفة. أتعتقد أنّه سيوافق؟

فهزّ ريتشي كتفيه، وقال بعد لحظة:

ـ قلت له إنّك قادم من إسبانيا، وهو يميل إلى الاعتقاد بأنّك لا تحبّ فرانكو، ولكنّي لم أحدِّثه عن... أمجادك. فلا تذهب لتروي له أنّك كنت جنرالاً: فلا ندري ما الذي يفكِّر به حقًّا.

جنرال! ونظر غوميز إلى بنطاله المتهرِّئ وإلى اللطخات الكالحة التي كان العرق يخلِّفها على قميصه. وقال بمرارة:

ـ لا تخف، فليست لديَّ الرغبة في التباهي بها. إنّني أعرف كم يكلِّفني هنا أن أكون قد حاربت في إسبانيا: فأنا منذ ستّة أشهر بلا عمل.

بدا ريتشي مصدومًا، وأوضح في جفاء:

ـ إنّ الأميركيين لا يحبُّون الحرب.

وألقى غوميز سترته على ذراعه:

ـ هيّا بنا.

فطوى ريتشي جريدته على مَهَل ونهض. وعلى الدرج، سأله:

ـ زوجتك وابنك في باريس؟

فقال غوميز بحيويّة:

ـ أتمنّى ألّا يكونا هناك. أرجو كثيرًا أن تكون سارة من الذكاء بحيث تكون قد هربت إلى مونبلييه.

وأضاف: ـ إنَّ أخبارهما منقطعة عنّي منذ أوَّل حزيران.

قال ريتشي: ـ إذا حصلت على الراتب، أمكنك استقدامهما.

قال غوميز: ـ نعم، نعم. سنرى.

الشارع، بُهرة النوافذ، الشمس على الثكنات الضوية المسطّحة التي لا سقف لها، ذات القرميد المسودّ. وأمام كلّ باب، درجات من الحجر الأبيض؛ ضباب من الحرارة على جانب «الإيست ريفر»، كانت المدينة تبدو داسية. ليس ثمّة ظلّ: وإنّ المرء، في أيٍّ شارع من شوارع العالم، لا يحسّ أنّه في الخارج، بمثل الفظاعة التي يحسّ بها هنا. إنّ إبرًا محمَّرة بالنار تثقب عينيه، رفع يده ليحتمي بها، فالتصق قميصه بجلده. وارتعش:

ـ إنّه لقتلٌ!

قال ريتشي: ـ بالأمس، سقط عجوز مسنّ أمامي: ضربة شمس، (وأضاف) بررر. إنّني لا أحبّ رؤية الأموات.

وفكَّر غوميز: «اذهبْ إلى أوروبا تجد ما يعجبك!».

وأضاف ريتشي:

ـ إنّه على بعد أربعين إشارة. يجب أن نأخذ الباص.

وتوقّفا أمام عمود أصفر. وكانت امرأة شابّة تنتظر. نظرت إليهما بعين متفحِّصة مقطّبة، ثم أولتهما ظهرها. وقال ريتشي بلهجة مدرسيّة:

ـ فتاة جميلة.

قال غوميز بحقد: إنَّ لها مظهر البغيّ.

وكان قد أحسّ، تحت ذلك النظر، بأنّه قذر يرشح عرقًا. ولم تكن هي ترشح؛ وكذلك ريتشي، فقد كان متورِّدًا نضرًا في قميصه الجميل الأبيض، وكان أنفه الأخنس لا يكاد يلمع. يا لغوميز الجميل.. الجنرال الجميل غوميز! وكان الجنرال قد انحنى على عينين زرقاوين، خضراوين، سوداوين، يغشيهما خفقُ أجفان. إنّ البغيَّ لم تكن قد رأت إلّا رجلاً جنوبيًّا قصيرًا يتقاضى خمسين دولارًا في الأسبوع، ويرشح عرقًا في ثوبه المبتذل. «لقد حسبتني من جزيرة داغو»، ومع ذلك، فقد نظر إلى الساقين

الجميلتين الطويلتين، ومسح عرقه. «أربعة أشهر لم أضاجع فيها». من قبل كانت الشهوة شمسًا جافّة في بطنه. أمّا الآن، فإنّ للجنرال الجميل غوميز رغبات خجلة وخاطفة.

وعرض عليه ريتشي:

ـ سيجارة؟

ـ لا. إنّ حلقي يحترق. أفضِّل أن أشرب.

ـ ليس لدينا الوقت.

وربت على كتفه بانزعاج، وقال له:

ـ حاول أن تبتسم.

ـ ماذا؟

ـ حاول أن تبتسم. فإذا رأى رامون هيئتك هذه، فلا شكّ أنّه سيخاف.

وأشار غوميز إشارة لامبالاة، فقال ريتشي بحماسة انطلاقًا من إشارة غوميز:

ـ إنّني لا أطلب منك أن تكون مفرطًا في المجاملة، بل أن تضع على شفتيك، وأنت تدخل، بسمة غير شخصيّة تمامًا، وتنساها عليهما، وفي هذه الأثناء تستطيع أن تفكِّر بما تشاء.

قال غوميز: ـ سأبتسم.

فنظر إليه ريتشي في ملاطفة:

ـ أمن أجل طفلك أنت مهموم؟

ـ لا.

فبذل ريتشي جهدًا مؤلمًا للتفكير:

ـ أمن أجل باريس إذن؟

قال غوميز بعنف: ـ طزْ بباريس!

ـ من الأفضل أن يكونوا قد أخذوها بلا قتال، أليس كذلك؟

فأجاب غوميز بصوت محايد:

ـ كان بوسع الفرنسيِّين أن يدافعوا عنها.

ـ أشكّ في ذلك! مدينة فوق أرض مسطَّحة.

ـ كان بوسعهم أن يدافعوا عنها. لقد قاومت مدريد عامين ونصف العام...

وأضاف ريتشي بحركة مبهمة:

ـ مدريد... ولكن ما جدوى الدفاع عن باريس؟ إنّ هذا في غاية البلادة. كانوا سيهدمون اللوڤر والأوپرا ونوتردام. كلّما قلّت الأضرار، كان الأمر أفضل. (وأضاف في رضى) والآن ستنتهي الحرب بسرعة.

فقال غوميز في سخرية:

وكيف؟ إذا استمرّ العمل بهذه السرعة، سيكون السلم النازيّ بعد ثلاثة أشهر!

قال ريتشي: ـ إنّ السلم ليس ديموقراطيّة ولا نازيّة: إنّه السلم وحسب. أنت تعرف جيِّدًا أنِّي لا أحبّ الهتلريين. ولكنّهم بشر كالآخرين. فحين ينتهي احتلالهم لأوروبا، تبدأ المصاعب أمامهم، وعليهم أن يعتدلوا ويرقّوا. وإذا كانوا عاقلين، تركوا كلّ بلد يحكم نفسه داخل اتّحاد أوروبيّ. شيء قريب من ولاياتنا المتّحدة.

وكان يتحدّث متمهِّلاً وفي جهد. وأضاف:

ـ إذا كان هذا سيمنعكم من القيام بالحرب كلّ عشرين عامًا، فسيبقى ذلك مكسبًا.

ونظر إليه غوميز في غيظ: كان في عينيه الرماديّتين صدق وإخلاص كبيران. كان مرحًا، ويحبّ الإنسانيّة، والأولاد والعصافير والفنّ التجريديّ، وكان يفكِّر بأنّ درهمين من العقل كافيان لحلّ جميع المنازعات. ولم يكن يكنّ كثيرًا من الودّ للمهاجرين ذوي العرق اللاتينيّ،

بل كان أكثر تفاهمًا مع الألمان. «احتلال باريس، ماذا يمثِّل ذلك في نظره؟» وأمال غوميز رأسه ونظر إلى بسطة بائع الجرائد المتعدِّدة الألوان: كان ريتشي يبدو له فجأة شديد القسوة. قال ريتشي:

ـ أنتم الأوروبيين تتشبّثون دائمًا بالرموز. لقد انقضت ثمانية أيّام والناس يعرفون أنّ فرنسا قد هُزمت. صحيح: لقد عشتَ فيها، وخلّفتَ فيها ذكريات، وأنا أفهم أن يُحزنك ذلك. ولكنّ الاستيلاء على باريس، ما عسى ذلك أن يُحدث لديك، ما دامت المدينة سليمة لم تُمسّ؟ إنّنا سنعود إليها في نهاية الحرب.

وأحسّ غوميز نفسه محمولاً بفرح عظيم غاضب، فسأل في صوت مرتجف:

ـ ما يُحدث ذلك لديّ؟ إنّ ذلك يسرّني! حين دخل فرانكو إلى برشلونة، كانوا يهزّون رؤوسهم لامبالين، وكانوا يقولون إنّ ذلك مؤسف، ولكن لم يكن ثمّة من رفع إصبعه الصغير. حسنًا! إنّه الآن دورهم، فليتذوّقوا! (وصاح في صخب الباص الذي وقف إزاء الرصيف) إنّ ذلك يسرّني! إنّ ذلك يسرّني!

وصعدا وراء المرأة الشابّة، وتدبّر غوميز أمره ليرى ساقيها في هذه الأثناء، وظلّا واقفين في المؤخَّرة. سارع رجل ضخم ذو نظّارتين ذهبيّتين بالابتعاد عنهما، ففكَّر غوميز «لا بدّ أنّ رائحتي كريهة». وفي الصف الأخير من المقاعد، كان رجل قد فتح جريدة، فقرأ غوميز من فوق كتفه: «الهتاف لتوسكانيني في ريو حيث يعزف للمرَّة الأولى منذ أربعة وخمسين عامًا» وتحت ذلك: «العرض الأوّل في نيويورك: راي ميلاند ولوريتا يونغ في فيلم «الدكتور يتزوَّج»». وكانت جرائد أخرى، هنا وهناك، تبسط أجنحتها: لاغوارديا يستقبل حاكم ديلاوار، لوريتا يونغ، حريق في الإيلينوا، راي ميلاند، أحبّني زوجي منذ اليوم الذي استعملت فيه مزيل الروائح «بيتش». اشتروا شريسارغيل، مُلّين شهر العسل؛ رجل في منامته

يبتسم لزوجته الشابّة؛ لاغوارديا يبتسم لحاكم ديلاوار، بادي سميث يصرِّح: «لا حلويات «كيك» للقاصرين»، كانوا يقرأون، وكانت الصفحات العريضة البيضاء والسوداء تحدِّثهم عن أنفسهم، عن همومهم وعن مسرّاتهم؛ كانوا يعرفون من هو بادي سميث، ولم يكن غوميز يعرفه؛ وكانوا يقلبون نحو الأرض، ونحو ظهر السائق، أحرف الصفحة الأولى الكبيرة: «سقوط باريس» أو «مونتمارتر تحترق». كانوا يقرأون وكانت الصحف تصرخ بين أيديهم، فلا يسمعونها. وأحسّ غوميز بالشيخوخة والوهن. كانت باريس بعيدة، وكان وحده الذي يهتمّ بها، وسط مئة وخمسين مليون نسمة، إنّها لم تكن بعدُ إلّا همًّا شخصيًّا صغيرًا، لا يكاد يتجاوز في أهمِّيَّته ذلك العطش الذي كان يحرق حلقه. وقال لريتشي:

ـ أعطني الجريدة.

«الألمان يحتلُّون باريس. ضغط نحو الجنوب. سقوط الهاڤر. هجوم من خطّ ماجينو».

كانت الحروف تصرخ، ولكنَّ الزنوج الثلاثة الذين كانوا يتحدّثون خلفه استمرُّوا يضحكون من غير أن يسمعوا.

«الجيش الفرنسي سليم لم يُمسّ، إسبانيا تستولي على طنجة». وبحث الرجل ذو النظّارات الذهبيّة في محفظته بانتظام، فأخرج منها مفتاح «يال» تأمَّله في رضى. وأحسّ غوميز بالخجل، وكانت به رغبة لأن يطوي الجريدة، كما لو أنَّها كانت تتحدَّث على غير حذر عن أشدّ أسراره صميميّة. إنّ هذه الصيحات الهائلة التي كانت تُرعش يديه، هذه النداءات التي تطلب النجدة، هذه الحشرجات، إنّما كانت مجونًا فاحشًا، كعَرَقِهِ، عرق الغريب، وكرائحته تلك القويّة أكثر ممّا ينبغي. «الشكّ في وعود هتلر؛ الرئيس روزفلت لا يصدق؛ الولايات المتّحدة ستفعل ما في استطاعتها من أجل الحلفاء»؛ حكومة جلالته ستفعل ما في استطاعتها من أجل التشيك؛ الفرنسيُّون سيفعلون ما في استطاعتهم من أجل جمهوريّي

إسبانيا. ضمّادات، عقاقير، علب حليب. يا للبؤس! «مظاهرة طلّاب في مدريد للمطالبة بعودة جبل طارق إلى الإسبان». ورأى كلمة مدريد، فلم يستطع المضيّ في القراءة. «حسنًا فعلوا، قذرون! قذرون! فليشعلوا النار بأربعة أركان باريس، وليحيلوها إلى رماد». «تور (من مراسلنا الخاصّ ارشامبو): المعركة مستمرّة، الفرنسيُّون يصرِّحون بأنّ ضغط العدوّ يتناقص: خسائر نازيّة فادحة.

الضغط طبعًا يتناقص، وسوف يتناقص حتى آخر يوم وحتى آخر صحيفة فرنسيّة. خسائر فادحة، كلمات مسكينة، آخر كلمات أملٍ لا تخدع أحدًا. خسائر فاشستيّة فادحة حول تاراغون. الضغط يتناقص. ستقاوم برشلونة... وفي اليوم التالي، كان الفرار الجنونيّ».

«برلين (من مراسلنا الخاصّ بروك بترز): خسرت فرنسا كلّ صناعتها؛ سقطت مونتميدي؛ هجوم اكتساحيّ من خطّ ماجينو؛ العدوّ ينهزم»؛ نشيد مجد، نشيد نحاسيّ، شمس؛ إنّهم يغنُّون في برلين، في مدريد، بأثوابهم العسكريّة؛ برشلونة، مدريد، في ثيابهم العسكريّة؛ برشلونة، مدريد، فالانس، فارصوفيا، باريس؛ وغدًا لندن. وفي تور، كان رجال بسترات سود يركضون في ممرّات الفنادق. لقد أحسنوا صنعًا! لقد أحسنوا صنعًا. فليأخذوا كلّ شيء.. فرنسا، إنكلترا، ولينزلوا في نيويورك، لقد أحسنوا صنعًا!

كان الرجل ذو النظّارات الذهبيّة ينظر إليه، وأحسّ غوميز بالخجل كما لو أنّه صاح. وكان الزنوج يبتسمون، والمرأة الشابَّة تبتسم، وقاطع التذاكر يبتسم.

قال ريتشي وهو يبتسم: ـ لنهبط هنا.

كانت أميركا، على الإعلانات وعلى أغلفة المجلّات، تبتسم.

وفكَّر غوميز في رامون، وأخذ يبتسم. وقال ريتشي:

ـ إنّها الساعة العاشرة، فلن نتأخّر أكثر من خمس دقائق.

الساعة العاشرة، الساعة الثالثة في فرنسا. كان أصيل يوم يختبئ ممتقعًا، بلا أمل، في قعر هذا الصباح الاستعماريّ.

الساعة الثالثة في فرنسا.

قال الرجل: ها نحن في أزمة!

وظلّ متحجِّرًا في مقعده. كانت سارة ترى العرق يسيل على رقبته، وكانت تسمع ضجيج الزمامير.

ـ لقد نفد الوقود!

وفتح الباب، فقفز إلى الطريق وانزرع أمام سيّارته، وكان يتأمّلها برقّة، وقال وهو يكزُّ على أسنانه:

ـ تفه! تفه!

وكان يمرِّر يده على ظهرها المحرق: وسارة تراه، عبر الزجاج، واقفًا تحت السماء المشعَّة، وسط هذا الصخب الهائل؛ كانت السيّارات التي كانوا يتبعونها منذ الصباح تبتعد في غيمة من غبار، وخلفهم كانت أصوات الزمامير والصفّارات والمنبِّهات: صداحٌ لطيور من حديد، وأغنيةُ كراهية وحقد.

وسأل بابلو: ـ لماذا هم غاضبون؟

ـ لأنَّنا نسدُّ عليهم الطريق.

وكانت تودُّ لو تقفز خارج السيّارة، ولكنّ اليأس كان يسحقها على المقعد. رفع الرجل رأسه، وقال في غيظ:

ـ ولكن، انزلا! ألا تسمعانهم؟ ساعداني في دفعها.

فنزلا. وقال الرجل لسارة:

ـ إذهبي إلى الخلف، وادفعي بشدّة.

قال بابلو: ـ أريد أن أدفع أيضًا.

وانحنت سارة بإزاء السيّارة ودفعت بكلّ قواها، وعيناها مغمضتان كأنّها في كابوس. كان العرق يبلّل قميصها: وعبر جفونها المغمضة، كانت الشمس تفقأ عينيها. وفتحتهما: كان الرجل أمامها يدفع بيده اليسرى الملتصقة بالباب، وباليد اليمنى يحرّك المقود؛ وكان بابلو قد قفز إلى واقية الصدم الخلفيّة، وتشبّث بها وهو يطلق صيحات متوحّشة. وقالت سارة:

ـ حذارِ من الانزلاق!

ودرجت السيّارة على هيّنة فوق طرف الطريق، فقال الرجل:

ـ كفى! كفى! حسنًا، كفى.. يا إلٰهي!

وصمتت الزمامير، وعاد النهر يجري. وكانت السيّارات تحاذي السيّارة الواقفة، وعلى زجاجها تلتصق وجوه؛ أحسّت سارة بالاحمرار تحت الأنظار، فاحتمت خلف السيّارة. وأطلّ نحوهما رجل طويل هزيل، من خلف مقود شفروليه وصاح:

ـ يا للفروج القذرة!

سيّارات شحن، عربات شحنٍ صغيرة، سيّارات فخمة، سيّارات تاكسي ذات أعلام سوداء، مركبات. وكانت سارة، كلّما تجاوزتهم سيّارة، تفقد بعض رباطة جأشها، كانت «جيان» تزداد بعدًا. ثم جاء صفّ العربات، وكانت «جيان» ما تفتأ تتقهقر، وهي تصرُّ، وأخيرًا غطّى قار المشاة الأسود الطريق بأكملها، ولجأت سارة إلى جانب الحفرة: كانت الحشود تخيفها. كانوا يسيرون ببطء ومشقّة، ويكسبهم العذاب هيئة عائليّة: وكان لا بدّ لمن يدخل في صفوفهم أن يشبههم رويدًا رويدًا. لا أريد. لا أريد أن أصبح مثلهم. ولم يكونوا لينظروا إليها. كانوا يحيدون عن السيّارة من غير أن ينظروا إليها: فلم تعد لهم بعدُ عيون. وحاذى السيّارة عملاق يرتدي قبّعة، حاملاً حقيبة في كلّ ذراع، فاصطدم على غير هدى بالقضيب الواقي من الوحل، فاستدار على نفسه، ثم استعاد

سيره المترنِّح. وكان ممتقعًا. وعلى إحدى الحقيبتين طوابع متعدِّدة الألوان: إشبيلية، القاهرة، ساراجيفوا، ستريزا.

وصرخت سارة: ـ سيموت من فرط التعب. وسوف يسقط. ولكنّه لم يسقط. وتابعت بعينيها القبّعة ذات الشريط الأحمر والأخضر التي كانت تتأرجح بمرح فوق بحر القبّعات.

ـ خذي حقيبتك وتابعي السير دوني.

فارتعشت سارة من غير أن تجيب: كانت تنظر إلى الحشود بنفور مذعور.

ـ ألا تسمعين ما أقوله لك؟

فالتفتت إليه:

ـ أليس من الممكن انتظار سيّارة وطلب صفيحة وقود منها؟ فلا بدّ أن تأتي سيّارات بعد المشاة.

فابتسم الرجل بسمة خبيثة:

ـ أنصحك أن تجرِّبي.

ـ ولِمَ لا؟ لماذا لا نجرِّب؟

فبصق باحتقار، وظلّ لحظة من غير أن يجيب. وقال أخيرًا:

ـ ألم تريهم إذن؟ إنّهم يتدافعون بالمؤخِّرات: فكيف تريدين أن يقفوا.

ـ ولكن إذا وجدت وقودًا؟

ـ أقول لكِ إنّك لن تجدي. أتظنّين أنّهم سيفقدون صفّهم من أجلك؟ (وأشار إليها بإصبعه وهو يقهقه) لو كنتِ صبيّة جميلة ما تزالين في العشرين من عمرك، لما قلتُ لا.

فتظاهرت سارة بأنّها لم تسمع، وألحَّت:

ـ ولكن، إفرض مع ذلك أنّي وجدت لك وقودًا؟

فهزّ رأسه بهيئة عنيدة:

ـ لا فائدة. فأنا لن أذهب أبعد من هذا. حتى ولو وجدتِ لي عشرين ليترًا، بل حتى لو وجدتِ مئة ليتر. لقد فهمت.

وشبك ذراعيه، وأضاف بقسوة:

ـ هل تدركين ما أفعل؟ إنّي أقف، وأقلع، وأمشي كلّ عشرين مترًا. أغيِّر السرعة مئة مرَّة في الساعة: هذا ما يناسب السيّارات تمامًا!

وكانت على الزجاج لطخات سمراء. فأخرج منديله ومسحها في ملاطفة.

ـ ما كان ينبغي لي أن أستسلم للخروج.

قالت سارة: ـ لم يكن عليك إلَّا أن تأخذ وقودًا كافيًا.

فهزّ رأسه من غير أن يجيب، وكانت بها رغبة لأن تخمشه، ولكنّها تماسكت، وقالت بصوت هادئ:

ـ وإذن! فماذا تفعل؟

ـ أبقى هنا وأنتظر.

ـ تنتظر ماذا؟

فلم يجب، فتناولت قبضة يده وشدّت عليها بكلّ قواها:

ـ أتدري ماذا يحدث لك إذا بقيت هنا؟ إنَّ الألمان سينفون جميع الرجال الأصحّاء.

ـ بالتأكيد! وسيقطعون يديْ صبيِّك، ويقفزون عليك إذا جرؤوا! إنّ هذا كلّه خلط: فليسوا هم بالتأكيد على ربع ما يُقال عنهم من الشرّ.

وكان حلق سارة جافًّا وشفتاها ترتجفان. وقالت بصوت أبيض:

ـ حسنًا. أين نحن الآن؟

ـ على بُعد أربعة وعشرين كيلومترًا من «جيان».

«أربعة وعشرون كيلومترًا! وليكن، ومع ذلك لن أبكي أمام هذا الوحش».

ودخلت إلى السيّارة فتناولت حقيبتها وخرجت، ثم أخذت بابلو من يده:

ـ تعال يا بابلو.

ـ إلى أين؟

ـ إلى جيان.

ـ هل هي بعيدة؟

ـ بعض الشيء. ولكنِّي سأحملك حين تتعب (وأضافت بتحدٍّ) ثم إنّنا سنجد بالتأكيد رجالاً طيّبين يساعدوننا.

وانزرع الرجل أمامهما، فسدّ عليهما الطريق. وكان يقطِّب حاجبيه ويحكّ رأسه بهيئة حائرة. وسألته سارة بجفاء:

ـ ماذا تريد؟

ولم يكن يدري ما يريد. وكان ينقل نظره بين سارة وبابلو، كأنّما كان يبحث عن شيء. وقال في ثقة:

ـ وإذن؟ أنتما ذاهبان؟ هكذا، حتى بلا كلمة شكر؟

قالت سارة على عجل: ـ شكرًا، شكرًا.

وكان الرجل قد وجد ما كان يبحث عنه: الغضب. فغضب واحمرّ وجهه:

ـ والمئتا فرنك، أين هي؟

قالت سارة: ـ لستُ مدينة لك بشيء.

ـ ألم تعدي بمئتي فرنك؟ هذا الصباح بالذات؟ في مولين؟ في مرأبي؟

ـ نعم، إذا كنت ستقودني إلى جيان: ولكنّك تتركني مع صبيٍّ في منتصف الطريق!

ـ لست أنا الذي أتركك، وإنّما هي السيّارة.

نفض رأسه فانتفخت عروق صدغيه. وكانت عيناه تلتمعان، وبدا مسرورًا، ولم تكن سارة خائفة منه:

ـ أريد المئتي فرنك.

وفتّشت في محفظتها:

ـ هذه مئة فرنك. إنّني لست مدينة لك بها، وأنت لا شكّ أغنى منّي، وإنّما أعطيك إيّاها تفاديًا للنزاع.

فتناول الورقة الماليّة ووضعها في جيبه، ثم مدّ يده مرة أخرى. وكان شديد الإحمرار بفمه الفاغر وعينيه المتأمّلتين:

ـ يبقى لي معك مئة فرنك أخرى.

ـ لن تحصل على درهم واحد بعد. دعني أمرّ.

ولم يكن يتحرَّك، كأنّما هو فريسة نفسه. إنّه لا يريدها حقًّا، المئة فرنك هذه. إنّه لا يعرف ماذا يريد: ربّما كان يريد أن يعانقه الصغير قبل أن يذهب، إنّه يترجم هذا بلغته. واقترب منها، فحزرت بأنّه يريد أن يأخذ الحقيبة.

ـ لا تلمسني.

ـ أريد المئة فرنك، وإلّا أخذت الحقيبة.

وكان أحدهما ينظر في عينيٍّ الآخر. لم تكن به رغبة على الإطلاق لأخذ الحقيبة، كان هذا أمرًا واضحًا، وكانت سارة تعبةً جدًّا، حتى إنّها كانت مستعدّة بكلّ رضى أن تتركها له. ولكن كان لا بدّ الآن من تمثيل الفصل حتى النهاية. وتردّدا كما لو أنّهما لم يكونا يتذكّران دوريهما، ثم قالت سارة:

ـ حاول إذن أن تأخذها! حاول!

فتناول الحقيبة من حمّالتها وأخذ يشدّ. وكان بوسعه أن ينتزعها منها بجذبة واحدة، ولكنّه كان يكتفي بالشدّ وهو يصرف رأسه؛ وجذبت سارة من جهتها، فأخذ بابلو يبكي. وكان قطيع المشاة قد ابتعد، وصف

السيّارات قد عاد إلى الظهور. أحسَّت سارة بأنّها في وضع مضحك، فجذبت الحقيبة بعنف، وجذب هو جذبًا أقوى فانتزعها منها. ونظر إلى سارة وإلى الحقيبة في دهشة؛ لعلّه لم يرد قطّ أن يأخذها، ولكن هذا أصبح الآن واقعًا: كانت الحقيبة في يده.

قالت سارة: ـ أعد لي هذه الحقيبة.

ولم يكن يُجيب، كان يبدو في هيئة بلاهة وعناد. استخفّ الغضب بسارة وقذفها باتّجاه السيّارات، فصاحت:

ـ السارق!

وكانت سيّارة بويك طويلة سوداء تمرّ أمامهم. فقال الرجل:

ـ هيّا، بلا مشاكل!

وقبض على كتفها، ولكنَّها تخلّصت، وكانت الكلمات والحركات تخرج منها في يسر ودقّة. وقفزت على مصعد البويك فتشبّثت بمقبض الباب.

ـ السارق! السارق!

وانبثقت من السيّارة ذراع دفعتها:

ـ انزلي، ستقتلين نفسك.

وكانت تحسّ أنّها تُجنّ: وكان ذلك لذيذًا. وصاحت:

ـ قف! السارق! النجدة!

ـ ولكن آن لكِ أن تنزلي! كيف تريدين أن أقف؟ إذا وقفتُ تعرقل السير.

فانحسر غضب سارة، وقفزت على الأرض، فتعثّرت. ولكنّ صاحب المرآب تلقّاها وأوقفها. وكان بابلو يصرخ ويبكي. كانت الحفلة قد انتهت: وكانت سارة راغبة في الموت. بحثت في محفظتها فأخرجت مئة فرنك:

ـ خذ! ستشعر بالخجل عمّا قليل!

وأخذ الرجل الورقة الماليّة من غير أن يرفع عينيه وترك الحقيبة.

ـ والآن، دعنا نمرّ.

فابتعد، وكان بابلو ما يزال يبكي. وقالت، في غير ما رقّة:

ـ لا تبكِ يا بابلو، هيّا، لقد انتهينا، ونحن ذاهبان.

وابتعدا. وتمتم الرجل خلفهما:

ـ من الذي كان سيدفع لي ثمن الوقود؟

وكان النمل الطويل المعتم يغطّي الطريق كلّها، وحاولت سارة لحظة أن تمشي بينها، ولكن زعيق الزمامير عاد يُلقي بها في الحفرة.

ـ إمشِ ورائي.

ولَوَتْ قدمها، فتوقّفت.

ـ إجلس.

وجلسا في العشب. كانت الحشرات تزحف أمامهما، هائلة، بطيئة، عجيبة، وكان هو يوليهما ظهره، وهو ما يزال يضغط بيده على المئة الفرنك اللّامجدية، وكانت السيّارات تصرّ كأنّها سرطان البحر، تغنّي كأنّها صراصير. لقد بُدِّل البشر حشرات.. وكانت خائفة.

قال بابلو: ـ إنّه شرِّير، شرِّير، شرِّير!

قالت سارة بحماسة: ـ ليس ثمّة من هو شرِّير.

ـ لماذا أخذ الحقيبة إذن؟

قالت: ـ كان خائفًا.

وسأل بابلو: ـ ماذا ننتظر؟

ـ أن تمرّ السيّارات لنستطيع أن نسير على الطريق.

أربعة وعشرون كيلومترًا. إنّ الصغير يستطيع أن يمشي منها ثمانية على الأكثر. وفجأة، رقيت التلّة ولوَّحت بيدها. وكانت السيّارات تمرُّ

أمامها، وهي تحسُّ نفسها «مرئيّة» بعيون مختبئة، بعيون ذباب ونمل غريبة.

ـ ماذا تفعلين يا ماما؟

قالت سارة بمرارة: ـ لا شيء. حماقات.

وعادت فهبطت إلى الحفرة، فأخذت يد بابلو وراحا ينظران إلى الطريق في صمت. الطريق والظهور السلحفائيّة التي تجرجر نفسها فوقها. جيان، أربعة وعشرون كيلومترًا. بعد جيان، نيفر، ليموج، بوردو، هنداي، في هنداي القنصليّات والمساعي والانتظارات المذلّة في المكاتب. ستكون محظوظة جدًّا إذا وجدت قطارًا إلى لشبونة.

وستكون معجزة إذا وجدت في لشبونة باخرة إلى نيويورك. وفي نيويورك؟ إنّ غوميز لا يملك فلسًا، وربّما كان يعيش مع امرأة؛ سيكون ذلك مصيبة وعارًا حتى النهاية. سيفضّ البرقيّة ويقول: «تفه: ويلتفت نحو شقراء سمينة ذات شفتين وحشيّتين تدخّن سيكارة، فيقول لها: «إنّ زوجتي عائدة، فما أقساها ضربة!» إنّه على المحطّة، والآخرون يلوّحون بمناديلهم؛ أمّا هو فلا يلوّح بمنديله، وإنّما ينظر إلى العبّارة نظرة استياء.

وفكّرت: «ها! ها! لو كنت وحدي لما سمعتَ من أخباري بعدُ شيئًا؛ ولكن ينبغي أن أعيش لأربّي الطفل الذي أولدتَني إيّاه».

وكانت السيّارات قد اختفت، فظلّت الطريق خالية. وفي الطرف الآخر من الطريق كان ثمّة حقول صفراء وتلال. ومرّ رجل يركب درّاجة، وكان ممتقعًا يرشح عَرَقًا؛ يحرِّك رجليه في وحشيّة.

نظر إلى سارة في شرود وصاح من غير أن يقف:

ـ إنَّ باريس تشتعل. قنابل محرقة.

ـ ماذا؟

ولكن كان قد لحق بسلسلة السيّارات، ورأته يتعلّق بمؤخِّرة سيّارة رينو. باريس تشتعل. ما جدوى العيش؟ ولماذا تراني أحمي حياة هذا

الصغير؟ أَلِكَي يتيه من بلد إلى بلد، مذعورًا يائسًا؟ أَلِكَي يمضغ طوال نصف قرن اللعنة التي تثقل على بني جنسه؟ أَلِكَي يموت وهو في العشرين على طريق مقصوفة بالرشّاشات، وهو يمسك أمعاءه بيديه؟ بأبيك ستكون معتزًّا، شهوانيًّا وشرِّيرًا. أمّا بي، فستكون يهوديًّا! وتناولت يده...

ـ هيّا، تعال، لقد آن الآوان.

واكتسح الحشد الطريق والحقول، كثيفًا، عنيدًا، لا تمكن تهدئته: إنّه طوفان. ليس من ضجّة سوى احتكاك النعال الهامسة بالأرض. وغمرت سارة لحظة ضيق، فأرادت أن تهرب إلى الحقول، ولكنّها تمالكت نفسها، وأخذت بابلو تجرّه مستسلمة. الرائحة. رائحة الرجال حارّة، آسنة، مكبرتة، حامزة، معطَّرة. رائحة غير طبيعيّة لحيوانات تفكِّر. وبين رقبتين حمراوين كانتا تحتميان بطاقيَّتيْن، رأت السيّارات الأخيرة تنسلُّ في البعيد، وتنسلُّ الآمال الأخيرة. وأخذ بابلو يضحك، فانتفضت سارة، وقالت وهي تحسُّ الخجل:

ـ هس. يجب ألَّا تضحك.

وكان ما يزال يضحك، من غير أن يحدث صوتًا.

ـ لماذا تضحك؟

فأجاب موضحًا: ـ إنّ ذلك يشبه الدفن.

وكانت سارة تحدس بوجوه وعيون، إلى يمينها وإلى يسارها، ولكنّها لم تكن تجرؤ على النظر إليها. كانوا يسيرون، يصرّون على السير كما تصرُّ هي على العيش: وكانت جدران من غبار ترتفع وتهوي عليهم، وهم يسيرون أبدًا. كانت سارة مستقيمة مرفوعة الرأس، تحدِّق نظرها بعيدًا، بين الرقاب، وتردِّد لنفسها: «لن أصبح مثلهم!» ولكن بعد لحظة، اخترقها هذا السير الجماعيّ، وصعد من ساقيها إلى بطنها. وأخذ يخفق فيها كقلب كبير مقسور، قلب «الجميع».

وسأل بابلو فجأة: ـ هل يقتلنا النازيُّون إذا أخذونا؟

قالت سارة: ـ هس! لا أدري.

ـ سيقتلون جميع الناس الموجودين هنا؟

ـ ولكن اسكت، أقول لك إنّي لا أدري.

ـ يجب إذن أن نركض.

وشدّت سارة على يده.

ـ لا تركض، إبق هنا، إنّهم لن يقتلونا.

وإلى يسارها، كان ثمّة نَفس خشن. كانت تسمعه منذ خمس دقائق، من غير أن تتنبّه إليه. وقد انسلّ فيها، وأقام في رئتيها، وأصبح «نَفَسها» هي. أدارت رأسها، فرأت امرأة عجوزًا ذات خصلات رماديّة كان العرق يدبّقها. وكانت عجوزًا من المدن، ذات خدَّين أبيضين وجيوب مائيّة تحت العينين، وكانت تزفر. ولا بدّ أنّها قد عاشت ستّين عامًا في باحة بـ «مونتروج»، في بيت تابع لدكّان بـ «كليشي»، أمّا الآن، فقد تركوها في الطرق، وكانت تشدّ على خاصرتها حزمة مستطيلة الشكل، وكانت كلّ خطوة تخطوها سقوطًا: كانت تسقط بقدم على الأخرى، ورأسها يسقط في الوقت نفسه: «من الذي نصحها أن ترحل، وهي في تلك السنّ؟ أَلَا يكفي الناس ما يعانونه من شقاء حتى يذهبوا إلى اختراع المزيد منه؟» كانت الطيبة تصعد في ثدييها كأنّها الحليب: سوف أساعدها، سآخذ منها حزمتها، وتعبها، وهمومها. وسألت في رقّة:

ـ هل أنت وحيدة، يا سيّدتي؟

فلم تُدر العجوز حتى رأسها، فقالت سارة بصوت أعلى:

ـ يا سيّدتي! هل أنتِ وحدك؟

فنظرت إليها العجوز نظرة مطفأة. وقالت سارة:

ـ أستطيع أن أحمل حزمتك.

انتظرت لحظة، وكانت تنظر إلى الحزمة في شهوة. وأضافت بصوت ملحّ:

ـ أعطيني إيّاها، أرجوكِ: فسأحملها ما دام الصغير يستطيع المشي.

قالت العجوز: ـ إنّني لا أعطي حزمتي.

ـ ولكنّكِ مرهقة، ولن تستطيعي المضيَّ حتى النهاية.

فقذفتها العجوز بنظرة حاقدة، وحادت خطوة وأجابت:

ـ إنّني لا أعطي أحدًا حزمتي.

فتنهَّدت سارة وصمتت. وكانت طيبتها التي لم تنفقها تملأها كأنّها غاز. إنّهم لا يريدون أن نحبّهم. وكانت بضعة رؤوس استدارات نحوها، فاحمرّت خجلاً. إنّهم لا يريدون أن نحبَّهم، فهم لم يألفوا ذلك.

ـ ألا يزال المكان بعيدًا، يا ماما؟

فأجابت سارة منزعجة: ـ مثل ما كان تقريبًا منذ حين.

ـ إحمليني يا ماما.

فهزّت سارة كتفيها: «إنّه يمثِّل.. لقد غار لأنّي أردت أن أحمل حزمة العجوز».

ـ جرِّب أن تمشي قليلاً بعد.

ـ لا أستطيع بعد، يا ماما. إحمليني.

فتركت يده في غضب، سوف يأخذ منّي كلّ قواي، ولن أستطيع بعد أن أساعد أحدًا. سوف تحمل الصغير، كما تحمل العجوز حزمتها، وستصبح شبيهة بهم.

وقال يضرب برجله الأرض:

ـ إحمليني. إحمليني.

فهمست بقسوة: ـ إنّك لم تتعب بعد، يا بابلو، فقد خرجت لتوِّك من السيّارة.

أخذ الصغير ينطنط، وكانت سارة تمشي رافعة الرأس، جاهدة ألَّا تفكِّر به، وبعد لحظة، رمته بنظرة مواربة فرأت أنّه كان يبكي. كان يبكي

بهدوء، في غير ما صوت، لنفسه وحدها، وكان بين الفينة والفينة يرفع أصابعه الصغيرة ليسحق الدموع على وجنتيه. واستشعرت الخجل، وفكَّرت: «إنّني مفرطة القسوة. طيّبة مع الجميع بدافع الفخر، قاسية معه لأنّه لي». كانت تعطي نفسها للجميع وتنسى نفسها، تنسى أنّها كانت يهوديّة، وأنّها هي نفسها مضطَّهدة، وكانت تهرب إلى إحسان عظيم غير ذاتيّ. وفي تلك اللحظات، كانت تحتقر بابلو لأنّه كان لحم لحمها وأنَّه يعكس لها جنسها. ووضعت يدها الكبيرة على رأس الصغير، وفكَّرت: «ليس الذنب ذنبك إن كان لك وجه أبيك وجنس أمّك». وكانت حشرجة العجوز الصافرة تدخل رئتيها. «ليس لي الحقّ بأن أكون كريمة»، ونقلت حقيبتها إلى يدها اليسرى وجثت، وهي تقول بمرح:

ـ ضع ذراعيك حول عنقي، وخفِّف جسمك.. هوبْ؟ إنّني أرفعك.

وكان ثقيلاً، ويضحك بملء فمه، وكانت الشمس تجفِّف دموعه، لقد أصبحت شبيهة بالآخرين، واحدًا من القطيع، وكانت ألسنة من نار تلحس رئتيها لدى كلّ زفرة، كان ألم حادّ ينشر كتفها، وتعب ليس هو بالسخيّ ولا بالمراد يخفق في صدرها كالطبل. تعب امرأة وتعب يهوديّة، «تعبها»، «قَدَرُها» وامّحى الأمل. إنّها لن تصل أبدًا إلى «جيان». لا هي ولا أحد. لم يكن لأحد أمل، لا العجوز، ولا الرقبتان ذواتا القبّعتين، ولا الزوجان اللذان كانا يدفعان درّاجة منفرجة العجلتين. ولكنّنا مأخوذون في الجمع، والجمع يمشي ونحن نمشي. إنّنا لسنا بعد إلَّا أرجل هذه الحشرات التي لا تنفد. فما جدوى السير إذ يكون الأمل ميتًا؟ ما جدوى الحياة؟

وحين بدأوا يصرخون، لم تكد تُدهش، وتوقّفت، بينما كانوا يتبدّدون ويقفزون على التلال وينبطحون في الحفر. وتركت محفظتها تسقط، وظلَّت في وسط الطريق، مستقيمة، وحيدة، معتزّة. كانت تسمع هدير السماء، وتنظر عند قدميها إلى ظلِّها الذي أصبح طويلاً، وكانت

تشدّ بابلو إلى صدرها، وامتلأت أذناها صخبًا وضجيجًا، وبدتْ، للحظة، كائنًا ميِّتًا. ولكنَّ الهدير تناقص، ورأت شراغيف تجري في ماء السماء، وخرج الناس من الحفر، وكان لا بدَّ من العودة إلى الحياة وإلى السير.

قال ريتشي: ـ إنّه بالإجمال لم يكن لئيمًا: فقد دعانا للغداء وأعطاك مئة دولار مسبقًا.

فقال غوميز: ـ نعم! صحيح..

وكانا في الطابق الأرضي من «متحف الفنّ الحديث» في قاعة «المعروضات الموقّتة». وكان غوميز يولي ريتشي واللوحات ظهره، مسندًا جبينه إلى الزجاج، ينظر في الخارج إلى الزفت وإلى عشب الجنينة الدقيق. وقال من غير أن يلتفت:

ـ ربّما كان في استطاعتي الآن أن أفكِّر بشيء آخر غير طعامي.

فقال ريتشي في طيبة:

ـ لا بدّ أنّك مسرور تمامًا.

وكانت تلك دعوة خفيّة: لقد وجدت عملاً، فكلّ شيء على خير ما يرام، في خير العوالم، ويحسن بك أن تظهر حماسة بنّاءة.

ورمى غوميز من فوق كتفه نظرة معتمة لريتشي: مسرور؟ إنّك أنت المسرور، لأنّك لن تحملني بعدُ على ظهرك.

وكان يحسُّ أنّه عاقّ إلى أبعد الحدود الممكنة، وقال:

ـ مسرور؟ سوف نرى.

فقسا وجه ريتشي قليلاً:

ـ أَلست مسرورًا؟

فردّد غوميز وهو يقهقه:

ـ سوف نرى.

وترك جبينه يتداعى ثانية على الزجاج، ونظر إلى العشب في مزيج من الطمع والنفور. كانت الألوان قد تركته حتى ذلك الصباح هادئًا، ولله الحمد: كان قد دفن ذكريات ذلك الزمن الذي كان يتيه فيه عبر شوارع باريس، موسوَسًا مأخوذًا، مسعور الكبرياء أمام قَدره، ومردِّدًا مئة مرّة في اليوم: إنّني رسّام. ولكن رامون كان قد أعطى المال، وكان غوميز قد شرب خمرة «شيلي هوايت» وتحدّث عن بيكاسو للمرّة الأولى منذ ثلاثة أعوام. وكان رامون قد قال: «بعد بيكاسو، لا أدري ما يمكن لرسَّام أن يفعل». فابتسم غوميز، وقال: «أما أنا، فأدري». وكانت شعلة جافّة قد انتعشت في قلبه. وإذ خرج من المطعم، أحسّ كما لو أنّه قد أُجريت له عمليّة السادة[1]: فجميع الألوان كانت قد أضاءت في الوقت نفسه تدعوه للعيد، كما في عام ٢٩. كان مهرجان «رودوت» الراقص، و«الكارنڤال»، و«الفانتازيا»؛ وكان الناس والأشياء قد احتقنت ألوانهم؛ فكان بنفسج ثوبٍ ما يتحوَّلُ إلى عقيق، وباب دكّان أحمر يميل إلى القرمز؛ كانت الألوان تخفق خفقانًا شديدًا في الأشياء، كأنّها نبضات مجنونة؛ كانت انطلاقات واهتزازات تتضخّم حتى الانفجار؛ والأشياء على وشك أن تتحطّم أو تسقط هامدة؛ وكان الجميع يصيح ويشتم، فكأنّها السوق الحافلة. وكان غوميز قد رفع كتفيه: إنّ الألوان تُعاد إليه وقد كفّ عن الإيمان بقدره؛ إنّ ما ينبغي أن يُعمل، أعرفه جيِّدًا، ولكن سيقوم به شخص آخر. وكان قد تعلّق بذراع ريتشي، وحثَّ خطاه، محدِّد البصر، ولكنّ الألوان ترهقه من جانب، وتنفجر في عينيه ككرات من دم وصفراء. وكان ريتشي قد دفعه في المتحف، وها هو الآن هنا؛ وهناك تلك الخضرة، من الجانب الآخر من الزجاج، هذه الخضرة الطبيعيّة المبهمة التي لم تكتمل، كأنّها إفراز عضويّ شبيه بالعسل، أو بالحليب الطبيعيّ.

---

(١) الماء الأزرق في العين.

وثمّة تلك الخضرة التي ينبغي أن تؤخذ: سوف أجتذبها وأحيلها إلى التوهُّج.. وما عساني أفعل بها: لقد كففت عن الرسم. وتنهَّد: إنّ الناقد الفنِّي لا يُؤجَّر على عمله ليهتمّ بالعشب المجنون، وإنّما هو يفكِّر في أفكار الآخرين. وخلفه كانت ألوان الآخرين تتمدَّد على اللوحات: مقتطفات، وجواهر، وأفكارًا. لقد حظيت تلك الألوان بأن تصل، فنُفخت ودُفعت إلى أقصى حدود نفسها، وقد حقّقت قدرها، فليس ثمّة بعدُ إلّا أن تُحفظ في المتاحف. ألوان الآخرين: إنّها الآن نصيبه. وقال:

ـ اسمع، يجب أن أكسبها، المئة دولار.

والتفت: كان ثمّة خمسون لوحة «لموردريان» على جدران هذه العيادة البيضاء: رسم معقَّم في قاعة مكيَّفة؛ ليس ثمّة ما هو مريب؛ إنّ المرء بمنجى من الميكروبات والعواطف المهووسة. واقترب من لوحة، فتأمّلها مطوَّلاً. وكان ريتشي يرقب وجه غوميز ويبتسم مقدّمًا. وتمتم غوميز:

ـ إنّها لا توحي لي بشيء.

فكفّ ريتشي عن الابتسام، ولكنّه بدا متفهِّمًا جدًّا، فقال في لباقة:

ـ طبعًا، ليس من الممكن أن تستعيد حسّك الفنِّي على الفور، بل ينبغي أن تمارسه من جديد.

فردّد غوميز مغتاظًا:

ـ أمارسه من جديد؟ لا بصدد «هذه».

وأدار ريتشي رأسه نحو اللوحة. كان خطّ عمودي أسود يقطعه خطّان أفقيّان، يرتفع على أرضيّة رماديّة، وكان الطرف الأيسر للخطّ الأعلى تكلِّله أسطوانة زرقاء.

ـ كنت أحسب أنّك تحبّ موردريان.

قال غوميز: ـ وأنا أيضًا كنت أحسب ذلك.

وتوقّفا أمام لوحة أخرى؛ وكان غوميز ينظر إليها محاولاً أن «يتذكّر». وسأله ريتشي في قلق:

ـ أَمِنَ الضروريّ حقًّا أن تكتب عنها؟

ـ ليس ذلك ضروريًّا. لا. ولكنَّ رامون يريد أن أكرِّس له مقالي الأوّل. وأعتقد أنَّه يجد في ذلك ما يوحي بالجدّ.

قال ريتشي: ـ كن حكيمًا، ولا تبدأ بنقد شديد.

فسأل غوميز منتفضًا: ولِمَ لا؟

ابتسم ريتشي في سخرية هادئة:

ـ واضح أنّك لا تعرف الجمهور الأميركيّ، إنَّه لا يريد خصوصًا أن يُذعر. إبدأ بتحقيق شهرة لنفسك: قل أشياء بسيطة ومعقولة، وقلها بطريقة سلِسة. وإذا أصررت على مهاجمة أحد، فلا تختر على كلّ حال موندريان: إنَّه إلٰهنا.

قال غوميز: ـ عجبًا. إنَّه لا يثير قضيّة.

فهزّ ريتشي رأسه وطقطق بلسانه مرّات ـ علامة المعارضة، وقال:

ـ بل هو يثير قضايا كثيرة.

ـ نعم، ولكنّها ليست قضايا مزعجة.

قال ريتشي: ـ آه، تعني قضايا حول الجنسيّة، أو معنى الحياة أو الفقر؟ صحيحٌ أنّك تلقَّيت دروسك في ألمانيا.

وأضاف وهو يربت على كتفه:

ـ «الغروندليشكايت»؟ أليس كذلك؟ ألا ترى أنّ زمن ذلك قد ولّى؟!

فلم يجب غوميز.

وقال ريتشي: ـ رأيي هو أنّ الفنّ لم يُجعل ليطرح قضايا مزعجة. افرضْ أنّ أحدًا جاء يسألني إن كنت قد اشتهيت أمّي: إنّني أسارع بطرده، إلّا أن يكون محقِّقًا علميًّا. ففي هذه الظروف، لا أفهم لماذا يسمح للرسّامين أن يسألوني علنًا عن عُقَدي. وأضاف (بلهجة مصالحة) إنّني

كسائر البشر، ولي مشكلتي، غير أنَّها إذا أرهقتني فلا أقصد المتحف، بل أتّصل بعالم نفسيّ. فلكلٍّ مهنته: إنّ العالِم النفسيّ يوحي لي بالثقة، لأنَّه قد سبق له أن درس نفسيّته بالذات. وما لم يفعل الرسّامون مثل ذلك، فسيظلُّون يتحدّثون عن كلّ شيء خبط عشواء، ولن أطلب منهم أن يضعوني تجاه نفسي.

وسأله غوميز في شرود:

ـ وماذا تطلب منهم؟

وكان يرقب اللوحة في عناد شرس، ويفكِّر: «إنّه ماء رائق». وقال ريتشي:

ـ إنّني أطلب منهم البراءة. فهذه اللوحة..

ـ ما بها؟

فقال في نشوة: ـ إنّها ساروفيميّة. إنّنا، نحن الأميركيّين، نريد رسمًا للبشر السعداء أو الذين يحاولون أن يكونوا سعداء.

قال غوميز: ـ أنا لست سعيدًا، وسأكون قذرًا جبانًا إن حاولت أن أكونه حين يكون جميع رفاقي في السجن، أو أُعدموا رميًا بالرصاص.

وطقطق لسان ريتشي من جديد، وقال:

ـ إنّني يا عزيزي أفهم جيِّدًا همومك كإنسان. الفاشيّة، هزيمة الحلفاء، إسبانيا، زوجتك، طفلك: بكلّ تأكيد! ولكن يحسن أحيانًا الارتفاع فوق هذا.

قال غوميز: ـ لن أفعل ذلك لحظة واحدة! لحظة واحدة!

فاحمرّ ريتشي بعض الشيء، وسأله مجروحًا:

ـ ما الذي كنت ترسم إذن؟ إضرابات؟ مجازر؟ رأسماليين يرتدون قبّعاتهم؟ جنودًا يطلقون النار على الشعب؟

فابتسم غوميز:

ـ أنت تعلم أنّي لم أؤمن قطّ إيمانًا كبيرًا بالفنّ الثوري. والآن،

كففت عن الإيمان به تمامًا.

قال ريتشي: ـ وإذن؟ نحن على اتّفاق.

ـ ربّما. ولكنّني في الوقت نفسه أتساءل عمّا إذا لم أكفّ عن الإيمان بالفنّ إطلاقًا.

ـ فسأله ريتشي: ـ وبالثورة إطلاقًا؟

فلم يجب غوميز، واستعاد ريتشي بسمته:

ـ أنتم المثقّفين الأوروبيين، تسلّونني.. إنّكم تشعرون بعقدة نقص تجاه «العمل».

فالتفت غوميز فجأة وأمسك بذراع ريتشي، قائلاً:

ـ تعال! لقد رأيتهم بما فيه الكفاية. إنّني أعرف موندريان عن ظهر قلب، وبوسعي أن أخربش مقالاً.. فلنصعد.

ـ إلى أين؟

ـ إلى الطابق الأوّل. أريد أن أرى الآخرين.

ـ أيَّ آخرين؟

وكانا يجتازان قاعات العرض الثلاث. وغوميز يدفع ريتشي أمامه من غير أن ينظر إلى شيء. ردّد ريتشي في انزعاج:

ـ أيَّ آخرين؟

ـ جميع الآخرين. كلي، روو، بيكاسُّو: أولئك الذين يطرحون قضايا مزعجة.

وكانا عند أسفل السلّم. توقَّف غوميز. نظر إلى ريتشي في ارتباك، وقال بما يشبه الخجل:

ـ إنّها اللوحات الأولى التي أراها منذ عام الـ ٣٦.

فردّد ريتشي مشدوهًا: ـ منذ الـ ٣٦؟

ـ إنّما سافرت إلى إسبانيا في تلك السنة بالذات، وكنت في تلك

الفترة أنقش الصور على النحاس. وهناك صورة لم يتح لي أن أنجزها، وهي باقية على طاولتي.

ـ منذ الـ ٣٦؟ ولكن في مدريد؟ لوحات «البرادو»؟

ـ لقد نُهبت وأُخفيت وبُعثرت.

فهزّ ريتشي رأسه:

ـ لا بدّ أنّك تألّمت كثيرًا.

فضحك غوميز ضحكًا خشنًا، وقال: ـ كلّا.

فتلوّنت دهشة ريتشي بالعتاب:

ـ أنا شخصيًّا لم ألمس قطّ فرشاة، ولكن «يجب» أن أذهب إلى جميع المعارض: فهذه حاجة. فكيف يستطيع رسّام أن يبقى أربعة أعوام من غير أن يرى رسمًا؟

قال غوميز: ـ انتظر، انتظر قليلاً! فسأعرف بعد دقيقة إن كنتُ ما أزال رسّامًا.

ورقيا السلّم فدلفا إلى القاعة. وكانت على الجدار الأيسر لوحة لروو حمراء وزرقاء. وانزرع غوميز أمامها، فقال ريتشي:

ـ إنَّه ملك مرزبان!

فلم يجب غوميز.

أضاف ريتشي:

ـ أنا شخصيًّا لا أتذوّق كثيرًا روو. أمّا أنت، فلا بدّ أنّ ذلك يروق لك.

ـ ولكنْ، اسكتْ لحظة!

ونظر هنيهة أخرى، ثم خفض رأسه وقال:

ـ هيّا بنا.

قال ريتشي: ـ إن كنت تحبُّ لوحات روو، ففي الداخل لوحة

أجدها أجمل بكثير!

قال غوميز: ـ لا حاجة إلى ذلك، فقد أصبحت أعمى.

فنظر إليه ريتشي فاغر الفم وصمت. وهزّ غوميز كتفيه قائلاً:

ـ كان ينبغي ألّا أطلق النار على الناس.

وهبطا السلّم، وكان ريتشي متصلّبًا جدًّا، متكلّف الوقار. وفكّر غوميز: «إنّه يجدني مشبوهًا». أمّا ريتشي، فقد كان ملاكًا، بالطبع؛ وكان بالإمكان أن يُقرأ في عينيه الصافيتين عناد الملائكة؛ وقد سبق لأجداده، الذين كانوا ملائكة أيضًا، أن أحرقوا بعض السحرة في ساحات بوسطن. «إنّني أعرق، وأنا مسكين، ولي أفكار مشبوهة، أفكار من أوروبا؛ وسينتهي الأمر بملائكة أميركا إلى إحراقي». هناك كانت المعسكرات، أمّا هنا، فالمحرقة: ولم يكن له إلّا حيرة الاختيار.

وكانا قد بلغا قاعة البيع، بالقرب من المدخل. فقلّب غوميز في شرود مجموعة من صور اللوحات المنسوخة. إنّ الفنّ متفائل.

قال ريتشي:

ـ إنّنا ننجح في صنع صور رائعة. انظر هذه الألوان: إنّها اللوحة نفسها.

جنديٌّ ميِّت، وامرأة تصيح: انعكاسات على قلب هادئ. إنّ الفنّ متفائل؛ والآلام مبرَّرة ما دامت تصلح لخلق الجمال. إنّني «لست» هادئًا، ولا «أريد» أن أبرِّر الآلام التي رأيت. باريس.. والتفت فجأة إلى ريتشي:

ـ إذا لم يكن الرسم «كلّ شيء»، كان مزاحًا.

ـ ماذا تقول؟

فأغلق غوميز المجموعة بعنف، وقال:

ـ ليس بالإمكان رسم «الشرّ».

وكان الحذر قد ثلّج نظر ريتشي، فكان يتأمّل غوميز بطريقة بلديّة.

وضحك فجأة في صدق، ودسّ إصبعه في جنبيه:

ـ إنّني أفهمك يا عزيزي! أربعة أعوام من الحرب: إنّك بحاجة إلى تربية جديدة كاملة.

فقال غوميز: ـ لا حاجة بي إلى ذلك. فأنا على وشك أن أصبح ناقدًا.

وساد صمت، ثم قال ريتشي على عجل:

ـ هل تعلم أنّ في الطابق الأرضي قاعة سينما؟

ـ إنّني لم أضع قدميَّ هنا قطّ.

ـ وهم يعرضون أفلامًا كلاسيكيّة وأفلام وثائق.

ـ أَراغب أنت في الذهاب إليها؟

قال ريتشي: ــ ينبغي أن أبقى في هذه الأنحاء، فعندي موعد في الساعة الخامسة، على بعد سبع محطّات.

واقتربا من عمود خشبيّ، فقرأا البرنامج.. وقال ريتشي:

ــ «القافلة نحو الغرب»: رأيتها ثلاث مرّات. ولكن استخراج الألماس من «الترانسفال» يمكن أن يكون مسلّيًا، (وأضاف برخاوة) هل تأتي؟

فقال غوميز: ــ لا أحبّ الألماس.

فبدا على ريتشي العزاء. وبسم له بسمة عريضة برزت معها شفتاه بروزًا ظاهرًا، وربت على كتفه، وقال له بالإنكليزيّة، كما لو أنَّه يستردّ في وقت واحد لغته الأمّ وحرِّيَّته:

إلى اللقاء.

ففكَّر غوميز: «لقد آن الأوان لشكره»، ولكنَّه لم يستطع أن ينتزع كلمة، فشدّ على يده في صمت.

وفي الخارج، كان الأخطبوط؛ وجذبه ألف فم، وكان الماء يلتمع

من مسامّه، فيبلّل قميصه دفعة واحدة، وكانت تمرّ أمام عينيه شفرة محمرَّة. لا بأس! لا بأس! كان فَرِحًا لأنَّه غادر المتحف: كان الحرّ بلاء عظيمًا، ولكنَّه حقيقيّ. وكانت حقيقيّة تلك السماء الهنديّة التي كانت رؤوس ناطحات السحاب تدفعها فتعليها على جميع سماوات أوروبا.
وكان غوميز يمشي بين بيوت قرميديّة حقيقيّة هي من فرط البشاعة بحيث لا يفكِّر أحد بدهنها، وتلك البناية العالية البعيدة التي كانت تشبه ضربة فرشاة خفيفة على قماشة، كسفن كلود لورين، كانت حقيقيّة، ولم تكن سفن كلود لورين حقيقيّة: فاللوحات هي أحلام. وفكَّر في تلك القرية من مقاطعة «سيارامادر» حيث جرى قتال دام من الصباح حتى المساء: لقد كان على الطريق حمرة حقيقيّة. وصمّم في سرور مرير: لن أرسم بعد الآن أبدًا. من هذه الناحية من المرآة، «هنا» بالذات، «هنا» مسحوقًا في كثافة هذا الأتون، على «هذا» الرصيف المحرق؛ كانت «الحقيقة» تنصب حوله جدرانها العالية، فتسدّ جميع منافذ الأفق؛ لم يكن ثمّة شيء آخر في العالم غير هذا الحرّ وهذه الحجارة، لولا الأحلام. وانعطف في الجادّة السابعة، فدحرجت الجموع مدّها عليه، وكانت الأمواج تحمل في قممها باقات من عيون ملتمعة وميِّتة، والرصيف يرتجف، والألوان المحرَّرة تلطِّخه، وكانت الجموع ترسل بخارًا شبيهًا بالذي يرسله قماش رطب تحت حرارة الشمس؛ بسمات وعيون، إثمٌ ألَّا تبتسم، عيون غائمة أو واضحة، عجِلة أو بطيئة، كلّها ميِّتة. وحاول أن يتابع المهزلة: ناس حقيقيُّون؛ ولكن لا: مستحيل! واصطفق كلّ شيء في يديه، وانطفأت فرحته؛ كانت لهم عيون كتلك التي في الصور. أتراهم يعلمون أنّ باريس قد سقطت؟ أتراهم يفكِّرون في ذلك؟ كانوا جميعًا يمشون مشية مستعجلة، وكان زبد أنظارهم الأبيض يلامسه لدى المرور. وفكَّر: ليسوا هم الحقيقيين، وإنّما هم الأشباه. فأين هم الحقيقيُّون؟ إنَّهم في أيٍّ مكان، ولكنَّهم ليسوا هنا. ليس ثمّة من هو هنا حقًّا، وأنا والآخرون في ذلك سواء. كان شبَه غوميز قد استقلّ الأوتوبيس، وقرأ الجريدة وبَسِم

لرامون، وتحدَّث عن بيكاسّو، ونظر إلى لوحات مودريان. كنت أجتاز باريس، شارع رويال خال، وساحة الكونكورد خالية، وعَلَم ألمانيّ يرفرف على مجلس النوّاب، وفرقة من الجستابو تمرّ تحت قوس النصر، والسماء منقّطة بالطائرات. انهارت جدران القرميد، ودلفت الجموع تحت الأرض، وكان غوميز يمشي وحيدًا في باريس. في باريس، في الحقيقة، «الحقيقة» الوحيدة؛ في الدم، وفي الحقد، في الهزيمة وفي الموت. وتمتم وهو يشدُّ على قبضته: «يا للفرنسيين القذرين! إنَّهم لم يعرفوا ولم يستطيعوا المقاومة، بل فرُّوا كالأرانب. كنت أعرف ذلك، كنت أعرف أنَّهم هالكون». وانعطف إلى اليمين وسلك الشارع ٥٦، وتوقّف أمام حانة ـ مطعم فرنسيّة: «ألابيتيت كوكيت»، ونظر إلى الواجهة الحمراء والخضراء، وتردّد لحظة، ثم دفع الباب: كان يريد أن يرى الهيئة التي يبدو عليها الفرنسيُّون.

في الداخل، كان الجوّ معتمًا ورطبًا تقريبًا، وكانت الستائر مسدلة، والمصابيح مضاءة.

سُرَّ غوميز للعودة إلى النور الاصطناعيّ. وكانت القاعة الداخليّة الغارقة في الظلام والصمت هي المطعم. وكان شابٌّ قويُّ البنية مقصوص الشعر جالسًا إلى المشرب، عيناه ثابتتان خلف نظّارته، ورأسه ينحني إلى الأمام بين الفينة والفينة، ولكن سرعان ما يرفعه في كثير من الوقار. جلس غوميز على مقعد مرتفع أمام المشرب، وكان يعرف الساقي بعض المعرفة، فقال بالفرنسيّة:

ـ كأس ويسكي سكوتش مزدوجة. وهل لديك صحيفة من صحف اليوم؟

أخرج الساقي جريدة «النيويورك تايمس» من أحد الأدراج وأعطاه إيّاها. وكان فتى أشقر ذا هيئة حزينة وصارمة؛ ولو لم تكن لهجته بورجيه، لكان يُحسب من سكّان «ليل». وتظاهر غوميز بأنَّه يقرأ التايمس،

ثم رفع رأسه فجأة. كان الساقي ينظر إليه نظرة متعبة.

قال غوميز: ـ الأخبار، ليست سارّة! أليس كذلك؟

فهزّ الساقي رأسه.

وقال غوميز: ـ لقد سقطت باريس.

فأرسل الساقي صفرة كئيبة، وملأ قدحًا صغيرًا بالويسكي ثم أفرغ محتواه في قدح كبير، وأعاد العمليّة، ثم دفع القدح أمام غوميز. وأدار الأميركيّ ذو النظّارة عينين زجاجيّتين نحوهما لبرهة، ثم أحنى رأسه بارتخاء، كما لو أنّه كان يحيِّيهما.

ـ سُودا؟

ـ نعم.

وأضاف غوميز من غير أن تثبّط عزيمته:

ـ أعتقد أنَّ فرنسا قد ضاعت.

فتنهَّد الساقي من غير أن يجيب، وفكَّر غوميز في فرحة قاسية، إنَّه كان أشقى من أن يستطيع التكلُّم. فألحّ بما يشبه الحنان:

ـ ألا تظنّ ذلك؟

وكان الساقي يسكب ماء غازيًّا في قدح غوميز. ولم يكن غوميز يغادر بعينيه هذه السحنة القمريّة التي تنزع إلى البكاء. سيقول له في اللحظة المناسبة وبصوت متغيِّر: «ماذا فعلتم من أجل إسبانيا؟ حسنًا! لقد جاء دوركم في الرقص».

ورفع الساقي عينيه وإصبعه، وتكلَّم فجأة بصوت بطيء وهادئ، يخنّ بعض الشيء، في لهجة «بورجيّة» قويَّة فقال:

ـ إنّ لكلّ شيء ثمنًا.

فقهقه غوميز، وقال:

ـ أجل، إنَّ لكلِّ شيء ثمنًا.

وأجال الساقي إِصبعه في الهواء فوق رأس غوميز: نجم مذنَّب يعلن نهاية العالم. ولم يكن يبدو عليه أنَّه شقيّ على الإطلاق، وقال:

ـ ستعرف فرنسا ما يكلِّفها أن تتخلَّى عن حلفائها الطبيعيِّين.

ففكَّر غوميز مندهشًا: «ما الذي يقول؟» إنّ النصر الوقح الحاقد الذي كان ينوي تفجيره في وجهه، إنّما يفاجئه الآن في عينيّ الساقي. وبدأ يقول في حذر، محاولاً جسّه:

ـ إنّ تشيكوسلوفاكيا حين. . .

فهزّ الساقي كتفيه، وقاطعه قائلاً في ازدراء:

ـ تشيكوسلوفاكيا!

فقال غوميز: ـ ماذا؟ لقد تخلّيتم عنها!

وكان الساقي يبتسم، وقال:

ـ اسمعْ يا سيِّدي. . إنّ فرنسا حين كانت تحت سلطة «لويس» المحبوب، لم يكن قد بقي لها غلطة لم ترتكبها.

قال غوميز: ـ آه. . أنت كنديّ؟

فقال الساقي: ـ إنّني من مونتريال.

ـ كان ينبغي أن تخبرني.

ووضع غوميز الجريدة على المشرب. وسأل بعد لحظة:

ـ ألا يأتي إلى هنا فرنسيُّون على الإطلاق؟

فأومأ الساقي بسبّابته إلى نقطة تقع خلف ظهر غوميز، فالتفت غوميز، فإذا هو بعجوز يجلس إلى طاولة يغطِّيها خوان أبيض، وهو يحلم أمام صحيفة. فرنسي «حقيقي» ذو سحنة كثيفة، مشقَّقة، محروثة، وعينين برَّاقتين قاسيتين، وشارب رماديّ. كانت وجنتاه بالنسبة لوجنتيِّ الأميركيِّ ذي النظّارتين الجميلتين، تبدوان مقدودتين من مادّة فقيرة على الأقلّ. فرنسي «حقيقيّ»، في قلبه يأس حقيقيّ. وقال:

ـ عجبًا: إنّني لم أتنبَّه لوجوده.

قال الساقي: ـ هذا السيِّد هو من «روان». إنَّه زبون.

وشرب غوميز قدحه جرعة واحدة وقفز إلى الأرض الخشبيّة. «ماذا فعلتم من أجل إسبانيا؟» ورآه العجوز قادمًا من غير أن يظهر دهشة. انزرع غوميز أمام الطاولة، وتأمَّل هذا الوجه المسنّ في شراهة:

ـ أنت فرنسيّ؟

قال العجوز: ـ نعم.

فقال غوميز: ـ إنّني أدعوك إلى تناول قدح.

ـ شكرًا، ليس هذا يومًا مناسبًا.

كانت القسوة تجعل قلب غوميز ينبض.

فسأله وهو يضع إصبعه على عنوان الجريدة:

ـ بسبب هذا؟

ـ بسبب هذا.

قال غوميز: ـ إنّما أدعوك إلى قدح، بسبب هذا بالذات. لقد سكنتُ فرنسا عشر سنوات، وما زالت زوجتي وابني فيها. ويسكي؟

ـ ما دام الأمر كذلك، فليكن بلا سُودا.

فطلب غوميز: ـ سكوتش بلا سُودا، وسكوتش بسُودا.

وصمتا. كان الأميركيّ ذو النظّارة قد استدار فوق كرسيِّه، وأخذ ينظر إليهما صامتًا.

فجأة، سأل العجوز:

ـ أتراك لست إيطاليًّا؟

فابتسم غوميز، وقال:

ـ لا. لست إيطاليًّا.

فقال العجوز:

ـ إنّ الطليان قذرون.

«والفرنسيُّون؟»

استعاد غوميز صوته الرقيق ليسأل:

ـ هل لك هناك من أحد؟

ـ في باريس، لا. ولكن أحفادي في «مولين».

ونظر إلى غوميز في تنبُّه:

ـ إنَّني ألاحظ أنّك لست هنا منذ وقت طويل.

فسأله غوميز: ـ وأنت؟

ـ إنّني مُقيم هنا منذ عام ٩٧. لقد أصبح دينًا ثقيلاً.

وأضاف:

ـ إنّني لا أحبّهم.

ـ ولماذا أنت باقٍ هنا؟

فهزّ العجوز كتفيه، وقال:

ـ إنّني أكسب المال.

ـ هل أنت تاجر؟

ـ بل حلّاق. وحانوتي على بُعد محطَّتين من هنا. وقد كنت أقضي فترة شهرين في فرنسا، كلّ ثلاثة أعوام. وكان المفروض أن أذهب إليها هذا العام، ولكن ها نحن ذا.

قال غوميز: ـ أجل، ها نحن ذا.

واستطرد العجوز:

منذ هذا الصباح، قصد حانوتي أربعون زبونًا. يحدث هذا في بعض الأيّام. وقد كانوا يريدون كلّ شيء: حلاقة الذقن، وقصّ الشعر، شامبو، وتدليك بالكهرباء. ربّما ظننتَ أنَّهم كانوا يحدِّثونني عن بلدي؟ على الإطلاق! لقد كانوا يقرأون جرائدهم من غير أن ينبسوا بكلمة، وكنت

أرى العناوين بينما كنت أحلق ذقونهم. وكان بينهم زبائن في العشرين، ولم يقولوا شيئًا. ولقد كان من حظّهم أنّي لم أجرحهم، كانت يدي ترتجف. وأخيرًا تركت عملي وجئت إلى هنا.

قال غوميز: ـ إنّهم لا يبالون.

ـ ليست القضيّة أنَّهم إلى هذا الحدّ لا يبالون، ولكنّهم لا يجدون الكلمة التي ترضي. إنّ باريس كلمة تعني شيئًا في نظرهم. فهم لن يتحدَّثوا عنها: لأنّ ذلك يمسّهم بالذات، هكذا هم.

وكان غوميز يتذكّر جموع «الجادّة السابعة»، وقال:

ـ جميع هؤلاء الأشخاص في الشارع، أتظنّ أنَّهم يفكِّرون بباريس؟

ـ نعم، على نحو ما. ولكنَّهم لو تعلم لا يفكِّرون كما نفكِّر نحن. فإذا أراد الأميركي أن يفكِّر في شيء يزعجه، بذل كلّ ما في وسعه كيلا يفكِّر فيه.

وجاء الساقي بالقدحين، فأخذ العجوز قدحه ونهض قائلاً:

ـ طيِّب! نخبك.

قال غوميز: ـ نخبك!

وابتسم العجوز بحزن:

ـ إنّنا لا نعرف تمامًا ما الذي ينبغي أن يتمنّاه أحدنا للآخر، أليس كذلك؟

واستدرك، بعد لحظة تفكير:

ـ بلى: إنِّي أشرب نخب فرنسا.. نخب فرنسا، رغم كلّ شيء.

ولم يكن غوميز يريد أن يشرب نخب فرنسا.

ـ نخب دخول الولايات المتّحدة الحرب.

فضحك العجوز ضحكة قصيرة، وقال:

ـ من أجل هذا، تستطيع أيضًا أن تشرب.

وأفرغ غوميز قدحه، والتفت إلى الساقي:

ـ قدحان آخران.

كانت به حاجة إلى الشرب. فمنذ لحظة كان يحسب نفسه وحيدًا للاهتمام بفرنسا، وكان سقوط باريس «قضيّته»: مصيبة بالنسبة لإسبانيا، وفي الوقت نفسه عقابًا بالنسبة للفرنسيين. ولكنَّه يعلم الآن أنَّها كانت تطوف حول المشرب، وأنَّها تدور وتدور بشكل مبهم ومجرَّد عبر ستَّة ملايين روح. وكان ذلك أمرًا لا يُحتمل تقريبًا: فقد قُطعت صلته الشخصيّة بباريس، فليس هو بعدُ إلَّا مهاجرًا حديث العهد، يستولي عليه، ككثيرين، وسواس جماعيّ.

قال العجوز: ـ لا أدري إن كنتَ ستفهمني! ولكن ها قد مرّ عليّ أكثر من أربعين عامًا وأنا أعيش هنا، ولكن منذ هذا الصباح فحسب وأنا أحسب نفسي في بلد أجنبيّ حقًّا. إنّني أعرفهم، ولا أقع من ذلك في الأوهام، أقسم لك. ولكنّني كنت أظنّ مع ذلك أنّني لا بدّ أن أجد شخصًا يمدّ لي يده أو يقول كلمة.

وأخذت شفتاه ترتعشان، وردّد:

ـ زبائن في العشرين من العمر.

كان غوميز يقول في نفسه: «هذا فرنسيّ. واحد من الذين كانوا ينادوننا Frente Crapular، ولكنَّه لم يكن ينجح في أن يبتهج، وقرَّر أخيرًا أنَّه «عجوز أكثر ممّا ينبغي». كان العجوز ينظر في الخلاء، وقال من غير أن يؤمن كثيرًا بما يقول:

ـ لاحظ. ربّما كان ذلك بدافع التحفّظ.

فهمهم غوميز. وقال العجوز:

ـ هذا ممكن. هذا ممكن جدًّا. إنّ كلّ شيء ممكن معهم.

وأضاف باللهجة نفسها:

ـ كان لي بيت في «روان»، وكنت أنوي أن أركن إليه. أمّا الآن،

فأنا أقول في نفسي بأنّني سأموت هنا: وهذا يغيّر وجهة النظر.

ففكَّر غوميز: «طبعًا، طبعًا، ستموت هنا». ولوى رأسه، وكانت به رغبة في الذهاب. لكنَّه استدرك نفسه، واحمرّ فجأة، فزرع نظره في عينيْ العجوز، وسأل بصوت صافر:

ـ هل كنت من مؤيّدي التدخُّل في إسبانيا؟

فسأل العجوز مذعورًا: ـ أيّ تدخل؟

ثم تأمَّل غوميز في اهتمام:

ـ هل أنت إسبانيّ؟

ـ نعم.

ـ لقد لحق بكم أنتم أيضًا كثير من المصائب.

قال غوميز بصوت محايد:

ـ إنّ الفرنسيِّين لم يساعدونا كثيرًا.

ـ أجل، انظرْ الآن: إنّ الأميركيِّين لا يساعدوننا. إنّ البشر والبلاد متشابهون، كلٌّ لمصلحته.

قال غوميز: ـ نعم، كلٌّ لمصلحته.

إنَّه لم يرفع إصبعه ليدافع عن برشلونة، وها قد سقطت الآن برشلونة، وسقطت باريس، ونحن كلانا في المنفى، كلانا متشابهان. ووضع الخادم القدحين على الطاولة، فأخذاهما في وقت واحد، من غير أن يغادر أحدهما الآخر بنظره.

قال العجوز: ـ إنّني أشرب نخب إسبانيا.

فتردَّد غوميز، ثم قال بين أسنانه:

ـ إنّني أشرب نخب تحرير فرنسا.

وصمتا. كان الأمر يدعو إلى الرثاء: دميتان عجوزان مكسورتان، داخل حانة نيويوركيّة، يشربان نخب فرنسا وإسبانيا. مصيبة!

طوى العجوز جريدته بعناية، ثم نهض:

ـ يجب أن أعود إلى الحانوت. إنّ الدورة الأخيرة على نفقتي.

قال غوميز: ـ كلّا، كلّا، كلّا. أيُّها الساقي. الدورتان على نفقتي.

ـ أشكرك، إذن.

وقصد العجوز الباب. ولاحظ غوميز أنَّه كان يعرج، ففكَّر: «يا للعجوز المسكين!» وقال للساقي:

ـ قدح آخر.

ونزل الأميركيّ عن كرسيِّه العالي، وتوجَّه إليه وهو يتهادى، فقال:

ـ إنّني سكران.

قال غوميز: ـ هكذا؟

ـ ألم تلاحظ؟

ـ كلّا.

فسأله: ـ وهل تعلم لماذا أنا سكران؟

قال غوميز: ـ طزّ في ذلك!

فأطلق الأميركيّ تجشّؤةً مرنة، وتداعى ساقطًا على الكرسيّ الذي كان قد غادره العجوز.

ـ لأنّ الألمان قد أخذوا باريس.

وأظلم وجهه وأضاف:

ـ إنَّه أسوأ نبأ منذ عام ١٩٢٧.

ـ وفي عام ١٩٢٧، أيُّ نبأ سيِّئ كان هناك؟

فوضع إصبعًا على فمه، وقال:

ـ هس! أمرٌ شخصيٌّ.

ثم وضع رأسه على الطاولة، وبدا أنّه يغرق في النوم. غادر الساقي المشرب مقتربًا من غوميز، وقال:

ـ احتفظ لي به دقيقتين. فهذه ساعته: يجب أن أذهب لآتي له بالتاكسي.

فسأله غوميز:

ـ ما هذا الزبون؟

ـ إنَّه يعمل في وول ستريت.

ـ أَصحيح أنَّه سكر لأنّ باريس قد سقطت؟

ـ إذا قال ذلك، فلا بدّ أنَّه صحيح. غير أنَّه سكر في الأسبوع الماضي بسبب حوادث الأرجنتين، وفي الأسبوع الذي سبقه بسبب كارثة «سالت ليك سيتي». إنَّه يسكر كلّ يوم سبت، ولكن ليس بدون سبب.

قال غوميز: ـ إنَّه مفرط الحساسيّة.

وخرج الساقي على عجل. فوضع غوميز رأسه بين يديه وراح ينظر إلى الجدار، وكان يرى مرَّة أخرى، بوضوح، النقش الذي تركه على الطاولة. كانت تنقصه كتلة داكنة إلى اليسار لإقامة التوازن. ربّما دغل. أجل دغل. واستعاد صورة النقش والطاولة، والنافذة الكبيرة، وأخذ يبكي.

الأحد ١٦ حزيران

ـ هناك... هناك.. فوق الأشجار تمامًا.

كان ماتيو نائمًا، وكانت الحرب قد خسرت. كانت قد خسرت حتى أعماق نومه. وأيقظه الصوت منتفضًا: كان مستلقيًا على ظهره، مغمض العينين، وذراعاه لاصقتان بجسمه، لقد خسر الحرب، ولم يذكر جيّدًا أين كان، ولكنْ كان يعلم أنَّه قد خسر الحرب.

قال شارلو بحيويّة:

ـ إلى اليمين، قلت لك هناك فوق الأشجار تمامًا. ترى، أليس لك عينان في ثقبيك؟

وسمع ماتيو صوت نيبير الهادئ:

ــ آه.. آه.. هكذا.. هكذا!

أين نحن؟ في العشب. ثمانية مدنيِّين في الحقول، ثمانية مدنيِّين باللباس العسكريّ، تغطّي كلّ اثنين منهم أغطية الجيش، وكلّهم نائمون على شراع خيمة وسط حديقة فاكهة. لقد خسرنا الحرب، استودعونا إيّاها فخسرناها. لقد تسلَّلت من بين أصابعهم، وانطلقت تخسر نفسها في ضجيج، في مكان ما من الشمال.

ــ آه.. هكذا.. هكذا..

وفتح ماتيو عينيه، فرأى السماء، وكانت رماديّة متلألئة من غير سحاب، ولا عمق، لا شيء إلَّا الغياب. وكان صباحٌ يتشكَّل فيها بهدوء، قطرة نور تكاد تسقط على الأرض وتغمرها بالذهب. إنَّ الألمان في باريس، وقد خسرنا الحرب. بداءة، صباح. صباح العالم الأوّل، كجميع الأصبحة: كلّ شيء للصنع، والمستقبل كلُّه كان في السماء. وأخرج يدًا من تحت الغطاء فحكّ أذنه: إنَّه مستقبل الآخرين. في باريس، كان الألمان يرفعون عيونهم نحو هذه السماء، فيقرأون فيها نصرهم ومستقبلهم. أمّا أنا، فليس لي بعد من مستقبل. وكان حرير الصبح يلامس وجهه، ولكنَّه كان يشعر بإزاء جنبه الأيمن حرارة نيبير؛ وبإزاء فخذه اليسرى حرارة شارلو. سنوات أخرى للعيش: سنوات للقتل. هذا النهار المنتصر الذي يبزغ ريحَ صبح شقراء في شجر الحور، وشمسَ ظهر على سنابل القمح، وعطرَ أرض ساخنة في المساء، يجب قتله تفصيلاً، دقيقة بعد الأخرى؛ فعندما يهبط الليل، سوف يأسرنا الألمان. وتضخّم صوت الأزيز، ورأى الطائرة في الشمس المشرقة، قال شارلو:

ــ إنَّها إيطاليّة.

وأطلقت أصواتٌ نائمة شتائم نحو السماء، كانوا قد ألفوا قافلة الطائرات الألمانيّة اللامبالية، وحربًا وقحة ثرثارة غير مؤذية: تلك كانت

(حربهم). أمّا الطليان، فلم يكونوا يلعبون اللعبة: كانوا يلقون قنابل.
وقال لوبيرون:

ـ إيطاليّة؟ آه.. إنّني أصدِّقك تمامًا.. فأنت لا تسمع المحرِّك كيف يدور بانتظام. هذه طائرة مستر شميدت، نعم، طراز ٣٧.

حدث انفراج تحت الأغطية، وابتسمت الوجوه المقلوبة للطائرة الألمانيّة. سمع ماتيو بضعة انفجارات مخنوقة، وتشكَّلت في السماء أربع غيوم مستديرة.

قال شارلو:

ـ يا للحمقى! ها هم الآن يطلقون النار على الألمان..

وقال لونجان مغتاظًا:

ـ إنَّ هذا عمل يقودنا إلى المذبحة.

وأضاف شوارتز في ازدراء:

ـ حمقى.. لم يفهموا بعد.

وحدث انفجاران آخران، وظهرت غيمتان قطنيّتان مظلمتان فوق شجر الحور.

وردَّد شارلو:

ـ يا للحمقى.. يا للحمقى..

وكان بينيت قد انتصب مستندًا إلى مرفقه، ووجهه الباريسيّ الصغير الجميل مورَّد نضر. كان ينظر إلى رفاقه في صَلَف، ويقول في جفاء:

ـ إنَّهم يقومون بمهنتهم.

هزّ شوارتز كتفيه:

ـ وما جدوى هذا، الآن؟

وكانت المدفعيّة المضادَّة للطائرات قد صمتت: وكانت الغيوم تتبدَّد، ولم يكنْ يُسمع بعدُ إلّا أزيز منتصر ومنتظم. قال نيبير:

ـ إنّني لا أراهم بعد.

ـ بلى، بلى.. هناك، باتّجاه طرف إصبعي.

وخرج عودُ بقلٍ أبيض من الأرض مصوِّبًا نحو الطائرة: كان شارلو ينام عاريًا تحت الغطاء، وقال الرقيب بيارنيه بصوت قلق:

ـ إلزم الهدوء، فسوف تهديهم إلينا.

ـ أيّ كلام.. إنَّه في هذه الساعة يظنّنا قرنبيطًا..

ومع ذلك، فقد أدخل ذراعه، وحين مرَّت الطائرة فوق رأسه، تابع الرفاق بعيونهم باسمين قطعة الشمس الصغيرة هذه، حمراء لامعة: كانت تلك تسلية الصباح، الحادثة الأولى ذلك النهار. وقال لوبيرون:

ـ إنَّها تقوم بنزهتها الصغيرة المشهِّية.

كانوا ثمانية قد فقدوا الحرب، خمسة أمناء سرّ، ومراقبَيْن، واختصاصيًا بالأحوال الجوِّيّة، مضطجعين جنبًا إلى جنب وسط الكرّات والجزر. لقد خسروا الحرب كما يخسر المرء وقته: من غير أن يشعر بذلك. ثمانية: شوارتز المرصِّص، ونيبير موظَّف البنك، ولونجان قاطع التذاكر، ولوبيرون السمسار، وشارلو روكلاو بائع المظلّات، وبينيت المراقب في المترو، والأستاذان: ماتيو وبيارنيه. وكانوا قد قضوا تسعة أشهر في ضجر، تارة بين الصنوبر، وطورًا في كروم العنب.. وذات يوم، أبلغهم صوت من بوردو هزيمتهم، ففهموا أنَّهم كانوا مذنبين. ولامست يد مرتبكة خدّ ماتيو، فالتفت إلى شارلو:

ـ ماذا تريد، أيُّها العنيد؟

وكان شارلو قد اضطجع على جنبه، بحيث كان ماتيو يرى خدَّيه الأحمرين وفمه الكبير المشروم، وقال شارلو بصوت منخفض:

ـ أودّ أن أعرف. ترى؟ هل نسافر اليوم؟

وكان مظهرُ قلقٍ يدور على وجهه الفرح من غير أن ينجح بالاستقرار في مكان ما.

ـ اليوم؟ لا أدري.

وكانوا قد غادروا مورسبرون يوم ١٢، وكان قد حدث ذلك السباق المضطرب، ثم هذا التوقُّف المفاجئ.

ـ ماذا نفعل هنا؟ أتستطيع أن تُخبرني؟

ـ يقولون إنّنا ننتظر جيش المشاة.

ـ إذا لم يكن بوسع المشاة أن ينسحبوا، فليس ذلك سببًا يكفي لأن ننتن معهم.

وأضاف في تواضع:

ـ إنّني يهوديّ كما تعلم. ولي اسم بولونيّ.

قال ماتيو بحزن: ـ أعرف ذلك.

قال شوارتز: ـ اسكتوا.. اسمعوا..

وكان ذلك هديرًا مخنوقًا متّصلاً. وكان قد استمرّ أمس الأوّل وأمس من الفجر حتى الليل، ولم يكن أحد يعرف من الذي يُطلق، وعلامَ يُطلق.

قال بينيت: ـ لا بدّ أنَّ الساعة تقارب السادسة. فبالأمس بدأوا في الخامسة وخمس وأربعين دقيقة.

ورفع ماتيو معصمه فوق عينيه وقلبه ليستشير ساعته.

قال شوارتز:

ـ إنَّها السادسة وخمس دقائق؛ سيكون عجيبًا أن نذهب اليوم (وتثاءب وقال) هيًا.. ما يزال أمامنا يوم نقضيه في هذا البلد. وتثاءب الرقيب بيارنيه أيضًا، وقال:

ـ حسنًا.. لقد آن أن ننهض.

قال شوارتز: أجل، أَجَل يجب أن ننهض.

فلم يتحرَّك أحد. وألمَّت بهم قطّة بأقصى سرعتها في خطّ متعرِّج ثم

كمنت فجأة، وبدت مستعدَّة للوثوب، ثم نسيت مشروعها فابتعدت بغير اكتراث.. وكان ماتيو قد نهض على مرفقه يتابعها بنظره. ورأى فجأة ساقين مقوَّستين في عصابتهما الجلديّة الكاكيّة، فرفع رأسه: كان الملازم الأوَّل أولمان قد انزرع أمامهم مشتبك الذراعين، وهو يتأمَّلهم مقطَّب الحاجبين، ولاحظ ماتيو أنَّه لم يكن حالقًا ذقنه:

ـ ماذا تفعلون هنا؟ ماذا تفعلون هنا، أتكونون مجانين تمامًا؟ ولكنْ قولوا لي ماذا تفعلون هنا؟

وانتظر ماتيو بضع لحظات، وإذ لم يُجِب أحد، قال من غير أن ينهض:

ـ لقد فضَّلنا أن ننام في الهواء الطلق، يا سيِّدي الملازم.

ـ اسمعوا هذا.. مع الطائرات العدوَّة التي تحلِّق فوق المنطقة! إنَّ تفضيلكم يوشك أن يكلِّفنا غاليًا، وقد يسبِّب قصف الفرقة.

قال ماتيو بصبر:

ـ إنَّ الألمان يعرفون جيِّدًا أنَّنا هنا، ما دمنا قد قمنا بجميع تنقُّلاتنا في وضح النهار.

فلم يبدُ على الملازم أنَّه سمع، فقال:

ـ لقد سبق أن منعتكم من ذلك، منعتكم من مغادرة العنبر. ثم ما هذه الطرق في أن تظلُّوا مضطجعين بحضرة رئيس لكم؟

حدثت حركة صغيرة متثاقلة على سطح الأرض، وجلس الرجال الثمانية على الأغطية، ما تزال عيونهم تطرف من النعاس. ووضع شارلو، الذي كان عاريًا، منديلاً على عورته. وكان الطقس رطبًا. ارتعش ماتيو، فبحث عن سترته فيما حوله ليلقيها على كتفيه.

ـ وأنت هنا أيضًا، يا بيارنيه؟ ألا تشعر بالعار، وأنت رقيب صاحب درجة؟ ينبغي عليك أن تعطي الأمثولة.

فقرص بيارنيه شفتيه من غير أن يجيب.

وقال الملازم:

هذا لا يُصدَّق... ولكن، هل تشرحون لي لماذا غادرتم العنبر؟ كان يتكلَّم من غير اقتناع، وبصوت عنيف ضجر، وكان تحت عينيه دوائر مزرقّة، وكان لونه النضر مُغْتَمًّا.

ـ كنّا نشعر بحرّ لا يُطاق، يا سيِّدي الملازم، فلم نكن نستطيع النوم.

ـ حرّ لا يُطاق؟ إِلَامَ تحتاجون؟ إلى غرفة نوم مكيَّفة؟ سأرسلكم هذه الليلة لتناموا في التدريب. مع الآخرين. أتراكم لا تعرفون أنّنا في حالة حرب؟

فأشار لونجان بيده، وقال ببسمة غريبة:

ـ لقد انتهت الحرب، يا سيِّدي الملازم.

ـ إنَّها لم تنتهِ، ويجب أن تشعر بالعار، إذ تقول إنَّها انتهت، حين يكون هناك شبّان صغار يعرِّضون أنفسهم للموت على بعد ثلاثين كيلومترًا من هنا ليغطّونا.

ـ يا للمساكين.. إنَّهم يؤمرون بأن يواجهوا الموت ويُقتلوا، بينما يُوقَّع على الهدنة.

فاحمرّ الملازم احمرارًا شديدًا.

ـ على كلّ حال، أنتم ما تزالون جنودًا. فما لم تُعادوا إلى بيوتكم تظلُّون جنودًا وتطيعون رؤساءكم.

فسأل شوارتز: ـ وحتى في معسكرات الاعتقال؟

فلم يجب الملازم. كان ينظر إلى الجنود في خجل محتقر، وكان الرجال يبادلونه نظره في غير ما انزعاج ولا نفاد صبر: إنَّهم يكادون يتمتَّعون باللذّة الجديدة أن يحسُّوا أنفسهم مخيفين. وبعد لحظة، هزَّ الملازم كتفيه واستدار على عقبيه، وقال من فوق كتفه:

ـ تفضَّلوا بالنهوض سريعًا.

وابتعد مستقيمًا، بخطوة راقصة. وفكَّر ماتيو: «رقصته الأخيرة»، فبعد ساعات يطردنا الرعاة الألمان جميعًا نحو الشرق، في هوشة من غير تمييز للرتبة. وتثاءب شوارتز وبكى؛ وأشعل لونجان سيجارًا؛ وكان شارلو ينزع العشب ركامًا من حوله. كانوا جميعًا يخافون أن ينهضوا. وقال لوبيرون:

ــ هل رأيتم؟ لقد قال: سوف أرسلكم لتناموا في التدريب. هذا يعني أنَّنا لن نذهب.

قال شارلو: ــ لقد قال ذلك هكذا. فهو ليس أدرى منّا بالأمر. وانفجر الرقيب بيارنيه فجأة، متسائلاً:

ــ من الذي يدري إذن؟ من الذي يدري؟

فلم يجب أحد؛ وبعد لحظة، قفز بينيت على قدميه، وسأل:

ــ هل نغتسل؟

فقال شارلو متثائبًا: ــ إنّني شخصيًّا موافق.

ونهض، وكذلك نهض ماتيو والرقيب بيارنيه. وصاح لونجان:

ــ الطفل كادوم..

كان شارلو عاريًا متورِّدًا لا شعر في جسمه، ذا خدَّين أزهرين، تداعب بطنه الصغير البارز أشعَّة الصباح الشقراء، فيشبه أجمل أطفال فرنسا. وجاء شوارتز خلفه بخطى خفيّة، على عادته كلّ صباح، وقال له وهو يدغدغه:

ــ أنت مقشعرّ، أنت مقشعرّ، أيّها الطفل..

فضحك شارلو وصاح وهو يتلوّى، كعادته، ولكن بمرح أقلّ. والتفت بينيت إلى لونجان الذي كان يدخِّن بعناد:

ــ ألا تأتي؟

ــ لماذا؟

ــ لتغتسل.

قال لونجان: ـ طزّ.. أغتسل؟ ولمن؟ للألمان؟ سوف يأخذونني كما أنا.

قال لونجان: ـ هيَّا... هيَّا.. كفى!

قال بينيت: ـ يمكننا أن نفلت منهم.

ـ أتراك تؤمن ببابا نويل؟

ـ حتى ولو كانوا سيأخذونك، فليس ذلك سببًا كافيًا لكي تبقى قذرًا متّسخًا.

ـ لا أريد أن أغتسل من أجلهم.

قال بينيت: ـ إنّ ما تقوله سخيف، سخيف جدًّا..

فقهقه لونجان من غير أن يجيب، وظلَّ مسترخيًا فوق الغطاء بهيئة تعالٍ. ولم يكن لوبيرون قد تحرَّك هو أيضًا: كان يتظاهر بالنوم. وأخذ ماتيو قربته واقترب من الحوض. كان الماء يسيل من أنبوبين حديديَّين في الجرن الحجريّ، وكان باردًا عاريًا كأنَّه بَشَرة. كان ماتيو قد سمع طوال الليل همسه المليء بالأمل، وتساؤله الطفوليّ. غطَّس رأسه في الحوض، فأصبحت الأغنيةُ البدائيّة الصغيرة تلك الطراوةَ البكماء النضرة في أذنيه ومنخريه، وهذه الباقة من الورود المبتلّة، والزهور المائيّة في قلبه: الحمّامات في نهر «اللوار»، والخيزران، والجزيرة الصغيرة الخضراء، والطفولة. وحين نهض، كان بينيت يغسل عنقه بالصابون في غضب، فابتسم له ماتيو. كان يحبّ بينيت كثيرًا. وقال بينيت:

ـ إنّ لونجان سخيف حقًّا، إذا جاء الألمان، فيجب أن نكون نظيفين.

وأدخل إصبعًا في أذنه فأداره بقوّة. وصاح به لونجان من مكانه:

ـ إذا كنت تحبّ النظافة إلى هذا الحدّ، فاغسل أيضًا قدميك..

فرماه بينيت بنظرة شفقة وقال:

ـ إنَّ الأقدام لا تُرى.

وأخذ ماتيو يحلق ذقنه. وكانت الشفرة مستعملة، فكانت تحرق بشرته: «في الأسر، سأترك لحيتي تنبت». وكانت الشمس تبزغ، وأشعَّتها الطويلة المائلة تحصد العشب. كان العشب تحت الشجر طريًا نضرًا، فجوة نعاس في جنبيْ الصباح. وكانت الأرض والسماء ممتلئتين بالعلامات، علامات الأمل. وبين أوراق الحور أخذ رفٌّ من العصافير يغنِّي ملء حناجره، مستجيبًا لداع غير مرئيّ، فكان ذلك أشبه بهبّة طلقات نحاسيّة عنيفة جدًّا، ثم صمت فجأة، بصورة عجيبة. وكان القلق يطوف بالعشب والخضار الكثيفة كما كان يطوف على وجه شارلو، من غير أن يحطّ في أيِّ مكان. مسح ماتيو شفرته بعناية وأعادها إلى قربته. وكانت أعماق قلبه ضالعة مع الفجر والندى والظلِّ؛ وفي أعماق قلبه كان ينتظر عيدًا. لقد نهض باكرًا وحلق كما يفعل يوم العيد. عيد في حديقة، بمناسبة التناول الأوّل أو بمناسبة عرس، تدور فيه أثواب جميلة بين العرائش، عند طاولة قائمة فوق العشب، يتصاعد حولها طنين الزنابير الثملة بالسكَّر. ونهض لوبيرون وذهب يبوِّل عند السياج، ودخل لونجان إلى العنبر، وتحت ذراعيه الأغطية، وحين خرج، اقترب من الحوض على غير اكتراث، فغطّ إصبعه في الماء بهيئة ساخرة وبطالة. ولم يكن ماتيو بحاجة إلى أن ينظر طويلاً إلى وجهه الممتقع ليحسَّ بأنَّه لن يكون ثمّة عيد، الآن، ولا في المستقبل أبدًا.

وكان المزارع الشيخ قد خرج من بيته، وهو ينظر إليهم ويدخِّن غليونه، فقال شارلو:

ــ مرحبًا يا بابا!

فقال المزارع وهو يهزّ رأسه: ــ مرحبًا! نعم نعم! مرحبًا!

وخطا بضع خطوات، ثم انزرع أمامهم:

ــ أراكم لم تذهبوا بعد؟

فقال بينيت بجفاف: ــ كما ترى.

وقهقه الشيخ، ولم تكن تبدو عليه الطيبة:

ـ لقد سبق أن قلت لكم إنَّكم لن ترجعوا.

ـ هذا ممكن.

وبصق بين قدميه ومسح شاربه:

ـ والألمان؟ أتراهم يأتون اليوم؟

فأخذوا يضحكون. وقال لوبيرون:

ـ ربّما أتوا وربّما لم يأتوا. فنحن مثلك ننتظرهم، ونحن نتجمَّل لنستقبلهم.

وكان الشيخ ينظر إليهم بهيئة ساخرة، وقال:

ـ ولكن، أنتم لستم مثلي. أنتم ستعودون من الأسر.

وسحب نَفَسًا من غليونه، وأضاف:

ـ أمّا أنا، فإنِّي ألزاسيّ.

قال شوارتز: ـ نعرف هذا يا بابا. فغيِّر الأسطوانة.

هزّ الشيخ رأسه، وقال:

ـ ما أعجب هذه الحرب! إنَّ المدنيّين هم الذين يقتتلون الآن، بينما الجنود ينجون.

ـ كفى، كفى! أنت تعلم جيِّدًا أنَّهم لن يقتلوك.

ـ أقول لك إنِّي ألزاسيّ.

ـ قال شوارتز: ـ وأنا أيضًا ألزاسيّ.

فقال الشيخ: ـ هذا ممكن، ولكنِّي حين تركت أنا الألزاس، كانت ما تزال لهم.

قال شوارتز: ـ إنَّهم لن يؤذوك. فهم بشر مثلنا.

قال الشيخ في غيظ مفاجئ:

ـ مثلنا؟ خراء! هل تستطيع أنت أن تقطع يديْ طفل؟

فانفجر شوارتز ضاحكًا، وقال وهو يغمز ماتيو:

ـ إنَّه يروي لنا خزعبلات الحرب الماضية.

وأخذ منشفته، فمسح بها ذراعيه الضخمتين البارزتيّ العضلات، وقال موضحًا، وهو يلتفت إلى العجوز:

إنَّهم ليسوا مجانين. سوف يعطونك سجاير، شوكولا، نعم. وهذا ما يُسمّى بالدعاية، وليس لك إلّا أن تأخذها، فهي لا تُلزمك بشيء.

وأضاف، وهو ما يزال يضحك:

ـ أؤكِّد لك يا بابا إنَّه من الأفضل في يومنا هذا أن تكون من مواليد ستراسبورغ على أن تكون من مواليد باريس.

فقال المزارع: ـ لا أريد أن أصبح ألمانيًّا وأنا في هذه السنّ! طز! إنّني أفضّل أن يقذفوني برصاص بنادقهم.

فصفق شوارتز مؤخِّرته بيده، وقال مقلِّدًا إيّاه:

ـ أتسمعونه؟ طزّ! أمَّا أنا، فأفضِّل أن أكون ألمانيًّا حيًّا على أن أكون فرنسيًّا ميّتًا:

ورفع ماتيو رأسه باهتمام ونظر إليه؛ وكان بينيت وشارلو ينظران إليه أيضًا. وكفَّ شوارتز عن الضحك ثم احمرَّ وهزّ كتفيه. وصرف ماتيو عنه عينيه، ولم يكن لديه ميل ليمثِّل دور القضاة، ثم إنَّه كان يحبّ هذا الشخص الكبير السمين، الهادئ والقاسي، الذي يقاوم الشقاء، ولم يكن يريد أن يزيده اضطرابًا بأيِّ ثمن. لم يكن أحد ينبس بكلمة. هزّ الشيخ رأسه وأجال فيما حوله نظرًا حقودًا، ثم قال:

ـ آه! كان ينبغي ألّا نخسر هذه الحرب. كان ينبغي ألَّا نخسرها.

وصمتوا! وسعل بينيت، واقترب من الحوض فأخذ يجسّ الصنبور جسًّا بليدًا. وأفرغ الشيخ غليونه على الحصى، ونكث الأرض بعقبه ليدفن الرماد، ثم أولاهم ظهره وعاد بخطى بطيئة إلى منزله. وساد صمت طويل؛ كان شوارتز واقفًا بصلابة، متباعد الذراعين. وبعد لحظة، بدا أنَّه يستيقظ، فضحك بمشقّة:

ـ لقد قلت ذلك سخريةٍ به.

لا جواب: كان الجميع ينظرون إليه. ثم فجأة، ومن غير أن يتغيّر شيء في الظاهر، تطامن شيء ما، فحدث انفراج، نوعٌ من التبعثر الجامد، فانهارت الجماعة الصغيرة الغاضبة التي كانت قد تشكّلت حوله. لقد أخذ لونجان ينظِّف أسنانه بمديته، وتنحنح لوبيرون، وأخذ شارلو يدمدم بنظرة بريئة: إنَّهم لم يكونوا ينجحون في الاستمرار بالغضب، إلّا إذا كانت القضيّة قضيّة استئذان أو طعام. وتنسّم ماتيو فجأة عطر نعناع وافسنتين: كانت الأعشاب والزهور تستيقظ، بعد العصافير، فتلقي عطورها كما ألقت تلك غناءها، وفكَّر ماتيو: «هذا صحيحٍ، هنا أيضًا الروائح». روائح خضراء مرحة، ما تزال نافذة وحامزة: إنَّها ستصبح مسكرة أكثر فأكثر، وستزداد ثراءً وأنوثة، ما ازرقّت السماء واقتربت المركبات الألمانيّة. نشق شوارتز بقوَّة، ونظر إلى المقعد الخشبيّ الطويل الذي سبق لهم أن جرُّوه في الليلة السابقة وأسندوه إلى جدار البيت، وقال:

ـ حسنًا، حسنًا، حسنًا.

وذهب يجلس على المقعد، وترك يديه تتدلّيان بين ركبتيه، وقوّس كتفيه، ولكنَّه كان يحتفظ بارتفاع رأسه وينظر أمامه باستقامة نظرةً قاسية. وتردَّد ماتيو لحظة، ثم لحق به وجلس إلى جانبه. وبعد حين، انفصل شارلو عن الجمع وانزرع أمامهما. ورفع شوارتز رأسه ونظر إلى شارلو في جدٍّ، وقال:

ـ يجب أن أغسل ثيابي.

وساد صمت، وكان شوارتز ما يزال ينظر إلى شارلو.

ـ لست أنا الذي خسرها، هذه الحرب...

وبدا شارلو منزعجًا؛ وأخذ يضحك. ولكنّ شوارتز كان يتابع فكرته:

ـ لو أنَّ الجميع عملوا مثلي، فلربّما كنّا ربحناها. فليس لي ما أؤاخذ به نفسي.

وحكّ خدّه بهيئة اندهاش، وقال:

ـ إنَّ هذا لطريف!

وفكَّر ماتيو: هذا طريف، أجل، طريف. إنَّه ينظر في الفراغ ويفكِّر: «أنا فرنسيّ»، فيجد ذلك طريفًا للمرَّة الأولى في حياته. «هذا طريف» إنّنا لم نر «فرنسا» قطّ: وإنّما كنّا في داخلها، لقد كانت ضغط الهواء، وجاذبيّة الأرض، والفضاء، والرؤية واليقين الهادئ بأنّ العالم قد خُلق للإنسان، وقد كان طبيعيًا جدًّا أن يكون فرنسيًّا، فتلك هي أبسط الوسائل وأوفرها ليُحسّ نفسه عالميًّا. لم يكن ثمّة شيء للشرح: فقد كان على الآخرين، على الألمان، والإنكليز، والبلجيكيين أن يشرحوا سوء حظِّهم أو غلطتهم بأن لا يكونوا رجالاً تمامًا. لقد انقلبت فرنسا الآن على قفاها، ونحن نراها، نرى آلةً كبيرة معطَّلة، ونفكِّر: هذا ما كان. «هذا»: حادث أرضيّ، حادث تاريخيّ. إنّنا ما نزال فرنسيِّين، ولكن هذا ليس طبيعيًّا بعد. فقد كان حادث واحد كافيًا ليجعلنا نفهم أنّنا كنّا عارضين. إنّ شوارتز يفكِّر بأنَّه عارض، وهو لا يفهم نفسه بعد، وهو مرتبك مع نفسه، إنَّه يفكِّر: كيف يمكن أن نكون فرنسيِّين؟ هو يفكِّر: «لو كان لي بعض الحظّ لوُلدت ألمانيًّا». وإذ ذاك يتّخذ هيئة القسوة ويرهف أذنه ليسمع وطنه البديل يتدحرج نحوه، إنَّه ينتظر الجيوش اللامعة التي ستقيم له العيد، ينتظر اللحظة التي يستطيع فيها أن يستبدل بهزيمتنا نصرهم، اللحظة التي يبدو له فيها «طبيعيًّا» أن يكون منتصرًا وألمانيًّا.

ونهض شوارتز وهو يتثاءب، وقال:

ـ هيّا، سوف أغسل ثيابي.

فاستدار شارلو، ولحق بلونجان الذي كان يتحدَّث مع بينيت. وظلَّ ماتيو وحيدًا على مقعده.

وتثاءب لوبيرون بدوره في صخب، ثم قال:

ـ ما أشدَّ ما ينزعج المرء هنا.

وتثاءب شارلو ولونجان. ونظر إليهما لوبيرون يتثاءبان، فتثاءب من جديد، وقال:

ـ إنَّ ما ينقصنا هو ماخور.

فسأله شارلو في غيظ:

ـ هل تستطيع أن تضاجع في الساعة السادسة صباحًا؟

ـ أنا؟ في أيّة ساعة أستطيع.

ـ أمّا أنا، فلا. ليست رغبتي في المضاجعة أشدّ منها في تلقّي الركلات في المؤخَّرة.

وقهقه لوبيرون:

ـ لو كنتَ متزوِّجًا لتعلّمت أن تفعل ذلك بلا رغبة! والأمر الحسن حين تضاجع هو أنَّك لا تفكِّر بشيء.

وصمتوا. كانت شجرات الحور ترتعش، وكانت شمس قديمة ترتجف بين أوراقها، وفي البعيد كان يُسمع هدير القصف الطيِّب، ذلك الهدير الذي كان يوميًا عاديًا جدًّا ومطمئنًا جدًّا حتى ليُظنّ أنَّه ضجّة للطبيعة. وانقلب شيء ما في الهواء، فسقط بينهم زنبور سقطة طويلة مطّاطة. قال لوبيرون:

ـ اسمعوا!

ـ ما هذا؟

كان قد ساد حولهم نوعٌ من الفراغ، نوع من هدوء غريب. كانت العصافير تغرِّد، وديكٌ يصيح في القنّ؛ وفي البعيد، كان ثمّة من يضرب ضربات منتظمة على قطعة من حديد؛ ومع ذلك، فقد كان هذا السكون: كان القصف قد انقطع.

قال شارلو:

ـ هيه! هيه! ولكن اسمعوا!

ـ نعم.

وكانوا مرهفين آذانهم من غير أن يكفّوا عن تبادل النظر. قال بيارنيه في لهجة محايدة:

ـ سيبدأ الأمر هكذا. وذات لحظة، يشمل الصمت كلّ الجبهة.

ـ أيّة جبهة؟ ليس هناك من جبهة.

ـ أقصد كلّ مكان.

وخطا شوارتز في خجل خطوة نحوهم، وقال:

ـ أظنُّ أنَّه لا بدّ أوّلاً من إطلاق صوت بوق.

قال نيبير: ـ طز! ليس ثمّة من اتّصالات بعد: ربّما يكونون قد وقّعوا الهدنة منذ أربع وعشرين ساعة، بينما نحن لا نزال ننتظرها هنا!

فقال شارلو وهو يضحك أملاً:

ـ لعلّ الحرب قد انتهت منذ منتصف الليل. إنّ «وقف إطلاق النار» يكون دائمًا في منتصف الليل.

ـ أو عند الظهر.

ـ ولكن لا، أيُّها العنيد، بل في منتصف الليل: في الساعة الصفر، أتفهم؟

قال بيارنيه: ـ ولكن اصمتوا قليلاً.

فصمتوا. وكان بيارنيه يرهف سمعه وعلى وجهه علامات عصبيّة؛ وظلّ شارلو فاغر الفم. كانوا يستمعون إلى «السلام»، عبر السكون الضاجّ. سلام بلا مجد ولا قرع أجراس، بلا طبول ولا أبواق، سلام يشبه الموت.

قال لوبيرون: ـ خراء!

وكان الهدير قد عاد: ولكنَّه كان يبدو أقرب وأكثر تهديدًا. شبك لونجان يديه الطويلتين وفرقع أصابعه، وقال في مرارة:

ـ ولكنْ، يا إلٰهي، ماذا ينتظرون؟ أتراهم يجدون أنَّنا لم نقاتل بما فيه الكفاية؟ ولم نفقد من الرجال عددًا كافيًا؟ أينبغي أن تهلك فرنسا هلاكًا كاملاً حتى يصمِّموا على وقف المذبحة؟

كانوا موهونين وأعصابهم ثائرة، مغتاظين في الضعف، ذوي لون رصاصيّ هو الذي يخلِّفه سوء الهضم. كان حسبهم أن يسمعوا هدير طبل في الأفق لتسقط عليهم من جديد موجة الحرب الكبيرة. والتفت بينيت فجأة إلى لونجان، فإذا عيناه تقدحان العاصفة، وإذا يده متشنِّجة على حافَّة الحوض:

ـ أيّة «مذبحة»، أليس كذلك؟ أيّة مذبحة؟ أيّان كانوا، القتلى والجرحى؟ إذا كنت قد رأيتهم، فذلك لأنّك محظوظ. أمّا أنا، فإنِّي لم أر إلَّا ضرّاطين مثلك يركضون في الطُرق وهم يرتعشون ذعرًا.

وسأل لونجان في تعطّف مسموم:

ـ ولكنْ ما بك أيّها العنيد؟ هل تشكو شيئًا؟

ورمى نحو الآخرين بنظرة ضالعة:

ـ لقد كان صاحبنا بينيت فتى صغيرًا طيِّبًا، وكنّا نحبّه لأنَّه كان مثلنا في المؤخَّرة، ولم يكن هو الذي يتقدَّم الصفّ حين كانوا يطلبون متطوِّعًا. فالمؤسف أن يبدأ بقدّ المراجل عند انتهاء الحرب.

وتطاير الشرر من عينيّ بينيت، وقال:

ـ إنّني لا أقدّ المراجل، أيّها الفرج الأحمق!

ـ بلى، تقدّ المراجل! تريد أن تمثِّل دور الجنديّ الصغير.

ـ هذا أفضل من أن أخرأ مثلك في لباسي.

ـ أنتم تسمعونه: إنّني أخرأ في لباسي، لأنِّي أقول بأنَّ الجيش الفرنسيّ قد أسلم ساقيْه للريح.

فسأله بينيت، وهو يتثاءب من الغضب:

ـ هل أنت واثق من أنّ الجيش الفرنسيّ أسلم ساقيه للريح؟ أيكون ويغان قد كشف لك أسراره؟

فابتسم لونجان بسمة وقحة متعبة:

ـ لا حاجة إلى أسرار ويغان: إنَّ نصف القوّات في حالة هزيمة، والنصف الآخر محاصر في مكانه: ألا يكفيك هذا؟

فكنس بينيت الهواء بحركة قاطعة:

ـ سوف نتجمَّع ثانية على ضفاف اللوار، فنلتقي بجيوش الشمال في «سومور».

ـ أتعتقد بذلك أنت، أيُّها النابغة؟

ـ بل قاله لي الكابيتن. فليس لك إلَّا أن تستخبر في «فونتينا».

ـ إذا كان الأمر كذلك، فعلى جيوش الشمال أن تتدبّر أمرها، لأنّ الألمان في مؤخَّرتها كما تعلم. أمّا فيما يخصّنا، فإنَّه يدهشني أن نصل في الموعد المحدَّد.

وكان بينيت ينظر إلى لونجان من تحت، منخفض الجبين، وهو يصفِّر ويضرب الأرض بقدمه. وهزَّ كتفيه بعنف كما لو أنَّه يريد أن يتخلَّص من حشد ثقيل. وانتهى به الأمر إلى القول، وهو غاضب مذعور:

ـ حتى ولو تراجعنا حتى مارسيليا، حتى ولو اجتزنا فرنسا كلّها، فتبقى أمامنا إفريقيا الشماليّة.

وشبك لونجان ذراعيه وابتسم في ازدراء:

ـ ولماذا لا تقول جزيرة «سان ـ بيار ـ إيميكيلون» أيُّها الغبيّ؟

قال بينيت وهو متّجه إليه:

ـ أتحسب نفسك قويًّا؟ قل، أتحسب نفسك قويًّا؟

فارتمى شارلو بينهما، وهو يقول:

ـ كفى! كفى! أظنُّكما لن تتنازعا؟ إنَّ الجميع متَّفقون على أنَّ الحرب لا تُجدي شيئًا، وأنَّه يجب الانقطاع عنِ القتال (وأضاف بلهجة اقتناع حارَّة) يجب الانقطاع عن القتال إلى الأبد.

وكانوا جميعًا ينظرون إليه نظرة عميقة، فيما كان يرتجف من الحماسة، حماسة أن يوفِّق بين كلّ شيء: بين بينيت ولونجان، وبين الألمان والفرنسيِّين. وما لبث أن أضاف بصوت يكاد يكون مبتهلاً:

ـ مهما يكن، فينبغي أن نستطيع التفاهم معهم، فهم على كلّ حال لا يريدون أن يلتهمونا.

فحوَّل بينيت إليه غضبه قائلاً:

ـ لئن خسرنا الحرب، فلأنَّ أمثالك مسؤولون عنها.

وكان لونجان يقهقه:

ـ هذا شخص آخر لم يفهم، ذلك كلُّ ما في الأمر.

وساد صمت، ثم التفتت الرؤوس جميعًا إلى ماتيو على مهل. وكان يتوقَّع ذلك: فقد كانوا، إثر كلّ نقاش، يطلبونه للتحكيم، لأنَّه كان ذا ثقافة. وسأله بينيت:

ـ ما رأيك في الأمر؟

فخفض ماتيو رأسه، ولم يجب.

ـ هل أنت أصمّ؟ إنّنا نسألك رأيك؟

قال ماتيو: ـ ليس لي من رأي.

واجتاز لونجان الممرّ وانزرع أمامه:

ـ غير ممكن! فالأستاذ شخص يفكِّر طوال الوقت.

ـ ولكنَّك ترى: ليس طوال الوقت.

ـ مهما يكن من أمر، فلستَ غبيًا: إنّك تعلم جيّدًا أنّ المقاومة مستحيلة.

ـ كيف لي أن أعرف ذلك؟

واقترب بينيت بدوره. فكانا يقفان إلى جانبيْ ماتيو كملاكه وشيطانه. وقال بينيت:

ـ أنت لست انهزاميًّا يائسًا، ولا يمكن أن ترغب بأن يضع الفرنسيُّون السلاح قبل أن يقاتلوا حتى النهاية!

ـ فهزّ ماتيو كتفيه:

ـ لو كنت «أنا» الذي يقاتل، لأمكن أن يكون لي رأي. ولكنَّ الواقع أنّ الآخرين هم الذين يتساقطون، وسوف يقاتلون على اللوار: فليس بوسعي أن أقرِّر بدلاً منهم.

قال لونجان وهو يتأمَّل بينيت بهيئة هازئة:

ـ اسمع جيّدًا: إنَّ الإنسان لا يقرِّر الحرب بدلاً من الآخرين.

وكان ماتيو ينظر إليهما في قلق:

ـ إنّني لم أقل هذا.

ـ كيف لم تقل ذلك؟ لقد قلته منذ لحظة.

قال ماتيو: ـ إذا كان ثمّة حظّ ما، ولو كان حظًّا صغيرًا جدًّا..

ـ وإذن؟

فهزّ ماتيو رأسه:

ـ ولكن أنّى لنا أن نعرف؟

فسأل بينيت: ـ ولكن ماذا يعني هذا؟

فقال شارلو موضِّحًا:

ـ هذا يعني أنَّه لن يبقى لنا الآن إلَّا أن ننتظر، وألّا نقلق بعدُ أكثر ممّا ينبغي.

فصاح ماتيو: كلّا! كلّا!

ونهض فجأة وهو يشدّ على قبضتيه:

ـ إنّني أنتظر منذ طفولتي!

وكانا ينظران إليه من غير أن يفهما، ونجح في أن يهدِّئ نفسه، وقال لهما:

ـ ماذا يجدينا أن نقرِّر أو لا نقرِّر؟ فمنذا الذي يطلب رأينا؟ أتراكما مدركيْن وضعنا؟

فتراجعوا مذعورين، وقال بينيت:

ـ كفى، كفى، إنّنا نعرفه.

ـ قال لونجان: ـ أنت على حقّ، فالعسكريّ البسيط لا رأي له.

فاستفظع ماتيو بسمته الباردة الدبقة، وأجاب بجفاف:

ـ وأسوأ من ذلك وضع الأسير.

«كلّ شيء» يطلب منّا رأينا. «كلّ شيء» واستفهام كبير يحاصرنا: إنَّ هذه دعابة. إنَّهم يطرحون علينا السؤال كما يطرحونه على رجال؛ إنَّهم يريدون أن يقنعونا بأنَّنا ما زلنا رجالاً. ولكن لا، لا، لا! أيّة دعابة، ظلُّ هذا السؤال يطرحه ظلُّ حرب، على مظاهر رجال.

ـ ماذا يجديك أن يكون لك رأي؟ فلست أنت الذي ستقرِّر. وصمت. وفكَّر فجأة: لا بدّ من العيش، لا بدّ من أن يعيش وأن يقطف يومًا فيومًا ثمار الهزيمة المتعفِّنة، وأن يُحوِّل هذا الاختيار الكلِّي الذي يرفضه اليوم إلى هزائم بالتفصيل. ولكنِّي يا إلٰهي، لم أكن أريدها أنا، هذه الحرب، ولا هذه الهزيمة، فبأيِّ تزوير يقسرونني على أن أتحمّلها؟ وشعر بغضب حيوان وقع في الشباك يملأ نفسه، وإذ رفع رأسه، رأى هذا الغضب نفسه يلتمع في عيونهما. ليتهم يصرخون في وجه السماء جميعًا: «لا شأن لنا قطّ بهذه الحكايات كلّها! إنّنا أبرياء!» وتلاشى اندفاعه: كانت البراءة تشعُّ بكلِّ تأكيد في الشمس الصباحيّة، وقد كان بالإمكان لمسها على أوراق العشب، ولكنَّها كانت تكذب: فالبراءة الحقيقيّة هي هذه الغلطة المشتركة التي لا يمكن لمسها، «غلطتنا». شبح حرب، شبح

هزيمة، وشبح إثم. ونظر إلى بينيت ولونجان، وهو يفتح يديه: لم يكن يعرف إذا كان يريد أن يساعدهما أم يطلب منهما المساعدة. ونظرا إليه أيضًا ثم لفتا رأسيهما وابتعدا. وكان بينيت ينظر إلى قدميه، ولونجان يبتسم لنفسه بسمة مرتبكة صلبة، وكان شوارتز في ركن مع نيبير يتحدَّثان بالألزاسيّة، ويكتسبان هيئة المشاركين الضالعين، أمّا بيارنيه فكان يفتح يده اليمنى ويغلقها بحركة تشنُّجيّة. وفكّر ماتيو: «هذا هو ما صرنا إليه وأصبحنا».

مارسيليا، الساعة ١٤

طبعًا، كان يشجب الحزن «بقسوة»، ولكن من يسقط فيه بحاجة إلى الشيطان ليخرجه منه. وفكَّر «لا بدَّ أنّ لي طبعًا شقيًّا». كان له كثير من المبرِّرات لكي يبتهج: وكان بوسعه خاصَّة أن يهنِّئ نفسه بأنَّه قضى على الصفاق وشُفي منه. ولكن بدلاً من ذلك كان يفكِّر: «ما زلت حيًّا» ويأخذه الأسى. إذا ما كان الإنسان حزينًا، فإنَّ أسباب الابتهاج هي التي تصبح حزينة، فإذا هو يبتهج بحزن. وفكَّر: والواقع أنِّي ميِّت. إذا كان الأمر متعلِّقًا به، فهو قد مات في «سيدان» في شهر أيّار عام ٤٠. والمصيبة هي كلّ هذه السنوات التي تبقى له ليعيشها. وتنهَّد من جديد، وتابع بنظره ذبابة كبيرة خضراء كانت تمشي على السقف، وقرَّر: إنَّني إنسان قليل الذكاء. وكانت هذه الفكرة تزعجه بعمق. وكان بوريس حتى ذلك الحين قد اختطّ لنفسه ألّا يتساءل قطّ عن ذاته، وكان من ذلك في حالة رضى تامّ؛ ومن جهة أخرى، فما دامت القضيّة تقتصر على أن يعرِّض نفسه للقتل، فإنَّه ليس ذا أهمِّيّة كبيرة أن يكون قليل الذكاء، بل على العكس، إنَّ ما يؤسف عليه كان أقلّ. أمّا الآن فقد تغيّر كلّ شيء: إنَّه مرصود للحياة، وقد كان مضطرًّا للاعتراف بأنَّه لم يكن يملك غاية ولا موهبة ولا مالاً. وبالإجمال، لم يكن يملك أيّ مزيّة مطلوبة، ما عدا الصحَّة طبعًا. وفكَّر: ما أشدّ ما سأضجر! واستشعر الخيبة. وطارت

الذبابة وهي تطنّ. أمرّ بوريس يده تحت قميصه ولامس الجرح الذي كان يسطّر بطنه، على مستوى الأربيَّة، وكان يحبّ أن يُحسّ تحت أصابعه بذلك المجرى اللحميّ. كان ينظر إلى السقف، ويلامس جرحه، فيحسّ قلبه ثقيلاً. ودخل «فرانسيون» إلى القاعة، فاتّجه إلى بوريس على غير عجل، بين الأسرّة الفارغة، ثم توقَّف فجأة، متظاهرًا بالدهشة، وقال:

ــ كنت أبحث عنك في الباحة.

فلم يجب بوريس، وشبك فرانسيون ذراعيه في غيظ:

ــ إنَّها الساعة الثانية بعد الظهر، ولا تزال في السرير!

فقال بوريس:

ــ إنّني ضَجِر.

ــ هل أنت مهموم؟

ــ لست مهمومًا، إنّني ضَجِر.

فقال فرانسيون: ــ لا تحزن، لا بدَّ أن يزول ذلك.

وجلس على سرير بوريس وأخذ يلفّ سيجارة. وكان لفرانسيون عينان كبيرتان جاحظتان وأنف شبيه بمنقار نسر، وكان يبدو مريعًا. غير أنَّ بوريس كان يحبّه كثيرًا، وكان حسبه أحيانًا أن يراه حتى يضحك ضحكًا جنونيًا. قال فرانسيون:

ــ بقي لنا قليل.

ــ كم؟

ــ أربعة.

فعدّ بوريس على أصابعه:

ــ أي يوم ١٨.

فهمهم فرانسيون علامة الإقرار، ولحس الورقة المصمَّغة وأشعل السيكارة، ثم انحنى على بوريس يُسارُّه:

ـ أليس ثمّة أحد هنا؟

كانت جميع الأسرَّة خالية: فقد كان الأشخاص في الباحة أو في المدينة. قال بوريس:

ـ أنت ترى.. إلّا أَنْ يكون هناك جواسيس تحت الأسرّة.

فازداد فرانسيون انحناء، وأوضح قائلاً:

ـ في ليلة ١٨، يكون دور «بلين» في الخدمة. وستكون الطائرة على المدرَّج مستعدَّة للإقلاع، وهو يدخلنا عند منتصف الليل لنقلع في الساعة الثانية. وفي الساعة السابعة نكون في لندن. ما رأيك في ذلك؟

ولم يكن بوريس ليقول شيئًا. كان يجسّ جرحه ويفكِّر. إنَّهم محظوظون. ثم يشعر بمزيد من الحزن. سوف يسألني عمَّا صمَّمت عليه.

ـ ماذا؟ ماذا؟ ما رأيك في ذلك؟

قال بوريس: ـ رأيي أنّكم محظوظون.

ـ كيف، محظوظون؟ ما عليك إلّا أنَّ تأتي معنا. ولن تقول إنَّنا لم نطلب منك ذلك.

قال بوريس: ـ لا، لن أقول هذا.

ـ طيِّب، فماذا قرَّرت؟

فقال في أسى: ـ لم أقرِّر شيئًا.

ـ إنّك لن تبقى مع ذلك في فرنسا؟

ـ لا أدري.

فقال فرانسيون بلهجة مصدومة:

ـ إنَّ الحرب لم تنتهِ، والذين يقولون إنَّها انتهت جبناء كذَّابون. يجب أن تكون حيث يجري القتال، ولا يحقّ لك أن تبقى في فرنسا.

قال بوريس بمرارة: ـ تقول هذا لي أنا!

ـ وإذن؟

ـ إذن، لا شيء. إنّني أنتظر رفيقة، كما أخبرتك. وسأقرّر بعد أن أراها.

ـ ليس ثمّة من رفيقة هنا: فهذه قضيّة رجال.

قال بوريس بجفاف: ـ الأمر كما ذكرت لك.

فبدا الخوف على فرانسيون وصمت. لعلّه سيظنُّ أنّي خائف؟ وتأمَّله بوريس في عينيه ليتحقَّق، ولكنَّ فرانسيون وجّه له بسمة واثقة أعادت له اطمئنانه.

وسأل بوريس: ـ تصلون في الساعة السابعة؟

ـ في الساعة السابعة.

ـ لا بدَّ أنَّها رائعة، شواطئ إنكلترا عند الصباح. إنّ هناك جروفًا كبيرة بيضاء من جانب «الدوفر».

قال فرانسيون: ـ آه!

قال بوريس: ـ لم يسبق لي قطّ أن ركبت الطائرة.

وسحب يده من تحت قميصه، وأضاف:

ـ هل يتَّفق لك أنت أن تحكّ جرحك؟

ـ لا.

ـ إنّني أحكّه طوال الوقت، وهذا يزعجني.

قال فرانسيون: ـ بالنظر إلى موضع الجرح عندي، فمن الصعب أن أحكّه أمام الناس.

وساد صمت، ثم استطرد فرانسيون:

ـ متى تأتي رفيقتك؟

ـ لا أدري، كان المفروض أن تأتي من باريس، فتأمَّل!

ـ قال فرانسيون: ـ يجب أن تحرّك مؤخّرتها، لأنَّنا نحن الآخرين لا نستطيع الانتظار.

فتنهَّد بوريس وانقلب على بطنه. وتابع فرانسيون بلهجة مجرَّدة:

ـ أمّا رفيقتي، فلا أُطلعها على شيء، ومع ذلك أراها كلّ يوم. وفي المساء الذي نسافر فيه، سأترك لها كلمة، وحين تتسلّمها، نكون قد أصبحنا في لندن.

فهزّ بوريس رأسه من غير أن يجيب. وقال فرانسيون:

ـ إنّك لتدهشني، يا سرغين، إنّك تدهشني!

قال بوريس: ـ إنّك لا تستطيع أن تفهم.

فصمت فرانسيون ومدّ يده فتناول كتابًا. سيمرُّون فوق جروف الدوفر عند الصباح. ولم يكن ينبغي التفكير في ذلك: إنَّ فرانسيون لم يكن يؤمن ببابا نويل، فهو واثق من أنّ لولا ستقول لا. وقرأ فرانسيون:

- «الحرب والسلم». ما هذا؟

ـ رواية عن الحرب.

ـ حرب الـ ١٤؟

ـ كلّا، حرب أخرى. ولكنّ الأمور متشابهة.

قال فرانسيون ضاحكًا: ـ نعم الأمور متشابهة دومًا.

وكان قد فتح الكتاب صدفة على صفحة، وأخذ يقرأ مقطِّبًا حاجبيه في هيئة اهتمام مؤلم.

وتداعى بوريس للسقوط على سريره. كان يفكِّر: «إنَّني لا أستطيع أن «أفعل» لها ذلك، لا أستطيع أن أذهب للمرَّة الثانية من غير أن أسألها رأيها. وفكّر: وإذا كنت أبقى من أجلها، فسيكون هذا دليل حبّ. وفكَّر: آه! كفى! كفى! دليل عجيب للحبّ. ولكن هل كان يحقّ للمرء البقاء من أجل امرأة؟ لو سُئل فرانسيون وغابيل لأجابا نفيًا، ولكنَّهما كانا صغيريَّ السنّ أكثر ممّا ينبغي، ولم يكونا يعرفان ما عساه يكون الحبّ. وفكَّر بوريس: إنَّ ما كنت أودّ أن يُقال لي، ليس ما عساه يكون الحبّ: فإنَّما يُدفع لي لأعرفه، ولكن كنت أودُّ أن أعلم قيمة ذلك. هل يحقّ للمرء أن

يبقى لكي يُسعد امرأة؟ إذا عُرضت القضيّة على هذا النحو، كان جوابي نفيًا. ولكن أيحقُّ لنا أن نذهب، إذا كان ذلك يشقي كائنًا آخر؟ وكان يتذكّر عبارة لماتيو: «إنّني لست جبانًا بما فيه الكفاية حتى أخشى أن أعذِّب أحدًا إذا لزم الأمر». نعم، بكلّ تأكيد: ولكن ماتيو كان دائمًا يفعل عكس ما كان يقول، إنَّه لم يكن يملك الجرأة قطّ على إيذاء الناس. وتوقَّف بوريس، وقد انقطع نَفَسه: «وإذا لم يكن الأمر إلَّا ضربًا من العناد؟ إذا كانت رغبتي في الذهاب قد أملتها الأنانيّة الصرف والخوف من الانزعاج في الحياة المدنيّة؟ ربّما كنت شخصًا مغامرًا، وربّما كان من الأسهل أن يعرِّض الإنسان نفسه للقتل من أن يحيا. وماذا لو كنت أبقى بدافع من طلب الراحة، أو من الخوف، أو من الرغبة في أن تكون امرأةٌ تحت يديّ؟ والتفت: كان فرانسيون ينحني فوق الكتاب في اجتهاد مليء بالتحدِّي، كما لو أنَّه أخذ على عاتقه أن يكتشف أكاذيب المؤلِّف. «إذا استطعت أن أقول له: إنَّني ذاهبٌ معكم، إذا أمكن للكلمة أن تخرج من فمي، لقلتها». وتنحنح وفتح شفتيه وانتظر. ولكنّ الكلمة لم تأتِ. «إنني لا أستطيع أن أسبّب لها هذا الشقاء». وفهم بوريس أنَّه لم يكن يريد أن يذهب من غير أن يستشير لولا. ستقول بكلّ تأكيد لا، وينتهي الأمر. وفكَّر مأخوذًا: وإذا لم تصل في الموعد المحدَّد؟ إذ لم تصل قبل ١٨؟ هل ينبغي أن يقرِّر وحده؟ لنفرض أنّني بقيت، وأنَّها وصلت يوم ٢٠، وأنَّها قالت لي: كنت سأدعك تذهب. ستكون لي آنذاك سحنة لطيفة، افتراض آخر: اذهب، فتصل هي يوم ١٩، وتقتل نفسها. أوه خراء! واختلط كلّ شيء في ذهنه، فأغمض عينيه وتداعى للاستغراق في النوم.

وصاح بيرجيه من وراء الباب:

ــ سرغين، هناك أنثى تنتظرك في الباحة.

فانتفض بوريس ورفع فرانسيون رأسه:

ـ إنَّها رفيقتك.

وأخرج بوريس ساقيه من السرير وحكّ جلدة رأسه، وقال وهو يتثاءب:

ـ سيكون هذا أروع ممَّا أنتظر. كلّا: بل هو يوم زيارة أختي.

فردّد فرانسيون بهيئة بليدة.

ـ آه، إنَّه يوم زيارة أختك؟ إنَّها الصبيّة التي كانت معك، في ذلك اليوم؟

ـ نعم.

فقال فرانسيون من غير حماسة:

ـ لا بأس بها.

ولفّ بوريس طمّاقاته وارتدى سترته، ثم حيّا فرانسيون بإصبعين من يده واجتاز القاعة فهبط السلّم وهو يصفِّر. في منتصف الدرج، توقّف وأخذ يضحك، وفكَّر: «إنَّ هذا لطريف! طريف كم أنا حزين». ولم يكن يسلِّيه قطّ أن يرى إيفيش، وفكَّر: «حين يكون المرء حزينًا، فهي لا تُساعده، بل تُرهقه».

وكانت تنتظره في باحة المستشفى. كان ثمّة جنود يطوفون المكان وهم يتطلَّعون إليها، ولكنَّها لم تكن متنبِّهة لهم. بسمت له من بعيد:

ـ مرحبًا، أيُّها الأخ الصغير.

وحين رأى الجنود بوريس قادمًا ضحكوا وصاحوا: كانوا يحبُّونه كثيرًا. وحيّاهم بوريس بيده، ولكنَّه لاحظ بغير سرور أنّ أحدًا لم يقل له «أيُّها المحظوظ» أو «أفضِّل أن تكون في سريري على أن يكون الرعد». والواقع أنَّ إيفيش كانت قد شاخت كثيرًا وقبُحت منذ إجهاضها. وبالطبع كان بوريس ما يزال فخورًا بها، ولكن على نحو آخر. وقال وهو يلامس عنقها بأطراف أصابعه:

ـ مرحبًا أيّتها العفريتة الصغيرة.

وكانت رائحة حمّى وعطر كولونيا تخفق حولها الآن بصورة دائمة.

وتأمَّلها في تجرُّد، ثم قال لها:

ـ إنّك سيِّئة المنظر.

ـ أعرف ذلك.. فأنا قبيحة.

ـ إنَّكِ لا تضعين بعدُ الأحمر على شفتيك أبدًا.

قالت بقسوة: ـ نعم.

وصمتا. كانت ترتدي قميصًا أحمر ذا ياقة مرتفعة، من طراز روسيّ جدًّا، يجعلها تبدو أكثر اصفرارًا. ليتها على الأقلّ وافقت على أن تكشف قليلاً من كتفيها أو صدرها: فقد كانت لها كتفان جميلتان جدًّا! ولكنَّها كانت قد صمَّمت على ارتداء القمصان المرتفعة والتنانير المفرطة في الطول: فكأنَّما كانت تخجل من جسمها. وسألته:

ـ هل نبقى هنا؟

ـ أستطيع أن أخرج، ويحقّ لي ذلك.

قالت إيفيش: ـ إنَّ السيّارة تنتظرنا.

فسألها بوريس مذعورًا: ـ أليس هو هنا؟

ـ من؟

ـ العمّ.

ـ كلّا.

واجتازا الباحة وخرجا من البوَّابة، وحين رأى بوريس سيّارة البويك الخضراء الضخمة التي تخصّ السيِّد «ستوريل» أحسّ بالانزعاج، فقال:

ـ في المرَّة القادمة، اجعليها تنتظر في زاوية الشارع.

وصعدا إلى السيّارة، وكانت واسعة سعةً مضحكة، بحيث كان المرء يضيع فيها.

قال بوريس بين أسنانه:

ـ يمكن أن نلعب فيها لعبة «التخفّي».

والتفت السائق فبسم لبوريس، وكان رجلاً ضخمًا مفرط المجاملة ذا شاربين رماديّين. وسأل:

ـ إلى أين أمضي بالسيِّدة؟

فسألها بوريس: ـ ما هو مشروعك؟

ففكَّرت إيفيش:

ـ أريد أن أرى بشرًا.

ـ إذن، جادَّة الكانوبيير؟

ـ الكانوبيير، أوه كلّا! نعم، نعم، إذ شئت.

قال بوريس: ـ إلى المرفأ عند زاوية الكانوبيير.

ـ طيِّب، يا سيِّد سرغين.

وفكَّر بوريس: «تنبل!» وأقلعت السيّارة فأخذ بوريس ينظر عبر الزجاج، ولم تكن له رغبة في الكلام، لأنَّ السائق كان يمكن أن يسمعهما. سألته إيفيش:

ـ ولولا، ما أخبارها؟

فالتفت إليها: كانت تبدو في وضع مطمئن كلّ الاطمئنان، فوضع إصبعًا على فمه، ولكنَّها ردّدت بصوت ممتلئ قويّ، كما لو أنَّ السائق لم يكن في نظرها أكثر من قطعة لِفْتٍ مطبوخة:

ـ هل لديك أخبار عن لولا؟

فهزَّ كتفيه من غير أن يجيب. فقالت:

ـ ماذا؟

قال: ليس لديّ أخبار.

حين كان بوريس يتداوى في «تور»، جاءت لولا فأقامت بالقرب منه. وفي مطلع حزيران، نُقل إلى مرسيليا، فمرَّت هي في باريس، تنبّؤًا

بالأسوأ، لتسحب مالاً من المصرف قبل أن تلحق به. وفي تلك الأثناء، وقعت «الأحداث» وبات لا يعرف عنها شيئًا. ودفعته رجّة إلى لصق إيفيش، وكانا يحتلّان مكانًا صغيرًا جدًّا في مقعد البويك، حتى إنَّ ذلك ذكَّره يوم هبطا باريس: كانا يتسلّيان باعتبار نفسيهما يتيمين ضائعين في العاصمة، وغالبًا ما كان أحدهما يلتصق هكذا بالآخر، على مقعد من مقاعد «الدوم» أو «الكوبول». ورفع رأسه ليحدِّث إيفيش في هذا، ولكنَّه رأى مظهرها المظلم، فاجتزأ بالقول:

ـ لقد سقطت باريس، أرأيت؟

قالت إيفيش بلامبالاة:

ـ نعم، رأيت.

ـ وزوجك؟

ـ لا أنباء عنه كذلك.

وانحنت نحوه وقالت بصوت سريع منخفض:

ـ أودّ لو أنَّه يموت.

فألقى بوريس نظرة إلى السائق، ورأى أنَّه كان ينظر إليهما في المرآة العاكسة، فلكز إيفيش في مرفقها فصمتت، ولكنَّها ظلَّت محتفظة على شفتيها ببسمة خبيثة جادَّة. وتوقَّفت السيّارة في أسفل جادَّة الكانوبيير، فقفزت إيفيش إلى الرصيف وقالت للسائق في سهولة آمرة:

ـ عُد لتأخذني من مقهى «ريش» في الساعة الخامسة.

فقال السائق بصوت رقيق:

ـ إلى اللقاء، يا سيِّد سرغين.

قال بوريس منزعجًا: ـ مع السلامة.

وفكَّر: سأعود في الترام. وتناول ذراع إيفيش وعادا يصعدان الكانوبيير. ومرّ ضبّاط، فلم يحيِّهم بوريس ولم يبدُ عليهم الاهتمام بذلك. وكان بوريس منزعجًا لالتفات النساء إليه لدى مروره.

وسألته إيفيش:

ـ ألا تحيِّي الضباط؟

ـ ولماذا؟

فقالت: ـ إنَّ النساء ينظرن إليك.

فلم يُجِبْ بوريس، وبسمت له سمراء، فالتفتت إيفيش باهتمام وقالت موجِّهة إليها الكلام:

ـ نعم، نعم.. إنَّه جميل.

فقال بوريس مبتهلاً:

ـ إيفيش، لا تجذبي إلينا الأنظار.

كانت تلك هي اللازمة الجديدة. فقد حدث أن قال له أحدهم ذات صباح إنَّه كان جميلاً، ومنذ ذلك الحين والناس يردِّدون له ذلك، وكان فرانسيون وغابيل يدعوانه «وجه الحبِّ». وبالطبع، لم يكن بوريس ليغترَّ، ولكن ذلك كان مزعجًا، لأنَّ الجمال ليس ميزة في الرجال. وقد كان يؤثر لو أنَّ جميع تلك المومسات ينشغلن بمؤخَّراتهنَّ، ويؤثر لو أنَّ الذكور يعمدون في الطريق إلى بعض المغازلة لإيفيش بقدر كافٍ لإشعارها بأنَّها جميلة.

وعلى سطيحة مقهى «ريش» كانت جميع الطاولات مشغولة تقريبًا؛ فجلسا وسط نساء سمراوات جميلات وضبَّاط وجنود أنيقين ورجال مسنِّين ذوي أيدٍ سمينة؛ جمع وديع هادئ، وأشخاص يستحقُّون القتل ولكن من غير إيذاء. وكانت إيفيش قد بدأت تشدّ على خصلات شعرها، فسألها بوريس:

ـ هل تشكين شيئًا؟

فهزّت كتفيها. ومدّ بوريس ساقيه، فلاحظ أنَّه كان منزعجًا، وسألها:

ـ ماذا تريدين أن تشربي؟

ـ هل قهوتهم جيِّدة؟

ـ هكذا.

ـ إنِّني أموت شوقًا إلى شرب قهوة جيِّدة. إنَّهم هناك يصنعون قهوة منتنة.

قال بوريس للخادم:

ـ فنجانا قهوة (والتفت إلى إيفيش فسألها) كيف الحال مع عمِّك وامرأة عمِّك؟

فانطفأت الحماسة على وجه إيفيش، وقالت:

ـ لا بأس. إنّني أصبح شبيهة بهما (وأضافت بضحكة صغيرة): إنّ امرأة عمِّي تقول إنَّني أُشبهها.

ـ وماذا تفعلين طوال النهار؟

ـ أوه، بالأمس مثلاً، نهضت في العاشرة، فقمت بزينتي بأبطأ ما أستطيع، حتى صارت الساعة الحادية عشرة والنصف، وقرأت الصحف..

فقال بوريس بقسوة: ـ إنّك لا تحسنين قراءة الصحف.

ـ نعم، لا أُحسن ذلك. وعند الغداء، تحدَّثنا عن الحرب، وذرفت الأمّ ستوريل دمعة وهي تفكِّر بابنها العزيز، وحين تبكي ترتفع شفتاها حتى لأظنّ بأنَّها موشكة على الضحك. وبعد ذلك اشتغلنا بالصوف، فأطلعتني على بعض أسرارها: لقد كان جورج ذا صحَّة رقيقة حين كان صغيرًا، فتصوّري أنّه أُصيب بالتهاب الأمعاء في الثامنة من عمره؛ فإذا كان لا بدَّ لها من الاختيار بين ابنها وزوجها فسيكون ذلك فظيعًا؛ ولكنَّها تؤثر أن يموت زوجها، لأنَّها كانت أمًّا أكثر منها زوجة. ثم حدَّثتني عن أمراضها، عن الرحم والأمعاء والمثانة، ويبدو أنّ الأمور عندها سيِّئة جدًّا.

وكانت على شفتيْ بوريس «دعابة» عظيمة، جاءته بسرعة كبيرة حتى

شكّ في أن لا يكون قد قرأها في صحيفة ما. ولكن لا. «إنَّ النساء يتحدَّثن فيما بينهنّ عن داخل بيوتهنّ أو عن داخل أجسامهنّ»، وكانت العبارة لا تخلو من التصنُّع والحذلقة، وتشبه مثلاً من أمثال لاروشفوكو.. «على المرأة أن تتحدَّث عن داخل بيتها أو عن دواخل جسدها. أو إذا لم تتحدَّث امرأة صالحة عن داخلها، فلأنَّها تكون أثناء ذلك تتحدَّث عن دواخل بيتها». وتساءل عمّا إذا كان سيطلع إيفيش عليها! ولكن إيفيش كانت تزداد عدم فهم الدعابات. واكتفى بالقول:

ـ نعم. وبعد ذلك؟

ـ بعد ذلك، عدت إلى الغرفة ومكثت فيها حتى العشاء.

ـ وماذا فعلت فيها؟

ـ لا شيء. وبعد العشاء استمعنا إلى أخبار الراديو وعلّقنا عليها. يبدو أنّنا لم نخسر شيئًا، وأنَّ علينا أن نحتفظ برباطة جأشنا، وأنّ فرنسا شهدت ما هو اسوأ من ذلك. وبعد ذلك عدتُ إلى غرفتي ثانية، فأعددت فنجان شاي على موقدي الكهربائيّ الذي أخفيه، لأنّه يعطّل الكهرباء مرَّةً على ثلاث مرَّات أستعمله فيها. وقد جلست في أريكة وانتظرت حتى يناموا.

ـ وبعد ذلك؟

ـ تنفّست.

قال بوريس: ـ يُحسن بك أن تأخذي اشتراكًا للمطالعة.

قالت: ـ حين أقرأ تتراقص الأحرف أمام عينيَّ، فأفكِّر طوال الوقت في جورج. إنّني لا أستطيع الامتناع عن الأمل بأن نتلقّى نبأ موته.

ولم يكن بوريس يحبّ زوج أخته، وهو لم يكن ليفهم قطّ ماذا حدا بإيفيش في أيلول ٣٨ إلى الفرار من البيت لترتمي على رأس تلك الهليونة. ولكن كان يسرُّه الإقرار بأنّه لم يكن الحصان الرديء، حتى إنَّ جورج حين علم بأنَّها حامل، سلك سلوكًا طيِّبًا: فهو الذي ألحّ على أن

يتزوَّجها. ولكن كان ذلك بعد فوات الأوان: كانت إيفيش تكرهه لأنَّه جعلها تحمل. كانت تقول بأنَّها تستفظع نفسها، وقد اختبأت في القرية، ولم تشأ حتى أن ترى أخاها مرَّة أخرى. ولا ريب في أنَّها كانت تقتل نفسها لو لم تكن تخاف خوفًا شديدًا من أن تموت.

ـ أيّة قذارة!

فانتفض بوريس:

ـ ماذا؟

فقالت وهي تومئ إلى فنجان القهوة: ـ هذا.

وذاق بوريس القهوة، وقال بهدوء:

ـ صحيح أنَّها ليست عظيمة (وفكّر لحظة ثم أضاف)، ولكنَّها ستزداد سوءاً مع الأيّام، كما أتصوّر.

قالت إيفيش: ـ يا لبلاد المهزومين!

ونظر بوريس في حذرٍ فيما حوله. ولكن لم يكن ثمّة من يتنبَّه لهما: كان الناس يتحدَّثون عن الحرب في احترام وندم. فكأنَّهم كانوا عائدين من دفن عزيز. ومرّ الخادم وهو حاملٌ صينيَّةً فارغةً، فأدارت له إيفيش عينين حبريّتين وقذفته بقولها:

ـ إنَّها منتنة!

فنظر إليها الخادم في دهشة. وكان له شارب رماديّ، وقد كان يمكن لإيفيش أن تكون في سنّ ابنته. قالت إيفيش:

ـ هذه القهوة منتنة، وتستطيع أن تأخذها.

وكان الخادم يحدِّجهما في فضول: لقد كانت أصغر سنًّا من أن يستطيع إخافتها. وحين أدرك من يكونان، راودته بسمة قاسية:

ـ كنت تنتظرين قهوة يمنيّة؟ لعلك لا تعرفين أنّنا في حرب؟ فأجابت بحماس:

ـ ربّما كنت لا أعرف ذلك، ولكنَّ أخي الذي جُرح يعرفها خيرًا منك بالتأكيد.

وصرف بوريس عينيه، وقد احمرّ من فرط الاضطراب. لقد أصبحت أشدّ نباهة ولم تكن تفتقر إلى سرعة البداهة، ولكنَّه كان يتأسَّف على العهد الذي كانت تمضغ فيه غضبها بصمت، وشعرها منتثر في وجهها. لقد كانت أقلّ مشاكل.

وتمتم الخادم مغتاظًا:

ـ لن أُرسل الشكوى من أجل فنجان قهوة، في اليوم الذي يدخل فيه الألمان باريس!

ومضى، فضربت إيفيش بقدمها الأرض:

ـ وليس في فمهم إلَّا الحرب، إنَّهم لا يكفُّون عن دعوى القتال وكأنَّهم فخورون بذلك. فليخسروها، حربهم، ليخسروها مرَّة وإلى الأبد، ولنكفّ عن الكلام فيها.

وخنق بوريس تثاؤبه: إنَّ انفجارات إيفيش لم تعد تسلِّيه. حين كانت فتاة، كان يروقه أن يراها تشدّ شعرها وهي تخبط وتُحوِل عينيها، وقد كان هذا يجعلك مرحًا طوال النهار. أمَّا الآن، فإنَّ عينيها تظلَّان كئيبتين، فكأنَّها تركن إلى الهدوء، فتشبه أمّهما في تلك الحالات. وفكَّر مندهشًا: «إنَّها امرأة متزوِّجة، امرأة متزوِّجة لها عمّ وامرأة عمّ، وزوج في الجبهة وسيّارة عائليّة». ونظر إليها في حيرة، ثم صرف عينيه لأنَّه كان يشعر بأنَّها سترعبه. «سوف أذهب!» وانتصب فجأة: إنَّ قراره قد اتُّخذ. «سأذهب. سأذهب معهم. إنّي لا أستطيع أن أبقى بعد في فرنسا». وكانت إيفيش تتكلَّم، فسألها:

ـ ماذا؟

ـ الوالدان.

ـ ماذا تقصدين؟

ـ أقول إنَّهما كان عليهما أن يبقيا في روسيا، يبدو أنّك لا تسمعني.

ـ لو بقيا فيها، لدخلا السجن.

ـ على أيِّ حال، ما كان ينبغي لهما أن يجنِّسانا بالجنسيّة الفرنسيّة، وإلّا لكان بوسعنا أن نعود إلى بلادنا.

قال بوريس: ـ بلادنا هي فرنسا.

ـ كلّا، بل هي روسيا.

ـ هي فرنسا، ما داما قد جنّسانا.

قالت إيفيش: ـ تمامًا، من أجل هذا ما كان ينبغي لهما أن يفعلا ذلك.

ـ نعم، ولكنَّهما فعلاه.

ـ الأمر عندي سواء. ما دام أنَّ عليهما ألَّا يفعلا ذلك، فكأنَّهما لم يفعلا شيئًا على الإطلاق.

قال بوريس: ـ لو كنت في روسيا، لبصقت عليها.

ـ سيكون الأمر عندي سواء، لأنَّها بلاد عظيمة، لا بدَّ أن أشعر فيها بالاعتزاز. أمّا هنا، فإنِّي أقضي وقتي وأنا أشعر بالعار.

وصمتت لحظة، وكان يبدو أنَّها متردِّدة. كان بوريس ينظر إليها في حنان، ولم تكن لديه أيّة رغبة في معاكستها، وفكّر في تفاؤل: «ستضطر حتمًا إلى التوقُّف. فأنا لا أدري ما عسى تستطيع أن تضيفه». ولكن إيفيش كانت تتمتّع بالاختراع: فقد رفعت يدًا في الهواء، ورسمت بها غطسةً صغيرة، كما لو أنَّها كانت تقذف نفسها في الماء، وقالت:

ـ إنّني أحتقر الفرنسيِّين..

ورفع رجل رأسه عن صحيفة كان يقرأها إلى جانبهما، وتأمّلهما بهيئة حالمة. نظر إليه بوريس مواجهة في عينيه، ولكن ما لبث الرجل أن نهض ليستقبل امرأة كانت متَّجهة نحوه، فانحنى لها وجلست، ويدها في

يده وهما يبتسمان. واطمأنّ بوريس فعاد إلى إيفيش. وبدأ النزاع الكبير: كانت تدمدم بين أسنانها:

ــ أحتقرهم، أحتقرهم!

ــ تحتقرينهم لأنَّهم يصنعون قهوة رديئة؟

ــ أحتقرهم لكلٍّ شيء.

وكان بوريس قد أمل أن تهدأ العاصفة من تلقاء نفسها، ولكنَّه يدرك الآن أنَّه كان مخطئًا، وأنَّه لا بدَّ من مواجهتها بشجاعة. وقال:

ــ أمّا أنا، فأحبُّهم كثيرًا، إنَّ الجميع سيسقطون فوقهم، الآن وقد خسروا الحرب، ولكنِّي رأيتهم في الخطّ الأوَّل، وأؤكِّد لك أنَّهم فعلوا كلّ ما في طاقتهم.

قالت إيفيش:

ــ أترى؟ أترى؟

ــ ماذا أرى؟

ــ لماذا تقول: «إنَّهم» فعلوا كلّ ما في طاقتهم؟ لو كنت تشعر بأنّك فرنسيّ لقلت «نحن».

وإنّما لم يقل بوريس «نحن» بدافع التواضع. وهزّ رأسه وقطّب حاجبيه، وقال:

ــ أنا لا أحسّني فرنسيًّا ولا روسيًّا. ولكن حين كنت هناك، مع سائر العساكر، كان ذلك يلذّ لي.

قالت: ــ إنَّهم أرانب.

فتظاهر بوريس بأنَّه أخطأ، فقال وكأنَّه يستدرك:

ــ نعم، أرانب مدهشة.

ــ كلّا، كلّا، بل أرانب تهرب. هكذا (وأركضت يدها على الطاولة).

قال بوريس: ـ إنّكِ كجميع النساء. فأنتِ لا تقدِّرين إلَّا البطولة العسكريّة.

ـ ليس الأمر كذلك. ولكن ما داموا يريدون أن يخوضوا هذه الحرب، فما كان عليهم إلَّا أن يخوضوها حتى النهاية.

فرفع بوريس يده بحركة منهكة. «ما داموا يريدون أن يخوضوها، فما كان عليهم إلَّا أن يخوضوها حتى النهاية». بكلٍّ تأكيد. هذا ما كان يردِّده أمس مع غابيل وفرانسيون. ولكن. . . وسقطت يده باسترخاء: إنَّ الشخص الذي لا يفكِّر مثلك، عسيرٌ ومتعبٌ أن تبرهن له أنَّه على خطأ. غير أنَّه حين يكون من رأيك، ثم يترتَّب عليك أن تشرح له أنَّه مخطئ، فإنّك تضيع. قال:

ـ دعيني!

قالت إيفيش وهي تبتسم من فرط الغضب:

ـ أرانب!

قال بوريس: ـ إنّ الذين كانوا معي لم يكونوا أرانب، بل كان فيهم شجعان إلى حدٍّ بعيد.

ـ لقد قلت لي إنَّهم كانوا يخافون الموت.

ـ أنتِ؟ ألا تخافين الموت؟

ـ أنا، إنّني امرأة.

قال بوريس: ـ حسنًا إنَّهم هم يخافون الموت، وهم مع ذلك رجال. وهذا ما يسمّى بالشجاعة. كانوا يعرفون ما يعرِّضون له أنفسهم.

فنظرت إليه إيفيش نظرة ارتياب:

ـ لن تزعم لي أنّك «أنت» كنت خائفًا؟

ـ لم أكن أخشى الموت، لأنِّي كنت مؤمنًا بأنِّي إنّما كنت هناك لهذه الغاية.

ونظر إلى أظافره وأضاف بلهجة متجرِّدة:

ـ الطريف في الأمر أنّي مع ذلك غوّطت في ثيابي.

فارتعدت إيفيش:

ـ لكن لأيٍّ سبب؟

ـ لا أدري. ربّما كان بسبب الضجَّة.

والواقع أنّ ذلك لم يدم أكثر من عشر دقائق ـ ربّما عشرين، في بدء الهجوم تمامًا. ولكنَّه لم يغضب أن تعتبره إيفيش خافًا[١]: فقد كان ذلك يدعم رأيه. وكانت تنظر إليه نظرة متردِّدة، مذعورة من أن يشعر بالخوف من كان روسيًّا، أن يشعر به سرغين، أخوها بالذات. وأحسّ أخيرًا بالخجل، فسارع يضيف:

ـ الحقيقة، أنّني لم أخف طوال الوقت.

فابتسمت له وقد شعرت بالعزاء، وفكَّر بحزن: «لسنا بعد متّفقين على شيء». وساد صمت.. وشرب بوريس جرعة من قهوة فكاد يلفظها: كانت كما لو أنّهم وضعوا له حزنه كلّه في فمه. ولكنَّه فكَّر بأنَّه سيذهب، فاستشعر بعض العزاء. وسألته إيفيش:

ـ ماذا تنوي أن تفعل الآن؟

قال بوريس: ـ أعتقد أنَّهم سيسرِّحونني، والواقع أنَّنا قد شفينا جميعًا تقريبًا، ولكنَّهم يحتفظون بنا هنا لأنَّهم لا يدرون ما يفعلون بنا.

ـ وبعد ذلك؟

ـ سوف... أطلب وظيفة أستاذ.

ـ ولكنَّك لست «أغرجيه»؟

ـ صحيح. غير أنِّي أستطيع أن أكون أستاذًا في كلِّيَّة.

ـ وهل يلذّك أن تلقي محاضرات؟

---

(١) الخافّ: هو الشديد الخوف.

فقال باندفاع: ـ آه، كلّا (واحمرّ وجهه فأضاف بتواضع) إنّني لم أُخلق لهذا.

ـ ولأيٍّ شيء خُلقت، يا أخي الصغير؟

ـ هذا ما أتساءل عنه.

والتمعت عينا إيفيش:

ـ أتريد أن أقول لك لأيّ شيء خُلقنا؟ خُلقنا لنكون أغنياء.

فقال منزعجًا: ـ ليس الأمر كذلك.

ونظر إليها لحظة وهو يردِّد: «ليس الأمر كذلك!» فيما كان يضغط فنجانه بين أصابعه.

ـ كيف هو إذن؟

فقال: ـ كنت منفوخًا حتى الانفجار، ثم سرقوا منِّي موتي. إنّني لا أعرف شيئًا، ولست موهوبًا لشيء، وليس لي بعد رغبةٌ في شيء.

وتنهّد وصمت، مستشعرًا الخجل أن يكون قد تحدَّث عن نفسه: إنَّ القضيّة هي أنّي لا أستطيع أن أعزم على أن أعيش عيشة وسطًا. وهذا في حقيقته هو ما قالته تقريبًا.

وكانت إيفيش تتابع فكرتها، فسألته:

ـ ولولا، ألا تملك مالاً؟

فقفز بوريس وضرب الطاولة، لقد أوتيتْ موهبة أن تقرأ فكرته، وتترجمها بعبارات غير مقبولة:

ـ إنّني لا أريد مال لولا.

ـ لماذا؟ فقد كانت تعطيك منه قبل الحرب.

ـ لم تعد تعطيني منه.

قالت في حرارة: ـ إذن، لننتحر كلانا.

وتنهّد، وفكّر بضجر: ها هي ذي تعود سيرتها، إنَّ هذا لم يعد

يناسب سنّها. وكانت إيفيش تنظر إليه وهي تبتسم.

ـ لنستأجر غرفة في الميناء القديم ولنفتح أنبوب الغاز.

فاكتفى بوريس بأن يحرِّك سبَّابة يده اليمنى علامة الرفض. ولم تلحّ إيفيش: بل خفضت رأسها وأخذت تشدّ على خصلاتها: وفهم بوريس أنَّه كان لديها ما تطلبه منه. وقالت بعد لحظة، من غير أن تنظر إليه:

ـ كنت قد ظننت...

ـ ماذا؟

ـ كنت ظننت أنَّك ستأخذني معك، ونعيش نحن الثلاثة على مال لولا.

واستطاع بوريس أن يبلع ريقه من غير أن يختنق، وقال:

ـ آه! لقد فكَّرتِ بذلك.

وقالت إيفيش في حماسة مفاجئة:

ـ اسمعْ يا بوريس. ليس باستطاعتي بعد أن أعيش مع هؤلاء الناس.

ـ هل يسيئون معاملتك؟

ـ على العكس: فهم يعيِّشونني في الحرير: زوجة ابنهم، لو تعلم! ولكنِّي أحتقرهم، أحتقر جورج، أحتقر خَدمهم...

فقال بوريس: ـ لاحظي أنّك تحتقرين لولا أيضًا.

ـ لولا، ليس الأمر متشابهًا.

ـ ليس الأمر متشابهًا لأنَّها بعيدة، وأنَّك لم تريها منذ عامين.

ـ إنَّ لولا تغنِّي، ثم هي تشرب، ثم إنَّها جميلة... يا بوريس!

وصاحت: أمّا هم، فقبيحون، فإذا تركتني بين أيديهم قتلت نفسي. كلّا، لن أقتل نفسي بل سيكون الأمر أسوأ من ذلك. ليتك تعرف كم أُحِسُّني عجوزًا وشرِّيرة بعض الأحيان.

«طق!» فكَّر بوريس.. وشرب بعض القهوة ليزلق لعابه في حلقومه، وكان يفكِّر: لا يستطيع المرء أن يسيء إلى شخصين. وكانت إيفيش قد كفّت عن الشدّ على شعرها، وكانت سحنتها العريضة الممتقعة قد تلوّنت، وكانت تنظر إليه نظرة ثاقبة قلقة، فتشبه قليلاً إيفيش الماضية. لربّما تستعيد شبابها؟ وربّما تستعيد جمالها؟ وقال:

ـ شرط أن تطبخي لنا، أيّتها العفريتة الصغيرة.

فأخذت يده وشدّتها بكلٍّ قواها.

ـ هل توافق إذن؟ أوه، بوريس! أتوافق إذن؟

سأكون أستاذًا في «غيريه». كلَّا، ليس في غيريه، فهناك ليسيه. بل في كاستلنوداري. وسأتزوَّج لولا: فإنَّ أستاذًا في كلِّيَّة لا يستطيع أن يعيش مع خليلة، وسأبدأ منذ الغد في إعداد محاضراتي. وأمرّ يده خلل شعره، وشدّ برفق على خصلة ليتحقَّق من متانتها، ثم فكّر: سأكون أصلع، إنَّ هذا مؤكّد الآن: سيسقط شعري قبل أن أموت.

ـ طبعًا، أوافق.

وكان يرى طائرة تدور عند الصباح الباكر، وكان يردِّد: الجروف، الجروف الجميلة البيضاء، جروف دوفر.

الساعة الثالثة في بادو

كان ماتيو جالسًا فوق العشب، يتابع بعينيه الدوّامات السود فوق البحر. وبين الفينة والفينة كان قلب من نار يصعد في الدخان فيصبغه بدمه وينفجر: وإذ ذاك تثب شرارات في السماء كأنَّها البراغيث.

قال شارلو: ـ سوف يشعلون النار.

وكانت فراشات من السناج تتطاير حولهم، فالتقط بينيت إحداها وسحقها بين يديه بتفكّر، وقال وهو يبرز إبهامه المسودّ:

ـ هذا كلّ ما يبقى من خارطة، إذا أُحيلت إلى جزء من عشرة آلاف.

ورفع لونجان الباب ذا الشقوق ودخل الحديقة: كان يبكي، وقال شارلو:

ــ إنَّ لونجان يبكي!

فمسح لونجان عينيه.

ــ الحيوانات! لقد حسبت أنَّهم سيسلخون جلدي.

وتداعى للسقوط على العشب، وكان يحمل كتابًا ذا غلاف ممزّق.

ــ كان عليّ أن أؤرث النار بواسطة منفخ، بينما كانوا يقذفون أوراقهم فيها. وكنت أتلقّى الدخان كلّه في فمي.

ــ وهل انتهوا؟

ــ لا يهمّني. لقد أخلونا لأنَّهم سيحرقون الوثائق السرِّيَّة. يتحدّثون عن الأسرار: الأوامر التي ضربتها بنفسي على الآلة الكاتبة.

قال شارلو: هناك رائحة رديئة.

ــ رائحة شواء.

ــ كلّا، إنّي أقول: إذا أحرقوا الوثائق، انبعثت رائحة رديئة.

ــ نعم، رائحة رديئة، رائحة شواء.. هذا ما أقوله.

وضحكوا، وأشار ماتيو إلى الكتاب، وسأل:

ــ أين وجدته؟

فقال لونجان بغموض: ــ هناك.

ــ أين، هناك؟ المدرسة؟

قال: ــ نعم.

وشدّ الكتاب إليه في حذر، وسأله ماتيو:

ــ هل هناك سواه؟

ــ كانت هناك كتب أخرى، ولكن رجال «الوكالة» استعملوها.

ــ وما هو هذا الكتاب؟

ـ كتاب تاريخ.

ـ ولكن ما هو؟

ـ لا أعرف عنوانه.

وألقى نظرة على الغلاف، ثم أضاف في استياء:

ـ «تاريخ عودة الملكيّتين».

وسأل شارلو: ـ ومن المؤلِّف؟

فتهجّأ لونجان: ـ فو ـ لا ـ بيل.

ـ فولابيل، من هذا؟

ـ وما يدريني؟

وسأله ماتيو: ـ هل تعيرني إيّاه؟

ـ بعد أن أقرأه.

وتسلّل شارلو في العشب، فأخذ الكتاب من يديه:

ـ ولكن، اسمع، إنَّه الجزء الثالث.

فانتزعه منه لونجان.

ـ وماذا يهمّ؟ المقصود أن أركِّز انتباهي.

وفتح الكتاب بالاتّفاق، وتظاهر بأنَّه يقرأ ليزيد استملاكه إيّاه. وبعد أن أنهى المهمّة، رفع رأسه وقال:

ـ لقد أحرق الكابتين رسائل زوجته.

وكان ينظر إليهم مرفوع الجبين، بسيط الهيئة، مقلِّدًا سلفًا، بعينيه وشفتيه، الدهشة التي كان يتوقّع إثارتها فيهم. وخرج بينيت من حلمه العابس والتفت إليه باهتمام:

ـ صحيح!

ـ نعم، وقد أحرق أيضًا صورها، فرأيتها في اللهب. إنَّها جميلة.

ـ بلا مزاح!

ـ أؤكد لك ذلك.

ـ وماذا كان يقول؟

ـ لم يكن يقول شيئًا، بل كان ينظر إليها تحترق.

ـ والآخرون؟

ـ لم يكونوا يقولون شيئًا كذلك. سوى أنّ أواريش أخرج رسائل من محفظة نقوده وألقاها في النار.

فتمتم ماتيو: ـ فكرة عجيبة.

والتفت إليه بينيت يسأله:

ـ أتراك لن تحرق صور امرأتك؟

ـ ليس لي من امرأة.

ـ آه! من أجل هذا..

فسأله ماتيو: ـ وهل أحرقت أنت صور امرأتك؟

ـ انتظر حتى يظهر الألمان.

وصمتوا. وكان لونجان قد أخذ يقرأ في جدّ، فرمى إليه ماتيو بنظرة حسد، ونهض. ووضع شارلو يده على كتف بينيت:

ـ هل نلعب الثأر؟

ـ إذا شئت.

فسألهما ماتيو: ـ وبِمَ تلعبان؟

ـ لعبة «الموربيون».

ـ وهل يمكن أن يلعبها ثلاثة؟

ـ لا.

وجلس بينيت وشارلو منفرجي الساق على المقعد الخشبيّ، فأفسح لهما الرقيب بيارنيه الذي كان يكتب على ركبته.

ـ هل تكتب مذكَّراتك؟

قال بيارنيه: ـ كلّا، وإنّما أحلّ عمليّة فيزيائيّة.

وأخذا يلعبان. كان نيبير نائمًا وهو مستلقٍ على ظهره، متصالب الذراعين. وكان هواء السماء يُفرغ في فمه الفاغر بقرقرة تشبه خرير البلّوعة. وكان شوارتز منتحيًا ركنًا آخر يحلم. لم يكن ثمّة من يتكلّم، لقد ماتت فرنسا. وتثاءب ماتيو، ونظر إلى الوثائق السرِّيَّة تتلاشى دخانًا في السماء، كما نظر إلى الأرض الكثيفة السوداء بين الخضار، ففرغ رأسه: لقد كان ميِّتًا، وهذا الأصيل الأبيض الميِّت، كان قبرًا.

دخل لوبيرون إلى الحديقة، وكان يأكل، وجفونه تخفق تحت عينيه الكبيرتين المغربتين، وكانت أذناه تتحرَّكان على حركة فكَّيه.

وسأله شارلو:

ـ ماذا تأكل؟

ـ كسرة خبز.

ـ ومن أين أتيت بها؟

فأومأ إلى الخارج من غير أن يُجيب، واستمرّ يمضغ. وصمت شارلو فجأة وتأمَّله في شيء من الذعر: كان الرقيب بيارنيه يتأمَّله هو أيضًا، مقلوب الرأس، مرتفع القلم. وظلّ لوبيرون يمضغ، في غير ما عجلة: ولاحظ ماتيو هيئته الجادّة، فأدرك أنَّه كان يحمل أنباء؛ وإذ ذاك أحسّ بالخوف كالآخرين، وتراجع خطوة إلى الوراء. وانتهى لوبيرون من المضغ في هدوء، ومسح يديه بثوبه، ففكَّر ماتيو: «لم يكن ما يأكله خبزًا». واقترب شوارتز وجعلوا ينتظرون صامتين.

قال لوبيرون: ـ ماذا؟ انتهى الأمر؟

فسأل بيارنيه بقسوة: ـ ماذا؟ ماذا؟ ما الذي انتهى؟

ـ انتهى الأمر.

ـ الـ. . .

ـ نعم.

برقٌ نحاسيٌّ، ثم ساد الصمت. وكان لحم هذا النهار الأزرق الطريّ قد تلقّى الخلود كضربة منجل. لم يكن ثمّة ضجّة، ولا نفحة هواء، كان الزمن قد تجمّد، وانسحبت الحرب: وقد كانوا منذ لحظة فيها، بمنجى، وكان بوسعهم بعدُ أن يؤمنوا بالمعجزات، بفرنسا الخالدة، بالمساعدة الأميركيّة، بالدفاع المطّاط، بدخول روسيا الحرب.. أمّا الآن فقد كانت الحرب وراءهم، منغلقة، ناجزة، خاسرة. وأصبحت آمال ماتيو الأخيرة ذكريات أمل.

وكان لونجان أوّل من استردَّ وعيه، فمدّ يديه الطويلتين كما لو أنّه يريد أن يجسّ النبأ بحذر، وسأل في خجل:

ـ وإذن... هل وُقِّع؟

ـ منذ هذا الصباح.

وكان بيارنيه قد تمنّى الصلح طوال تسعة أشهر. الصلح بأيٍّ ثمن. وها هو الآن هنا، ممتقع الوجه، يسيل منه العرق. وكان الانفعال المفاجئ قد أثار جنونه، فصاح:

ـ وكيف عرفت ذلك؟

ـ لقد أخبرني به غيكيولي.

ـ كيف عرف هو؟

ـ من الراديو. لقد التقطوا الساعة هذا النبأ.

وكان يتكلّم بلهجة مذيع صابرة محايدة، ويتسلّى بالتظاهر بمظهر القسوة.

ـ ولكن صوت المدافع؟

ـ إنَّ وقف إطلاق النار سيتمُّ في منتصف الليل.

وكان شارلو محمرّ الوجه أيضًا، ولكنَّ عينيه كانتا تلتمعان:

ـ هذا مزاح!

ونهض بيارنيه وسأل:

ـ هل من تفاصيل؟

قال لوبيرون: ـ لا.

وتنحنح شارلو:

ـ ونحن؟

ـ ماذا، نحن؟

ـ متى نعود إلى بيوتنا؟

ـ أقول لك أنْ ليس هناك من تفاصيل.

وصمتوا. وضرب بينيت بقدمه حصاة تدحرجت وسط الجَزَر، وقال هادرًا في غضب:

ـ الهدنة! الهدنة!

فهزّ بيارنيه رأسه، وكان جفنه الأيسر قد أخذ يخفق في وجهه الرماديّ كمصراع في يوم عاصف. وقال في قهقهة راضية:

ـ ستكون الشروط قاسية.

فأخذوا جميعًا يقهقهون.

وكان شوارتز يقهقه أيضًا، فالتفت إليه شارلو وتطلّع إليه في دهشة. كفّ شوارتز عن الضحك واحمرّ وجهه بعنف. وظلّ شارلو ينظر إليه: كما لو أنَّه يراه للمرّة الأولى. وقال له بهدوء:

ـ ها أنت ذا ألمانيّ، في هذه الساعة.

فأتى شوارتز بحركة عنيفة غامضة، واستدار على عقبيه، فغادر الحديقة: وأحسّ ماتيو نفسه مسحوقًا بالتعب، فتداعى للسقوط على المقعد الخشبيّ، وهو يقول:

ـ ما أشد الحرّ!

ـ «إنَّهم ينظرون إلينا». وكان الجمهور الذي يتزايد رويدًا رويدًا ينظر

إليهم، وهم يبتلعون هذا القرص التاريخيّ، وكان يشيخ ويتراجع القهقرى وهو يهمس: «مهزومو الـ ٤٠، جنود الهزيمة، إنَّما نحن في القيود ـ بسببهم». وكانوا باقين هناك، لا يتغيَّرون تحت تلك الأنظار المتغيِّرة، محكومًا عليهم، معيَّرين، مبرَّرين، متَّهمين، معذورين، مُدانين، مسجونين في هذا النهار الذي لا يمّحي، مكفَّنين في هدير الذباب والمدفع، في رائحة الخضرة الدافئة، في الهواء الذي كان يرتعش فوق الجَزَر، مذنبين إلى ما لا نهاية في عيون أولادهم وأحفادهم وأحفاد أحفادهم، مهزومي الـ ٤٠ إلى الأبد. وتثاءب، ورآه ملايين الناس يتثاءب: «إنَّه يتثاءب، وهذا جميل، أحد مهزومي الـ ٤٠ يجرؤ على التثاؤب»! وقطع ماتيو هذه التثاؤبات التي لا تنتهي، وفكَّر: لسنا وحدنا.

ونظر إلى رفاقه، فالتقى نظره الهالك عليهم بنظر التاريخ الخالد المحجَّر: للمرَّة الأولى كانت العظمة قد هبطت على رؤوسهم، «كانوا» الجنود الأسطوريِّين لحرب خاسرة. لقد حُجِّروا! يا إلٰهي، لقد قرأت وتثاءبت، وكنت أحرِّك جرس مشكلاتي، ولم أكن أعزم على الاختيار، ولكنِّي كنت قد اخترت حقًّا، كنت قد اخترت هذه الحرب، وهذه الهزيمة، وكنتُ منتظرًا في قلب هذا النهار. إنَّ كلّ شيء ينبغي عمله مرَّة أخرى، وليس بعد ما يُعمل: وتداخلت الفكرتان وانهدمتا معًا، وبقي سطح «العدم» الهادئ.

نفض شارلو الكتفين والرأس، وأخذ يضحك، وعاد الزمن إلى جريانه. كان شارلو يضحك، يضحك في وجه التاريخ، وكان يدافع عن نفسه بالضحك في وجه التحجّر، وينظر إليهم في خبث ويقول:

ـ إنَّ لنا وجهًا مشرقًا، يا جماعة. نعم، إنَّ وجهنا مشرق! والتفتوا إليه مشدوهين، ثم انحاز لوبيرون إلى الضحك. وكان يغضِّن أنفه في مشقّة، فتخرج الضحكة من منخريه:

ـ تستطيع أن تقول ذلك.. كيف أنَّهم تغلَّبوا علينا!

وقال شارلو في لهجة سكرى:

ـ إنَّ هذا هو العقاب، هو الضرب، هو الفلَق!

فضحك لونجان بدوره، وقال:

ـ جنود الـ ٤٠ أو ملوك الركض!

ـ عمالقة الطريق!

ـ الأبطال الأولمبيُّون للركض على القدمين!

قال لوبيرون: ـ لا تحزنوا: فسوف يُحسنون استقبالنا لدى عودتنا، وسيزفُّون لنا التهاني!

فصرخ لونجان صرخة سعيدة:

ـ بل سيأتون لاستقبالنا على المحطَّة مع الموسيقى والجمعيّات الرياضيّة. وقال شارلو وهو يضحك حتى كاد يسيل دمعه:

ـ وأنا اليهوديّ، ما رأيكم؟ هل تتصوَّرون الأشخاص المناهضين للساميّة في الحيّ الذي أسكنه!

واستسلم ماتيو لعدوى هذا الضحك المزعج، وحدثت لحظة شديدة القسوة. فلقد رموه وهو يرتجف من الحمّى على فراش مثلَّج، ثم تحطّم خلوده الصنميّ، فتطاير شعاعًا من الضحك. كانوا يضحكون، وكانوا يرفضون واجبات العظمة باسم الرعاع، لا حاجة لأن نحزن ما دمنا نتمتّع بالصحّة والشراب والطعام، إنّني أخرأ على نصف الدنيا وأشخّ على النصف الآخر، كانوا يرفضون تعزيات العظماء بدافع من التبصّر الزاهد، بل إنَّهم يرفضون لأنفسهم حقّ الألم. نحن «فاجعيُّون» حتى ولا هذا! «تاريخيُّون» حتى ولا هذا! بل نحن ممثّلون هزليُّون من طراز رخيص، لا نساوي دمعة. نحن «مرصودون» مسبقًا، حتى ولا هذا، فالعالم هو مصادفة واتّفاق. كانوا يضحكون، وكانوا يصطدمون بجدران «العبث» و«القدر» اللذين كانا يتداولونهما فيما بينهم، كانوا يضحكون ليعاقبوا أنفسهم، ليتطهّروا، ليثأروا: إنَّهم لابشر مفرطون في البشريّة، مقذوفون

فيما وراء اليأس: إنَّهم بشر.

وفترة أخرى، فتحت الأفواه نحو الأفق شكوى جروحها السود، كان نيبير ما يزال يشخر، وكان فمه الفاغر هو أيضًا شكوى. ثم ثَقُل الضحك وجرجر نفسه وتوقَّف بعد بضع انتفاضات: كانت الحفلة منتهية، والهدنة مكرَّسة؛ لقد كانوا رسميًّا «البَعد». وكان الزمن يجري على مهل، ماءً صحِّيًّا مغليًّا بالشمس: كان لا بدَّ من العودة إلى الحياة ثانية.

قال شارلو: ـ هكذا!

فقال ماتيو: ـ هكذا!

وأخرج لوبيرون، على خفية، يده من جيبه، فأطبقها على شفتيه وأخذ يمضغ، وكان فمه يثب تحت عينيه الأرنبيّتين، وقال:

ـ هكذا! هكذا! ها نحن ذا!

واتّخذ بيارنيه هيئة التنطُّس والانتصار:

ـ ما الذي قلته لكم؟

ـ ما الذي قلته لنا؟

ـ لا تتظاهروا بالبلاهة. أتذكر يا دولارو ما قلته بعد عمليّة فنلندا؟ وبعد نارفيك، هل تتذكَّر؟ كنت تنعتني بطير الشؤم، ولمّا كنتَ أبرع منِّي، فقد كنتَ دائمًا تُربكني.

وكان قد تورّد: كانت عيناه خلف نظّارتيه تلتمعان بالحقد والمجد.

ـ ما كان ينبغي خوضها، هذه الحرب، لقد قلت دائمًا إنّنا ينبغي ألّا نخوضها؛ ولو حدث هذا لما كنّا قد بلغنا هذا المبلغ.

قال بينيت: ـ لو لم نخضها لكان الوضع أسوأ.

ـ لا يمكن أن يكون الوضع أسوأ من هذا: ليس أسوأ من الحرب.

وكان يفرك يديه بعذوبة، ووجهه يلتمع براءة: كان يفرك يديه، يغسل يديه من هذه الحرب، فهو لم يخضها، بل هو لم يعشها؛ كان قد

حَرِد عشرة أشهر، رافضًا أن يرى، وأن يتكلَّم، وأن يشعر، محتجًّا على جميع الأوامر بالحماسة الهوساء التي كان ينفِّذها بها، وهو شارد، ثائر الأعصاب، غائب الروح. وها هو الآن يجازى على ما عانى. كانت يداه نظيفتين، وقد تحقَّقت تنبُّؤاته: كان المهزومون هم «الآخرين» أمثال بينيت، ولوبيرون، ودولارو، والآخرين. وليس هو. وأخذت شفتا بينيت ترتجفان. وسأل في صوت متقطِّع:

ـ وإذن، كلّ شيء على ما يرام؟ هل أنت مسرور؟

ـ مسرور؟

ـ هل حصلت عليها، هزيمتك؟

ـ «هزيمتي»؟ ولكنَّها لك بالمقدار نفسه.

ـ كنت تتمنَّاها: فهي لك. وأمّا نحن الذين لم نكن نتمنَّاها، فلا نريد أن نحرمك منها.

وبَسَم بيارنيه بسمة من يعتقد أنَّه لم يُفهم. وسأله في صبر:

ـ من قال لك إنِّي كنت أتمنَّاها؟

ـ أنت بالذات، منذ لحظة غير بعيدة.

ـ قلت إنِّي كنت أتنبَّأ بها. فالتنبُّؤ بها وتمنِّيها شيئان، أليس كذلك؟

وكان بينيت ينظر إليه من غير أن يُجيب، ووجهه قد تكوَّر برمّته، وشفتاه قد برزتا كأنَّهما خطم، وكان يدير في محجريه عينين كبيرتين مُهانتين. وتابع بيارنيه:

ـ ولماذا تراني كنت أتمنّاها؟ أتشرح لي ذلك؟ ربّما كنت من الطابور الخامس؟

فأجاب بينيت في مشقَّة:

ـ إنّك من دُعاة السلام.

ـ وما معنى ذلك؟

ـ الأمران سواء.

فهزّ بيارنيه كتفيه وهو يباعد يديه في إرهاق. وهرع شارلو إلى بينيت ووضع ذراعه حول عنقه، وقال في طيبة:

ــ أرجوكما، لا تختصما، فما جدوى الخصام؟ لقد خسرنا، وليست هذه غلطة أحد، وليس لأحد ما يؤاخذ به نفسه عليه، كلّ ما في الأمر أنّنا وقعنا في مصيبة.

فبسم لونجان بسمة سياسيّة:

ــ أهذه مصيبة؟

فقال شارلو بصوت مصالح:

ــ أجل، يجب أن نكون منصفين: إنَّها مصيبة، بل مصيبة كبيرة. ولكن ما حيلتنا؟ إنّني أنا أقول: لكلٍّ دوره. لقد ربحنا نحن في المرَّة الماضية، أمّا هذه المعركة، فلهم، والمعركة القادمة ستكون لنا.

قال لونجان: ــ لن يكون ثمّة معركة قادمة.

ورفع إصبعه، وأضاف بلهجة متناقضة:

ــ لقد قمنا بآخر حرب لآخر محاربين، تلك هي الحقيقة. فالوضع سواء، أكنّا منتصرين أم مهزومين: لقد نجح فتية الـ ٤٠ الصغار بما أخفق به آباؤهم. انتهت الأمم، وانتهت الحرب. نحن اليوم راكعون؛ وغدًا يأتي دور الإنكليز: فالألمان يأخذون كلّ شيء وينظِّمون في كلّ مكان، وإلى الأمام من أجل تكوين ولايات أوروبا المتّحدة.

قال بينيت:

ــ ولايات إستي المتَّحدة. سنكون خدّام هتلر.

فسأل لونجان بروعة:

ــ هتلر؟ ما هذا، هتلر؟ بالطبع كان لا بدَّ من واحد. فكيف تريد أن تتفاهم البلاد إذا تركتها حرَّة؟ إنَّهم كالبشر: كلّ يجذب من ناحيته. ولكن من ذا الذي سيتحدَّث عن هتلرك بعد مئة عام؟ سيكون ميِّتًا، والنازيّة معه.

فصاح بينيت:

ـ أيّ فرج أحمق أنت؟ ولكن من ذا الذي سيعيشها، هذه الأعوام المئة؟

فبدت على لونجان الدهشة الاستنكاريّة:

ـ ينبغي ألّا تفكِّر على هذا النحو، أيُّها الرأس الصغير، بل يجب أن ترى إلى أبعد من أنفك قليلاً؛ يجب أن تفكِّر بأوروبا ما بعد الغد.

ـ وهل تكون أوروبا ما بعد الغد هي التي تقدِّم لي طعامي؟

فرفع لونجان يدًا مسالمة وأرجحها في الشمس، وقال:

ـ يعني! يعني! إنَّ الأذكياء يستطيعون أن يتدبَّروا أمرهم دائمًا.

فانخفضت اليد الأسقفيّة، ولامست شعر شارلو المجعَّد:

ـ أليس هذا هو رأيك؟

قال شارلو: ـ إنَّ رأيي لا يخرج عمّا يلي: ما دام علينا أن نوقِّعها، هذه الهدنة، فالخير أن تُوقَّع على الفور. فيكون عدد الموتى أقلّ، ولا يُتاح للألمان أن يغضبوا.

وكان ماتيو ينظر إليه في ذهول: كلّهم! كلّهم! كانوا يفرُّون: شوارتز يغيِّر جلده، ونيبير يتشبَّث بالنوم، وبينيت غاضب، وبيارنيه بريء. أمّا لوبيرون، فقد اختبأ في اللحظة، يأكل ويسدّ كلّ منافذه بالطعام. وكان لونجان قد ترك العَصْر. كان كلٌّ منهم قد كوّن لنفسه، بسرعة، الوضع الذي يمكِّنه من أن يعيش. وانتصب ماتيو فجأة وقال بصوت قويّ:

ـ إنكم تُثيرون اشمئزازي.

فتأمَّلوه بلا دهشة، وبابتسامات مسكينة، وكان هو أكثر دهشة منهم، وكانت العبارة ما تزال تصدي في أذنه، وتساءل كيف تأتّى له أن ينطق بها. تردَّد لحظة بين التأثُّر والغضب، ثم انحاز إلى الغضب: فأولاهم ظهره ودفع الباب الصغير واجتاز الطريق. وكانت باهرة خالية؛ وقفز ماتيو في العوسج الذي خدش طمّاقاته وهبط منحدر الغاب الصغير حتى بلغ

الساقية، وقال بصوت مرتفع: «خراء!». ونظر إلى الساقية وردّد: «خراء! خراء!» من غير أن يعرف لماذا. وعلى بعد مئة متر منه، كان جنديٌّ عارٍ حتى النطاق، تخطّطه أشعّة الشمس، يغسل ثيابه؛ إنَّه هناك يصفِّر، ويعجن ذلك الطحين الرطب، لقد خسر الحرب وهو لا يدري ذلك. وجلس ماتيو؛ وكان يشعر بالخجل: من الذي أعطاني الحقّ بأن أكون قاسيًا إلى هذا الحدِّ؟ لقد علموا أنَّهم قد خسروا، فهم يتدبَّرون أمرهم كما يطيقون لأنَّهم لم يعتادوا ذلك. أمّا أنا فقد اعتدت، ولكن هذا لا يجعلني أفضل منهم. ثم إنّني بعد هذا كلِّه قد اخترت الفرار، أنا أيضًا. والغضب. وسمع طقطقة خفيفة، وأقبل بينيت يجلس على حافّة الماء، وبَسَم لماتيو، فبَسَم له ماتيو، وظلّا لحظة طويلة من غير أن يتكلَّما.

وقال بينيت: ــ انظر الفتى هناك، إنَّه يجهل الحقيقة.

وكان الجنديُّ منحنيًا فوق الماء يغسل ثيابه بعناد غير مألوف، وكانت طائرة ضالّة تهدر فوقهم. ورفع الجنديّ رأسه إلى السماء عبر الأغصان في كراهيّة أثارت ضحكهما: فقد كان هذا المشهد كلّه يحمل طابع تجديد الوقائع التاريخيّة.

ــ هل نخبره؟

قال ماتيو: ــ أوه كفى! دعه يشخّ.

وصمتا. غطّس ماتيو يده، في الماء وحرَّك أصابعه. كانت يده ممتقعة ملتمعة وحولها هالةٌ زرقاء. وصعدت فقاقيع إلى السطح. وأتت قشّة حملتها دوّامة محلِّيَّة فالتصقت بمعصمه وهي تدور، ثم قفزت واصطدمت مرَّة أخرى. وسحب ماتيو يده وقال:

ــ الطقس حارٌّ.

قال بينيت: ــ نعم، وهو يغري بالنوم.

ــ هل أنت راغب في النوم؟

ــ لا. ولكنِّي مع ذلك سأحاول.

وتمدّد على ظهره، عاقدًا يديه خلف رقبته، وأغمض عينيه. وغطّس ماتيو غصنًا ميّتًا في الماء وحرّكه. وبعد لحظة، فتح بينيت عينيه:

ـ خراء!

وانتصب، وأخذ يخلّل أصابعه في شعره.

ـ لا أستطيع أن أنام.

ـ لماذا؟

ـ إنّني ثائر الأعصاب.

قال ماتيو: ـ لا بأس في هذا، فهو صحّيٌّ.

قال بينيت: ـ حين أكون كذلك، فلا بدّ لي من أن أضرب، وإلّا اختنقت.

ونظر إلى ماتيو في فضول:

ـ ألا يثور غضبك أنت؟

ـ بلى.

وانحنى بينيت على حذائه وأخذ يفكّه، وقال في مرارة:

ـ لو كنت أعرف هذا، لما أطلقت رصاصة واحدة.

ونزع جوربيه، وكانت له قدمان صغيرتان ناعمتان كقدميْ طفل، تخطّطهما خطوط من الوسخ.

ـ سآخذ حمّام أقدام.

وبلّل قدمه اليمنى في الماء، ثم أخذها بيده وأنشأ يدلّكها، وكان الوسخ يسقط عنها في كريات. وفجأة نظر إلى ماتيو من تحت:

ـ سوف يجمعوننا، أليس كذلك؟

فأومأ ماتيو برأسه.

ـ وسينقلوننا إلى بلادهم؟

ـ على الأرجح.

وفرك بينيت قدمه في غضب:

ــ لولا هذه الهدنة، ما كانوا ليقبضوا عليّ بهذه السهولة.

ــ وماذا كنت ستعمل؟

ــ كنت سأقاوم.

قال ماتيو: ــ يا لك من ثور صغير!

وتبادلا البسمة، ولكنَّ وجه بينيت ما لبث أن أظلم وبدا في عينيه التحدِّي:

ــ لقد قلت إنّنا نثير اشمئزازك.

ــ لم أقصدك أنت.

ــ لقد قلتها للجميع.

وكان ماتيو ما يزال يبتسم.

ــ أتريد أن تضربني أنا؟

فخفض بينيت رأسه من غير أن يجيب.

وقال ماتيو: ــ اضرب. وسوف أضرب أنا أيضًا، فربّما هدّأنا ذلك.

فقال بينيت: ــ لا أجرؤ على أن أؤذيك.

ــ خسارة!

وكانت قدم بينيت اليسرى تقطر ماءً وشمسًا. فنظر إليها كلاهما، وحرّك بينيت أصابعه، فقال ماتيو:

ــ إنَّ قدميك طريفتان!

ــ إنَّهما صغيرتان جدًّا، أليس كذلك؟ إنّني أستطيع أن آخذ علبة ثقاب وأفتحها.

ــ بأصابع قدميك.

ــ نعم.

وكان يبتسم، ولكنّ الغضب استثاره فجأة، فقبض على كعب قدميه في وحشيّة:

ـ بل لم أكن لأقتل ألمانيًا! إنّهم قادمون، ولن يكون عليهم إلّا أن يقطفوني!

قال ماتيو: ـ هذا صحيح.

ـ إنَّ هذا غير عادل.

ـ ليس هو عادلاً ولا غير عادل.. وإنّما هو هكذا.

ـ ليس هذا عدلاً: إنّنا ندفع عن الآخرين، عن جنود جيش كوراب وعن غاملان.

ـ لو كنّا في جيش كوراب لفعلنا كما فعل الرفاق.

ـ تحدَّثْ عن نفسك.

وفتح ذراعيه وتنشّق بقوّة، وشدّ قبضتيه وهو ينفخ صدره، ونظر إلى ماتيو في تعجرف:

ـ هل أملك وجهًا يلوذ بالفرار أمام العدوّ؟

فابتسم له ماتيو:

ـ لا.

وأبرز بينيت العضلات الطويلة لذراعيه الشقراوين، وتمتّع لحظة، لنفسه، بشبابه، وبقوَّته، وبشجاعته. كان يبتسم، ولكنَّ عينيه ظلتا عاصفتين وحاجبيه منخفضين:

ـ بل كنت أظلّ في مكاني حتى أُقتل.

ـ إنَّ المرء يقول ذلك.

فابتسم بينيت ومات: كأنَّ رصاصة تخترق صدره. والتفت إلى ماتيو، ميّتًا ومنتصرًا. وردّد تمثال بينيت، الذي مات من أجل الوطن:

ـ كنت أظلّ في مكاني حتى أُقتل.

ثم عاد الغضب والحياة ينعشان هذا الجسم المحجَّر.

ــ لست مذنبًا. لقد فعلت كلّ ما طُلب منِّي أن أفعل. وليست هي غلطتي إذا لم يُحسنوا استعمالي.

وكان ماتيو ينظر إليه نظرة حنان، وكان بينيت شفّافًا في الشمس، والحياة تصعد وتهبط وتدور بسرعة شديدة في شجرة عروقه الزرقاء. كان يشعر موقنًا بأنَّه هزيل جدًّا، وسليم، وخفيف جدًّا: فكيف كان له أن يصدِّق ذلك المرض غير المؤلم الذي كان قد بدأ يتأكَّله، والذي سيُحني جسمه الشابّ الجديد فوق حقول البطاطا في سيليزيا أو على شوارع بوميرانيا، والذي سيملأه وَهْنًا وحزنًا وثقلاً، إنَّ الهزيمة شيء يُتعلَّم.

قال بينيت:

ــ لم أكن أطلب من أحد شيئًا، وإنّما كنت أقوم بعملي في هدوء. الألمان: لم أكن ضدَّهم، فإنَّه لم يسبق لي أن رأيت قفا أحد منهم. النازيّة، الفاشستيّة: إنّني لا أعرف حتى ما هما. ودانزيغ: المرَّة الأولى التي رأيت فيها هذا البلد الصغير على خارطة، كنت قد جُنِّدت. طيّب: وهنا نجد أنفسنا أمام دالادييه الذي يعلن الحرب وغاملان الذي يخسرها. فما هو شأني أنا في هذا؟ أين هي غلطتي؟ ألعلَّك تظنُّ أنَّهم استشاروني؟

فهزّ ماتيو كتفيه:

ــ ها قد مضت خمس عشرة سنة ونحن نراها قادمة. فقد كان ينبغي مواجهتها في حينها. إمّا لتفاديها أو لربحها.

ــ إنّني لست نائبًا.

ــ ولكنَّك كنت تصوِّت.

فقال بينيت من غير ثقة: ــ طبعًا.

ــ لمن؟

فظلّ بينيت صامتًا. وقال ماتيو: ــ أنت ترى إذن.

فقال بينيت في ضجر: ــ كان لا بدَّ من أن أقوم بالخدمة العسكريّة.

وبعد ذلك كنت مريضًا: فلم يكن بإمكاني أن أصوّت أكثر من مرَّة واحدة.

ــ وهل صوَّت في تلك المرَّة؟

فلم يجب بينيت، وابتسم ماتيو، وقال على مهل:

ــ وأنا أيضًا لم أكن أصوّت.

وكان الجنديّ يعصر قمصانه ويضعها في منشفة حمراء، ثم صعد إلى الطريق وهو يصفِّر:

ــ أتعرف اللحن الذي يصفِّره؟

فقال ماتيو: ــ لا.

ــ «سوف نجفِّف غسيلنا على خطّ سيغفريد».

وضحكا. وبدا على بينيت بعض الانفراج، وقال:

ــ لقد عملت بقسوة، ولم آكل دائمًا حتى الشبع. ثم وجدت ذلك العمل في السكك الحديديّة وتزوّجتُ امرأتي: وكان ينبغي أن أطعمها، أليس كذلك؟ إنَّها من عائلة طيِّبة، لو تعلم. بالرّغم من أنّ الأمور لم تكن على ما يرام فيما بيننا بادئ ذي بدء. (وأضاف بحيويّة) ولكنّها سارت بشكل اعتياديّ فيما بعد: أقول ذلك لأفهمك أنّنا لا يمكن أن نهتمّ بكلّ شيء في الوقت نفسه.

قال ماتيو: ــ طبعًا.

ــ وما كان عساي أن أفعل غير ذلك؟

ــ لا شيء.

ــ لم يكن لديَّ الوقت لأهتمّ بالسياسة. كنت أعود إلى بيتي مرهقًا، ثم كانت تحدث المنازعات، ولكن إذا كنتَ قد تزوَّجت فلكي تضاجع زوجتك كلّ مساء، أليس كذلك؟

ــ أفترض.

ـ وإذن؟

ـ إذن لا شيء. هكذا تُخسر الحروب.

فأُصيب بينيت بوثبة غضب جديدة.

ـ إنّك تضجرني تمامًا! حتى ولو اهتممت بالسياسة، حتى ولو لم أهتمّ إلَّا بالسياسة، فماذا كان ذلك سيغيِّر؟

ـ كان بإمكانك أن تفعل ما في وسعك.

ـ وهل فعلته أنت؟

ـ كلّا.

ـ حتى ولو كنت قد فعلته، تستطيع أن تقول لنفسك إنّك لست أنت الذي خسرت الحرب؟

ـ نعم.

ـ إذن؟

فلم يجب ماتيو، وسمع طنين بعوضة راعشًا، فحرَّك يده على مستوى جبهته، فكفّ الطنين. هذه الحرب، كنت أنا أيضًا أعتقد أوَّل الأمر أنَّها كانت مرضًا. فأيّة بلاهة! إنَّها أنا، وهي بينيت، وهي لونجان. إنَّها بالنسبة لكلٍّ منّا ذاته، إنَّها مصنوعة على صورتنا. ونحن نصاب بالحرب التي نستحقُّها. ونشق بينيت طويلاً من غير أن يغادر ماتيو بنظره، ووجد ماتيو هيئته بليدة، فامتلأ فمه وعيناه بمدٍّ من الغضب: كفى! كفى! حسبي أن أكون الشخص الذي يرى بتبصُّر! وكانت البعوضة ترتعش حول جبينه، كأنَّها تاج مجد مضحك. «لو أنّني حاربت، لو ضغطت على الزناد، لسقط رجل في مكان ما...» ورفع يده فجأة وصفع صدغه صفعة شديدة، وأخفض أصابعه فرأى على سبّابته تطريزًا دمويًا دقيقًا، إنسانًا ينزف حياته على الحصى، صفعة على الصدغ، ضغطةُ سبّابة على الزناد، وستتوقَّف زجاجات صندوق الدنيا الملوَّنة، ويطرِّز الدم عشب الساقية.. كفاني، كفاني! ليتني أغرق في عمل مجهول كأنَّه الغابة؛ عملٍ، عملٍ

ملزمٍ لا يُفهم قطّ تمامًا. وقال بهوس:

ـ لو كان ثمّة «ما يُعمل...

فنظر إليه بينيت باهتمام:

ـ ماذا؟

فهزّ ماتيو كتفيه، وقال:

ـ لا شيء. لا شيء لهذه اللحظة.

وكان بينيت يلبس جوربيه، وحاجباه الممتقعان يقطّبان في أعلى جبينه. وسأل فجأة:

ـ هل أريتك صورة امرأتي؟

قال ماتيو: ـ لا.

فنهض بينيت وفتّش في جيب سترته وأخرج صورة من محفظته. ورأى ماتيو امرأة جميلة ذات هيئة قاسية، مع ظلّ من زغب في زاويتيْ فمها. وكانت قد كتبت على قفا الصورة: «من دنيز إلى لعبتها، ١٢ كانون الثاني ١٩٣٩». وتورَّد خدّ بينيت:

ـ هكذا تسمِّيني، ولا أستطيع أن أغيِّر لها هذه العادة.

ـ لا بدَّ لها من أن تسمِّيك باسم.

قال بينيت بجدارة: ـ ذلك لأنَّها تكبرني بخمسة أعوام.

وأعاد له ماتيو الصورة:

ـ إنَّها جميلة.

قال بينيت: ـ إنَّها في السرير، هائلة. بل إنَّك لا تكاد تتصوّر.

وكان قد زاد احمرارًا. وأضاف بلهجة برمة:

ـ هي من عائلة طيِّبة.

ـ لقد سبق أن قلت لي ذلك.

فقال بينيت مندهشًا: ـ آه، هل قلتها لك؟ هل قلت لك إنَّ أباها

كان أستاذًا للرسم؟

ــ نعم.

وأعاد بينيت الصورة إلى المحفظة بعناية.

ــ إنَّ الأمر يبعصني.

ــ ما الذي يبعصك؟

ــ أن أعود هكذا.

وكان قد شبك كفَّيه على ركبتيه. وقال ماتيو:

ــ يعني!

قال بينيت: ــ إنَّ أباها بطل من أبطال الـ ١٤، ثلاثة أوسمة، صليب الحرب. وهو يتحدَّث بذلك طوال الوقت.

ــ إذن؟

ــ سوف يبعصه أن نعود هكذا.

قال ماتيو: ــ يا لك من رأس مسكين! إنّك لن تعود باكرًا كما تظنّ.

وكان غضب بينيت قد انحسر، فهزّ رأسه بحزن، وقال:

ــ إنّني أفضّل ذلك. فليست لديّ رغبة في العودة.

فردّد ماتيو: ــ يا لك من رأس مسكين!

قال بينيت: ــ إنَّها تحبّني، ولكنَّ أخلاقها صعبة. وهي تعتزّ بذلك. وهناك أمّها أيضًا، وهي تُدفع من ياقتها دفعًا. المرأة، يجب أن تحترمك، أليس كذلك؟ وإلَّا حلّ الشيطان في بيتك.

ونهض فجأة، وقال:

ــ ضجرت من هذا المكان. هل تأتي؟

فقال ماتيو: ــ إلى أين؟

ــ لا أدري. إلى حيث الآخرون.

فقال ماتيو بلا حماسة: ـ إذا شئت.

ونهض بدوره، فصعدا إلى الطريق، وقال بينيت:

ـ عجبًا! هذا غيكيولي.

وكان غيكيولي واقفًا، مباعدًا ما بين ساقيه، حاميًا حاجبيه بيده، وهو ينظر إليهما مقهقهًا. وقال:

ـ كانت لطيفة!

ـ ما هي؟

ـ كانت لطيفة. لقد انطلت عليكم كالطبول.

ـ ولكن ماذا؟

قال غيكيولي وهو ما يزال يضحك: ـ الهدنة.

فأشرق وجه بينيت:

ـ وهل كانت دعابة؟

قال غيكيولي: ـ قليلاً. لقد أتى «ليكيه» يضايقنا بطلب الأنباء، فأعطيناه إيّاها!

فقال بينيت في اندفاع: ـ إذن، ليس هناك هدنة؟

ـ ليس هناك من هدنة، أكثر ممّا هناك من زبدة بين الفخذين..

ونظر ماتيو إلى بينيت من زاوية العين:

ـ وماذا يغيّر هذا؟

قال بينيت: ـ هذا يغيِّر كلّ شيء. سترى! سترى كم سيتغيَّر الوضع.

السابعة الرابعة

لا أحد في جادّة سان جرمان، ولا أحد في شارع دانتون. حتى الستائر الحديديّة لم تكن مسدلة، وكانت الواجهات تلتمع: كلّ ما في الأمر أنَّهم قد نزعوا مزلاج الباب حين ذهبوا. كان اليوم يوم أحد. منذ ثلاثة أيّام، كان اليوم يوم أحد. ولم يكن في باريس إلَّا يومًا واحدًا في

الأسبوع كلّه. يوم أحد تمامًا، أيّ أحد، أصلب قليلاً من المألوف، وأكثر كيمائيّة، مفرط في الصمت، ممتلئ بالأنتانات الخفيّة. اقترب دانيال من حانوت كبير لبيع الأصواف والأقمشة، وكانت اللفائف المتعدِّدة الألوان المصفوفة بشكل أهرام قد بدأت تصفرّ وتبعث رائحة القدم، وفي الحوانيت المجاورة، كانت الأقمطة والقمصان تذبل، وغبار طحينيّ يتراكم فوق الرفوف، وكانت خطوط طويلة بيضاء توسِّخ الزجاج. وفكَّر دانيال: «إنّ الزجاج يبكي». وخلف الزجاج، كان العيد قائمًا: كان الذباب يطنّ بالملايين. يوم أحد. حين يعود الباريسيُّون، سيجدون أحدًا عفنًا مسترخيًا فوق مدينتهم الميِّتة.. إذا عادوا! وأطلق دانيال العنان لتلك الرغبة الهائلة في الضحك التي كان ينزِّهها عبر الشوارع منذ الصباح.. إذا عادوا!

وكانت ساحة سانت ـ أندريه ـ ديزار الصغيرة تستسلم جامدة للشمس؛ وكان الجوُّ أسود قاتمًا في وضح النور. كانت الشمس شيئًا صناعيًّا: برق مانييزيوم يخفي الليل، وسوف ينطفئ بعد جزء على عشرين من الثانية، وهو مع ذلك لا ينطفئ، وألصق جبينه بواجهة «البراسوري الزاسيين»، لقد تناولت فيها الغداء مع ماتيو: كان ذلك في شباط، أثناء مأذونيّته، وكانت ملأى بالأبطال والملائكة. وميّز في الظلِّ لطخات متردِّدة تشبه فُطر الأقبية: وكانت خوانات من ورق. أين هم الأبطال؟ وأين هم الملائكة؟ وكان كرسيّان حديديَّان متروكين على السطيحة، فتناول دانيال إحداهما من مسنده، وحمله إلى حافّة الرصيف وجلس كصاحب الدخل الوفير تحت السماء العسكريّة، في ذلك الحرّ الأبيض الذي كان يغلي بذكريات الطفولة. كان يستشعر في ظهره ضغط الصمت الممغنط، وينظر إلى الجسر الخالي، وعلب الأرصفة المقفلة، والساعة التي لا عقرب لها. وفكّر: «لا بدّ أنَّهم ضربوا هذا كلّه ضربًا خفيفًا. بضع قنابل، ليجعلونا نرى». وانسرب شبح إزاء مفوَّضيّة الشرطة، في الجهة المقابلة من السِّين، كأنّما يحمله رصيف متدحرج. لم تكن باريس

خالية بكلِّ معنى الكلمة: كانت مسكونة بصوّى صغيرة تنبع في جميع الاتّجاهات وما تلبث أن تتلاشى تحت هذا النور السرمديّ. فكَّر دانيال: «المدينة جوفاء»، وكان يُحسّ تحت قدميه ممرّات المترو، ويحسّ خلفه وأمامه وفوقه جروفًا مثقوبة: فبين السماء والأرض كانت آلاف الصالونات من طراز لويس فيليب، وغرف الطعام من طراز «أمبير» وزوايا الدواوين تنقصف تحت الهجر، فتثير الضحك حتى الموت. والتفت فجأة: لقد طرق أحدهم على الزجاج. فنظر فترة طويلة إلى الواجهة الكبيرة، ولكنَّه لم يَرَ سوى انعكاس صورته بالذات. ونهض، وحلقه منقبض بضيق غريب، ولكنَّه لم يكن مستاءً كثيرًا: كان طريفًا أن يشعر بمخاوف ليليّة في وضح النهار. اقترب من نبع سان ميشال ونظر إلى التنِّين المخضرّ. وفكَّر: «كلّ شيء مباح». بوسعه أن يُنزل بنطاله تحت هذا النظر الزجاجيّ لهذه النوافذ السوداء، وأن ينزع بلاطة ويقذف بها في اتّجاه واجهة المطعم، بوسعه أن يصرخ: «لتعش المانيا» فلا يحدث شيء. ستلتصق سحنة مذعورة بزجاج إحدى النوافذ، في طابق سادس من بناية، ولكنْ لن تكون لذلك عاقبة: إنَّهم لا يملكون بعدُ الطاقة على أن يغتاظوا: سيلتفت رجل الخير، هناك في الطابق الأعلى، إلى زوجته ليقول لها بلهجة متجرِّدة جدًّا: «إنَّ في الساحة رجلاً قد نزع لباسه التحتيّ» فتجيبه من جوف غرفتها: «لا تقف إذن على النافذة، فقد لا ندري ما يمكن أن يحدث». وتثاءب دانيال. هل يكسر الزجاج؟ عجبًا! ستتّضح الأمور كثيرًا حين يبدأون النهب. وفكَّر: «آمل كثيرًا أن يحرقوا ويقتلوا ويسلبوا كلّ شيء..» وتثاءب مرَّة أخرى: كان يُحسّ في نفسه حرِّيَّة هائلة وبلا جدوى. وكان فرحه أحيانًا يفري قلبه.

وإذ كان يبتعد، أطلَّت قافلة من شارع «لاهوشيت». «إنّهم الآن ينتقلون في قوافل». وكانت هي القافلة العاشرة التي يلتقيها منذ الصباح. لقد أحصى تسعة أشخاص: عجوزين تحملان سلالاً وطفلتين وثلاثة رجال أشدّاء جدد ذوي شوارب، وخلفهم امرأتان صبيّتان، أولاهما

جميلة وممتقعة، والأخرى حامل تطوف على شفتيها بسمة. كانوا يسيرون على مهل، من غير أن يتكلَّموا. وسعل دانيال، فالتفتوا إليه جميعًا: ولم يكن في عيونهم ودّ ولا توبيخ، لم يكن إلَّا دهشة لا تُصَدَّق. ومالت إحدى الطفلتين على الأخرى من غير أن تنقطع عن النظر إلى دانيال، فتمتمت بضع كلمات، وضحكت كلتاهما ضحكة إعجاب وافتتان. كان دانيال يحسّ أنَّه ليس أقلّ غرابة من ظبية جبل تحدِّد في المتسلِّقين على الجبال نظرَها الهادئ البكر. ومرّوا خياليين، أسطوريين، غارقين في وحدتهم. واجتاز دانيال الطريق ليذهب فيرتفق الحاجز الحجريّ لمدخل جسر سان ميشال. كان السين يلتمع، وفي البعيد البعيد، باتِّجاه الشمال الغربي، كان الدخان يرتفع فوق البيوت. وفجأة بدا له المشهد سيِّئًا لا يُطاق، فانفتل وعاد على عقبيه وأخذ يصعد الجادَّة مرَّة أخرى.

كانت القافلة قد تلاشت، وحلَّ الصمت والفراغ على مدى النظر هاوية أفقيّة. وكان دانيال متعبًا: لم تكن الشوارع تفضي إلى أيِّ مكان؛ وكانت لفراغها من الناس متشابهة، فإذا بجادَّة سان ميشال التي كانت بالأمس دفقة طويلة من الذهب نحو الجنوب، تصبح هذا الحوت الميِّت، المنتثر البطن في الهواء. وخفق دانيال خطواته على هذا البطن الأجوف المنتفخ، وجهد في أن يرتعش من السرور، وقال بصوت مرتفع: «كنت أحتقر باريس». عبثًا: لم يكن ثمّة ما هو حيّ إلَّا الخضرة، إلَّا أذرعة شجر الكستناء الكبيرة الخضراء؛ وكان يحسّ إحساسًا مائعًا أليمًا بأنَّه يمشي في نبت الحراج. كان جناح الملل القذر قد بدأ يلامسه حين لاحظ لحسن الحظّ إعلانًا بالأبيض والأحمر ملصوقًا على حباك، فاقترب وقرأ: «سننتصر لأنَّنا الأقوى». ففتح ذراعيه وابتسم في تلذُّذ، متحرِّرًا: إنَّهم يركضون ويركضون ولا ينفكُّون يركضون. وكان قد رفع رأسه وأدار بسمته نحو السماء وهو يتنفَّس بقوّة: دعوى قائمة منذ عشرين سنة، جواسيس حتى إلى ما تحت سريره، إنَّ كلَّ مارّ كان شاهد إثبات أو قاضيًا أو الاثنين معًا، وكلّ ما كان يقوله كان يمكن أن يدينه. ثم فجأة يأتي

التشتُّت. إنَّهم يركضون، الشهود والقضاة ورجال الخير، يركضون تحت الشمس، فيبيضُّ الأفق طائرات فوق رؤوسهم. وكانت أسوار باريس ما تزال تتحدَّث عن كبريائهم ومزاياهم: إنّنا الأقوى، والأفضل، إنّنا صليبيُّو الديموقراطيّة، المدافعون عن بولونيا، وعن الجدارة الإنسانيّة، وعن الفوارق الجنسيّة.. وستظلُّ طريق الحديد مسدودة، وسوف نجفِّف ثيابنا على خطّ سيغفريد. وكانت الإعلانات في شوارع باريس ما تزال ترسل أنشودة صغيرة للمجد أصابها البرد والوهن، أمّا «هم»، فقد كانوا يركضون، وقد جُنّوا من الخوف، وكانوا يتمدَّدون في الحفر، ويطلبون الصفح. الصفح بشرف، طبعًا.. لقد فُقِد كلّ شيء ما عدا الشرف، خذوا كلّ شيء في الشرف: هذا قفاي، فاركلوه في الشرف، خذوا كلّ شيء في الشرف، وسوف ألحس قفاكم إذا تركتم لي الحياة. إنَّهم يركضون، يزحفون. وأنا، المذنب، أحكم مدينتهم.

كان يمشي خافض العينين، متلذِّذًا، يسمع السيّارات تنسلُّ بقربه في الشارع، ويفكِّر: «إنَّ مارسيل تنشِّف طفلها في داكس: ولا بدَّ أن يكون ماتيو أسيرًا، والأرجح أن يكون برونيه قد قُتل.. فجميع شهودي قد ماتوا أو شُرِّدوا، لقد استعدت نفسي».. وقال في نفسه فجأة: «أيّة سيّارات؟» ورفع رأسه فجأة، فأخذ قلبه يخفق حتى يبلغ خفقه صدغيه، ثم «رآهم». كانوا واقفين بصفاء ورصانة، كلّ خمسة عشر أو عشرين، في سيّارات طويلة مطليّة للتضليل تسير ببطء نحو السين، كانوا ينسلّون محمولين، واقفين، منسيِّين، يلامسونه بنظرهم الذي لا يعبِّر عن شيء، وكان آخرون يأتون في أعقابهم، ملائكة أُخَر متشابهة تنظر إليه نظرة واحدة. وسمع دانيال في البعيد موسيقى عسكريّة، وكان يُخيَّل إليه أنَّ السماء تمتلئ بالأعلام، فكان عليه أن يستند إلى شجرة الكستناء. كان «وحيدًا» في هذه الجادَّة الطويلة، الفرنسيّ الوحيد، المدنيّ الوحيد، والجيش العدوّ برمّته ينظر إليه. لم يكن خائفًا، بل كان يستسلم بثقة إلى ألوف العيون هذه، ويفكِّر: «قاهرونا»، فتغمره اللذّة. بادلهم نظرتهم بشجاعة، وتملّى من هذا

الشعر الأشقر، ومن هذه الوجوه الملفوحة، التي تشبه فيها العيون بحيراتَ الجليد، ومن هذه القامات الضيِّقة، وهذه الأفخاذ التي لا يُصدَّق طولها واكتنازها بالعضلات. وتمتم: «ما أجملهم»! ولم يكن يلمس الأرض بعد. كانوا قد رفعوه إلى أذرعتهم، وكانوا يضمُّونه إلى صدورهم وبطونهم المسطَّحة. تدحرج شيء من السماء: إنَّه القانون القديم، لقد انهار مجتمع القضاة، وامّحى الحكم، وكان الجنود الصغار لابسو الكاكي وأبطال حقوق الإنسان والمواطن، مهزومين. وفكَّر: «أيّة حرِّيَّة». وكانت عيناه مبلَّلتين. كان الحيَّ الوحيدَ الذي خلَّفته الكارثة، «الإنسان» الوحيد تجاه ملائكة الحقد والغضب هؤلاء، هؤلاء الملائكة المبيدين الذين كانت نظراتهم تردّ له طفولته، وفكَّر: «ها هم القضاة الجدد، وهذا هو القانون الجديد!» وكم كانت تبدو هزيلة مضحكة فوق رؤوسهم عجائب السماء العذبة، وبراءة الغيوم الصغيرة: كان ذلك انتصار الاحتقار والعنف والنيّة السيِّئة، كان انتصار «الأرض». ومرَّت دبّابة، متعجرفة بطيئة، تغطِّيها الأغصان، ولا يكاد صوتها يُسمع، وكان واقفًا في مؤخَّرتها شابّ نضر قد ألقى سترته على كتفيه ورفع كمَّيْ قميصه إلى ما فوق المرفقين، وشبك ذراعيه الجميلتين العاريتين. ابتسم له دانيال، فنظر إليه الشابّ طويلاً، بهيئة قاسية، وعينين ملتمعتين، ثم أخذ فجأة يبتسم، فيما كانت الدبّابة تبتعد. وفتَّش سريعًا في جيب بنطاله، ثم رمى شيئًا صغيرًا التقطه دانيال من الهواء: كان علبة من السجاير الإنكليزيّة. وكان دانيال يشدّ العلبة شدًّا قويًّا حتى إنَّه كان يحسُّ السجاير تنفجر تحت أصابعه. وكان ما يزال يبتسم. وصعد اغتلام لذيذ لا يُطاق من فخذيه إلى صدغيه. ولم يكن يرى بعد بوضوح، وكان يردِّد وهو يلهث قليلاً: «كما في زبدة ــ إنَّهم يدخلون بسهولة في باريس، كما يدخلون في زبدة». ومرَّت وجوه أخرى أمام نظره الغائم، وأخرى غيرها، وهي كلّها جميلة.. سوف يحدثون لنا «شرًّا». إنَّ هذا هو «عهد الشرّ» الذي يبدأ، يا للعذوبة! كان يودُّ لو كان امرأة حتى يرميهم بالزهور.

طيران صارخ، خراء، خراء، عجِّلوا في السير، وخلا الشارع فملأه ضجيج آنيّة على مستوى الحوافي، وحرث السماء لمع فولاذ، إنَّها تمرّ بين البيوت.. وصاح شارلو بماتيو، في ظلال العنبر، وكان ملتصقًا به: إنَّها تطير وهي تكاد تلامس الأرض. ودارت القبّرات النهمة المتاقلة قليلاً فوق القرية، باحثة عن قوتها، ثم مضت وهي تجرُّ خلفها آنيّتها التي كانت تقفز من سقف إلى سقف، وبدت رؤوس حذرة، وخرج أشخاص من العنبر والبيوت، وقفز آخرون من النوافذ، فكأنَّها السوق الصاخبة. صمت. كانوا جميعًا هناك. الصمت، زهاء مئة، هندسة، راديو، محطَّة سبرالغور، عمّال تلفون، أمناء سرّ، مراقبون، جميعًا، ما عدا السائقين الذين كانوا منذ العشيّة ينتظرون وراء مقاودهم، وأخذوا أماكنهم لمشاهدة «أيّ» حفلة؟ وجلسوا متربِّعين وسط الشارع، لأنَّ الطريق كان خاليًا ولأنَّ السيّارات كفَّت عن المرور، جلسوا على حافّة الرصيف، وعلى خشب النوافذ، بينما ظلّ آخرون وقوفًا، مستندين إلى واجهات البيوت. وكان ماتيو قد جلس على مقعد صغير، أمام حانوت البقّالة، ولحق به شارلو وبيارنيه، ولم يكن ثمّة من يتكلَّم. لقد كانوا هناك ليكونوا معًا ولينظر بعضهم إلى بعض، وكانوا يرون أنفسهم على حقيقتهم، السوق الكبيرة، الجمهور المفرط في الهدوء ذو المئة وجه رماديّ؛ وكان الشارع يتكلَّس تحت الشمس، ويتلوّى تحت السماء المبقورة ويحرق الأقدام والأفخاذ، وكانوا يستسلمون للحرق، وكان الجنرال يسكن في بيت الطبيب: النافذة الثالثة في الطابق الأوّل، وكانت تلك عينه، ولكنَّهم كانوا يستخفُّون بالجنرال: كانوا ينظرون بعضهم إلى بعض، فيخيف بعضهم بعضًا. كانوا يعانون من رحيل مكبوت لا يتحدَّث عنه أحد، ولكنَّه كان يضرب في صدورهم ضربًا كبيرًا، يحسُّونه في أذرعتهم وأفخاذهم، مؤلمًا كأنَّه تشنُّج؛ لقد كان خذروفًا يدور في القلوب. وتنفَّس شخص كما يتنفَّس كلب يحلم، وقال في الحلم: «إنَّ في الإدارة علبًا للقرود». وفكّر ماتيو: «نعم، ولكنَّهم وضعوا الدرك على الباب للحراسة»، وأجاب غيكيولي:

«اسمعْ أيُّها الأحمق، لقد وضعوا الدرك على الباب لحراسته». وحلم شخص ــ بدوره ــ بصوت أبيض مستنيم: «إنَّ ذلك كالخبَّاز، عنده خبز، أؤكِّد لك، فلقد رأيت الأرغفة، ولكنَّه سدَّ حانوته بحواجز». وتابع ماتيو الحلم، ولكن من غير أن يتكلَّم، ورأى شريحة لحم، فامتلأ فمه باللعاب، وتحامل غريمو قليلاً مشيرًا إلى المصاريع المغلقة وقال: «ما بالهم في هذا البلد؟ كانوا بالأمس يحدِّثوننا، وهم اليوم يختبئون». كانت البيوت بالأمس تتثاءب كالمحار، أمّا الآن، فقد انغلقت على نفسها، وفي داخلها كان رجال ونساء يظهرون بمظهر الموتى ويعرقون في الظلام، وقال نيبير: «إنّما نحن موبوؤون لأنَّنا مهزومون» وغنَّت معدة شارلو، فقال ماتيو: «إنَّ معدتك تغنِّي»، فأجاب شارلو: «إنَّها لا تغنِّي، بل تصرخ»؛ وسقطت في وسطهم كرة من المطَّاط، فالتقطها لاتيكس، وبرزت فتاة صغيرة في الخامسة أو السادسة ونظرت إليه في خجل، وسألها لاتيكس: «أهي كرتك؟ تعالي خذيها». وكان الجميع ينظرون إليها. كانت لدى ماتيو رغبة بأن يأخذها على ركبتيه، وكان لاتيكس يحاول أن يرقِّق صوته الخشن: «هيّا! تعالي! تعالي، تعالي إلى ركبتيّ». وانطلقت همسات في كلّ مكان: تعالي! تعالي! تعالي! ولم تكن الصغيرة تتحرَّك؛ تعالي، فرختي، تعالي، تعالي يا دجاجتي، تعالي! وقال لاتيكس: «يا إلٰهي! إنَّنا في هذه الساعة نخيف الأطفال» وكان الآخرون يضحكون، وقالوا له: «أنت الذي تخيفها بسحنتك هذه!» وكان ماتيو يضحك، ولاتيكس يردِّد بصوت مغنٍّ: «تعالي يا طيِّبتي!» ثم أخذه الغضب فجأة فصاح: «إذا لم تأتي أحتفظ بها!» ورفع الكرة فوق رأسه ليريها إيَّاها، وتظاهر بأنَّه يضعها في جيبه، فصرخت الصغيرة، ونهض الجميع، وأخذوا يصرخون: «أعدها لها، إنَّك تُبكي طفلة، أيُّها القذر، لا، لا، تضعها في جيبك، اقذفها على السطح». وكان ماتيو يحرِّك ذراعيه وهو واقف، فأبعده غيكيولي وعيناه تبرقان غضبًا، وراح ينتزع أمام لاتيكس: «أعدها لها، بالله عليك، إنّنا لسنا متوحِّشين»! وضرب ماتيو بقدمه وقد أثمله الغضب، وكان

لاتيكس أوَّل الهادئين، فخفض عينيه وقال: «لا تغضبوا، فستعاد إليها». وقذف الكرة بارتباك، فصدمت جدارًا، وقفزت، فارتمت الطفلة فوقها ولاذت بالفرار. الهدوء. وعاد الجميع إلى الجلوس، وعاد ماتيو إلى الجلوس حزينًا ساكنًا، وكان يفكِّر: «إنَّنا لسنا موبوئين». لا شيء غير ذلك، لا شيء غير أفكار الجميع. لم يكن أحيانًا إلَّا فراغًا قلقًا، وكان يصبح أحيانًا أخرى جميع الناس، فكان ضيقه يهدأ، وتضجّ أفكار الجميع نقاطًا ثقيلة في رأسه وتتدحرج خارج فمه، لسنا موبوئين. ومدَّ لاتيكس يديه وتأمَّلهما بحزن. «إنَّ لي ستَّة، أنا الذي أحدِّثكم، وكبيرهم في السابعة، ولم أرفع يدي عليهم قطّ».

وكانوا قد عادوا للجلوس موبوئين، جائعين، كَمِدين تحت السماء المسكونة، إزاء هذه البيوت الكبيرة العمياء التي كانت ترشح حقدًا. كانوا صامتين: ولم يكن لها إلَّا أن تصمت، تلك الهوام الكريهة التي كانت تلطِّخ هذا اليوم الجميل من أيّام حزيران. صبرًا! إنَّ المبيد آتٍ، وسنجتاز جميع الطرق إلى فليتوكس. وأشار لونجان إلى المصاريع، وقال: «إنَّهم ينتظرون أن يأتي الألمان ليخلِّصوهم منّا»، وقال نيبير: «تستطيع أن تراهن أنّهم سيكونون مع الألمان أوفر لطفًا». وقال غيكيولي: «إنَّهم يفضِّلون أن ينشغلوا مع المنتصرين، هذا أشدُّ مرحًا، ثم إنَّ التجارة سائرة. أمَّا نحن، فنحمل النحس». وقال لاتيكس: «ستَّة أولاد، كبيرهم في السابعة، ولم أُخف أحدًا منهم قطّ». وقال غريمو: «إنَّنا محتَقَرون».

ارتفعت جميع الرؤوس لصوت أقدام، ولكنَّها ما لبثت أن انخفضت، واجتاز القائد «برات» الشارع بين الرؤوس، فلم يُحيِّه أحد، وتوقَّف أمام بيت الطبيب؛ فعادت الرؤوس إلى الانتصاب وحدّقت الأنظار بكتفيه المحشوَّتين فيما كان يرفع مطرقة الباب الحديديّة ويطرق ثلاث طرْقات. وانشقَّ الباب فانسلَّ من الفتحة الصغيرة إلى البيت. ومن الساعة الخامسة والخامسة والأربعين إلى الخامسة والسادسة والخمسين،

مرّ واحدًا واحدًا جميع ضباط أركان الحرب، منزعجين متصلّبين، بين الجنود الصامتين: وكانت الرؤوس تضطجع لدى مرورهم، ثم ترتفع بعد ذلك مباشرة. وقال بايين: «إنّ عند الجنرال عيدًا». فالتفت شارلو إلى ماتيو وقال: «ما عساهم يفبركون؟» فأجاب ماتيو: «بوزك!»، فنظر إليه شارلو وصمت. ومنذ مرّ الضبّاط، زاد الناس رماديّة وكَمَدًا وتثاقلاً، وكان بيارنيه ينظر إلى ماتيو في مفاجأة قلقة: إنّما هو يلقى على خدّي امتقاعه هو بالذات.

وسُمع صوت غناء، فانتفض ماتيو، واقترب الغناء:

ما دام في الوعاء خراء

فالجوّ منتن في الغرفة

وانعطف في زاوية الشارع زهاء ثلاثين فتى، سكارى بلا بنادق ولا سترات ولا قبّعات. وكانوا يجتازون الشارع بخطّى واسعة وهم يغنّون، ويبدو عليهم الغيظ والفرح. كانت وجوههم حمراء من الشمس والخمر، وحين لمحوا هذه الدودة الرماديّة التي كانت تتحرَّك على مهل فوق سطح الأرض وترسل نحوهم رؤوسها المتعدِّدة، توقَّفوا فجأة وكفّوا عن الغناء. وخطا ملتحٍ ضخمٌ خطوة إلى الأمام، وكان عاريًا حتى النطاق، وأسود ذا عضلات مستديرة وسلسلة ذهبيّة حول عنقه. وسأل:

ــ هل هذا يعني أنَّكم أموات؟

فلم يجب أحد، فصرف رأسه وبصق، وكان يجد مشقّة في الاحتفاظ بتوازنه.

ونظر إليهم شارلو نظرة حسيرة وهو يطرف بعينيه، وسأل:

ــ ألستَ من عندنا؟

فسأله الملتحي وهو يربت على فرجه:

ــ وهذا، هل هو من عندكم؟ لا يا سيِّدي. لست من عندكم، ولو كنت من عندكم لكان هذا يؤذيني.

ـ من أين أنت قادم؟

قام بحركة مبهمة:

ـ من فوق.

ـ وهل حدثت معارك، فوق؟

ـ خراء! كلّا، لم تحدث معارك، إلّا أنَّ قائدنا انسحب حين بدأت الرائحة الكريهة تتصاعد، وفعلنا نحن مثله، ولكن لا من الجهة نفسها، حتى لا نلتقي به.

فضحك الأفراد خلف الملتحي، وأخذ شابَّان طويلان يغنِّيان في تحدٍّ:

جرجر بيضاتك على الأرض

وخُذْ عضوك في يدك أيُّها الرفيق

فنحن ذاهبون إلى الحرب

إلى صيد القحبات

التفتت جميع الرؤوس نحو عين الجنرال، وحرَّك شارلو يده بهيئة مذعورة:

ـ اسكتوا.

فسكت المغنُّون، وظلُّوا فاغري الأفواه، متهادين، وبدا عليهم الإرهاق فجأة.

وقال شارلو موضِّحًا، وهو يشير إلى البيت:

ـ إنَّ ضبّاطنا هناك.

فقال صاحب اللحية بصوت قويّ:

ـ إنِّني أشخّ على ضبَّاطكم.

وكانت سلسلته الذهبيّة تلتمع في الشمس، فخفض بصره نحو الأفراد الجالسين في الشارع، وأضاف:

ـ وإذا كان الفتيان يزعجونكم، فليس لكم إلَّا أن تأتوا معنا، وهكذا يكفُّون عن إزعاجكم.

كان الآخرون يقولون خلفه مردِّدين:

ـ معنا! معنا! معنا! معنا!

وساد صمت. وكان نظر الملتحي قد توقّف عند ماتيو. وصرف ماتيو عينيه:

ـ وإذن؟ من يأتي؟ مرَّة، مرَّتين، ثلاث مرَّات.

فلم يتحرَّك أحد، فانتهى الملتحي إلى القول بلهجة ازدراء:

ـ إنَّ هؤلاء ليسوا رجالاً، وإنَّما هم مأبونون. تعالوا يا رفاقي، فأنا لا أريد أن أعفّن هنا: سوف يثيرون غضبي!

واستعادوا سيْرهم، وكان الأفراد يبتعدون لِيَدَعوهم يمرُّون، وأدخل ماتيو قدميه تحت المقعد.

جرجر بيضاتك على الأرض

كان الأفراد ينظرون إلى عين الجنرال: كانت وجوهٌ قد التصقت بالزجاج، ولكنَّ الضبَّاط لم يظهروا.

فنحن ذاهبون إلى الحرب...

واختفوا: لم ينبس أحد بكلمة، وتلاشت الأغنية آخر الأمر.

وإذ ذاك فقط، تنفّس ماتيو. وقال نيبير من غير أن ينظر إلى رفاقه:

ـ أوّلاً، ليس هناك دليل على أنَّنا لن نرحل.

قال لونجان: ـ بلى، هناك دليل.

ـ وما هو؟

ـ لقد نفد الوقود.

قال غيكيولي:

ـ يبقى دائمًا للضبَّاط وقود. إنَّ المستودعات ملأى.

ـ ولكنْ شاحناتنا تفتقده.

فضحك غيكيولي ضحكة جافّة: ـ طبعًا.

وصاح لونجان وهو يضخِّم صوته الدقيق:

ـ أقول لك إنَّهم قد خانونا. خانونا، وسلَّمونا للألمان!

قال مينار في لهجة ضجر: ـ دعنا!

فردَّد ماتيو: ـ دعنا! دعنا!

وقال أحد عمّال التلفون: ـ ثم خراء! لا تتحدَّثوا طوال الوقت عن الرحيل، فسنرى، إنَّ هذا يبعص في آخر الأمر.

وكان ماتيو يتصوَّرهم، سائرين منشدين على الطريق، وربّما كانوا يقطفون الزهور. كان يستشعر الخجل، ولكنَّه كان الخجل الكبير المشترك. ولم يكن يجد ذلك رديئًا إلى حدٍّ بعيد.

قال لاتيكس: ـ لوطيُّون! لقد وَصَفنا بالمأبونين، ذلك الصبيّ. نحن آباء العائلات! وهل رأيت السلسلة التي يحملها في عنقه؟ يا له من لوطيّ!

قال شارلو: ـ اسمعوا! اسمعوا!

وسُمع هدير طائرة، فتمتم صوت متعب:

ـ اختبئوا أيُّها الرفاق. إنَّهم يؤجِّلون ذلك.

قال نيبير: ـ إنَّها المرَّة العاشرة منذ هذا الصباح.

ـ هل عددت؟ أمَّا أنا، فقد كففت حتى عن العدّ.

ونهضوا على غير عجل، فركنوا إلى الأبواب، ولاذوا بالممرَّات. ولامست طائرةٌ السطوح، ثم خفّت الضجَّة، فخرجوا وهم يرقبون السماء، وعادوا إلى الجلوس.

قال ماتيو: ـ إنَّها مطاردة.

عقَّب لوبيرون: ـ طز! طز!

وسُمع في البعيد صوت رشّاش.

ـ مدفعيّة مضادَّة للطائرات.

ـ مدفعيّة مضادَّة للطائرات في قفاي! إنَّ الطائرة هي التي تُطلق نارها!

تبادلوا النظر. فقال غريمو:

ـ لا يحسن التنزُّه في الطرقات اليوم:

فلم يجيبوا، ولكنَّ العيون كانت تبرق، وبسمة صغيرة تجول على الأفواه. وبعد لحظة، اكتفى لونجان بالقول:

ـ ذلك دليل على أنَّهم غير بعيدين.

ونهض غيكيولي واضعًا يديه في جيبيه، وطوى ركبتيه ثلاث مرَّات ليُزيل خدرَهما، ثم رفع إلى السماء وجهًا فارغًا مع ثنية استياء حول فمه.

ـ إلى أين أنت ذاهب؟

ـ أقوم بدورة صغيرة.

ـ أين؟

ـ هناك. أريد أن أرى ما حدث لهم.

ـ إحذر الطليان.

ـ لا تخف.

وابتعد في كسل. وكان الجميع راغبين في مرافقته، ولكنَّ ماتيو لم يجرؤ على النهوض، ثم ساد صمت طويل، وكانت الوجوه قد استردّت بعض ألوانها، وأخذت تلتفّ بعضها إلى بعض في انتعاش.

ـ ما أجمل أن نستطيع القيام بنزهاتنا الصغيرة على الطريق، كما في زمن السلم.

ـ ماذا كانوا يحسبون؟ أنَّهم سيصلون حتى بانام؟ إنَّ هناك أشخاصًا لا يشكُّون في شيء.

ـ لو أنّ ذلك قابل للتطبيق، لما انتظرناهم حتى يقوموا به.

وصمتوا متوتِّرين، ثائري الأعصاب، كانوا ينتظرون، وكان ثمّة شخص طويل هزيل، مستند إلى ستار حانوت البقالة الحديديّ، ويداه ترتجفان. وعاد غيكيولي بعد لحظة، وهو ما يزال يمشي مشية اللامبالاة. وصاح ماتيو:

ـ ماذا إذن؟

فهزَّ غيكيولي كتفيه: وكان الأفراد قد تحاملوا على مرافقهم يديرون نحوه عيونًا بارقة.

قال: ـ لقد تلاشوا.

ـ جميعًا؟

ـ كيف تريدني أن أعرف؟ إنَّني لم أعدّ.

وكان ممتقعًا، وتجشّؤات صامتة تنفخ شفتيه.

ـ وأين كانوا؟ على الطريق؟

ـ خراء! إذا كنت فضوليًّا إلى هذا الحدّ، فليس لك إلَّا أن تذهب لترى.

وعاد إلى الجلوس، وأخذت سلسلة ذهبيّة صغيرة تلتمع في عنقه: فحمل إليها يده، وبرمها بين أصابعه، ثم تركها فجأة. وقال، كأنَّما يتحدَّث على مضض:

ـ لقد أخبرت ناقلي الجرحى.

يا للمساكين! وكانت السلسلة تلتمع وتبهر. تُرى، أيكون هناك من يقول: «يا للمساكين»!؟ كانت العبارة على جميع الأفواه، ولكن هل ثمّة من يكون عنده الرياء فيقول: يا للمساكين! أيكون ذلك رياءً حقًّا؟ كانت السلسلة الذهبيّة تلتمع على العنق الأسمر؛ الوحشيّة، الفظاعة، الشفقة، الحقد، كلّ ذلك كان يطوف هناك، وكان ذلك قاسيًا ومريحًا؛ إنّنا حُلم الهوام، إنَّ أفكارنا تتكاثف، فتصبح أقلّ بشريّة؛ أفكارٌ ذات شعر وأرجل

تركض في كلّ مكان، وتقفز من رأس إلى آخر: إنَّ الهوام على وشك أن تستيقظ.

ـ دولارو؟ يا إلٰهي! هل أنت أصمّ؟

دولارو، هذا أنا. والتفت فجأة. كان بينيت يبسم له من بعيد: «إنَّه يرى دولارو».

ـ هيه!

ـ تعال.

فارتعش، وقد أحسّ فجأة أنَّه وحيد وعارٍ، إنَّه رجل. «أنا». وقام بحركة ليطرد بينيت، ولكنَّ الجمع كان قد تشكّل ثانية ضدّه؛ وكانت عيونهم الهواميّة تنفيه، وكانوا ينظرون إليه برصانة مندهشة، كما لو أنَّهم لم يروه من قبل قطّ، كما لو أنَّهم كانوا يرونه عبر أعماق آنية. إنّني لا أساوي أكثر منهم، ولا يحقُّ لي أن أخونهم.

ـ تعال.

ونهض دولارو. دولارو الهائل، دولارو الرقيق، الأستاذ دولارو ذهب بخطًى بطيئة للقاء بينيت. وكان خلفه المستنقع، الحيوان ذو المئتي رِجل. خلفه مئتا عين: وكان خائفًا في ظهره. وجاء الضيق من جديد. بدأ على حذر، كأنَّه تربيتة، ثم أقام متواضعًا مألوفًا، في جوف معدته. ولم يكن هو شيئًا: لم يكن أكثر من خواء. خواء في نفسه، وحولها. وكان يتنزّه في غازٍ مخفَّف. ورفع الجنديّ الشجاع دولارو قبَّعته، وأمرّ الجنديّ الشجاع دولارو يده في شعره، وأدار الجنديّ الشجاع دولارو إلى بينيت بسمة متعبة، فسأله:

ـ ماذا هناك أيُّها العنيد؟

ـ هل أنت مسرور معهم؟

ـ كلّا.

ـ فلماذا أنت باقٍ معهم؟

قال ماتيو: ــ إنّنا متشابهون.

ــ مَنْ، المتشابهون؟

ــ هم ونحن.

ــ وإذن؟

ــ إذن، الأفضل أن نبقى معًا.

فاشتعلت عينا بينيت، وقال وهو يرتدّ برأسه إلى الخلف:

ــ أمّا أنا فلست متشابهًا معهم.

وصمت ماتيو.

قال بينيت: ــ تعال.

ــ إلى أين؟

ــ إلى البريد.

ــ إلى البريد؟ وهل هناك بريد؟

ــ نعم. هناك فرع في أسفل القرية.

ــ وماذا تريد أن تفعل في البريد؟

ــ لا تهتمّ بذلك.

ــ إنَّه مغلق بكلّ تأكيد.

قال بينيت: ــ سيكون مفتوحًا بالنسبة لي.

وأمرّ ذراعه تحت ذراع ماتيو، وجرّه وهو يضيف:

ــ لقد وجدت أنثى.

وكانت عيناه تلتمعان بمرح محموم، ويبتسم بسمة متعالية:

ــ أريد أن أعرِّفك عليها.

ــ ولماذا؟

فنظر إليه بينيت بقسوة:

ــ إنّك صديقي، أليس كذلك؟

قال ماتيو: ــ بكلّ تأكيد (وسأله) أهي موظَّفة البريد؟

ــ نعم، إنَّها آنسة البريد.

ــ كنت أظنّ أنّك لم تكن راغبًا في قصص النساء؟

فضحك بينيت ضحكة مغتصبة:

ــ ما دمنا لا نقاتل، فيجب أن نمضي الوقت.

والتفت إليه ماتيو فوجد هيئته مزهوَّة، وقال:

ــ إنّك لم تعد تشبه نفسك، يا رفيقي الصغير! أيكون الحبّ هو الذي غيَّرك؟

قال بينيت: - هيه! هيه! كان بالإمكان أن أسقط أسوأ من هذه السقطة. سوف ترى نهديها: يأخذان العقل. وهي مثقَّفة: إنَّها في الجغرافيا أو الحساب تضاهيك.

وسأله ماتيو: ــ وامرأتك؟

فبدّل بينيت سحنته، وقال بقسوة:

ــ على قفاي!

وكانا قد وصلا إلى بيت صغير بطابق واحد، وكانت المصاريع مغلقة، ومزلاج الباب مرفوعًا. طرق بينيت ثلاث طرْقات، وصاح:

ــ هذا أنا.

والتفت إلى ماتيو وهو يبتسم:

ــ إنَّها تخشى أن يغتصبوها.

وسمع ماتيو صوت مفتاح، وقال صوت امرأة:

ــ ادخل بسرعة.

وغطسا في رائحة حبر وصمغ وورق. وكان مقعد طويل يعلوه حاجز يقسم الحجرة إلى قسمين. لمح ماتيو في الداخل بابًا مفتوحًا. وتراجعت المرأة حتى ذلك الباب، وأغلقته دونها، وسُمعت وهي تدير المفتاح في

القفل، وظلّا لحظات في الممرّ الضيّق المخصَّص للجمهور، ثم بدت عاملة البريد مرَّة أخرى وراء نافذتها. انحنى بينيت فأسند جبينه إلى الحاجز:

ــ إنّك تضعيننا في القصاص؟ هذا غير لطيف.

قالت: ــ آه! يجب أن يكون الإنسان عاقلاً.

وكان لها صوت جميل، حارّ ومعتم. ورأى ماتيو عينيها السوداوين تبرقان.

قال بينيت:

ــ إنّكِ إذن خائفة منّا؟

فضحكت:

ــ لست خائفة، ولكنّي لست واثقة كذلك.

ــ أيكون هذا بسبب صديقي؟ ولكنّه في الواقع مثلك: فهو موظَّف. وهذا قاسم مشترك للتعارف، وينبغي لذلك أن يطمئنك.

وكان يتكلَّم بصوت أنيق وهو يبتسم بدماثة، وقال:

ــ هيّا، أخرجي على الأقلّ إصبعًا من خلال الحاجز، إصبعًا واحدًا فقط.

فأخرجت إصبعًا طويلاً هزيلاً من خلال الحاجز، فوضع بينيت على ظفره قبلة.

قالت: ــ كفّ عن هذا، وإلّا سحبته.

قال: ــ لن يكون ذلك مؤدّبًا. يجب أن يشدَّ صديقي على إصبعك.

والتفت إلى ماتيو:

ــ اسمح لي أن أقدِّم لك الآنسة التي ــ لا ــ تريد ــ أن ــ تقول اسمها. إنَّها فرنسيّة صغيرة شجاعة: كان بوسعها أن تطلب نقلها، ولكنَّها لم ترد أن تترك وظيفتها، فربّما كانوا بحاجة إليها.

وكان يهزّ كتفيه ويبتسم، لا ينفكّ يبتسم. وكان صوته مائعًا ومغنيًا، ذا لكنة إنكليزيّة خفيفة.

قال ماتيو: ــ مرحبًا أيّتها الآنسة.

فحرّكت إصبعها عبر الحاجز. فشدَّ عليه بين أصابعه. وسألته:

ــ أنت موظَّف؟

ــ إنّني أستاذ.

ــ وأنا عاملة بريد.

ــ أرى ذلك.

وكان يشكو الحرّ والضجر، ويفكِّر بالوجوه الرماديّة البطيئة التي خلَّفها وراءه.

قال بينيت: ــ إنَّ الآنسة هي المسؤولة عن جميع رسائل القرية الغراميّة.

قالت بلهجة متواضعة: ــ أوه! تعرف أنَّ الرسائل الغراميّة هنا...

قال بينيت: ــ لو كنت أسكن هذا البلد، لكنت أرسل رسائل غراميّة لجميع الفتيات هنا حتى تمرّ بين يديكِ. وبذلك تكونين «ساعية الغرام».

وكان يضحك في شيء من الشرود.

ــ ساعية الغرام! ساعية الغرام!

قالت: ــ سيكون هذا عظيمًا، لأنَّه يضاعف عملي.

وساد صمت طويل. كان بينيت قد احتفظ ببسمته اللامبالية، ولكنَّه كان متوتِّر المزاج، وكان نظره يبحث في كلّ مكان. وكانت حاملة ريشة معلَّقة إلى الحاجز بخيط، فتناولها بينيت، وغطَّها بالحبر، وسطَّر بضع كلمات على بطاقة بريديّة مدّها لها، وهو يقول:

ــ ها هي ذي.

فسألته عنها من غير أن تأخذها.

ـ ولكن خذيها! أنتِ موظَّفة بريد: فقومي بمهنتك.

وأخذتها آخر الأمر، وقرأت:

ـ ادفعوا ألف قبلة إلى الآنسة «بلا اسم»... (وقالت وهي متوزِّعة بين الغضب والضحك الشديد) ها إنّه قد عطَّل لي بطاقة بريديّة!

وبلغ الضجر من ماتيو منتهاه، فقال:

ـ حسنًا.. إنّني أترككما.

فبدا على بينيت الامتعاض:

ـ ألا تبقى؟

ـ يجب أن أرجع إلى هناك.

قال بينيت على عجل: ـ إنِّي أرافقك.

والتفت إلى موظَّفة البريد:

ـ سأعود بعد خمس دقائق: فهل تفتحين لي الباب ثانية؟

فقالت في أنين:

ـ أوه! كم هو مزعج! إنّه يقضي وقته كلّه في الدخول والخروج: لقد آن لك أن تقرِّر!

قال: حسنًا، حسنًا. إنّني باق. ولكنَّكِ ستتذكَّرين: فأنت التي طلبتِ منِّي أن أبقى.

ـ لم أطلب شيئًا على الإطلاق.

ـ بلى!

ـ لا!

وتمتم ماتيو بين أسنانه:

ـ أوه! خراء!

والتفت إلى الصغيرة، وقال:

ـ وداعًا، يا آنسة.

فقالت موظَّفة البريد في برودة:

ــ وداعًا.

وخرج ماتيو ومشى فارغ الرأس. كان الليل يهبط، وكان الجنود ما يزالون جالسين كما تركهم. مرّ في وسطهم فارتفعت من الأرض أصوات:

ــ ما هي الأخبار؟

قال ماتيو: ــ ليس ثمّة من أخبار.

وعاد إلى مقعده، وجلس بين شارلو وبيارنيه، وسأل:

ــ ألا يزال الضبَّاط عند الجنرال؟

ــ لا يزالون.

وتثاءب؛ كان ينظر بأسى إلى الأفراد الغارقين في الظلّ؛ وتمتم «نحن». ولكن ذلك لم يكن مقنعًا بعدُ: لقد كان وحيدًا. وقَلَب رأسه إلى الوراء ونظر إلى النجوم الأولى. كانت السماء رقيقة كامرأة، وكان حبُّ الأرض كلّه قد صعد ثانية إلى السماء. وطرف ماتيو بعينيه:

ــ نجم مذنَّب، يا جماعة. تمنّوا شيئًا.

فضرط لوبيرون، وقال:

ــ هذه هي أمنيتي!

وتثاءب ماتيو من جديد، وقال:

ــ حسنًا، إنّني ذاهب لأنام. هل تأتي يا شارلو؟

ــ أشكّ: فقد نرحل هذه الليلة، وأفضّل أن أكون مستعدًّا.

فضحك ماتيو ضحكة خشنة، وقال:

ــ يا لك من رأس فرج!

قال شارلو بسرعة: ــ كفى، كفى. إنّني آتٍ معك.

ودخل ماتيو إلى العنبر فارتمى في التبن مرتديًا كلّ ثيابه. وكان

يموت من شدَّة النعاس: كان دائمًا يُحسّ بالنعاس حين يكون بائسًا. أخذت كرة حمراء تدور، وأطلَّت وجوه نسائيّة من الشرفة وأخذت تدور هي أيضًا. وكان ماتيو يحلم بأنَّه السماء؛ يطلّ من الشرفة وينظر إلى الأرض. وكانت الأرض خضراء ذات بطن أبيض، تقفز البراغيث. وفكَّر ماتيو: يجب ألَّا تمسّني، ولكنَّها رفعت خمسة أصابع هائلة، وقبضت على ماتيو من كتفيه.

ـ انهضْ! بسرعة!

فسأل ماتيو: ـ كم هي الساعة؟

وكان يُحسُّ نَفَسًا حارًّا على وجهه، فقال صوت غيكيولي:

ـ الساعة العاشرة والثلث. انهضْ على مهل، وتوجَّه إلى الباب، ثم انظر من غير أن تُرى.

فجلس ماتيو وتثاءب:

ـ ماذا هناك؟

ـ إنَّ سيّارات الضبَّاط تنتظر في الطريق، على بعد مئة متر من هنا.

ـ وإذن؟

ـ افعلْ ما أقوله لك، وسترى.

ـ واختفى غيكيولي، وفرك ماتيو عينيه، ونادى بصوت منخفض:

ـ شارلو! شارلو! لونجان! لونجان!

ليس من جواب. فنهض ومشى متهاديًا من النعاس حتى الباب، وكان مفتوحًا على سعته. وكان رجل مختبئًا في الظلّ.

ـ مَنْ هنا؟

قال بينيت: ـ أنا.

ـ كنت أحسبك تضاجع.

ـ إنّها تداور وتماطل، ولن أحصل عليها قبل الغد (وتنهّد وأضاف)

يا إلٰهي! إنَّ شفتيّ تؤلمانني من فرط ما ابتسمت.

ــ أين بيارنيه؟

فأشار بينيت إلى ركن مظلم في الزاوية الأخرى من الشارع:

ــ هناك، مع شارلو ولونجان.

ــ وماذا يفعلون هناك؟

ــ لا أدري.

وانتظرا في صمت. كان الليل باردًا ومشرقًا تحت ضوء القمر. وكانت حزمة من ظلال تتحرَّك تجاههما، تحت المدخل. أدار ماتيو رأسه نحو بيت الطبيب: كانت عين الجنرال مغلقة، ولكن ضوءًا أصفر كان يتسلَّل من تحت الباب. إنّني «أنا» هنا. وانهار «الزمن»، مع مستقبل ــ فزّاعة كبير. ولم يبق غير مدّة محلِّيّة؛ صغيرة نائسة. لم يكن ثمّة سلم ولا حرب، ولا ألمانيا ولا فرنسا: لم يكن إلَّا هذا الشعاع الممتقع تحت باب ربّما كان على وشك أن ينفتح. فهل تراه ينفتح؟ لم يكن ثمّة ما هو هامّ غير هذا، ولم يكن لماتيو بعدُ غير هذا المستقبل الصغير. أينفتح الباب؟ وأضاء قلبه الذابل فرحٌ شبيه بفرح المغامرات. أينفتح الباب؟ كان ذلك هامًّا: كان يُخيَّل إليه أنَّ الباب إذ ينفتح يقدِّم أخيرًا جوابًا على جميع الأسئلة التي طرحها على نفسه طوال حياته. وأحسّ ماتيو بأنَّ رعشة فرح ستولد في جوف كليتيه، وشعر بالخجل، وقال لنفسه في جهد: لقد خسرنا الحرب. وفي تلك اللحظة، رُدّ له «الزمن»، وذابت لؤلؤة المستقبل الصغيرة في مستقبل ضخم مشؤوم. الماضي، المستقبل على مدى النظر، منذ الفراعنة حتى ولايات أوروبا المتَّحدة. وانطفأ فرحه، وانطفأ النور تحت الباب، وصرّ الباب، ودار على مهل، وانفتح على ظلام؛ وخفق الظلّ تحت المدخل، وطقطق الشارع كأنَّه غابة، ثم سقط في الصمت. لقد فات الأوان: فليس ثمّة من مغامرة.

وبعد لحظة، برزت أشباح على الدرابزين، وهبط الضبَّاط الدرج

واحدًا إثر الآخر، وتوقَّف أوَّل الهابطين في وسط الطريق بانتظار الآخرين، فتبدَّلت الطريق: ١٩١٢، طريقُ حاميةٍ تحت الثلج، والوقت متأخِّر، وكانت حفلة الليل لدى الجنرال قد انتهت؛ وكان الملازمان سوتان وكادين متشابكي الذراعين، جميلين كصورتين؛ وكان القائد برات قد وضع يده على كتف الكابتين مورون، وكانوا ينحنون ويبتسمون ويقفون تحت مانيزيوم القمر، صورة أخرى، الأخيرة، إنِّي أصوِّر الفريق كلّه، انتهى. واستدار القائد برات على عقبيه، فنظر إلى السماء ورفع إصبعين في الهواء، كما ليبارك القرية. خرج الجنرال بدوره، فأغلق الكولونيل الباب خلفه بهدوء: كان أركان حرب الفرقة بكامل عدده، عشرين ضابطًا، في أمسية مثلوجة، ذات سماء صافية، وكانوا قد رقصوا حتى منتصف الليل، أجمل ذكرى للحامية. وأخذ الجمع الصغير يسير بخطًى ذئبيّة؛ وكانت نافذة في الطابق الأوَّل قد انفتحت بغير ضجَّة؛ يطلّ منها شكل أبيض وينظر إليهم ذاهبين.

تمتم بينيت:

ـ أيّ مزاح!

كانوا يسيرون بهدوء، في كبرياء رقيقة؛ وكان على وجوههم الصنميّة التي تقطر بنور القمر وحدة وصمت شديدان، حتى إنّ النظر إليهم كان تدنيسًا. وكان ماتيو يشعر نفسه مذنبًا ومتطِّهرًا:

ـ أيّ مزاح! أيّ مزاح!

وتردّد الكابتين مورون. أيكون قد سمع؟ وناس جسمه الكبير الرائع المقوَّس والتفت نحو العنبر، وكان ماتيو يرى عينيه تلتمعان. وهمدر بينيت وقام بحركة ليقذف بنفسه إلى الخارج. ولكن ماتيو قبض على معصمه وأمسكه بقوَّة. وبحث الكابتين بنظره في أعماق الظلمات فترةً أخرى، ثم استدار وتثاءب بغير اكتراث، وهو يربت على شفتيه بأطراف أصابعه المقفزة. ومرّ الجنرال، ولم يكن قد سبق لماتيو أن رآه على هذا القرب.

كان رجلاً ضخمًا يفرض شخصيَّته، ذا وجه منضّد، يستند بتثاقل إلى ذراع الكولونيل، تتبعهما حاشية تحمل الحقائب؛ وكان فريق هامس ضاحك من الملازمين يُنهي الموكب.

قال بينيت بصوت مرتفع تقريبًا:

ـ ضبَّاط!

ففكَّر ماتيو: «الأحرى أنَّهم «آلهة». آلهة يعودون إلى جبال الأولمب بعد مكوث قصير على الأرض». وغرق الموكب الأولمبيّ في الليل، ورسم مصباح كهربائيّ دائرةً راقصة على الطريق، وانطفأ. التفت بينيت إلى ماتيو، وكان القمر يضيء وجهه الجميل اليائس.

ـ ضبّاط؟

ـ إي نعم.

وأخذت شفتا بينيت ترتجفان، وكان ماتيو يخشى أن ينفجر باكيًا، فقال:

ـ كفى! كفى! هيّا أيّها العنيد الصغير، استعد رباطتك.

قال بينيت: ـ يجب أن نراه حتى نصدِّقه. إنَّه العالم مقلوبًا.

وأخذ يد ماتيو يشدّها ويتشبَّث بها، كما لو كان يحتفظ بأمل أخير:

ـ لعلَّ السائقين يرفضون الرحيل؟

فهزّ ماتيو كتفيه: كانت المحرِّكات قد بدأت تهدر، فيؤلِّف ذلك أنشودة زيزان عذبة، بعيدًا، في أعماق الليل. وبعد لحظة، أقلعت السيّارات وضاع صوت المحرِّكات. وشبك بينيت ذراعيه:

ـ ضبّاط! بدأتُ الآن أصدِّق أنَّ فرنسا قد هلكت.

والتفت ماتيو: كانت ثمّة أشباح تنفصل عن الجدار عناقيد عناقيد، وكان جنودٌ يخرجون في صمت من الأزقَّة والبوّابات والعنابر. جنود حقيقيُّون، من الصفّ الثاني، ذوو أجسام ضعيفة وثياب رثَّة، ينسلّون إزاء بياض الواجهات المعتم، وفي لحظة، امتلأ الشارع. وكانت لهم وجوه

حزينة جدًّا انقبض لها قلب ماتيو، فقال لبينيت:

ـ تعال.

ـ إلى أين؟

ـ إلى الخارج مع الرفاق.

قال بينيت: ـ أوه! خراء! إنّني ناعس، ولا رغبة لي في التحدُّث.

وتردّد ماتيو: كان يشعر بالنعاس، وكانت أوجاع عنيفة تثقب له رأسه، وكان يودّ لو ينام ولا يفكّر في شيء بعد. ولكن هيئتهم كانت حزينة، وكان يرى ظهورهم تلتمع تحت القمر فيشعر بأنَّه أحدهم. وقال:

ـ أمّا أنا، فإنّي راغب في التحدُّث. مساء الخير.

واجتاز الشارع وضاع في الجمع. وكان ضوء القمر الطبشوريّ يُنير سحنات متحجِّرة، ولم يكن ثمّة من يتكلَّم. وفجأة، سُمع صوت المحرِّكات واضحًا. فقال شارلو:

ـ لقد عادوا، لقد عادوا!

ـ ولكن لا، أيُّها الأبله! لقد سلكوا طريق المقاطعات.

ومع ذلك، فقد أرهفوا آذانهم، يداخلهم أمل غامض، وخفّ الهدير وتلاشى. وتنهَّد لاتيكس:

ـ انتهى الأمر.

قال غريمو: ـ ها نحن أخيرًا وحدنا.

فلم يضحك أحد. وسأل أحدهم بصوت منخفض قلق:

ـ وماذا سيكون من أمرنا؟

فلم يكن ثمّة جواب، كان الأفراد لا يأبهون لما سيصيرون إليه؛ فقد كان لديهم همٌّ آخر، همٌّ غامض، كانوا يائسين من التعبير عنه. وتثاءب لوبيرون، وقال بعد صمت طويل:

ـ لا يجدينا شيئًا أن نسهر. إلى النوم، يا جماعة، إلى النوم. فقام

شارلو بحركة يأس كبيرة، وقال:

ــ طيّب، أنا ذاهب لأنام، ولكن على مضض.

وكان الأفراد يتبادلون نظرات قلقة، فلم تكن لديهم أيّة رغبة في الافتراق، أو أيّ مبرِّر للبقاء معًا. وفجأة ارتفع صوت، صوت مرير:

ــ إنَّهم لم يحبّونا قطّ.

وكان هذا يتكلَّم عن الجميع، وأخذ الجميع يتكلّمون:

ــ نعم! نعم! نعم! بوسعك أن تقول هذا، أنت على حقّ. وما تقوله صحيح. إنَّهم لم يحبُّونا قطّ، أبدًا، أبدًا، أبدًا. ولم يكن الألمان أعداءهم، بل كنّا نحن، لقد قمنا بالحرب كلِّها معًا، ومع ذلك فقد تخلّوا عنّا.

وكان ماتيو يردِّد مع الآخرين:

ــ إنَّهم لم يحبُّونا قطّ. أبدًا! أبدًا!

قال شارلو: ــ حين رأيتهم يمرُّون، كنت من شدّة الخيبة بحيث أوشكت أن أسقط ميّتًا.

وغطّى صوته ضجيج حائر: لم يكن هذا بعدُ ما ينبغي أن يقوله تمامًا. كان ينبغي الآن فقء الدمّل، ولم يكن ثمّة سبيل للتوقُّف بعدُ، كان ينبغي القول: ليس هناك من يحبّنا. لا أحد يحبّنا: إنَّ المدنيِّين يأخذون علينا أنَّنا لم نحسن الدفاع عنهم، ونساؤنا غير فخورات بنا، وضبّاطنا تخلُّوا عنّا، والقرويُّون يحقدون علينا والألمان يتقدَّمون في الليل. كان ينبغي القول: إنَّنا كبش المحرقة، إنّنا المهزومون، الجبناء، الهوام، حثالة الأرض، لقد خسرنا الحرب؛ إنّنا بشعون، مذنبون؛ وليس هناك أحد يحبّنا؛ لا أحد في الدنيا؛ لا أحد. ولم يجرؤ ماتيو ولكن لاتيكس قال خلفه، بلهجة متجرِّدة:

ــ إنّنا منبوذون!

وكانت أصوات في كلِّ مكان تردِّد بقسوة، وبلا رحمة: منبوذون!

وصمتت الأصوات. وكان ماتيو ينظر إلى لونجان، بلا سبب معيّن، هكذا، لأنَّه كان تجاهه، وكان لونجان ينظر إليه. وكان شارلو ولاتيكس يتبادلان النظر، كان الجميع يتبادلون النظر، الجميع وكأنَّهم ينتظرون، كما لو كان باقيًا شيء ما يُقال. ولم يكن ثمّة بعد ما يُقال، ولكن فجأة ابتسم لونجان لماتيو، فبادله ماتيو بسمته، وابتسم شارلو، وابتسم لاتيكس؛ وعلى جميع الأفواه، فتّح القمر زهورًا صفراء.

الاثنين، ١٧ حزيران

قال بينيت: ــ تعال، هيّا، تعال.

ــ كلّا.

ــ هيّا، هيّا، تعال.

وكان ينظر إلى ماتيو بهيئة رجاء وإغراء.

قال ماتيو: ــ حُلّ عن ظهري.

وكانا معًا تحت الأشجار، وسط الساحة، والكنيسة تجاههما، ودار البلديّة إلى اليمين. كان شارلو يحلم أمام دار البلديّة، وهو جالس على الدرجة الأولى من السلّم، وعلى ركبتيه كتاب. وكان جنود يتنزّهون بخطى بطيئة، زرافات ووحدانًا: لا يدرون ما يفعلون بحرّيّتهم. وكان رأس ماتيو ثقيلاً موجعًا كما لو أنَّه قد شرب.

قال بينيت:

ــ تبدو عليك السآمة.

قال ماتيو: أجل، إنّني في سأم.

كان قد حدث ذلك السُكر المضنيّ للصداقة: كان الأفراد ملتهبين تحت القمر، وكان هذا يستحقّ جهد أن يحيا الإنسان. ثم إنّ المصابيح كانت قد أُطفئت، فذهبوا ينامون، لأنَّه لم يكن لديهم شيء آخر يفعلونه، ولأنَّهم لم يكتسبوا بعد عادة تبادل المحبَّة؛ إنّ الوقت الآن يشبه اليوم

التالي لعيد والمرء يحسّ الرغبة في الانتحار.

وسأل بينيت: ــ كم الساعة؟

ــ الخامسة وعشر دقائق.

ــ خراء! لقد تأخّرت.

ــ إذن، عجّل بالذهاب.

ــ لا أريد أن أذهب وحدي.

ــ أتخاف بأن تلتهمك؟

قال بينيت: ــ ليس الأمر كذلك، ليس الأمر كذلك.

وألمّ بهما نيبير من غير أن يراهما، وهو مستغرق، وعيناه في داخله.

قال ماتيو: ــ اصحبْ نيبير.

ــ نيبير؟ هل أنت مجنون؟

وتابعا بعينيهما نيبير، مندهشين بهيئته العمياء وخطوته الراقصة.

وسأل بينيت: ــ علامَ تراهن بأنَّه داخل إلى الكنيسة؟

وانتظر لحظة ثم صفع بيده قفاه:

ــ إنَّه يدخل إليها، يدخل إليها! لقد ربحت.

وكان نيبير قد اختفى؛ والتفت بينيت إلى ماتيو فتأمَّله بهيئة بَرِمَة:

ــ يبدو أنَّهم أكثر من خمسين في الداخل، منذ هذا الصباح. وبين الفينة والفينة يخرج أحدهم ليبوِّل ثم يعود على الفور. فماذا تظنّ أنَّهم يفبركون؟

فلم يجب ماتيو.

وحكّ بينيت رأسه:

ــ لديّ رغبة بأن ألقي نظرة عليهم.

قال ماتيو: ــ ولكنَّك متأخِّر عن موعدك.

قال بينيت: ـ طز في الموعد!

وابتعد بلا اكتراث؛ واقترب ماتيو من شجرة كستناء. حزمة ضخمة متروكة على الطريق؛ هذا ما خلَّفه أركان حرب الفرقة؛ وكان ثمّة مثلها في جميع القرى؛ سوف يلتقطها الألمان لدى مرورهم. «ما عساهم ينتظرون، يا إلٰهي؟ ماذا ينتظرون؟» كانت الهزيمة قد أصبحت يوميّة: كانت هي الشمس والشجر وهيئة الزمن وهذه الرغبة الخفيّة بأن يموت؛ ولكنَّ العشيّة كانت قد خلَّفت في فمه مذاق أخوّة قد برد. وكان ضابط البريد يقترب، وحوله الطبّاخان؛ نظر إليهم ماتيو: لقد سبق لهذه الأفواه أن بسمت له في الليل، تحت ضوء القمر. أمّا الآن، فلم يبق شيء، وكانت وجوههم القاسية المغلقة تنادي بأنَّه ينبغي الحذر من ضربات القمر ومن نشوات منتصف الليل: كلٌّ لنفسه والله للجميع، لسنا على الأرض لننزعج، لقد كانوا هم أيضًا في يوم تال لعيد. وسحب ماتيو مديته من جيبه وشرع يقصُّ لحاء شجرة الكستناء. كان راغبًا أن يحفر اسمه في مكان ما من العالم.

ـ إنّك تكتب اسمك؟

ـ نعم.

ـ ها! ها!

وضحكوا ومضوا. وكان جنود آخرون يتبعونهم عن كثب: أفراد لم يسبق لماتيو أن رآهم قطّ. كانت ذقونهم طويلة وعيونهم لامعة وهيئتهم غريبة، وكان بينهم شخص يعرج. وقد اجتازوا الساحة ليذهبوا فيقتعدوا الرصيف، أمام الفرن المغلق. ثم جاء آخرون وآخرون لم يكن يعرفهم ماتيو كذلك، بلا بنادق ولا طمّاقات، ذوو وجوه رماديّة ووحل جافّ على أحذيتهم. هؤلاء كان بالإمكان أن يحبّهم المرء. وحين لحق بينيت بماتيو، حدّجهم بنظرة استياء، فسأله ماتيو:

ـ ماذا رأيت؟

ـ الكنيسة ملأى. (وأضاف بلهجة خائبة) إنّهم ينشدون.

وأغلق ماتيو مديته، فسأله بينيت:

ـ إنّك تكتب اسمك؟

فأجاب ماتيو وهو يضع مديته في جيبه:

ـ كنت أريد، ولكن ذلك يستغرق وقتًا أطول ممّا ينبغي.

وتوقَّف بالقرب منهما شابّ طويل ذو وجه متعب ضائع الملامح، فكأنَّه ضباب فوق ياقته المفتوحة، وقال من غير أن يبتسم:

ـ مرحبًا بالرفاق.

فتأمَّله بينيت، وقال ماتيو:

ـ مرحبًا.

ـ هل في هذه الأنحاء ضبّاط؟

فأخذ بينيت يضحك، وسأل ماتيو:

ـ أتسمعه؟ (والتفت إلى الرجل فأضاف) لا، يا عزيزي، لا، ليس من ضبّاط هنا، فنحن في جمهوريّة.

قال الرجل: ـ أرى ذلك.

ـ من أيّة فرقة أنت؟

ـ من الثانية والأربعين.

فدمدم بينيت: ـ الثانية والأربعين؟ لم أسمع بها قطّ. وأين أنتم؟

ـ في «الإبينال»؟

ـ وماذا تفعل هنا؟

فهزّ الجنديّ كتفيه، وسأل بينيت فجأة، بلهجة قلقة:

ـ أتراها ستأتي إلى هنا، فرقتك؟ مع جميع الضبَّاط وباقي الماخور؟

فضحك الجنديّ بدوره، وأومأ إلى أربعة أفراد جالسين على الرصيف، قائلاً:

ـ هذه هي الفرقة.

فالتمعت عينا بينيت:

ـ هل الوضع شديد في الإبينال؟

ـ كان شديدًا. أمّا الآن، فلا بدّ أنَّه هادئ جدًّا.

وأدار عقبيه ومضى إلى رفاقه. وكان بينيت يتابعه بعينيه:

ـ الثانية والأربعون، تأمّل! هل تعرفها أنت؛ الثانية والأربعون؟ إنّني لم أسمع بها حتى الآن.

قال ماتيو: ـ لم يكن ذلك سببًا كافيًا لتهاجمه!

فهزّ بينيت كتفيه، وقال في ازدراء:

ـ لا يكاد ينقطع سيل الأفراد الذين يأتون لا تدري حتى من أين! فأنت تشعر أنّك لست بعدُ في بيتك.

فلم يجب ماتيو: كان ينظر إلى الجروح في جذع شجرة الكستناء.

وقال بينيت:

ـ هيّا! تعال! سنذهب إلى الحقول، نحن الثلاثة، ولن نرى بعدُ أحدًا، وسنكون مرتاحين.

ـ ولكنْ ماذا تريد أن أفعل بينك وبين صاحبتك؟ إنّك لست بحاجة إليّ لتفعل ما تريد أن تفعله.

قال بينيت بلهجة مستكينة:

ـ ولكنّنا لن نفعله على التوّ، فيجب أن نتحدّث.

وقطع كلامه فجأة:

ـ أنظر هناك.. أنظر هناك! أجنبيٌّ آخر.

وكان جنديٌّ قصير سمين متَّجهًا إليهما باستقامة. وكان ضمّاد ملطَّخ بالدم يخفي عينه اليمنى. قال بينيت بصوت مرتعش بالأمل:

ـ لعلّنا في قلب معركة كبيرة، ولعلّ القتال سينشب.

فلم يجب ماتيو. ونادى بينيت الجنديّ ذا الضمّاد:

ـ اسمعْ!

فتوقَّف الرجل، ونظر إليه بعينه الوحيدة:

ـ هل حدثت هناك معارك؟

وكان الرجل ينظر إليه من غير أن يُجيب. والتفت بينيت إلى ماتيو:

ـ لا يمكن للمرء أن يسحب منهم شيئًا.

واستعاد الرجل سيره، ولكنَّه توقَّف بعد بضعة أمتار، فأسند ظهره إلى شجرة كستناء وتداعى للسقوط على الأرض، فإذا هو جالس وركبتاه عند ذقنه. قال بينيت:

ـ لعلَّه يشكو شيئًا.

قال ماتيو: ـ تعال.

واقتربا. فسأله بينيت:

ـ أَبِكَ شيء؟

فلم يجب الجنديّ.

ـ هيه! أَبِكَ شيء؟

وقال ماتيو للجنديّ: ـ سوف نساعدك.

انحنى بينيت ليأخذه من إبطيه، ولكنَّه ما لبث أن استقام:

ـ لا فائدة.

وكان الرجل ما يزال جالسًا، مفتوح العينين، فاغر الفم. وكانت هيئته رقيقة باسمة:

ـ لا فائدة.

ـ أجل! انظر إليه.

فانحنى ماتيو ووضع رأسه على صدر الجنديّ، ثم قال:

ـ أنت على حقّ.

قال بينيت: ـ يجب أن نغلق له عينيه.

وفعل ذلك بطرف أصابعه، وقد غرق رأسه في عنقه وتدلَّت شفته السفلى. وكان ماتيو ينظر إليه، ولا ينظر إلى الميِّت: إنَّ الميِّت ليس بعدُ ذا أهمِّيّة. وقال:

ـ لكأنّك ألفت ذلك طوال حياتك.

قال بينيت: ـ أمّا أنِّي رأيت أمواتًا، فقد رأيت. ولكن هذا هو الأوَّل منذ دخلنا الحرب.

وكان الميِّت يبتسم لأفكاره، مغمض العينين. وكان يبدو سهلاً أن يموت المرء، سهلاً ومرحًا تقريبًا. «ولكن، لماذا العيش؟» وأخذ كلّ شيء يخفق في السماء. الأحياء والأموات والكنيسة والشجرة. وانتفض ماتيو. كانت يدٌ قد لامست كتفه، وكان هو ذلك الشابّ الطويل ذا الوجه الضبابيّ، وكان ينظر إلى الميِّت بعينيه الحائلتين:

ـ ماذا هناك؟

ـ لقد مات.

فأوضح قائلاً: ـ إنَّه غارين.

والتفت إلى الشرق: ـ هيه، يا جماعة، عجِّلوا بالمجيء!

فنهض الجنود الأربعة وأخذوا يركضون، وصاح بهم:

ـ لقد مات غارين.

ـ خراء!

وكانوا يحيطون بالميِّت وينظرون إليه في حذر:

ـ عجيب ألَّا يكون قد سقط على الأرض.

ـ هذا يحدث أحيانًا. هناك من يبقى واقفًا.

ـ هل أنت متأكِّد من أنَّه مات؟

ـ هما اللذان يقولان ذلك.

فانحنوا جميعهم معًا على الميِّت. وكان أحدهم يمسك بمعصمه، وآخر يستمع إلى قلبه، وأخرج الثالث مرآة جيْب فألصقها بفمه، كما يحدث في الروايات البوليسيّة. ثم نهضوا مسرورين، وقال الرجل الطويل وهو يهزّ رأسه:

ــ يا لذلك الأحمق!

وهزُّوا رؤوسهم الأربعة وردَّدوا معًا:

ــ يا لذلك الأحمق!

والتفت قصير سمين إلى ماتيو يقول:

ــ لقد مشى عشرين كيلو مترًا. ولو بقي ساكنًا لظلّ حيًّا.

قال ماتيو وكأنَّه يعتذر عنه: ــ إنَّه لم يكن يريد أن يأخذه الألمان.

ــ وبعد ذلك؟ إنَّ عند الألمان سيّارات إسعاف. وقد حدّثته أنا في الطريق. كان دمه يسيل كالخنزير، ولكنَّك لم تكن تستطيع أن تقول له شيئًا. فحضرته لم يكن يفعل إلَّا ما في رأسه. كان يقول إنَّه يريد أن يعود إلى بيته!

فسأل بينيت: أَين هو بيته؟

ــ في كاهور. إنَّه خبّاز هناك.

فهزّ بينيت كتفيه:

ــ على كلّ حال، ليس هذا هو الطريق.

ــ نعم.

وصمتوا، ونظروا إلى الميِّت في ارتباك:

ــ ماذا نفعل به؟ هل ندفنه؟

ــ لا نستطيع أن نفعل غير هذا.

وحملوه من إبطيه وركبتيه، وكان ما يزال يبسم لهم، ولكنَّه كان يبدو أكثر موتًا بين الفينة والفينة.

ـ سوف نساعدكم.

ـ لا حاجة إلى ذلك.

قال بينيت بحيويّة: ـ بلى، بلى. فليس لدينا ما نعمله، وهذا ما يلهينا.

فنظر إليه الجنديّ الطويل بجدّ، وقال:

ـ كلّا، يجب أن يبقى ذلك فيما بيننا. إنَّه من بلدنا، فعلينا نحن أن ندفنه.

ـ وأين ستضعونه؟

فأشار القصير السمين برأسه إلى الشمال:

ـ هناك.

وأخذوا يمشون حاملين الجثَّة: وكانوا يبدون موتى أكثر منه.

وسأل بينيت: ـ ربّما كان له دين، هذا الرفيق؟

فنظروا إليه في ذهول. وأومأ بينيت إلى الكنيسة:

ـ إنَّها ملأى بالخوارنة الصغار.

فرفع الجنديّ الطويل يده بصورة استعلاء وقسوة:

ـ لا. لا. لا. يجب أن يظلَّ ذلك فيما بيننا.

واستدار على عقبيه وتبع الآخرين، فعبروا الساحة واختفوا.

وصاح شارلو:

ـ ما كان به، يا جماعة؟

فالتفت ماتيو: كان شارلو قد رفع رأسه ووضع كتابه إلى مقربة منه، على الدرجة:

ـ كان به أنَّه كان ميّتًا!

قال شارلو: ـ هذه بلاهة، إنَّني لم أفكِّر في أن أنظر، وإنّما رأيته حين كانوا يحملونه. إنَّه ليس منّا، على الأقلّ؟

ــ كلاّ.

قال: ــ آه حسنًا.

واقتربوا. ومن نوافذ دار البلديّة، كانت تخرج أناشيد وصيحات لاإنسانيّة، فسأل ماتيو:

ــ ماذا يحدث في الداخل؟

فابتسم شارلو: ــ إنَّه الماخور.

ــ وتستطيع أن تقرأ؟

فقال شارلو في ذلٍّ: ــ لم أكن أقرأ تمامًا.

ــ وما هو الكتاب؟

ــ إنَّه الـ «فولابيل».

ــ كنت أحسب أنّ لونجان هو الذي كان يقرأه.

قال شارلو في سخرية:

ــ لونجان! هكذا! إنَّ لونجان ليس بعد في حالةٍ تسمح له بالقراءة.

وأشار بإبهامه إلى البناء، من فوق كتفه:

ــ إنَّه هناك في الداخل، محشوٌّ كأنَّه خنزير.

ــ لونجان؟ إنَّه لا يشرب غير الماء.

ــ اذهبْ لترى إن لم يكن محشوًّا.

وسأل بينيت: ــ كم الساعة؟

ــ الساعة الخامسة وخمس وثلاثون.

والتفت بينيت إلى ماتيو:

ــ ألا تأتي؟

ــ لن آتي.

إذن اذهب.

فوجَّه إلى شارلو عينيه الجميلتين الحسيرتين:

ـ كم يبعصني هذا.

ـ ما الذي يبعصك، أيُّها العنيد الصغير؟

قال ماتيو: ـ لقد وجد سمكة.

ـ إذا كانت تبعصك، فما عليك إلَّا أن تحوِّلها لي.

قال بينيت: ـ لا أستطيع. إنَّها تعبدني.

ـ إذن، تدبَّر أمرك.

فقام بينيت بحركة تستنزل عليهما اللعنة، وأولاهما ظهره ومضى. وتبعه شارلو بعينيه وهو يبتسم:

ـ إنَّه يروق للنساء.

قال ماتيو: ـ صحيح.

فقال شارلو: ـ أنا لا أحسده.. فيكفي مجرَّد التفكير بأن أقفز، في هذه اللحظة، على امرأة..

ونظر إلى ماتيو في فضول:

ـ يُقال بأنّ الخوف يوتِّر.

ـ يعني.

ـ إنَّ هذا ليس حالي، فهو قد التوى.

ـ وهل أنت خائف؟

ـ خائف! كلَّا. ولكنَّ شيئًا يثقل على معدتي.

ـ فهمت.

ـ وأمسك شارلو فجأة بكُمّ ماتيو، وقال له بصوت منخفض:

ـ اجلس. عندي ما أقوله لك.

فجلس ماتيو، وقال شارلو بصوت منخفض:

ـ هنالك من يروي حماقات ضخمة مثلهم.

ـ أيّة حماقات؟

قال شارلو منزعجًا:

ـ لو تعلم، إنَّها «حقًّا» حماقات.

ـ تكلَّم لنرى.

ـ اسمع إذن: إنَّ الكابورال كابيل يقول إنَّ الألمان سيخصوننا.

وضحك من غير أن يغادر ماتيو بنظره. وقال ماتيو:

ـ نعم، إنَّها حماقات.

وكان شارلو ما يزال يضحك:

ـ ولكن لاحِظْ: إنَّني لا أصدِّق ذلك. فإنَّ هذا يعطيهم عملاً مجهدًا.

وصمتا. وكان ماتيو قد تناول كتاب «الفولابيل» وأخذ يتصفّحه، وكان يأمل بغموض أن يدع له شارلو أن يأخذه. قال شارلو بلامبالاة:

ـ وهل يخصون اليهود عندهم؟

ـ كلّا.

فقال شارلو باللهجة نفسها:

ـ لقد حدَّثوني عن ذلك.

وفجأة، أخذ ماتيو من كتفيه، فلم يستطع ماتيو أن يحتمل رؤية هذا الوجه المذعور، وخفض نظره على ركبتيه، وسأل شارلو:

ـ ما عساهم يفعلون بي؟

ـ لن يفعلوا غير ما يفعلونه بالآخرين.

وساد صمت، ثم أضاف ماتيو:

ـ مزِّق دفترك العسكريّ واقذف صفيحتك في الهواء.

ـ لقد فعلت هذا منذ زمن طويل.

ـ وإذن؟

قال شارلو: ـ انظر إليّ.

ولم يكن ماتيو يستطيع أن يصمِّم على أن يرفع عينيه:

ــ أقول لك أن تنظر إليّ!

قال ماتيو: ــ إنّني أنظر إليك، فماذا؟

ــ هل يبدو عليّ أنّي يهوديّ؟

قال ماتيو: ــ كلّا، ليست عليك هيئة اليهود.

فتنهَّد شارلو، وخرج جنديّ من دار البلديّة وهو يتهاوى، فنزل ثلاث درجات، ولكنَّه أخطأ الرابعة فتدحرج بين ماتيو وشارلو ليمضي فينسحق في وسط الشارع.

قال ماتيو: ــ إنَّه شديد البأس!

ونهض الرجل على مرفقيه وتقيّأ، ثم سقط رأسه من جديد، وكفّ عن الحراك.

وقال شارلو موضحًا:

ــ لقد غلوا خمرًا في «الإدارة». ليتك رأيتهم يمرُّون وهم يحملون أباريق لا أدري أين وجدوها وقِدرًا كبيرة مليئة بالخمرة! كان ذلك يثير الاشمئزاز.

وظهر لونجان على إحدى نوافذ الطابق السفليّ وتجشّأ. وكانت عيناه حمراوين وأحد خدّيه أسود برمّته. فصاح به شارلو بقسوة:

ــ لقد تدبّرت أمرك جيّدًا!

فنظر إليهما لونجان وهو يطرف بعينيه؛ وحين عرفهما، رفع يديه في الهواء بصورة مأساويّة، وصاح:

ــ دولارو؟

ــ ماذا؟

ــ إنّني أضيّع اعتباري.

ــ ليس عليك إلّا أن تذهب.

ـ لا أستطيع أن أذهب وحدي.

قال ماتيو: إنَّني قادم معك.

ونهض وهو يضمّ كتاب الفولابيل إلى صدره. وقال شارلو:

ـ إنّك طيّب في الحقيقة.

ـ يجب أن نمضي الوقت.

وصعد درجتين، فصاح شارلو من خلفه:

ـ هيه! أَعِد لي كتابي.

فقال ماتيو مغتاظًا: ـ طيِّب، لا تصرخ هكذا.

وقذف له بالكتاب. ثم دفع الباب، فولج ممرًّا ذا جدران بيضاء وتوقّف وقد شعر بضيق: كان صوت مرتفع متناوم ينشد أنشودة «مدفعيّ متز». وذكّره ذلك بمصحّ روان، عام ٢٤، حين كان يذهب ليرى عمَّته الأرمل التي جُنّت من الحزن، فيسمع بعض المجانين يغنّون وراء النوافذ. وعلى الجدار الأيسر، كان قد عُلِّق إعلان تحت حاجز. فاقترب وقرأ: «تعبئة عامَّة». وفكَّر: لقد كنت مدنيًّا. وكان الصوت يغفو أحيانًا، فيسقط على نفسه ويفرغ وهو يحشرج، ثم يستيقظ في صيحة. لقد كنت مدنيًّا، وهذا بعيد العهد. وكان ينظر في الإعلان إلى العلمين الصغيرين المتصالبين، ويتمثَّل نفسه مرتديًا سترة ألبكة وياقة منشّاة. وكان لم يسبق له أن ارتدى الأولى ولا الثانية، ولكنَّه كان يتمثّل المدنيين هكذا. وفكَّر: «سيكون فظيعًا أن أعود مدنيًّا. والحقّ أنّ هذا جنس يتلاشى». وسمع لونجان يصيح «دولارو». ورأى بابًا مفتوحًا إلى يساره فولجه. كانت الشمس قد انخفضت، وأشعَّتها الطويلة المغبرَّة تقسِّم الحجرة قسمين من غير أن تنيرها، وأخذت بخناق ماتيو رائحة خمر قويّة، فطرف بعينيه ولم يميِّز أوّلاً سوى خارطة جداريّة كانت تبدو لطخة في بياض الحائط، ثم رأى مينار جالسًا، متدلّي الساقين فوق خزانة صغيرة، يحرِّك حذائيه في أرجوان الشمس الغاربة. وكان هو الذي يغنِّي، وكانت عيناه المرحتان

حتى الجنون تدوران فوق فمه الفاغر، وكان صوته ينسحب منه من تلقاء نفسه، فيعيش منه كنبتة طفيليّة ضخمة تمتصّ أمعاءه ودمه لتحيلها إلى أغنيات، وكان جامدًا متدلّي الذراعين ينظر في ذهول إلى هذه الهامة التي تخرج من فمه. لم يكن ثمّة من أثاث: فلا بدّ أنَّهم قد استولوا على الطاولات والكراسي. وصعدت صيحة ترحيب في القاعة:

ـ دولارو! مرحبًا دولارو!

فخفض ماتيو عينيه ورأى رجالاً. وكان ثمّة رجلٌ قد استرخى في قيئه، وكان آخر يشخر، متمدِّدًا على طوله؛ وكان ثالث مستندًا إلى الجدار، فاغر الفم كما كان مينار، ولكنَّه لم يكن يغنِّي: وكانت له لحية رماديّة تمتدّ من أذنه إلى أذنه الأخرى، وكانت عيناه مغمضتين خلف نظّارتيه.

ـ مرحبًا، دلارو! دولارو، مرحبًا!

وإلى يمينه، كان ثمّة أشخاص آخرون ذوو أوضاع أرصن. كان غيكيولي جالسًا على الأرض، وبين ساقيه المنفرجتين قصعة مليئة بالعرق. وكان لاتيكس وغريمو مقرفصين على الطريقة التركيّة: وكان غريمو يمسك قدحه من عروته ويضربه بالأرض لينغِّم أغاني مينار، أمّا لاتيكس، فقد كانت يده مختفية حتى المعصم في فتحة بنطاله. وقال غيكيولي بضع كلمات غطّاها صوت المغنّي، فسأله ماتيو وهو يكوِّر يده حول أذنه:

ـ ماذا تقول؟

فرفع غيكيولي عينين غاضبتين إلى مينار.

ـ ولكنْ اخرسْ لحظة، بالله عليك! إنّك تحطِّم آذاننا.

فكفّ مينار عن الغناء، وقال وهو يكاد ينتحب:

ـ لا أستطيع التوقُّف.

وما لبث أن بدأ أغنية «فتيات الكاماريه» وكأنَّه ضحيّة صوته.

وقال غيكيولي: ـ أصبحنا في وضع جميل!

ولم يكن شديد الاستياء، ونظر إلى ماتيو في اعتزاز وقال:

ــ الواقع أنَّه جذلان. إنّنا كلّنا هنا جذالى: فنحن سَوَقة فاقدو الاعتبار، عصابة محطِّمي الصحون!

ووافق غريمو برأسه وضحك. وقال في جهد، كما لو أنَّه كان يتكلَّم لغة أجنبيّة:

ــ إنّنا لا نصاهر الكآبة.

قال ماتيو: ــ أرى ذلك.

وسأل غيكيولي: ــ أتريد أن تشرب قدحًا؟

وفي وسط القاعة، كانت تقوم قِدرٌ نحاسيّة مليئة بخمر أحمر من خمر «الإدارة»، وكانت تعوم فيها أشياء.

قال ماتيو: ــ إنَّها قِدرٌ للمربّيات. فمن أين أخذتموها؟

فقال غيكيولي: ــ لا تهتمّ بذلك. فهل تشرب، نعم أم خراء؟

وكان يتكلّم بمشقَّة، ويجهد في إبقاء عينيه مفتوحتين، ولكنَّه كان يحافظ على لهجة الهجوم. قال ماتيو:

ــ لا، فأنا قادم لأصحب لونجان.

ــ تصحبه إلى أين؟

ــ نشمّ الهواء.

فأخذ غيكيولي قصعته بكلتا يديه وشرب، ثم قال:

ــ لن أمنعك أنا من أخذه، فهو لا ينفكّ يتحدّث عن أخيه، فيزعج الجميع. تذكّر أنّ هذه هي هنا عصابة المزّاحين: فمن كان خمره حزينًا، فنحن لا نريده بيننا.

وأخذ ماتيو بذراع لونجان:

ــ هيّا، تعال!

فتخلّص لونجان بغيظ:

ـ دقيقة! دعْ لي وقتًا لأتعوّد!

قال ماتيو: ـ إنَّ أمامك الوقت كلّه.

وأدار عقبيه ليذهب فيلقي نظرة على الخزانة. ومن خلال الزجاج رأى مجلَّدات ضخمة يغطِّيها قماش. شيء للقراءة. إنّه مستعدٌّ لقراءة أيِّ شيء: وحتى القانون المدنيّ. كانت الخزانة مقفلة بالمفتاح، وحاول عبثًا أن يفتحها. قال غيكيولي:

ـ اكسر الزجاج.

فقال ماتيو منزعجًا: ـ كلّا.

ـ لماذا لا تكسره؟ انتظر لحظة لترى إذا كان الألمان سينزعجون لكسره.

والتفت إلى الآخرين:

ـ إنَّ الألمان سيحرقون كلَّ شيء، ودولارو لا يريد أن يكسر الخزانة.

فأخذ الأفراد يضحكون ويمزحون، وقال غريمو في احتقار:

ـ بورجوازيّ!

وكان لاتيكس يشدّ ماتيو من سترته:

ـ هيه! تعال دولارو فانظرْ!

فالتفت ماتيو:

ـ انظر ماذا؟

فأخرج لاتيكس عضوه من فتحة بنطاله، وقال:

ـ انظرْ، وارفعْ قبّعتك: لقد صنعت به ستّة.

ـ ستّة ماذا؟

ـ ستّة أولاد. وهم جميلون لو تعلم! وكان كلٌّ منهم يزن في كلّ ضربة عشرين ليبرة تقريبًا؛ ولا أدري من الذي سيطعمهم الآن، ولكنَّك

(وانحنى بحنان على عضوه) ستصنع لنا آخرين بالدزّينة، أيُّها الفاجر!

وصرف ماتيو عينيه، فصاح لاتيكس في غضب:

ـ ارفعْ قبّعتك، أيُّها التلميذ!

قال ماتيو: ـ ليس لي قبّعة.

فرمى لاتيكس نظرة دائريّة:

ـ ستّة في ثمانية أعوام. من يفعل أفضل؟

وعاد ماتيو إلى لونجان:

ـ وإذن، هل تأتي؟

فنظر إليه لونجان نظرة غائمة:

ـ لا أحبّ أن أُباغت.

ـ إنّني لا أباغتك، فأنت الذي ناداني.

وضع لونجان إصبعه تحت أنفه:

ـ إنّني لا أحبُّك كثيرًا، يا دولارو، ولم يسبق لي أن أحببتك كثيرًا.

قال ماتيو: ـ هذا متبادل.

فقال لونجان مسرورًا: ـ حسنًا، من الممكن هكذا أن نتفاهم (وسأل ماتيو وهو ينظر إليه في حذر) لماذا أوّلاً لا أشرب؟ أيّة فائدة لي في ألّا أشرب؟

فقال غيكيولي: ـ إنَّ خمرك حزين.

ـ إذا لم أشرب، كان ذلك أسوأ.

وغنّى مينار:

إذا متُّ. فأريد أن يدفنوني

في القبو الذي فيه خمر.

ونظر ماتيو إلى لونجان وقال له:

ـ بوسعك أن تشرب ما تشاء:

فدمدم لونجان خائبًا: ـ ماذا؟

صاح ماتيو: ـ أقول إنَّ بوسعك أن تشرب بقدر ما تشاء. فأنا أهزأ بذلك.

وكان يفكِّر، «لم يبق لي إلَّا أن أذهب». ولكنَّه لم يكن يستطيع التصميم على ذلك. كان ينحني فوقهم، ويشمّ رائحة سكرهم الغنيّة المسك رة ورائحة شقائهم، كان يفكِّر: «وأين أذهب؟» ثم يشعر بالدوار. إنَّهم لم يكونوا يثيرون اشمئزازه، هؤلاء المهزومون الذين كانوا يشربون الهزيمة حتى الثمالة، ولئن كان يشمئزّ من أحد، فمن ذاته هو. وانحنى لونجان ليتناول قدحه، فسقط على ركبتيه:

ـ خراء!

وزحف حتى القِدر، وغطّس ذراعه في الخمر حتى المرفق، وأخرج القدح الذي كان يقطر، ثم انحنى ليشرب. ومن زاويتيْ فمه المرتعش، كان السائل يقطر في القِدر.

وقال: ـ لست في حالة جيِّدة.

فنصحه غيكيولي: ـ تقيّأ.

فسأله لونجان، وكان ممتقعًا، يتنفّس بمشقّة:

ـ وكيف تفعل؟

فأدخل غيكيولي إصبعين في فمه، ومال إلى جانب، فحشرج قليلاً وتقيّأ بعض البلاغم. وقال وهو يمسح فمه بظاهر يده:

ـ هكذا.

كان لونجان ما يزال على ركبتيه، فنقل قدحه إلى يده اليسرى وأدخل اليمنى في حلقه، فصاح لاتيكس:

ـ إيه! إنك ستقيء في الخمر!

وصاح غيكيولي: ـ ادفعه يا دولارو، ادفعه بسرعة.

فدفع ماتيو لونجان الذي سقط جالسًا من غير أن يُخرج يده من فمه، وكان الجميع ينظرون إليه نظرة تشجيع. وسحب لونجان يده وتجشّأ. وقال غيكيولي:

ـ لا تغيّر يدك. إنَّ القيء يجيء.

فسعل لونجان وأصبح قرمزيَّ اللون، فقال محتجًّا:

ـ إنَّه لا يجيء أبدًا.

فصاح غيكيولي غاضبًا:

ـ ذلك لأنَّك ضرّاط. إنَّ من لا يعرف أن يقيء، لا يشرب. وبحث لونجان في جيبه، وعاد يركع على ركبتيه، ثم قرفص بالقرب من القِدر، فصاح غريمو:

ـ ماذا تفعل؟

قال لونجان وهو يُخرج من القِدر منديله الذي يقطر خمرًا:

ـ إنَّني أصنع لنفسي رفَّادة رطبة.

وألصقها على جبينه، وقال بصوت طفوليّ:

ـ دولارو، أرجوك، هل تستطيع أن تعقدها لي من الخلف؟ فأخذ ماتيو طرفي المنديل وعقدهما على رقبة لونجان، فقال لونجان:

ـ آه، لقد تحسّن الحال.

وكان المنديل يُخفي عينه اليسرى، وكانت خطوط من الخمر الأحمر تسيل على وجنتيه وعنقه. قال غيكيولي وهو يضحك:

ـ إنّك تشبه المسيح!

قال لونجان: ـ معك حقّ، فأنا شخص من نوع المسيح.

ومدّ قدحه إلى ماتيو ليملأه له، فقال ماتيو:

ـ آه! كلّا، كفى ما شربته حتى الآن.

فصاح لونجان: ـ افعلْ ما أقوله لك، افعلْ ما أقوله لك، بالله

عليك (وأضاف بصوت شاكٍ) إنَّ السويداء تتملَّكني.

قال غيكيولي: ــ بالله عليك، أعطه ليشرب بسرعة، وإلَّا عاد يحدِّثنا عن أخيه.

فنظر إليه لونجان بتعالٍ:

ــ ولماذا لا أتكلَّم عن أخي إذا كنتُ راغبًا في ذلك؟ أتكون أنت الذي يمنعني؟

قال غيكيولي: ــ أوه! دعنا منك.

فالتفت لونجان إلى ماتيو وقال موضِّحًا:

ــ إنَّ أخي في «هوسيغور».

ــ هو إذن ليس جنديًا؟

ــ كلّا: إنَّه معتوق. وهو يتنزّه في الصنوبر مع امرأته الصغيرة، ويقولان بينهما: يا لپول المسكين، إنَّه غير محظوظ، ثم يحتكّان فيما بينهما وهما يفكِّران بي. ولكنَّهما في الحقيقة لا يكترثان بپول المسكين.

وصمت لحظة متأمِّلاً، ثم انتهى إلى القول:

ــ إنّني لا أحبّ أخي.

وكان غريمو يضحك حتى تسيل دموعه. فسأله لونجان مغتاظًا:

ــ ما الذي يجعلك تضحك؟

فسأله غيكيولي في غضب:

ــ لعلّك ستمنعه من الضحك؟ (وقال لغريمو بلهجة أبويّة) استمرّ يا صغيري، اضحكْ وقهقه ما حلا لك، فنحن هنا لنتسلّى.

قال غريمو: ــ إنّني أضحك بسبب زوجتي.

قال لونجان: ــ لا تهمّني زوجتك.

ــ أنت تتكلَّم عن أخيك، فأستطيع أن أتكلَّم عن زوجتي.

ــ وما بالها زوجتك؟

فوضع غريمو إصبعًا على شفتيه، وقال:

ـ هس! (وانحنى على غيكيولي وقال في مُسارّة) إنَّ لي امرأة قبيحة كالقفا.

وأراد غيكيولي أن يتكلَّم، فقال غريمو بتسلُّط:

ـ ولا كلمة. كالقفا، ولا مجال للمناقشة. (وأضاف وهو يتحامل قليلاً ويمرِّر يده اليسرى على مؤخِّرته ليبلغ جيب مسدّسه) انتظر، سأريك إيّاها، وسوف تضحك!

وبعد جهود غير مثمرة، تداعى للسقوط:

ـ مهما يكن، فهي قبيحة كالقفا. صدِّقني. وأنا لا أكذِّب عليك، فليست لي مصلحة في هذا..

فبدا لونجان مهتمًّا، وسأله:

ـ أهي «حقًّا» قبيحة؟

ـ أقول لك: كالقفا.

ـ ولكن ما هو القبيح فيها؟

ـ كلّ شيء. ثدياها يبلغان ركبتيها، ومؤخَّرتها تبلغ كعبها، وإذا رأيت ساقيها، جنازة! وهي تبوِّل بين هلالين.

فقال لونجان ضاحكًا:

ـ يجب إذن أن تحوِّلها لي، فهي امرأة تناسبني. إنّني لم أتمتَّع قطّ إلّا بالبشعات. أمّا الجميلات، فمن نصيب أخي.

فطرف غريمو بعينه في خبث:

ـ أوه، كلّا، لن أحوِّلها لك يا صديقي، لأنِّي إذا حوَّلتها لك، فليس مضمونًا أن أجد غيرها، نظرًا إلى أنِّي لست جميلاً أيضًا (وأنهى كلامه متنهِّدًا) إنَّها الحياة، ويجب أن نكتفي بما نملك.. وغنّى مينار:

ـ «وهكذا، الحياة الحياة».

«التي يعيشها الرهبان الطيّبون».

قال لونجان: ــ إنَّها الحياة! إنَّها الحياة! نحن أموات يتذكَّرون حياتهم. وأقسم بأنَّها لم تكن حياة جميلة!

فقذفه غيكيولي بقصعته، فلامست خدّه وسقطت في القِدر. وقال غيكيولي في غضب:

ــ غيِّر الأسطوانة. إنّ لي أنا أيضًا همومي، ولكنِّي لا أُخرّي الناس بها. إنّنا هنا للمزاح، أتفهم؟

فأدار لونجان إلى ماتيو عينين يائستين، وقال بصوت منخفض:

ــ خذني من هنا، خذني من هنا!

فانحنى ماتيو ليلتقطه من إبطيه، فتلوّى لونجان كالحنش وأفلت منه. وفقد ماتيو صبره، فقال:

ــ لقد ضجرت منك. فهل تأتي أم لا؟

وكان لونجان قد اضطجع على ظهره ينظر إليه بمكر:

ــ أتريد حقًّا أن آتي؟ أتريد حقًّا؟

ــ لا يهمّني. كلّ ما أريده أن تصمِّم في هذا الاتّجاه أو ذاك.

قال لونجان:

ــ حسنًا! اشربْ جرعة. إنَّ لديك الوقت لتشرب جرعة، بينما أنا أفكِّر.

فلم يجب ماتيو، ومدّ له غريمو قدحه:

ــ خذ!

فرفضه ماتيو بحركة، وقال: ــ شكرًا.

سأله غيكيولي مندهشًا:

ــ لماذا لا تشرب؟ إنَّ هناك خمرًا للجميع: فلا تنزعج!

ــ لست عطشًا.

فأخذ غيكيولي يضحك، وقال:

ــ يقول إنَّه ليس عطشًا! ألا تعلم إذن أيُّها الشقيُّ أنَّنا عصبة الشاربين ــ بلا ــ عطش؟

ــ لا رغبة لي في الشرب.

فقطّب غيكيولي حاجبيه:

ــ لماذا لا تكون لك الرغبة كالآخرين؟ لماذا؟

ونظر إلى ماتيو بقسوة:

ــ كنت أحسبك قد تهذَّبت. إنّك تخيِّب ظنِّي يا دولارو.

وانتصب لونجان على مرفقيه:

ــ ألا ترى أنَّه يحتقرنا؟

وساد صمت. ورفع غيكيولي على ماتيو عينين مستفهمتين، ثم استرخى فجأة وانغلق جفناه. وابتسم بطريقة بائسة، وقال وهو يحتفظ بعينيه مغلقتين:

ــ إنَّ هؤلاء الذين يحتقروننا، ليس لهم إلَّا أن يذهبوا. فنحن لا نمسك أحدًا، ونحن فيما بيننا.

قال ماتيو: ــ أنا لا أحتقر أحدًا.

وتوقّف: «إنَّهم سُكارى، وأنا لم أشرب»، وكان ذلك يضفي عليه بالرّغم منه تفوُّقًا كان يُخجله. كان خجلاً من الصوت الصابر الذي كان مضطرًّا إلى اتّخاذه معهم. «لقد ثملوا لأنَّهم لا يطيقون بعدُ وضعهم!» ولكن لم يكن ثمّة من يستطيع أن يشاطرهم بؤسهم، إلَّا أن يكون ثملاً مثلهم. وفكَّر: «ما كان ينبغي لي أن آتي قطّ».

وردَّد لونجان في غضب لمفاويّ:

ــ إنَّه يحتقرنا. فهو هنا كأنَّه في السينما، ويزعجه أن يرى أشخاصًا سُكارى يفلتون.

قال لاتيكس: ـ تحدَّث عن نفسك، فأنا لا أفلت.

قال غيكيولي ضَجِرًا: ـ أوه، دعنا من هذا.

وكان غريمو ينظر بتفكُّر إلى ماتيو:

ـ إذا كان يحتقرنا، فإنّي أشخّ على رأسه.

فأخذ غيكيولي يضحك، ويردّد:

ـ إنَّهم يشخّون على رأسك. إنَّهم يشخُّون على رأسك.

وكان مينار قد كفّ عن الغناء، وتداعى للتراخي إزاء الخزانة، ونظر حوله نظرة رعب، ثم بدأ يستردّ اطمئنانه، وأرسل زفرة تحرُّر ثم سقط على الأرض مغمًى عليه. ولم يتنبّه له أحد: كانوا ينظرون أمامهم باستقامة، وكانوا بين الفينة والفينة يلقون على ماتيو نظرة استياء، ولم يكن ماتيو ليعرف بعدُ ما يصنع بنفسه: كان قد دخل من غير أن يفكِّر بالأذى، لينجد لونجان. ولكن كان عليه أن يتنبّأ بأنّ العار والفضيحة سيدخلان معه. ولقد وعى هؤلاء الأفراد أنفسَهم بسببه؛ إنَّه لم يكن يتحدّث بعدُ بلغتهم، ومع ذلك فقد أصبح على غير إرادة منه قاضيهم وشاهدهم. وكان يشمئزّ من هذه القِدر المليئة بالخمر والأقذار، وفي الوقت نفسه يستنكر هذا الإشمئزاز: «من أكون حتى أرفض الشرب حين يكون رفاقي سُكارى؟».

وكان لاتيكس يربِّت بتفكُّر على أسفل بطنه. وفجأة، التفت نحو ماتيو، وفي عينيه بريق تحدٍّ، ثم جذب قصعته إلى ما بين ساقيه، وجعل يغطِّس عضوه في الخمر، وهو يقول:

ـ إنّي أعمل له حمّامًا، لأنّ ذلك منعش.

فخنق غيكيولي ضحكة، وأدار ماتيو رأسه، فالتقى بنظر غريمو الساخر، فقال غريمو:

ـ إنّك تتساءل أين وقعت؟ آه، أنت لا تعرفنا، يا صديقي الصغير: فمعنا، يجب أن تتوقَّع كلّ شيء.

وانحنى إلى أمام، وصاح وهو يغمز غمزةَ مُشاركة:

ـ إيه؟ أتحدّاك يا لاتيكس أن تشرب خمرك؟

فردّ له لاتيكس غمزته:

ـ لن أنزعج أبدًا.

ورفع القصعة وشرب بصخب وهو يراقب ماتيو. وكان لونجان يقهقه، والجميع يبتسمون. كلّ ذلك بسببي. ووضع لاتيكس قصعته وطقطق لسانه:

ـ إنَّ له مذاقًا طيّبًا.

قال غيكيولي: ـ وإذن، ما رأيك؟ ألسنا مزّاحين؟ ألسنا ماجنين صغارًا؟

وقال غريمو: ـ ولم تَرَ شيئًا بعد. لم تَرَ شيئًا بعد.

وأخذ يفكّ بيديه المرتجفتين أزرار فتحة بنطاله. انحنى ماتيو على غيكيولي، وقال على مهل:

ـ أعطني قصعتك. أريد أن أشارككم المزاح.

فقال غيكيولي: ـ لقد سقطت في القِدر. وليس عليك إلّا أن تُخرجها.

فغطّس ماتيو يده في القِدر، وحرّك أصابعه في الخمر، متلمّسًا القعر، ثم أخرج القصعة ملأى. وتجمّدت يدا غريمو، فنظر إليهما، ثم أعادهما إلى جيبيه ونظر إلى ماتيو. وقال لاتيكس وقد رقّت لهجته:

ـ آه! كنت واثقًا من أنَّك لن تستطيع أن تمنع نفسك.

وشرب ماتيو. وكان في الخمر كرات من مادَّة رخوة لا لون لها، فلفظها وملأ القصعة من جديد. وكان غريمو يضحك بطيبة، وقال:

ـ إنَّ من يرانا يُسقَط في يده: فيجب أن يشرب، آه! إنّنا نثير رغبته.

ـ فقال غيكيولي مقهقهًا:

ـ الأفضل أن نثير الرغبة لا الشفقة.

وتريّث ماتيو حتى ينقذ ذبابة كانت تتخبّط في الخمر، ثم شرب.

وكان لاتيكس ينظر إليه نظرة معرفة، وقال:

ـ ليس هذا سُكرًا، وإنّما هو انتحار.

وكانت القصعة فارغة، وقال ماتيو:

ـ إنّي أعاني مشقّة كبيرة حتى أسكر.

وملأ القصعة مرّة ثالثة. وكان الخمر ثقيلاً، ذا طعمٍ مُسْكِر غريب. وسأل ماتيو وقد خامره شكّ:

ـ أتراكم قد بُلْتُم فيه؟

فسأله غيكيولي غاضبًا:

ـ أتكون لئيمًا؟ أتظنّ أنّنا نريد أن نفسد الخمر؟

قال ماتيو:

ـ أوه! لا يهمّني!

وجرع القصعة كلّها ثم صفَّر، فسأله غيكيولي باهتمام:

ـ ماذا؟ هل تحسّ نفسك في حالة أفضل؟

فهزّ ماتيو رأسه:

ـ لم أبلغ هذا بعد.

وأخذ القصعة، وكان منحنيًا فوق القِدر، منقبض الأسنان، حين سمع خلف ظهره صوت لونجان المقهقه:

ـ يريد أن يثبت لنا أنَّه يقاوم الخمرة خيرًا منّا.

فالتفت ماتيو:

ـ هذا غير صحيح! فأنا أشرب لأستطيع المزاح.

وكان لونجان قد عاد للجلوس متصلِّبًا. وكانت العصابة قد سقطت على أنفه. وكان ماتيو يرى فوق العصابة عينيه الثابتتين المستديرتين اللتين

تشبهان عينيْ دجاجة عجوز. وقال لونجان:

ـ إنّني لا أحبّك كثيرًا، يا دولارو!

ـ لقد سبق أن قلتها.

قال لونجان: ـ والرفاق أيضًا لا يحبّونك كثيرًا. إنّك ترهبهم، لأنّ لك ثقافة، ولكن لا يجب أن تظنّ أنَّهم يحبّونك.

وسأل ماتيو بين أسنانه:

ـ وعلامَ تريدهم أن يحبُّوني؟

فتابع لونجان: ـ إنّك لا تفعل أيَّ شيء كالجميع. حتى حين تسكر، فإنّك لا تسكر مثلنا.

فنظر ماتيو إلى لونجان في تبرُّم، ثم التفت ورمى قصعته على زجاج الخزانة، وقال بصوت قويّ:

ـ إنّني لا أستطيع أن أسكر. . لا أستطيع. ترون جيّدًا أنّني لا أستطيع.

فلم ينبس أحد بكلمة، ووضع غيكيولي على الأرض الخشبيّة شظيّة زجاج كبيرة سقطت على ركبتيه. واقترب ماتيو من لونجان، فأخذه بقوَّة من ذراعه، وأنهضه على قدميه. فصاح لونجان:

ـ ما هذا؟ ما دخلي في الموضوع؟ اهتمّ بمؤخَّرتك، أيُّها الأرستقراطيّ!

قال ماتيو: ـ لقد جئت لأصحبك، وسأذهب معك.

وكان لونجان يتخبّط في غضب:

ـ حُلّ عن ظهري، أقول لكَ، حُلّ عن ظهري، وإلَّا آذيتك.

وشرع ماتيو يعمل لإخراجه من القاعة. ورفع لونجان يده محاولاً أن يُدخل أصابعه في عينيه. فقال ماتيو:

ـ أيُّها القذر!

وترك لونجان، وأرسل له ضربتين غير قويّتين تحت ذقنه. فأصبح لونجان خرِعًا واستدار على نفسه، فأدركه ماتيو وحمله على كتفيه كالكيس، وقال:

ـ أنتم ترون، فأنا أيضًا أستطيع أن أمزح وأمجن، حين أريد ذلك.

كان يحقد عليهم. وخرج فهبط درجات السلّم مع عبئه. وانفجر شارلو ضاحكًا حين ألمّ به:

ـ ما أشدّ تماسك الأخ!

وعبر ماتيو الطريق، فأسند لونجان إلى جذع شجرة كستناء. فتح لونجان إحدى عينيه، وأراد أن يتكلّم، فتقيّأ. فسأله ماتيو:

ـ هل ارتحت قليلاً؟

فتقيّأ من جديد، وقال بين شهقتين:

ـ إنّ هذا يريح.

قال ماتيو: ـ إنّني أتركك. حتى إذا انتهيت من القيء، حاول أن تنام نومة طيّبة.

وكان يلهث حين وصل إلى مكتب البريد. فطرق، وفتح له بينيت، وتأمّله بهيئة مسحورة قائلاً:

ـ آه! لقد قرّرت أخيرًا!

قال ماتيو: ـ أخيرًا، نعم.

وبدت موظّفة البريد في الظلام، خلف بينيت. قال بينيت:

ـ ليست الآنسة خائفة اليوم. وسنقوم بنزهة صغيرة عبر الحقول.

فرمته الصغيرة بنظرة غامضة. وابتسم لها ماتيو، وكان يفكّر: «إنّها لا تطيقني»، ولكنّه كان لا يهتمّ بذلك إطلاقًا. وقال بينيت:

ـ إنّ رائحة الخمر تنبعث منك.

فضحك ماتيو من غير أن يجيب. وارتدت عاملة البريد قفّازيها

الأسودين وأقفلت الباب بالمفتاح، ثم أخذوا يسيرون. وكانت قد وضعت يدها على ذراع بينيت، وكان بينيت يعطي ذراعه لماتيو. حيّاهم جنود ألمّوا بهم في الطريق، فصاح بهم بينيت:

ـ إنّنا نقوم بنزهة يوم الأحد.

فقالوا:

ـ آه، إنَّ كلّ الأيّام يوم أحد، ما دام الضبّاط غائبين!

صمتٌ قمريّ تحت الشمس؛ تماثيل ضخمة من الجبس، مصفوفة في دائرة بالصحراء، «سوف تذكِّر الأنواع القادمة، بما كان عليه الجنس البشريّ». وكانت خرائب طويلة بيضاء تبكي رشحها الأسود جداول جداول. في الشمال الغربيّ قوس نصر، وفي الشمال معبد رومانيّ؛ وفي الجنوب جسر يفضي إلى معبد آخر؛ وماء يأسن في حوض، ومدية من حجر تنفذ نحو السماء. حجر؛ حجر مربَّب في سُكَّر التاريخ، روما؛ مصر، العصر الحجريّ: ذلك ما كان باقيًا من ساحة شهيرة. وردّد: «كل ما كان باقيًا»، ولكنّ اللذّة كانت قد ضعفت قليلاً. ليس ثمّة ما هو رتيب كالكارثة؛ وكان قد بدأ يألفها. واستند إلى الحاجز، ما يزال سعيدًا، ولكنَّه متعَب، وفي جوف فمه، مذاق صيف محموم: كان قد تنزَّه طوال النهار؛ وكانت ساقاه الآن تعانيان في حَمْله، ومع ذلك، فلم يكن بدّ من السير. لا بدَّ من السير، في مدينة ميِّتة. وقال في نفسه: «إنّني أستحقّ حظًّا صغيرًا غير متوقّع». أيّ شيء، شيء ما يزدهر له وحده في زاوية شارع. ولكن لم يكن ثمّة شيء. كانت الصحراء في كلّ مكان: وكانت تقفز فيها شظايا قصور، بيضاء وسوداء، حمام وطيور لا تاريخ لها وقد أصبحت حجارة من فرط ما تغذَّت بالتماثيل. وكانت العلامة الوحيدة المرحة بعض الشيء في هذا المنظر المعدنيّ: العَلَم النازيّ على فندق «كريون».

«أوه! يا لراية اللحم تنزف على حرير البحار والزهور القطبيّة».

وفي وسط خرقة الدم، كانت الدائرة بيضاء، كدائرة الفوانيس السحريّة على أغطية طفولتي؛ وفي وسط الدائرة، عقدة الأفاعي السود، «رمز الشرّ»، رمزي. ونقطة حمراء تتشكَّل كلّ لحظة في ثنايا العَلَم، ثم تنفصل وتسقط على الأرض: «الفضيلة» تنزف. وتمتم: «الفضيلة تنزف»! ولكن ذلك لم يكن يسلِّيه بعدُ كما كان يسلِّيه عشيّة الأمس. وطوال ثلاثة أيّام، لم يكن قد وجَّه الحديث إلى أحد، وكان فرحه قد قسا؛ وذات لحظة غشّى التعب نظره، فتساءل عمّا إذا كان لن يعود. كلّا. لم يكن يستطيع العودة: إنَّ حضوري مطلوب «في كلّ مكان» فيجب أن أمشي. وتلقّى في عزاء تمزّقَ السماء المصديّ: كانت الطائرة تلمع تحت الشمس؛ وذلك كان هو التبديل، فقد كان للمدينة الميِّتة شاهد آخر، وكانت ترفع نحو عيون أخرى رؤوسها الألف الميِّتة. وكان دانيال يبتسم: إنّما كانت الطائرة تبحث بين القبور عنه، هو بالذات. إنّما هي هناك من أجلي أنا وحدي. كانت به رغبة لأن يقذف بنفسه في وسط الساحة ويلوِّح بمنديله. ليتها تلقي قنابلها! سيكون ذلك بعثًا، وستصدي المدينة بضجيج الحديد، كما لو أنَّها كانت تعمل، وستلتصق بالواجهات أزهارٌ طفيليّة جميلة. مرَّت الطائرة؛ فعاد صمت كونيّ يتشكّل حول دانيال. يجب أن يسير، أن يسير بلا انقطاع على سطح هذا الكوكب الذي بَرَد.

واستعاد مشيه وهو يجرجر قدميه؛ كان الغبار يبيِّض حذاءه. وانتفض: كان ثمّة جنرال عاطل ومنتصر، ملصقًا جبينه بزجاج ما، ويداه خلف ظهره، ربّما يراقب هذا الضائع في متحف الأثريّات الباريسيّة. وأصبحت جميع النوافذ عيونًا ألمانيّة؛ انتصب وعاود سيره في مرونة، وهو يتهادى قليلاً، على سبيل المرح: إنَّني حارس «المقبرة». التويلري، رصيف التويلري؛ وقبل أن يجتاز الطريق، أدار رأسه إلى اليسار واليمين، بداعي العادة، ولكن من غير أن يرى إلَّا نفقًا طويلاً من أوراق الشجر.

وكان على وشك أن يبلغ جسر «سولفرينو» حين توقَّف خافق القلب: ذلك من الحظّ غير المتوقَّع. وسَرَت في جسمه رعشة من ساقيْه حتى رقبته؛ وبردت يداه ورجلاه، فتجمّد وأمسك نَفَسَه، وكمنت حياته كلّها في عينيه: كان يأكل بعينيه الفتى الدقيق الذي كان يوليه ظهره ببراءة، منحنيًا فوق الماء. «يا للّقاء الرائع»! وما كان دانيال ليكون أشدَّ تأثُّرًا وانفعالاً لو أنَّ ريح المساء تحوَّلت صوتًا لتناديه، أو لو أنَّ الغيوم قد كتبت اسمه في السماء البنفسجيّة، فقد كان واضحًا جدًّا أنّ هذا الفتى قد وُضع هناك من أجله هو، وأنّ يديه الطويلتين العريضتين، في نهاية أكمام الحرير، كانتا كلامًا من لغته السرِّيَّة: لقد وُهبته، وكان الفتى طويلاً رقيقًا، ذا شعر أشقر أشعث وكتفين مستديرتين، تكادان تكونان نسويّتين، وخاصرتين ضيّقتين، وردفين صلبين وقويّيْن بعض الشيء، وأذنين صغيرتين لذيذتين؛ كان في حوالى التاسعة عشرة أو العشرين. وكان دانيال ينظر إلى أذنيه ويفكِّر: «يا للِّقاء الرائع»! وكان ينتابه ما يشبه الخوف. وجسمه كلّه «يتكلّف الموت»، كالحشرات التي يتهدَّدها خطر؛ إنَّ شرّ الأخطار بالنسبة لي، هو الجمال. كانت يداه تزدادان برودة، وأصابع من حديد تغرز في عنقه. كان الجمال، أكثر الأشراك خفاءً، يتقدّم ببسمة مشاركة ويسر، يومئ إليه، ويبدو وكأنَّه ينتظره. أيّة كذبة: إنَّ تلك الرقبة المبذولة لم تكن تنتظر شيئًا، ولم تكن تنتظر أحدًا، كانت تداعب ياقة تلك السترة وتتمتّع بنفسها، وكانتا تتمتّعان بنفسهما وبحرارتهما، تانك الفخذان الطويلتان الحارّتان الشقراوان المخثبئتان في الفلانيل الرماديّ. إنَّه يعيش وينظر إلى النهر، ويفكِّر، وحيدًا، غير قابل للفهم، كأنَّه نخلة؛ إنَّه لي، وهو يجهلني. وأحسّ دانيال بغثيان ضيق، واهتزّ كلّ شيء للحظة واحدة: كان الفتى الدقيق، البعيد، يناديه من جوف الهاوية؛ كان الجمال يناديه؛ «الجمال» قدري. وفكَّر: سيبدأ كلّ شيء من جديد. كلّ شيء: الأمل، الشقاء، العار، الحماقات. ثم تذكَّر فجأة بأنَّ فرنسا كانت مهزومة: «إنّ كلّ شيء مباح»! فشعّت الحرارة من بطنه إلى أطراف أصابعه، وامّحى

تعبه، وتدفّق الدم إلى صدغيه: «إنّنا كلينا الممثِّلان الوحيدان المرئيّان للجنس البشريّ، الحيَّان الوحيدان الباقيان من أمَّة قد زالت، فلا مفرَّ لنا من أن نتبادل الحديث: أَهناك ما هو أشدّ طبعيَّة من ذلك؟» وخطا خطوة إلى الأمام باتّجاه الذي كان قد عمّده بأنَّه «المعجزة»، وكان يحسّ نفسه شابًّا وطيِّبًا، مثقلاً بالرسالة الممجَّدة التي كان يحملها له.

وما لبث أن توقَّف: فقد لاحظ أنّ «المعجزة» كان يرتجف بجميع أعضائه، وكانت حركة تشنُّجيّة تقذف بجسمه إلى الوراء تارة، وطورًا تلصق بطنه بالدرابزين، وهي تلوي له رقبته فوق الماء. فكَّر دانيال مغتاظًا «يا للأبله الصغير!» إنَّ الفتى لم يكن جديرًا بهذه اللحظة المدهشة، لم يكن حاضرًا تمامًا في الموعد المحدَّد، بل كانت هموم طفوليّة تشرِّد هذه النَفْس التي كان ينبغي أن تظلّ على استعداد لتلقّي النبأ الطيِّب. «يا للأبله الصغير» وفجأة، رفع «المعجزة» رِجله اليمنى بحركة غريبة مقتسرة، كما لو أنَّه كان يريد أن يجتاز الحاجز. وكان دانيال يتهيّأ للقفز حين التفت الفتى، قلقًا، وساقه في الهواء، ولمح دانيال، فرأى دانيال عينين عاصفتين في وجه طبشوريّ. وتردَّد الفتى لحظة، فسقطت قدمه وهي تصدم الحجر، ثم شرع يمشي بلا اكتراث، وهو يجرجر يده على حافّة الحاجز. أنت، أَتريد أن تقتل نفسك!

وتحوّل افتتان دانيال فجأة إلى جليد، إنَّه لم يكن إلَّا كذلك: صبيًّا قذرًا مستطار اللُّبّ، غير جدير بأن يتحمّل عواقب حماقاته. ونفخت عضوه دفقة شهوة؛ فأخذ يسير خلف الفتى بفرحة الصيّاد المثلوجة. كان يبتهج على البارد؛ ويحسّ نفسه متحرِّرًا، نظيفًا، خبيثًا إلى أبعد حدٍّ ممكن. وكان في أعماقه يؤثر ذلك، ولكنَّه كان يتسلَّى بأن يحفظ ضغينة للفتى: أتريد أن تقتل نفسك أيُّها الأبله الصغير؟ لعلَّك تظنُّ أنَّ هذا يسير! إنَّ من كانوا أدهى منك أخفقوا في ذلك. وكان الفتى يستشعر حضورًا في ظهره؛ فكان الآن يخطو خطوات واسعة تُشبه خطوات حصان مفرطة

الارتفاع والصلابة. وفي وسط الجسر، أحسّ فجأة بوجود يده اليمنى التي كانت تلامس الحاجز عند مروره: ارتفعت يده في طرف ذراعه، متصلّبة، قَذَريّة، فأخفضها قسرًا ودسّها في جيبه، وواصل سيره وهو يُدخل عنقه في كتفيه؛ وفكَّر دانيال: إنَّه ذو هيئة «مريبة»، هكذا أحبّهم. وحثّ الفتى خطاه، فحذا دانيال حذوه. وكانت ضحكة قاسية تصعد إلى شفتيه: إنَّه يتألَّم، وهو مستعجل لينتهي من ذلك، ولكن لا يستطيع لأنّني خلفه. هيّا، هيّا، فلن أتركك. وفي نهاية الجسر، تردّد الفتى، ثم سلك رصيف «دورسيه» وبلغ سلَّمًا يفضي إلى الضفّة، فتوقَّف والتفت إلى دانيال في نفاد صبر، وجعل ينتظر. ورأى دانيال في لمحة خاطفة وجهًا ساحرًا ممتقعًا ذا أنفٍ قصير وفم صغير مسترخٍ، وعينين فخورين. فأسبل جفنيه في تقًى زائف. واقترب على مهل، فتجاوز الفتى من غير أن ينظر إليه، ثم ألقى بعد بضع خطوات نظرة سريعة من فوق كتفه: فإذا الفتى قد اختفى. وانحنى دانيال من غير عجل فوق الحاجز فلمحه على الضفّة، مطرقًا، غارقًا في تأمُّل حلقة قَلس كان يركلها بقدمه في تفكُّر؛ كان يجب أن يهبط بأقصى سرعة ومن غير أن يدعه يتنبَّه إليه. ومن الحظّ أنَّه كان ثمّة على بعد عشرين مترًا سلّم آخر، درج ضيِّق من الحديد كان يخفيه نتوء من الجدار. هبط دانيال على مهل، ومن غير ضجّة: كان يجد تسلية عظيمة في ذلك. وإذ بلغ أسفل الدرج، التصق بالجدار؛ وكان الفتى، عند طرف الضفّة الأقصى، ينظر إلى الماء. وكان «السين» مخضوضرًا ذا إشعاعات كبريتيّة يجحف بمجراه أشياء غريبة رخوة ومعتمة؛ ولم يكن مغريًا جدًّا أن يغطس المرء في هذا النهر المريض. انحنى الفتى، فالتقط حصاة وألقى بها في الماء، ثم عاد إلى تأمُّله المهووس، هيّا، هيّا، لن يتمّ ذلك اليوم: بعد خمس دقائق، سيصاب بالخوف. فهل ينبغي أن أدع له الفرصة لذلك؟ هل يجب أن أظلّ مختبئًا. وانتظر حتى يتملّى جيّدًا من حقارته. وحين يبتعد، أُطلق ضحكة كبيرة! إنَّ هذا لا يخلو من مخاطرة: فربّما دفعني ذلك إلى احتقار نفسي إلى الأبد. فإذا ارتميت عليه فورًا، كما لو

أنّي أريد أن أمنعه من الغرق، فسيكون مسرورًا أن أكون قد حسبته جديرًا بذلك، حتى ولو احتجّ على الشكل، وأن أجنّبه لقاء فرديًا مع نفسه. وأمرَّ دانيال لسانه على شفتيه، وتنفَّس نَفَسًا عميقًا، وخرج من مخبأه. فالتفت الفتى مذعورًا، وكان يوشك أن يقع لو لم يمسك به دانيال من ذراعه، وقال:

ـ إنّني...

ولكنَّه عرف دانيال فبدا وكأنّما عاوده اطمئنانه، فحلّ الغضب في عينيه محلّ الذعر. إنّما كان يخشى «شخصًا آخر». وسأل في تعالٍ:

ـ ما هذا؟

ولم يستطع دانيال أن يجيبه على الفور: فقد كانت الشهوة تقطع نَفَسه. وقال بمشقّة.

ـ أيُّها الفتى النرجسيّ! أيُّها الفتى النرجسيّ!

وأضاف بعد لحظة:

ـ لقد بالغ نرجس في الانحناء، أيُّها الفتى: فسقط في الماء.

قال الفتى: ـ لست بنرجسيّ. ولديّ حسّ التوازن، وأستطيع أن أستغني عن خدماتك.

وفكَّر دانيال: إنَّه طالب. وسأله بقسوة:

ـ كنت تريد أن تنتحر؟

ـ هل أنت مجنون؟

فأخذ دانيال يضحك، واحمرّ الفتى، وقال بلهجة كئيبة:

ـ حُلّ عنّي!

فقال دانيال وهو يشدّ ضمَّته:

ـ حين يحلو لي ذلك!

فخفض الفتى عينيه الجميلتين، وأُتيح لدانيال الوقت الكافي للارتداد

إلى خلف حتى يتفادى ضربة من كعبه. وفكَّر دانيال وهو يستعيد توازنه: ركلات! ركلات كيفما جاءت، حتى من غير أن ينظر إليّ. كان مفتونًا. ولهثا في صمت: كان الفتى مطرق الرأس ما يزال، وكان بوسع دانيال أن يتأمّل شعره الرقيق رقّة مدهشة.

ـ وإذن؟ أراك ترسل ركلات بقريّة، كأنّك امرأة!

فحرَّك الفتى رأسه من اليمين إلى اليسار، كما لو أنَّه يحاول عبثًا رفعه. وبعد لحظة، قال بفظاظة جاهدة:

ـ اذهبْ فانبعص!

وكان في صوته عناد أكثر ممّا كان فيه ثقة، ولكنَّه كان قد رفع رأسه ينظر إلى دانيال مواجهة في جرأة مذعورة من نفسها. وأخيرًا، انزلقت عيناه إلى جانب، فتمكَّن دانيال من أن يتأمَّل على هواه هذا الرأس الجميل الكئيب الذي كان كأنَّه مبذول. وفكَّر «فخر وضعف، ونيّة سيِّئة. بورجوازيّ صغير يزرع الاضطرابَ فيه شرودٌ مجرّد؛ ملامح فاتنة، ولكن بلا سماح». وفي تلك اللحظة، تلقّى ركلة في ساقه، فلم يستطع أن يخفي كزازة ألم في وجهه.

ـ أيُّها الأبله الصغير اللعين! إنّني لا أدري ماذا يمسكني عن أن أدفِّئ لك مؤخَّرتك بجلدة طيِّبة.

فبرقت عينا الفتى، وقال:

ـ حاول!

فأخذ دانيال يهزّه:

ـ وإذا حاولت؟ إذا أخذتني الرغبة في أن أنزع سروالك على الفور، أتظنّ أنّك أنت الذي ستمنعني من ذلك؟

فاحمرّ الفتى بعنف وأخذ يضحك:

ـ إنّك لا تخيفني.

قال دانيال: ـ عجبًا!

وقبض عليه من رقبته وحاول أن يثنيه إلى أمام، فصاح الفتى بصوت يائس:

ـ لا! لا! لا!

ـ هل تحاول مرَّة أخرى أن تركلني؟

ـ لا، ولكن دعني.

فتركه دانيال يستقيم. وظلَّ الفتى فاغر الفم؛ وكان يبدو كأنَّه مطارد. «لقد سبق لك، أيُّها الحصان الصغير، أن عرفت الشكيمة، وقد أدّى لي أحدهم خدمة أن أبدأ الترويض. أب؟ عمّ؟ عشيق؟ كلّا، ليس عشيقًا: فيما بعد، سنعيد هذا، أمَّا الآن فنحن أبكار»؛ وقال من غير أن يتركه:

ـ وإذن، كنت تريد أن تنتحر، فلماذا؟

وكان الفتى يلزم صمتًا عنيدًا. قال دانيال:

ـ اصمت ما حلا لك، فماذا يهمّني في ذلك: لقد فشلت على كلّ حال في تحقيق غايتك.

فوجَّه الفتى لنفسه بسمة إقرار صفراء. وفكَّر دانيال منزعجًا: «إنّنا غارقان في الرمل. يجب أن نخرج من الطريق المسدود». وعاد يهزّه:

ـ لماذا تبتسم؟ أتريد أن تقول لي السبب؟

فنظر إليه الفتى في عينيه:

ـ لا بدَّ أن ينتهي بك الأمر إلى تركي وشأني.

قال دانيال: ـ هذا صحيح. بل إنِّي سأتركك على التوِّ.

وحلّ ضمَّته ووضع يديه في جيبه، وسأله:

ـ وبعد ذلك؟

فلم يتحرَّك الفتى، وكان ما يزال يبتسم. «إنَّه يسخر منِّي».

ـ اسمعْ جيّدًا. إنّني سبّاح ماهر. وقد سبق لي أن أنقذت شخصين، أحدهما في بحر عاصف.

فضحك الفتى ضحكة فتاة هازئة:

ـ هذا هوى مهووس!

قال دانيال: ـ ربّما كان ذلك. ربّما كان هوى مهووسًا. (وأضاف وهو يباعد ما بين ذراعيه) اغطسْ! اغطسْ إذا شئت. فسأدعك تشرب كمِّيَّة من الماء، وسترى ما أعذب ذلك. ثم أنزع ثيابي وأقفز إلى الماء، فأضربك على أمّ رأسك وأعود بك نصف ميِّت.

وأخذ يضحك.

ـ لا بدَّ أنّك تعرف أنّ من النادر أن يكرِّر المرء عمليّة انتحار فاشلة! فحين أكون قد أعدت لك حواسّك، فلن تفكِّر في ذلك بعدُ أبدًا.

وخطا الفتى خطوة نحوه كما لو أنَّه سيضربه:

ـ ما الذي يمنحك الحقّ بأن تحدِّثني بهذه اللهجة؟ ما الذي يمنحك الحقّ في ذلك؟

وكان دانيال ما يزال يضحك:

ـ ها! ها! ما الذي يمنحني الحقّ؟ ابحثْ، ابحثْ جيّدًا!

وشدّ على معصمه فجأة:

ـ ما دمت هنا، فلن تستطيع أن تقتل نفسك، حتى ولو كنت تموت رغبة في ذلك. إنّني سيِّد حياتك وموتك.

فقال الفتى بهيئة غريبة:

ـ لن تكون هنا دائمًا.

قال دانيال: ـ هذا ما يجعلك تخطئ. سأكون «دائمًا» هنا. وارتعش لذّة: فقد فاجأ في العينين الجميلتين اللوزيّتين بريق فضول.

ـ حتى ولو كان صحيحًا أنّي أريد أن أقتل نفسي، فماذا يعنيك من ذلك؟ إنّك لا تعرفني حتى أيّة معرفة.

فأجاب دانيال بمرح:

ـ لقد قلتها: هذا هوس. إنّي مهووس بمنع الناس من أن يفعلوا ما يريدون.

ونظر إليه في طيبة:

ـ أيكون الأمر خطيرًا إلى هذا الحدّ؟

فلم يجب الفتى. وكان يبذل كلّ ما في وسعه حتى لا يبكي. وكان من فرط تأثُّر دانيال أن أحسّ الدموع تطفر من عينيه. ومن حسن الحظّ أنَّ الفتى كان من شدَّة الاستغراق بحيث لم يلاحظ ذلك. وتمكَّن دانيال، في لحظات أخرى، من أن يتمالك رغبته في ملامسة شعره؛ ثم تركت يده اليمنى جيبه من تلقاء نفسها وأقبلت تحطّ بحركة متلمِّسة عمياء على رأسه الأشقر. وسرعان ما سحبها كما لو أنَّه احترق: «قبل الأوان! هذه غلطة..». ونفض الفتى رأسه بعنف، وخطا بضع خطوات على الضفّة: كان دانيال ينتظر وهو يمسك أنفاسه: «قبل الأوان، أيُّها الأحمق، كان ذلك مبكرًا جدًّا». وانتهى إلى القول في غضب، ليعاقب نفسه: «إذا ذهب، فسأتركه يذهب من غير أن آتي حركة»، ولكنَّه ما كاد يسمع الشهقات الأولى حتى هرع إليه وأحاطه بذراعيه. فاستسلم الفتى إلى صدره. وقال دانيال مضطربًا:

ـ يا للفتى المسكين! يا للفتى المسكين!

وكان مستعدًّا لمنح يده اليمنى ليستطيع أن يواسيه أو يبكي معه. وبعد لحظة، رفع الفتى رأسه، وقد كفّ عن البكاء، ولكنَّ دمعتين كانتا تتدحرجان على وجهه اللذيذ؛ وقد ودّ دانيال لو يلتقطهما بضربتين من لسانه ويشربهما ليحسّ في جوف حلقه بمذاق هذا الألم المالح. وكان الفتى ينظر إليه في تحدٍّ:

ـ وكيف حدث أنّك كنت موجودًا هناك؟

قال دانيال: ـ كنت مارًّا.

ـ ألست إذن جنديًّا؟

سمع دانيال السؤال بغير رضى:

ـ إنَّ حربهم لا تهمّني.

وسارع يضيف:

ـ سأقدِّم لك اقتراحًا، ألا تزال مصمِّمًا على الانتحار؟

فلم يجب الفتى، ولكنَّه بدا بمظهر معتم عازم. وقال دانيال:

ـ حسنًا جدًّا.. اسمعْ إذن. لقد تسلّيت في إخافتك، ولكنِّي لست ضدّ الانتحار إذا فكَّر فيه المرء بنضج، ولا أرى في موتك إلَّا حظًّا سيِّئًا ما دمتُ لا أعرفك. ولهذا، لا أفهم لماذا أمنعك من الانتحار، إذا كانت لك أسباب وجيهة.

ورأى في فرحٍ خدّي الفتى يمتقعان، وفكَّر: «كنت تحسب أنّك سوَّيت الأمر»، وتابع وهو يريه فصّ خاتمه:

ـ انظرْ. إنَّ في داخله سمًّا صاعقًا. وأنا ألبس دائمًا هذا الخاتم، حتى في الليل، حتى إذا ألفيتني في وضع لا تستطيع كبريائي احتماله...

وكفّ عن الكلام وفتح الفصّ. فنظر الفتى إلى القرصين الأسمرين في حذر مليء بالنفور.

ـ ستشرح لي قضيَّتك. فإذا حكمت بوجاهة دوافعك، فسيكون أحد هذين القرصين لك.. وهو على كلّ حال ألذّ من حمّام بارد.

وسأله، كما لو أنَّه غيّر رأيه فجأة:

ـ أتريده على التوّ؟

فأمرّ الفتى لسانه على شفتيه من غير أن يجيب.

ـ هل تريده؟ إنّني أعطيك إياه، وسوف تبتلعه تحت أنظاري، ولن أتركك. وأخذ يده وقال:

ـ سأمسك بيدك، وسأغمض عينيك.

فنفض الفتى رأسه، وسأل في إعياء:

ـ وما الذي يثبت لي أنّ هذا سمّ؟

فانفجر دانيال بضحكة خفيفة نضرة:

ـ أتخشى أن يكون مسهِّلاً؟ ابتلعه، وسترى جيّدًا.

فلم يجب الفتى: وكان خدّاه ما يزالان ممتقعين وحدقتاه متمدِّدتين، ولكنَّه بَسَم بَسْمَة خفيّة مدلَّلة وهو يرمق دانيال.

ـ إنَّك إذن لا تريده؟

ـ ليس على التوّ.

فأغلق دانيال فصّ خاتمه، وقال ببرودة:

ـ كما تشاء. ما هو اسمك؟

ـ أمن الضروري أن أقول لك اسمي؟

ـ اسمك الأوَّل، نعم.

ـ طيِّب، إذا كان ضروريًّا... فيليب.

قال دانيال وهو يمرّ ذراعه تحت ذراع الفتى:

ـ اسمعْ يا فيليب، ما دمت حريصًا على أن توضح موقفك، فلنصعد إلى بيتي.

ودفعه إلى السلّم وجعله يصعد الدرجات بخفّة؛ ثم حاذيا الأرصفة، متشابكي الذراعين. وكان فيليب يخفض رأسه بعناد، وقد عاودته الرجفة، ولكنَّه كان مستسلمًا لدانيال يلامسه بخاصرته في كلّ خطوة. حذاء بيكاري جميل يكاد يكون جديدًا ولا يرجع عهده إلى أكثر من عام، وبذلة من الفلانيل جميلة التفصيل، وربطة عنق بيضاء، فوق قميص من الحرير الأزرق ـ وكان ذلك شائعًا عام ٣٨ في مونبارناس، وتسريحة شعر مهملة بعناية: ولم يكن في هذا كلّه نصيب قليل من النرجسيّة. تُرى، لماذا لم يكن جنديًّا؟ لا شكّ في أنَّه أصغر سنًّا من أن يكون كذلك؛ ولكنْ كان ممكنًا أن يكون أكبر سنًّا ممّا يبدو؛ إنَّ الحداثة تطول لدى الصبية المضطَهدين. ومهما يكن من أمر، فليس البؤس هو الذي يدفعه

للانتحار. وسأله فجأة إذ ألمّا بجسر هنري الرابع:

ـ أبسبب الألمان كنت تريد أن تُغرق نفسك؟

فبدت على فيليب الدهشة، ولوى رأسه. كان جميلاً كملاك. وفكّر دانيال في حماسة: سأساعدك، سأساعدك. كان يريد أن ينقذ فيليب، ويجعل منه رجلاً، سوف أعطيك كلّ ما أملك، وستعرف كلّ ما أعرف. وكانت سوق «الهال» خالية وسوداء، ولم تكن تنبعث منها الروائح بعد. ولكنَّ المدينة كانت قد تغيّرت مظهرًا. فقبل ساعة، كانت نهاية العالم، وكان دانيال يُحسّ أنّه تاريخيّ. أمَّا الآن، فقد كانت الشوارع تعود ببطء إلى نفسها، وكان دانيال يتنزَّه في جوف أحدٍ من آحاد ما قبل الحرب، في تلك الساعة الدائرة التي يبزغ فيها يوم اثنين جميل جديد، في احتضار الأسبوع والشمس. كان شيء ما سيبدأ: أسبوع جديد، قصَّة حبٍّ جديدة. ورفع رأسه وابتسم: كان زجاج واجهة مشعّة يعكس له المغرب كلّه، وكانت تلك علامة؛ وأفغمت منخريه فجأة رائحة لذيذة لفريز مسحوق، وكانت تلك علامة أخرى؛ وفي البعيد عبر شارع مونبارناس شبح يعدو، علامة ثالثة. كلّما كان الحظّ يضع في طريقه الجمال المشعّ لفتى ـ إلٰه، كانت السماء والأرض ترسلان له غمزات خبيثة. وكان يخور من الشهوة، وكان نَفَسه ينقطع لدى كلّ خطوة، ولكنَّه كان من فرط الألفة للمشي الصامت بالقرب من الحيوات الفتيّة التي لا تثير الريب بحيث إنَّه أصبح يحبّ الصبر اللواطيّ الطويل لذاته. إنّني أرصدك، فأنت عارٍ في جوف نظري، وأنا أمتلكك على البعد، من غير أن أعطي شيئًا من نفسي، بالشمّ والنظر؛ وقد أصبحت أعرف خاصرتيك الجوفاوين، وألامسهما بيديّ الجامدتين، وأدخل فيك فلا تشعر بذلك ولو شعورًا. وانحنى ليشمّ عطر هذه الرقبة المحنيّة، فأدركته فجأة رائحة نفتلين قويّة. وسرعان ما عاد إلى استقامته، وقد برد حسّه وشعر بالتسلية: كان مغرمًا بهذه التنقُّلات بين الاغتلام والجفاف، وكان يعبد ثورة الأعصاب. وقال في نفسه بمرح:

«لنرَ إذا كنت رجل تحرٍّ ناجحًا. هو ذا شاعر شابّ يريد أن يلقي بنفسه في الماء، في اليوم الذي يدخل فيه الألمان باريس، لماذا؟ دلالة فريدة، ولكنَّها رئيسيّة: إنَّ رائحة النفتلين تنبعث من بذلته، وهذا يعني أنَّه لم يكن يرتديها بعد. لماذا تراه يغيِّر ثوبه يوم انتحاره؟ لأنَّه لم يكن يستطيع أن يرتدي ما كان يرتديه أمس فقط.. إنَّه إذن جنديّ، ولكن ماذا يفعل هنا؟ فلو كان مجنَّدًا في فندق كونتيننتال أو في خدمات وزارة الطيران، لكان قد فرّ منذ وقت طويل إلى «تور» مع الآخرين. وإذن، فالأمر واضح تمامًا. وتوقَّف ليشير إلى البوّابة:

ــ هنا:

فقال فيليب فجأة: ــ لا أريد.

ــ ماذا؟

ــ لا أريد الصعود.

ــ أتفضِّل أن يلتقطك الألمان؟

فردّد فيليب وهو ينظر إلى قدميه:

ــ لا أريد: ليس لديّ ما أقوله لك، ولست أعرفك.

قال دانيال: ــ هكذا إذن. هكذا إذن!

وأخذ له رأسه بكلتا يديه فرفعه قسرًا، وقال له:

ــ أنت لا تعرفني، ولكنّي أعرفك. وأستطيع أن أرويها لك، حكايتك.

واستطرد وهو يُغرق نظره في عينيْ فيليب:

ــ كنتَ في جيش الشمال، ووقع الذعر في الصفوف فهربت. وبعد ذلك، لم تجد وسيلة للعودة إلى فرقتك، على ما أفترض. فعدت إلى بيتك، وكانت أسرتك قد اختبأت، ولبست أنت الثياب المدنيّة، وذهبت توًّا لتلقي بنفسك في السين. وليس مردّ ذلك أنّك وطنيّ بصورة استثنائيّة، ولكنَّك لا تستطيع أن تحتمل التفكير بأنّك جبان. أتراني قد أخطأت؟

ولم يكن الفتى ليتحرّك، ولكنَّ عينيه كانتا قد زادتا اتّساعًا، وكان دانيال جافّ الفم، ويشعر بالضيق يصعد في داخله كالمدّ، فردّد بصوت أَمْيَل إلى العنف منه إلى الوثوق:

ــ أتراني قد أخطأت؟

فأرسل فيليب همدرة خفيفة واسترخى جسمه، وتراجع الضيق، وقطع الفرح نَفَس دانيال، وجُنَّ قلبه وخفق في صدره كالأصمّ، فتمتم:

ــ اصعدْ، إنّني أعرف العلاج.

ــ علاج أيّ شيء؟

ــ علاج هذا كلّه. عندي أشياء كثيرة أعلّمك إيّاها.

وكان يبدو على فيليب التعب والتأسّي، ودفعه دانيال تحت المظلّة. ولم يكن قد جرؤ بعدُ قطّ على أن يأتي إلى بيته بالصبية الجميلين الذين كان يصطادهم في مونمارتر أو مونبارناس. ولكنّ البوّابة ومعظم المستأجرين كانوا اليوم يركضون في الطرق، بين مونتارجي وجيان، فاليوم كان يوم عيد. وصعدا في صمت. وضع دانيال المفتاح في القفل من غير أن يترك ذراع فيليب. وفتح الباب وامّحى:

ــ ادخلْ.

فدخل فيليب بخطوة ناعسة.

ــ الباب المواجه: هناك الصالون.

وأولاه ظهره، فأقفل الباب بالمفتاح، ووضع المفتاح في جيبه. وحين عاد إلى فيليب، كان هذا قد انزرع أمام الرفوف ينظر إلى التماثيل الصغيرة نظرة منتعشة.

ــ إنَّها عظيمة.

قال دانيال: ــ لا بأس بها، لا بأس بها. وخصوصًا بأنَّها «حقيقيّة». لقد اشتريتها بنفسي من الهنود.

وسأل فيليب: ــ وهذه؟

ـ هذه صورة صبيّ ميِّت. ففي المكسيك، حين يموت شخص ما، يستقدمون رسّام الموتى، فيقيم هناك ويرسم الجثّة تحت ملامح رجل حيّ، فينتج مثل هذا.

فسأل فيليب في شيء من الاعتبار:

ـ وهل سبق أن كنت في المكسيك؟

ـ بقيت فيها عامين اثنين.

وكان فيليب ينظر في نشوة إلى صورة هذا الصبيِّ الجميل الكابي، الذي كان يردّ له نظره عن صدر الموت برصانة ممتهن عارف واكتفائه. وفكَّر دانيال: إنَّهما متشابهان. كلاهما أشقر، وكلاهما شامخ ممتقع، أحدهما من هذا الجانب من اللوحة، والآخر من الجانب الآخر. الصبيّ الذي أراد أن يموت، والصبيّ الذي مات حقًّا: كانا يتبادلان النظر، وكان الموت هو ما يفصل بينهما: لا شيء، سطح القماشة المنبسط. وردّد فيليب:

ـ عظيم.

وفجأة، سحق دانيال تعبٌ هائل. فتنفَّس وتداعى للسقوط في أريكة. وقفزت ملفينا على ركبتيه، فقال وهو يداعبها:

ـ لا، لا! كوني عاقلة: يا ملفينا، كوني جميلة.

والتفت إلى فيليب، وقال بصوت واهن:

ـ وهناك ويسكي في خزانة المشروب: كلّا، إلى اليمين، الخزانة الصينيّة الصغيرة، هناك. وتجد أيضًا أقداحًا، فتقدِّمها لنا، وتقوم بدور فتاة المنزل.

وملأ فيليب قدحين، فناول دانيال أحدهما وبقي واقفًا أمامه. وكرع دانيال قدحه بجرعة واحدة، فاستشعر النشاط، وقال له فجأة بلهجة احترام:

ـ لو كنت شاعرًا، لشعرت بما في لقائنا من شيء خارق للعادة.

فضحك الفتى ضحكة صغيرة مثيرة:

ــ ومن قال لك إنِّي لست شاعرًا؟

وكان ينظر إلى دانيال مواجهةً: فمنذ دخل البيت، تغيّر مظهرًا وحركات. وفكَّر دانيال منزعجًا: إنَّ أرباب العائلة هم الذين يخيفونه: وهو ليس خائفًا منِّي بعد، لأنَّه أدرك أنّي لست منهم. وتظاهر بالتردّد، وقال بتفكُّر:

ــ إنّني أتساءل عمّا إذا كنتَ ستثير اهتمامي.

فقال فيليب: ــ كان خيرًا لك أن تتساءل عن ذلك قبل ذلك بقليل.

وابتسم دانيال:

ــ لم يفت الأوان. فإذا أضجرتني، أخرجتك.

قال فيليب: ــ لا تتحمّل هذا الهمّ.

وكان يتّجه نحو الباب، فقال دانيال:

ــ ابقَ. أنت تعلم أنّك بحاجة إليّ.

فابتسم فيليب بهدوء وعاد يجلس على كرسيّ. وكانت بوبيه تمرّ بقربه، فقبض عليها ووضعها على ركبتيه من غير أن تحتجّ. وكان يداعبها برقّة، وشهوة، فقال دانيال مندهشًا:

ــ نقطة طيِّبة لك. فهذه هي المرّة الأولى التي تستسلم فيها لأحد.

فبسم فيليب بسمة طويلة متعرِّجة مزهوّة، وسأله خافض العينين:

ــ كم قطّة عندك؟

ــ ثلاث.

ــ نقطة طيِّبة لك.

وكان يحكّ رأس بوبيه التي أخذت تهمهم. وفكَّر دانيال: هذا العفريت، يبدو أكثر سرورًا منِّي، فهو يعرف أنَّه يروق لي.. وسأله فجأة، ليشوِّشه:

ـ وإذن؟ كيف حدث ذلك؟

فترك فيليب بوبيه وهو يباعد ما بين ركبتيه، فقفزت القطّة إلى الأرض وفرّت.

وقال: ـ حدث كما تصوَّرته. وليس لديَّ ما أضيفه.

ـ وأين كنت؟

ـ في الشمال. بلدة صغيرة تدعى «بارني».

ـ وماذا حدث؟

ـ لا شيء. كان قد مضى على مقاومتنا يومان حين جاءت الدبّابات والطائرات.

ـ معًا؟

ـ نعم.

وهل خفت؟

ـ حتى هذا لا: إلَّا أن يكون الخوف شيئًا آخر غير ما نفكِّر به.
وكان وجهه قد قسا وشاخ. كان ينظر في الفراغ نظرة متعبة:

ـ وكان الأفراد يركضون، فركضت معهم.

ـ وبعد ذلك؟

ـ مشيت، ثم وجدت شاحنة، ثم مشيت من جديد، فوصلت إلى هنا أمس الأوَّل.

وبِمَ كنت تفكِّر وأنت تسير؟

ـ لم أكن أفكِّر.

ـ ولماذا انتظرت حتى اليوم لتقتل نفسك؟

قال فيليب: ـ كنت أريد أن أرى أمِّي ثانية.

ـ ألم تكن هنا؟

ـ كلّا. لم تكن هنا.

ورفع رأسه وتأمَّل دانيال بعينين تبرقان، وقال بصوت واضح قاطع:

ــ ستكون على خطأ إذا اعتبرتني جبانًا.

ــ صحيح؟ إذن لماذا فررت؟

ــ ركضت، لأنّ الآخرين كانوا يركضون.

ــ ومع ذلك، فقد كنت تريد أن تنتحر؟

ــ صحيح، كنت أفكِّر بذلك.

ــ لماذا؟

ــ يحتاج شرح ذلك إلى وقت أطول ممّا ينبغي.

قال دانيال: ــ وهل ثمّة ما يدعوك إلى العجلة؟ خُذ، فصُبَّ لك قدح ويسكي. وصبَّ فيليب لنفسه وكان خدّاه قد تورّدا. وضحك ضحكة صغيرة، وقال:

ــ لو لم يكن هناك سواي، لكان سواء عندي أن أكون جبانًا أو لا أكون. إنّني من دعاة السلام. فما هي الفضيلة العسكريّة؟ إنَّها قصور في الخيال. لقد كان الأفراد الشجعان هناك فلّاحين، وحوشًا حقيقيِّين. كلّ ما هناك أنّ المصيبة قد أرادت أن أولد في أسرة أبطال.

قال دانيال: ــ فهمت. إنَّ أباك ضابط.

فقال فيليب: ــ ضابط احتياط. ولكنَّه مات عام ٢٧ من نتائج الحرب: لقد اختنق بالغاز، قبل الهدنة بشهر واحد. وهذه الميتة المجيدة جعلت أمّي تستذوق: فتزوجت مرَّة أخرى عام ١٩٣٣ بجنرال.

قال دانيال: ــ سوف تُصاب بخيبة. إنَّ الجنراليّة يموتون في أسرّتهم.

فقال فيليب بكراهية: ــ ليس هذا شأنه، فهو من أسرة بايار: إنَّه يضاجع ويقتل ويصلِّي وهو لا يفكِّر.

ــ وهل هو في الجبهة؟

ـ وأين تريده أن يكون؟ لا بدَّ أنَّه هو نفسه وراء رشّاش، أو أنَّه يزحف نحو العدوّ على رأس فرقة، فبوسعك أن تعتمد عليه ليضحِّي برجاله حتى آخرهم.

ـ أتصوّره أسود ذا شعر كثيف وشاربين.

قال فيليب: ـ تمامًا. إنَّ النساء يعبدنه، لأنّ له رائحة التيس. وضحكا وهما ينظران فيما بينهما. وقال دانيال:

ـ لا يبدو عليك أنّك تحبّه كثيرًا.

قال فيليب: ـ إنّني أحتقره.

وتورّد، ونظر إلى دانيال بحدّة، وقال:

ـ إنّي أعاني عقدة أوديب. الحالة النموذجيّة.

فسأله دانيال بعدم تصديق.

ـ أأنت عاشق أمّك؟

فلم يجب فيليب: كان يبدو بمظهر جدِّيٍّ وقَدَريّ. وانحنى دانيال إلى أمام، وسأله في رقّة:

ـ ألست بالأحرى عاشق زوج أمّك!

فانتفض فيليب وأصبح قرمزيَّ اللون، ثم انفجر ضاحكًا وهو ينظر إلى دانيال في عينيه، وقال:

ـ ما أوسع خيالك!

فقال دانيال، وهو يضحك:

ـ اسمعْ إذن! فإنّما بسببه هو كنت تريد أن تنتحر!

وكان فيليب ما يزال يضحك.

ـ ولكنْ على الإطلاق! إطلاقًا!

ـ بسبب مَنْ إذن؟ إنّك تركض إلى السين لأنّك جبنت، وتعلن مع ذلك أنّك تحتقر الشجاعة. إنّك تخاف أن يحتقرك.

قال فيليب: ـ بل أخاف أن تحتقرني أمّي.

ـ أمّك؟ إنّني متأكَّد أنَّها تتحلّى بكلّ الرحمات.

فعضّ فيليب على شفتيه من غير أن يجيب. وقال دانيال:

ـ حين وضعت يدي على كتفك، أُصبتَ بالذعر. كنت تظنُّ أنَّه هو، أليس كذلك؟

فنهض فيليب، وعيناه تبرقان:

ـ لقد.. لقد رفع يده عليّ.

ـ متى؟

ـ منذ أقلّ من عامين. ومنذ ذلك الحين، وأنا أحسُّ به ورائي.

ـ ألم تحلم قطّ بأنّك عارٍ بين ذراعيه؟

فقال فيليب وقد أخذه غيظ صادق:

ـ أنت مجنون.

ـ على كلّ حال، إنّ ما هو مؤكَّد، هو أنَّه يمتلكك. أنت تمشي على أربع، فيركب الجنرال على ظهرك، ويجعلك تنطنط كالفرس.. لست أبدًا أنتَ نفسك: فتارة تفكِّر مثله، وتارةً ضدّه. دعوة السلام، يعلم الله أنّك لا تكترث لها، بل لم تكن لتفكِّر بها لو لم يكن زوج أمِّك جنديًّا.

ونهض، فأخذ فيليب من كتفيه:

ـ أتريد أن أحرِّرك؟

فتخلَّص منه فيليب، وقد عاوده الحذر:

ـ وكيف تستطيع ذلك؟

ـ قلت لك إنّ عندي أشياء كثيرة أعلِّمك إيّاها.

ـ أأنت طبيب نفسانيّ؟

ـ شيء من هذا القبيل.

فهزَّ فيليب رأسه، وسأل:

ـ إذا افترضنا هذا صحيحًا، فلأيٍّ سببٍ تهتمّ بي؟

فقال دانيال مبتسمًا:

ـ إنّني هاوي أرواح. (وأضاف بانفعال) ولا بدَّ أنَّ روحك لذيذة بمجرّد أن تتحرَّر من كلّ ما يزعجها.

فلم يجب فيليب، ولكنَّه بدا مفتونًا؛ وخطا دانيال بضع خطوات وهو يفرك يديه، وقال في استثارة فرحة:

ـ ينبغي البدء بتصفية جميع القيم. أنت طالب؟

قال فيليب: ـ كنت طالبًا.

ـ حقوق؟

ـ أدب.

ـ حسنًا. إنّك إذن تفهم ما أعني: الشكّ المنهجي، نعم؟ اختلال رامبو النظاميّ. إنّنا نهدم كلّ شيء. ولكن لا بالكلمات، بل بالأعمال. إنَّ كلّ ما استعرتَه سيتلاشى دخانًا. وما يبقى، هو أنت. اتّفقنا؟

وكان فيليب ينظر إليه في فضول. واستطرد دانيال:

ـ بِمَ عساك تخاطر، وقد بلغت النقطة التي أنت فيها الآن؟

فهزّ فيليب كتفيه:

ـ بلا شيء.

قال دانيال: ـ عظيم، إنّني أتبنّاك. ونحن نبدأ على التوّ الهبوط إلى الجحيم (وأضاف وهو يقذفه بنظرة حادَّة) ولكن على الأخص، لا تقم بـ «تحويل» عليّ.

قال فيليب وهو يبادله نظرته: ـ لست أحمق إلى هذا الحدّ.

فقال دانيال من غير أن ينزع عنه بصره:

ـ سوف تُشفى حين تطرحني كقشرة عفنة.

قال فيليب: ـ لا تخف.

فقال دانيال ضاحكًا: ــ كقشرة عفنة.

فردّد فيليب: ــ كقشرة عفنة.

كانا يضحكان كلاهما، وملأ دانيال كأس فيليب.

قالت الفتاة فجأة: لنجلس هنا.

ــ لماذا هنا؟

ــ إنَّه مكان أعذب.

قال بينيت: ــ انظر إلى هذا. إنَّهنّ يحببن ما هو عذب، آنسات البريد هؤلاء!

ونزع سترته وألقى بها إلى الأرض، وقال:

ــ تفضَّلي. ضعي عذوبتك على سترتي.

وتداعوا للسقوط على العشب عند حافّة سهل للقمح. وأغلق بينيت قبضته اليسرى، وهو يراقب الفتاة بطرف عينه، ثم أدخل إبهامه في فمه وتظاهر بأنَّه ينفخ: فبرزت عضلته، كما لو أنّ منفاخًا نفخها، وضحكت الفتاة قليلاً.

ــ تستطيعين أن تلمسيها.

فوضعت إصبعًا حييًّا على ذراع بينيت، وفي اللحظة نفسها اختفت العضلة، وقلّد بينيت صوت كرةٍ تنفِّس. وصرخت الفتاة.

ــ أوه!

والتفت بينيت إلى ماتيو:

ــ هل تتصوّر هذا؟ إنّ «مورون» إذا رآني بلا سترتي، جالسًا على حافّة الطريق، فكم تراه سيسعل!

قال ماتيو: ــ إنَّ مورون ما يزال يركض.

ــ إنَّه يركض بسرعة شديدة، كما لو أنّي أبعصه!

وانحنى نحو موظَّفة البريد، وقال موضحًا:

ــ إنَّ مورون هو الكابتين. إنَّه في الطبيعة.

فردّدت: ــ في الطبيعة؟

ــ هو يظنّ أنّ ذلك أفضل لصحَّته (وقهقه) إنّنا أسياد أنفسنا؛ فليس ثمّة بعد من يأمر، وبوسعنا أن نفعل ما نشاء: فإذا شئت، صعدنا إلى المدرسة ونمنا في سرير الكابتين؛ إنَّ القرية لنا.

قال ماتيو: ــ لا لفترة طويلة.

ــ سبب إضافي للإفادة من الوقت.

قالت الفتاة: ــ أفضِّل أن أبقى هنا.

ــ ولكن لماذا؟ أقول لكِ أنْ ليس هناك من يستطيع أن يقول شيئًا.

ــ ما زال في القرية بعض الأفراد.

فرمقها بينيت بإغراء، وقال:

ــ صحيح، أنت موظَّفة. فيجب ألَّا ترتكبي خطأً بالنسبة للإدارة. أمَّا نحن (والتفت إلى ماتيو ضاحكًا بهيئة مشاركة) فليس لنا من نراعيه، إنّنا بلا مكان ولا زمان. بلا إيمان ولا قانون. إنّنا عابرون: أمّا أنتم فباقون، ونحن نمضي، نحن طيور عابرة، نَوَر. أليس كذلك؟ إنّنا ذئاب، حيوانات قتال، إنّنا ذئاب كبيرة خبيثة، ها!

وكان قد انتزع قشّة عشب وراح يدغدغ بها ذقن الفتاة؛ وغنَّى، وهو ينظر إليها بعمق، ومن غير أن يكفَّ عن أن يبتسم:

ــ «من الذي يخشى الذئب الكبير الخبيث؟»

فاحمرّ وجه الفتاة وابتسمت، وغنّت:

ــ «لسنا نحن! لسنا نحن!»

فقال بينيت مبتهجًا:

ــ ها؟ يا لعبة (وتابع بشرود) ها يا لعبة صغيرة، يا لعبة صغيرة، يا آنسة لعبة!

وصمت فجأة. كانت السماء حمراء؛ وعلى الأرض، كان الجوّ رطبًا وأزرق. وكان ماتيو يُحسّ حياة العشب المتشابك، تحت يديه وتحت فخذيه؛ حياة الحشرات والأرض، كأنَّها شعر كثيف خشن ومبتلّ، مليء بالقمل؛ وكان ضيِّقًا عاريًا لصق راحتيه. محاصرون! ملايين الرجال محاصرون، بين جبال الفوج ونهر الرين. محاصرون باستحالة أن يكونوا رجالاً: وتلك الغابة المسطَّحة ستعيش بعدهم، كما لو أنَّنا لا يمكن أن نبقى في العالم، إلَّا أن نكون منظرًا طبيعيًّا أو مرجًا أو أيَّ حضور كلِّي غير شخصيّ. وتحت الأيدي، كان العشب مغريًا كالانتحار؛ العشب والليل الذي يسحقه على الأرض، والأفكار الأسيرة التي كانت تعدو وبطنها على الأرض في هذا الليل، وهذا العنكبوت الذي كان يتأرجح بالقرب من حذائه، والذي تشرّم فجأة من جميع أرجله الهائلة واختفى. تنهّدت الفتاة، فسألها بينيت:

ـ ما بكِ يا صغيرتي!

فلم تُجب. كان لها وجه صغير محتشم ومحموم، ذو أنف طويل وفم دقيق تبرز شفته السفلى قليلاً إلى الأمام.

ـ ما بكِ؟ ماذا هناك؟ قولي ما بكِ؟

فظلّت على صمتها. وعلى مئة متر منهم، بين الشمس والحقل، كان أربعة جنود يمرُّون معتمين في بخار مذهّب. توقَّف أحدهم والتفت نحو الشرق، ممحوًّا بالنور، غير أسود، بل هو بنفسجيّ بالنسبة لاحمرارات المغرب؛ وكان عاري الرأس؛ وأقبل التالي يصطدم به ويدفعه، فيتسلَّل شبحاهما فوق القمح كأنَّهما سفينتان؛ وانزلق ثالث خلفهما، مرفوع الذراعين؛ وكان الرابع المتخلِّف يصفع السنابل بعصا رقيقة.

قال بينيت: ـ أيضًا!

كان قد أخذ الفتاة من ذقنها ينظر إليها: كانت عيناها مليئتين بالدمع.

ـ ولكن ما هذا؟ إنّكِ غير لطيفة.

كان يجهد في أن يحدِّثها بقسوة عسكريّة، ولكن كانت تعوزه الثقة: فلقد كانت الكلمات، إذ تمرّ بفمه الطفوليّ، تمتلئ تفاهةً. وقالت: ـ إنَّ هذا أقوى منِّي.

فجذبها إليه.

ـ يجب ألّا تبكي. (وأضاف ضاحكًا) هل نبكي نحن الآخرين؟ فتركت رأسها يميل على كتف بينيت، ولامست شعره؛ كان يبدو فخورًا.

قالت: ـ سوف يأخذونكم.

ـ ما هذا الكلام!

فردَّدت وهي تبكي: ـ سوف يأخذونكم.

فقست ملامح بينيت:

ـ لا حاجة بي إلى مَنْ يرثي لي.

ـ لا أريد أن يأخذوكم.

ـ من قال لكِ إنَّهم سيأخذوننا؟ سترين كيف يقاتل الفرنسيُّون، وسوف تكونين في وضع طيِّب.

فرفعت نحوه عينيها الكبيرتين وقد اتّسعتا؛ كانت من شدَّة الخوف بحيث إنَّها كفَّت عن البكاء.

ـ يجب ألَّا تقاتلوا.

ـ تا، تا، تا.

ـ يجب ألَّا تقاتلوا؛ فقد انتهت الحرب.

فتأمّلها بوجه مرحٍ ماتع، وقال:

ـ ها! ها! ها.

والتفت ماتيو. كان راغبًا في الذهاب. وعادت الصغيرة تقول:

ـ تعارفنا منذ الأمس فقط.

وكانت شفتها السفلى ترتجف، وكانت تميل بوجهها الطويل، فتبدو نبيلة المظهر، جافلة حزينة كالحصان.

وقالت: ــ غدًا. . .

قال بينيت: ــ أوه، من الآن حتى الغد. .

ــ من الآن حتى الغد ليس ثمّة إلّا ليلة واحدة.

قال وهو يغمز بعينيه:

ــ تمامًا: ليلة، كافية لنتسلّى قليلاً.

ــ لا رغبة عندي في التسلية.

ــ لا رغبة عندك في التسلية؟ أصحيح أنّكِ غير راغبة في التسلية؟

كانت تنظر إليه من غير أن تجيب. قال:

ــ هل أنتِ مهمومة؟

فظلّت تنظر إليه، فاغرة الفم. وسألها:

ــ من أجلي؟

ومال عليها في حنوٍّ لا يخلو من شرود، ولكنَّه سرعان ما استقام وهو يلوي شفتيه، وكان سيِّئ المظهر، فقال:

ــ هيّا! هيّا! يجب ألّا تهتمِّي بذلك، يا صغيرتي: فسوف يأتي آخرون. . يُفقد واحد، فيوجد عشرة.

ــ إنَّ الآخرين لا يهمُّونني.

ــ لن تقولي ذلك بعد أن تريهم. إنَّهم فتيان طريفون، لو تعلمين، وأشدّاء! أكتاف هكذا، وأجناب هكذا!

ــ من تعني؟

ــ الألمان طبعًا!

ــ إنَّهم ليسوا رجالاً.

ــ إلى من تحتاجين؟

ـ إنَّهم في نظري وحوش.

فبسم بينيت بسمة متجرِّدة، وقال بهدوء:

ـ أنتِ مخطئة. إنَّهم فتيان جميلون، وجنود أقوياء. صحيح أنَّهم لا يساوون الفرنسيين، ولكنَّهم جنود أقوياء.

فردّت: ـ إنَّهم في نظري وحوش.

قال لها: ـ لا تردِّدي ذلك أكثر ممّا ينبغي، لأنَّك ستنزعجين جدًّا لأنّك قلتها إذ تغيِّرين رأيك. إنَّهم منتصرون، فافهمي ذلك. إنَّك لا تستطيعين أن تقاومي إنسانًا شديدًا قد ربح الحرب، فيجب أن تنحني أمامه، وسوف تشعرين هناك بالتآكل. اذهبي فاسألي الباريسيّات! إنَّهنّ يتسلَّين الآن كثيرًا، الباريسيّات! إنَّهنَّ يقمن بتمرينات للسيقان في الهواء.

فتخلَّصت الفتاة فجأة، وقالت:

ـ إنّك تبعث لديَّ الاشمئزاز.

فسأل بينيت: ـ ماذا دهاكِ، أيّتها الصغيرة؟

قالت الفتاة: ـ إنِّني فرنسيّة.

ـ الباريسيّات أيضًا فرنسيّات. هذا لا يمنع.

قالت: ـ دعني، أريد أن أذهب.

فاصفرَّ بينيت وأخذ يقهقه. وقال ماتيو:

ـ لا تغضبي. لقد قال ذلك ليثيرك.

قالت: ـ إنَّه يبالغ! فمن تراه يعتبرني؟

فقال ماتيو على مهل:

ـ ليس سهلاً أن يكون المرء مهزومًا. إنَّه محتاج إلى الوقت ليتعوَّد ذلك. أنتِ لا تعرفين كم هو لطيف عادة. إنَّه حمل.

قال بينيت: ـ ها! ها! ها!

قال ماتيو: ـ إنَّه يغار.

فسألت الصغيرة وقد عادت إليها رقّتها:

ـ يغار عليّ؟

ـ بكلّ تأكيد. فهو يفكّر بجميع الأفراد الذين سيحاولون أن يغازلوكِ فيما هو يكسِّر الحصى.

وقال بينيت الذي كان ما يزال يقهقه:

ـ أو فيما هو يأكل الهندباء البرِّيّة من جذورها.

وصاحت: ـ إنّني أمنعكم من أن تعرِّضوا أنفسكم للقتل!

فابتسم، وقال:

ـ تتحدَّثين كامرأة، كفتاة صغيرة، (وأضاف وهو يدغدغها) كفتاة صغيرة جدًّا.

فقالت وهي تتلوَّى تحت دغدغاته:

ـ خبيث! خبيث! خبيث!

قال ماتيو منزعجًا:

ـ لا تهتمّي بأمره كثيرًا. سينجلي عنه هذا بكلِّ بساطة، ثم إنّنا لا نملك ذخيرة.

فالتفتا إليه في وقت واحد، وقذفاه بالنظرة الحاقدة المستيقظة نفسها، كما لو أنَّه قد منعهما من أن يناما معًا. ونظر ماتيو إلى بينيت في قسوة. وبعد لحظة، خفض بينيت رأسه ونزع ضمّة عشب من بين ركبتيه، ووجهه متجهِّم. وعلى الطريق، كان ثمّة جنود يتسكّعون. وكان بينهم واحد يحمل بندقيّة، ويمسك بها كأنَّها شمعة طويلة، وهو يضحك.

وقال رجل قصير أسمر، سمين وأقفد:

ـ هيّا!

فأخذ الجنديّ البندقيّة بكلتا يديه من أنبوبها، وأرجحها كعصا الغولف لحظة، ثم ضرب بعقبها بقسوة حصاة قفزت عشرين خطوة. وكان

بينيت ينظر إليهما مقطَّب الحاجبين، فقال:

ـ هناك من يسيء استعمالها على التوّ.

فلم يجب ماتيو. وكانت الفتاة قد أخذت يد بينيت على ركبتيها تداعبها، وقالت:

ـ أرى معك خاتمًا.

فسألها وهو يقبض يده قليلاً: ـ ألم تريه قبل الآن؟

ـ بلى، رأيته.. هل أنت متزوِّج؟

ـ ما دام معي خاتم.

قالت بأسى: ـ نعم.

ـ انظري ما أفعل بخاتمي.

وشدّ على إصبعه بكزازة، فنزع خاتمه ورماه في القمح، فقالت الفتاة مندهشة:

ـ أوه! مع ذلك..

«أخذ السكِّين من على الطاولة، وكانت إيفيش تنزف، فطعن بها راحته».. حركات، حركات، تهديمات صغيرة، ماذا يُجديك ذلك، أخذت هذا من أجل الحرِّيّة، وتثاءب.

ـ كان من ذهب؟

ـ نعم.

فتحاملت وقبَّلته في شفتيه قبلة خفيفة.

واستقام ماتيو ثم جلس قائلاً:

ـ إنّني أنسحب.

فنظر إليه بينيت في قلق:

ـ ابقَ بعدُ قليلاً.

ـ لستَ بحاجة إليّ.

قال بينيت: ـ بل ابقَ، من أجل ما ستعمله..

فابتسم ماتيو وأومأ إلى الفتاة:

ـ ليست لها رغبة كبيرة بأن أبقى.

ـ هي؟ بلى بكلِّ تأكيد، فهي تحبُّك كثيرًا (وانحنى عليها وقال بصوت ملحٍّ): إنَّه صديق. أليس صحيحًا أنّك تحبِّينه كثيرًا؟

قالت الصغيرة: ـ بلى.

وفكَّر ماتيو: إنَّها تحتقرني، ولكنَّه بقي، ولم يكن الوقت ليتقدَّم: لقد كان يرتجف، مسترخيًا على هذا الحقل الأحمر. حركة مفاجئة وسيحسُّه ماتيو من جديد في عظمه، كوجع روماتيزم قديم العهد. وتمدّد على ظهره. السماء، السماء ورديّة ومعدومة، ليت بوسع الإنسان أن يسقط في السماء! ولكن عبثًا، إنّنا مخلوقات تنتمي إلى تحت، والشرّ كلّه صادر من هناك.

وكان الجنود الأربعة الذين رآهم ينسلّون بين القمح قد استداروا حول الحقل ليبلغوا الطريق، وأفضوا إلى المرج، في صفّ هنديّ. وكانوا من قسم الهندسة لا يعرفهم ماتيو؛ كان العريف الذي يمشي على رأسهم يشبه بينيت، وكان يرتدي قميصًا قصير الأكمام، مثله، وقد فتح قميصه على صدره المشعر؛ وكان الثاني، وهو أسمر ملفوح، قد ألقى سترته على كتفيه من غير أن يرتديها، وكان يمسك في يده اليسرى سنبلة، ويتلقّى بيده اليمنى حبّاتها؛ وقَلَب يده، فحملها إلى فمه، وأخرج لسانه فولغ في هذه الحبَّات المذهَّبة وهو يحرِّك رأسه؛ أمّا الثالث، وهو أطولهم قامة وأكبرهم سنًّا، فهو يسرِّح شعره الأشقر بأصابعه. كانوا يمشون على مهل، حالمين، في مرونة المدنيين؛ وخفض الأشقر يديه اللتين كانتا تتخلَّلان شعره، فأمرَّهما بعذوبة على كتفيه وعنقه، كما لو أنَّه يودُّ أن يستمتع بزوايا هذا الجسم الذي انبثق أخيرًا تحت الشمس، خارج الغلاف العسكريّ الذي لا شكل له. وتوقَّفوا الواحد خلف الآخر، في وقت واحد تقريبًا،

ونظروا إلى ماتيو. وتحت هذه العيون المنتمية إلى عصر آخر، أحسَّ ماتيو نفسه يذوب حشيشًا، فكان مرجًا تنظر إليه الدواب. وقال الأسمر:

ـ لقد فقدت حمّالتي.

ـ ولم يزعج الصوت هذا العالم اللاإنسانيّ الرقيق: فإنَّه لم يكن كلمة؛ وإنّما كان واحدًا من هذا الهمس الذي يسهم في خلق الصمت. ومن شفتيْ الأشقر، أفلت همس مشابه:

ـ لا تحزن، فلا بدَّ أنَّ الألمان قد أخذوه.

ووصل الرابع بلا ضجَّة، فتوقَّف ورفع أنفه، فعكس وجهه خلاء السماء. وقال:

ـ هيه!

وجلس القرفصاء، فقطف زهرة منثور، ووضعها في فمه. وحين نهض، رأى بينيت وهو يضمّ الفتاة إلى صدره، فأخذ يضحك:

ـ الأمور صعبة.

فأقرّه بينيت: ـ صعبة كفاية.

ـ ولكنَّ الطقس يترطّب، أليس كذلك؟

ـ لكأنّه.

ـ هذا ما لا يؤسف له.

فاهتزَّت الرؤوس الأربعة في هيئة ذكاء ذات طابع فرنسيّ؛ وامّحى الذكاء، فلم يبق إلّا فراغ هائل، واستمرَّت الرؤوس في اهتزازها. وفكَّر ماتيو: «إنَّهم للمرَّة الأولى في حياتهم يرتاحون».

كانوا يرتاحون من السير القسري، ومن استعراضات الثياب، ومن التمرين، ومن المأذونيّات، ومن انتظاراتهم، ومن آمالهم؛ كانوا يرتاحون من الحرب ومن تعبٍ أقدم عهدًا: من السلام. وفي وسط القمح، وعلى تخوم الغابة، وعند مخرج القرية، كان ثمّة آخرون في زرافات صغيرة يرتاحون كذلك: كانت قوافل من الناقهين تعبر الريف. وصاح العريف:

ـ هو بيرار.

فالتفت ماتيو. كان بيرار، مرافق الكابتين مورون، قد توقَّف عند حافَّة الطريق ليبوِّل: لقد كان فلَّاحًا من مقاطعة بريتاني، متوحِّشًا وأبرص. وقد نظر إليه ماتيو في اندهاش: كان المغيب يحمِّر سحنته الموحلة، وكانت عيناه قد اتّسعتا، وفقد هيئته المتحدِّية الماكرة؛ كان ينظر، ربّما للمرَّة الأولى، العلامات المرسومة في السماء ورقم الشمس السرِّي. وكان دفق فاتح ينبع من يديه اللتين كانتا تبدوان وكأنَّهما مَنْسيَّتان عند فتحة بنطاله.

ـ هو بيرار!

فانتفض بيرار. وسأله الكابورال:

ـ ماذا تفعل؟

فقال بيرار: ـ إنّني أشمُّ الهواء العليل.

ـ بل أنت تبوِّل أيُّها الخنزير! إنَّ هناك أوانس.

فخفض بيرار عينيه على يديه، وبدا مندهشًا، فسارع يزرِّر بنطاله، وقال:

ـ فعلت ذلك من غير تفكير.

قالت الفتاة: ـ ليس في ذلك أذى.

وقبعت ملتصقةً بصدر بينيت وابتسمت للكابورال. وكان ثوبها قد انحسر، فلم تفكِّر في ردِّه: كانت تعيش في البراءة. ونظروا إلى فخذيها، ولكن بلطف، وبافتتانٍ حزين: لقد كانوا ملائكة، وكانت لهم نظرات مسطَّحة.

قال الأسمر: ـ حسنًا. تحيّة. إنّنا نتابعها، نزهتنا.

فقال الأشقر الطويل ضاحكًا: ـ النزهة المشهّية.

قال ماتيو: ـ شهيّة طيِّبة.

وضحكوا. . كان الجميع يعلمون أنَّه لم يكن ثمّة ما يؤكل بعدُ في القرية؛ وكانت جميع محفوظات «الإدارة» قد نُهبت في الساعات الأولى من الصباح.

ـ ليست الشهيّة هي التي تنقصنا.

ولم يكونوا يتحرَّكون؛ وكفُّوا عن الضحك، وبان بعض الضيق في عينيْ العريف، فكأنَّهم كانوا يخشون أن يذهبوا. وكاد ماتيو يدعوهم إلى الجلوس.

قال العريف بصوت مفرط في الهدوء: ـ هيّا بنا!

فاستعادوا سيرهم في اتّجاه الطريق؛ وأحدث ذهابهم شقًّا سريعًا في رطوبة المساء؛ وقد سال بعض الوقت من خلال التصدُّع، فقام الألمان بقفزة إلى الأمام، وتشنَّجت خمس أصابع من حديد على قلب ماتيو: ثم كفَّ النزف، وتجمَّد الزمن من جديد، فلم يكن ثمّة إلَّا مرج يتنزَّه فيه ملائكة. وفكَّر ماتيو: «ما أهول هذا الفراغ». وكان شخص هائل قد انسحب فجأة، تاركًا «الطبيعة» في حراسة جنود من الصفّ الثاني. «صوت يعدو تحت شمس قديمة: لقد مات «بان» فاستشعروا الغياب نفسه». فمن الذي مات، هذه المرَّة؟ فرنسا؟ المسيحيّة؟ الأمل؟ لقد كانت الأرض والحقول تعود على مهل إلى لاجدواها الأولى؛ وكان هؤلاء الرجال يصبحون مجّانين، وسط هذه الحقول التي لم يكونوا يستطيعون حرثها ولا حمايتها. كان كلّ شيء يبدو جديدًا، ومع ذلك فقد كان المساء مطرَّزًا بنجوم الليل الأسود القادم؛ وفي وسط هذا الليل، سترتمي على الأرض نجمة مذنَّبة. أتراهم سيقصفون؟ كانت الحفلة منتَظرة عمَّا قليل. أتراه كان يوم العالم الأوَّل أم يومه الأخير؟ كان القمح والمنثور اللذان يسودّان تحت العين يبدوان وكأنَّهما يولدان ويموتان في الوقت نفسه. واجتاز ماتيو بنظره هذا الالتباس الهادئ وفكّر: تلك هي جنَّة اليأس.

قال بينيت: ــ إنَّ شفتيكِ باردتان.

وكان قد انحنى على الفتاة يقبِّلها. وسألها:

ــ هل تحسِّين البرد!

ــ لا.

ــ أتحبِّين أن أقبِّلك؟

ــ نعم. كثيرًا.

ــ لماذا إذن شفتاكِ باردتان؟

فسألت: ــ أصحيح أنَّهم يغتصبون النساء؟

ــ أنتِ مجنونة.

فقالت بهوس: قبِّلني. لا أريد أن أفكِّر بعدُ بشيء.

وأخذت رأسه بين يديها وجذبته إليها وهي تنقلب. وقال:

ــ يا صغيرتي، يا لعبتي!

ونام عليها، ولم يَرَ ماتيو بعد إلَّا شعرًا في العشب. ولكن سرعان ما ارتفع الرأس، وقد سقط عنه القناع المتجهِّم الرائع؛ وكانت العينان، في عُريٍ رقيق أملس، تنظران إلى ماتيو من غير أن ترياه؛ وكانتا تطفحان بالوحدة.

وتنهّدت الفتاة: ــ يا حبيبي، تعال، تعال.

ولكنَّ الرأس كان صلبًا، أبيض، أعمى، لا ينحني. وفكَّر ماتيو وهو ينظر إلى هاتين العينين المظلمتين: إنَّه يفعل مهنته كرجل. وكان بينيت قد أضجع هذه المرأة تحته، يسحقها في الأرض، يذيبها بالأرض، وبالعشب المتردِّد. كان يمسك المرجة مستلقية تحت بطنه؛ وهي تناديه، وسوف يوصل فيها جذوره بالبطن، وكانت هي ماءً، امرأة، مرآة؛ تعكس على كامل سطحها البطلَ البكرَ للمعارك القادمة، الذكَر، الجنديَّ المجيد المنتصر؛ كانت «الطبيعة» لاهثة مقلوبة، تُبرِّئه من جميع الهزائم، وتتمتم:

يا حبيبي، تعال، تعال. ولكنَّه كان يريد أن يمثِّل دور الرجل حتى النهاية، فكان يستند براحتيه على الأرض، فتبدو ذراعاه المتقلِّصتان طرفيْ جناح، وكان يَنصب رأسه فوق هذه الوداعة المتلبِّدة؛ يريد أن يكون موضع إعجاب، وأن يكون مشتهى من تحت، في الظلِّ، على غير علم منه، وأن يهمل هذا المجد الذي كان ينتقل من الأرض إلى جسده، كأنَّه حرارة حيوانيّة؛ وأن يطفو في الفراغ، في الضيق والقلق، ليفكِّر: «وماذا بعد؟» وعقدت الفتاة ذراعها حول عنقه وشدَّت على رقبته. غرق الرأس في المجد والحبّ، وانغلق المرج. ونهض ماتيو بلا ضجَّة فمضى، واجتاز الحقل، فأصبح أحد أولئك الملائكة الذين كانوا يتسكَّعون في الطريق المضيئة، بين ظلال الحور. وكانا هما قد اختفيا في العشب الأسود؛ ومرَّ جنود يحملون الباقات: رفع أحدهم، فيما هو سائر، باقته نحو وجهه، فأغرق أنفه في الزهور، وتشمَّم وسط الزهور بطالته وهمَّه ومجّانيّته التي لا مبرِّر لها. كان الليل يلتهم أوراق الشجر والوجوه: فكان الجميع متشابهين؛ وفكَّر ماتيو: إنَّني أشبههم. ومشى أيضًا قليلا، رأى نجمًا يضيء وقد لامس متنزِّهًا غامضًا كان يصفِّر. والتفت المتنزِّه، فرأى ماتيو عينيه، وتبادلا بسمة من بسمات عشيّة الأمس، بسمة صداقة.

قال الرجل: ــ الطقس رطب.

قال ماتيو: ــ نعم، بدأ الطقس يبرد.

ولم يكن لديهما شيء آخر يقولانه، ومضى المتنزِّه، فتبعه ماتيو بنظره؛ أينبغي أن يكون الناس قد فقدوا كلَّ شيء، وحتى الأمل، لنقرأ في عيونهم أنَّ بوسع الإنسان أن يربح؟ كان بينيت يضاجع؛ وكان غيكيولي ولاتيكس قد تدحرجا ثملين حتى الموت على أرض البلديّة؛ وكان ملائكة متوحِّدون ينزِّهون في الدروب ضيقهم: لا حاجة لأحد بي. وتداعى للسقوط على الأرض، على حافّة الطريق، لأنَّه لم يكن يعرف بعد إلى أين يذهب. لقد دخل الليل في رأسه من فمه، وعينيه، ومنخريه،

وأذنيه: فلم يكن بعد أحدًا، ولا شيئًا. لا شيء إلَّا الشقاء والليل. وفكَّر: شارلو! ثم قفز على قدميه: كان يفكِّر بشارلو، وحيدًا مع خوفه، وكان يشعر بالعار؛ لقد تصرَّفت تصرُّفًا سيِّئًا مع هؤلاء الخنازير السكارى، وفي تلك الفترة، كان هو وحده، وكان خائفًا، بتواضع، وكان بوسعي أن أساعده.

كان شارلو جالسًا في المكان نفسه، منحنيًا فوق كتابه، فاقترب ماتيو وأمرّ يده على شعره.

ـ إنّك ستقتلع عينيك.

قال شارلو: إنّي لا أقرأ، بل أفكِّر.

وكان قد رفع رأسه، وشفتاه الغليظتان ترسمان بسمة.

ـ بِمَ تفكِّر؟

ـ بحانوتي، أتساءل عمَّا إذا كانوا قد نهبوه.

قال ماتيو: ـ هذا غير مرجَّح.

وأشار إلى نوافذ دار البلديّة السوداء:

ـ ماذا يفعلون في الداخل؟

قال شارلو: ـ لا أدري. مضت فترة من غير أن أسمع شيئًا.

فجلس ماتيو على درجة.

ـ الأمور ليست على ما يرام، أليس كذلك؟

فابتسم شارلو بحزن، وسأله:

ـ أتكون قد عدت من أجلي؟

ـ إنّني ضجر. وقد فكَّرت بأنَّك ربّما كنت في حاجة إلى رفيق. وهذا بالأحرى في صالحي.

فهزّ شارلو رأسه من غير أن يجيب. وسأله ماتيو.

ـ أتريد أن أذهب؟

قال شارلو: ـ لا، فأنت لا تزعجني. ولكنَّك لا تستطيع أن تساعدني. ما عساك تقول لي: إنَّ الألمان ليسوا متوحِّشين؟ إنَّ علينا أن نكون شجعانًا؟.. إنّني أعرف هذا كلّه.

وتنهّد ووضع الكتاب إلى جانبه، في حيطة، وقال:

ـ يجب أن تكون يهوديًا، وإلّا لم تستطع أن تفهم.

وضع يده على ركبة ماتيو، وقال له بلهجة اعتذار:

ـ لست أنا الخائف، وإنّما هو جنسي في داخلي، ولا حيلة لأحد في ذلك.

وصمت ماتيو، وظلّا جنبًا إلى جنب، صامتين.. أحدهما ممزَّق، والآخر لا جدوى منه على الإطلاق، منتظريْن أن يلفَّهما الظلام.

كانت تلك هي الساعة التي تفيض فيها الأشياء عن نطاقها وتذوب في ضباب المساء القطنيّ؛ كانت النوافذ تنزلق في ظلّ حركة طويلة جامدة، وكانت الغرفة زورقًا شراعيًا تائهًا؛ أمّا زجاجة الويسكي فكانت إلٰهًا أزتيكيًّا؛ وكان فيليب تلك النبتة الرماديّة الطويلة التي لا تُخيف؛ والحبّ، كان أكثر كثيرًا من الحبّ، ولم تكن الصداقة هي الصداقة تمامًا. وكان دانيال يتحدَّث، مختبئًا، عن الصداقة، فلم يكن بعدُ إلّا صوتًا هادئًا حارًّا. واستردّ نَفَسه، فانتهزها فيليب فرصة ليقول:

ـ ما أشدّ الظلام هنا! ألا تظنّ أنّ بوسعنا أن نضيء النور؟

قال دانيال بجفاف: ـ إذا لم تكن الكهرباء مقطوعة.

ونهض على مضض: كانت اللحظة قد آنت لتقبّل امتحان الضوء. وفتح النافذة، وأطلّ فوق الفراغ وشمّ رائحة بنفسج الصمت: كم من مرَّة، في هذا المكان نفسه، أردت أن أهرب، وكنت أسمع صوت خطى يتنامى؛ كانوا يمشون على أفكاري. كان الليل عذبًا ووحشيًّا، وكان لحم الليل الذي تمزّق مرّات قد التأمت جراحه. ليلة ريّا وعذراء، ليلة جميلة

بلا رجال، برتقالة حمراء بلا بزور. وأغلق المصاريع على مضض، فأدار المفتاح، فارتمت الغرفة خارج الظلّ ودخلت الأشياء في نفسها من جديد. اندفع وجه فيليب بإزاء عينيْ دانيال، وكان دانيال يُحسّ هذا الرأس الكبير الدقيق يتحرَّك في نظره، وهو حديث عهد بقصِّ الشعر، مرتدّ إلى خلف، بتينك العينين الطافحتين بالذهول، واللتين كانتا تسحرانه كما لو أنَّهما تريانه للمرَّة الأولى. «يجب أن أتصرّف بدقّة وحكمة»، ورفع يده، منزعجًا، ليضع حدًّا لتمثيليّة الأشباح، فقرص ظاهر سترته بين أصابعه، وابتسم؛ كان خائفًا من أن يُكتشف.

ــ ما بالك تنظر إليّ؟ هل تجدني جميلاً؟

فقال فيليب بصوت محايد: ــ جميلاً جدًّا.

وانفتل دانيال فوجد في المرآة، من غير استياء، وجهه الجميل الغامض. كان فيليب قد أسبل جفنيه، وخنق ضحكة وراء يده.

ــ أنت تضحك كطالبة داخليّة.

فكفّ فيليب عن الضحك، وألحّ دانيال:

ــ لماذا تضحك؟

ــ هكذا.

وكان نصفَ ثملٍ من الخمر، وعدم الثقة، والتعب. وفكَّر دانيال: إنَّه في الحالة المناسبة، شريطة أن يُفعل كلّ شيء «بالضحك» كمزاح مدرسيّ، فسيدع الفتى نفسه ينقلب على الديوان، ويلامَس، ويُقبَّل وراء الأذن: ولن يدافع عن نفسه إلَّا بالضحكة المجنونة. وأولاه دانيال ظهره فجأة، وخطا بضع خطوات في الغرفة: إنَّ هذا مبكر جدًّا، مبكر أكثر ممّا ينبغي، فحذارِ من الحماقات! سوف يذهب غدًا فينتحر، أو إنّني سأقتله. وقبل أن يعود باتّجاه فيليب، زرّر سترته وشدَّها على فخذيه ليخفي بداهة اضطرابه.

وقال: ــ وأخيرًا هكذا!

قال فيليب: ـ هكذا!

ـ أُنظرْ إليّ.

وغطَّس نظره في عينيه وهزّ رأسه في رضى، وقال على مهل:

ـ لستَ بالجبان. وقد كنت متأكِّدًا من ذلك.

ومدّ سبّابته وضرب صدره:

ـ أنت تهرب خوفًا؟ كفى، كفى! إنَّ هذا لا يناسبك: كلّ ما هنالك أنَّك ذهبت؛ تركت هذه القضيّة تسوّى بدونك. ولماذا تُراك تقتل نفسك من أجل فرنسا؟ لماذا؟ إنّ فرنسا لا تهمّك، أليس كذلك؟ إنَّها لا تهمّك، أيُّها المكّار الصغير!

فأومأ فيليب برأسه، واستعاد دانيال مشيته عبر الغرفة، وقال في انفعال مليء بالمرح:

ـ لقد انتهى هذا كلّه. انتهى وصُفِّي. إنَّ لك حظًّا لم يكن لي في عمرك. لا، لا (قالها في حيويّة بحركة من يده) لا، لا، لا أقصد بذلك لقاءنا. إنَّ حظَّك هو الاتّفاق «التاريخيّ»: أتريد أن تهدم الأخلاقيّة البورجوازيّة؟ حسنًا: إنَّ الألمان هنا لمساعدتك. ها! سترى ضربة المكنسة هذه؛ سترى آباء الأسر يزحفون، ستراهم يلحسون الجزمات، ويمدُّون أقفيتهم الضخمة لركلات الأرجل؛ سترى زوج أمّك مقلوبًا على بطنه: إنَّه هو المهزوم الأكبر في هذه الحرب، وكم ستستطيع أن تحتقره!

وضحك حتى سالت دموعه: «أيّة ضربة مكنسة»! ثم التفت فجأة نحو فيليب:

ـ يجب أن تحبَّهم.

فسأله فيليب مذعورًا: ـ من؟

ـ الألمان، إنَّهم حلفاؤنا.

فردَّد فيليب: ـ أن أحبَّ الألمان؟ ولكنِّي... لا أعرفهم.

ـ لا تخف، فسنعرف بعضهم: سنتعشّى لدى قادة المقاطعات،

ولدى الفيلدمرشالات: وسوف يأخذوننا للتنزُّه معهم في سيّاراتهم المرسيدس السوداء الضخمة، بينما يتنزَّه الباريسيُّون على أقدامهم.

وخنق فيليب تثاؤبة، فهزّه دانيال من كتفيه وقال له بلهجة غليظة:

ـ يجب أن تحبّ الألمان. ستكون تلك تجربتك الروحيّة الأولى.

فلم يبدُ على الفتى انفعال خاصّ؛ فتركه دانيال، وفتح ذراعيه على سعتهما، وقال:

ـ ها هو زمن القتلة يجيء.

وتثاءب فيليب للمرَّة الثانية: فرأى دانيال لسانه المروّس. وقال فيليب بلهجة اعتذار:

ـ إنّني ناعس. ها هما ليلتان لم أغمض فيهما عينيَّ.

فبدا لدانيال أن يغضب، ولكنَّه كان مرهقًا، هو أيضًا، كما يحدث له على أثر كلّ لقاء جديد. ولفرط ما اشتهى فيليب، فقد أحسّ بنهك ثقيل في أُربيّته. وأحسّ فجأة بتعجّل ليجد نفسه وحيدًا، فقال:

ـ حسنًا، إنّني أتركك، وستجد منامة في دِرْج الخزانة.

فقال الفتى برخاوة: ـ لا حاجة بي إلى ذلك، فيجب أن أعود إلى البيت.

فنظر إليه دانيال باسمًا:

ـ ستفعل ما تشاء؛ ولكنَّك توشك أن تقع على دوريّة، والله وحده يعلم ما سيصنعون بك: أنت جميل كفتاة، والألمان جميعًا لوطيُّون. وحتى لو فرضنا أنّك بلغت منزلك، فإنّك ستجد فيه ما تريد أن تهرب منه. إنَّ على الجدران صورًا لزوج أمّك، أليس كذلك؟ وعطر أمّك يطفو في غرفتها؟

فلم يبدُ على فيليب أنَّه كان يسمعه. وبذل جهدًا لينهض، ولكنَّه تداعى على الديوان، وقال بصوت نائم:

ـ ها هـ هـ هـ..

ونظر إلى دانيال، فبسم له بهيئة حائرة:
ــ أظنّ أنّ من الأفضل لي أن أبقى هنا.
ــ إذن، تصبح على خير.
فقال فيليب متثائبًا: ــ تصبح على خير.

واجتاز دانيال القاعة؛ وإذ ألمّ بالمدخنة، كبس على مربّع ناتئ، فاستدار رفّ من المكتبة على نفسه، كاشفًا صفًّا من الكتب ذات الغلاف الأصفر. وقال:

ــ هذا هو «الجحيم». ستقرأ هذا كلّه فيما بعد: فهو يتحدَّث عنك.
فردَّد فيليب من غير أن يفهم:
ــ عنِّي؟
ــ نعم، أقصد عن حالتك.

ودفع الرفّ إلى مكانه ثم فتح الباب. وكان المفتاح قد بقي في الخارج، فأخذه دانيال ورمى به إلى فيليب وهو يقول ساخرًا:

ــ إذا خفت من الأشباح أو من اللصوص، فبوسعك أن تقفل على نفسك.

وأغلق الباب عليه، ودلف في الظلام إلى جوف الغرفة، فأضاء المصباح وجلس على سريره. ها أنا وحدي أخيرًا! ستّ ساعات من المشي، وطوال أربع ساعات، هذا الدور أمثِّله مرتديًا مِشدَّ أمير الشرِّ: إنَّني مرهق. وتنهَّد، رغبة منه في أن يحسّ وحدته؛ ورغبة في ألَّا يُسْمع، أنّ بنعومة: «إنَّ بيضتيَّ تؤلمانني كثيرًا». ورغبة منه في ألَّا يُرى، حرّك وجهه حركة بكائيّة، ثم ابتسم وتداعى للسقوط إلى خلف كما لو أنَّه في حمّام دافئ: وكان قد تعوَّد هذه الرغبات التجريديّة، وهذه التورُّمات الخفيّة اللامجدية؛ وكانت التجربة قد علَّمته أنَّ ألمه يخفّ إذا ظلَّ متمدِّدًا. وكان المصباح يعكس دائرة نور على السقف، والوسائد رطبة، ودانيال يرتاح، ساكنًا، ميِّتًا، مبتسمًا. «هادئ، هادئ: لقد أقفلت باب

الدخول بالمفتاح، والمفتاح في جيبي؛ والواقع أنَّه من جهة أخرى، سوف ينهار تعبًا، وسينام حتى الظهر. من دعاة السلام: فتأمَّل! بالإجمال، لم تسر الأمور جيّدًا. ولا شكَّ في أنَّه كان ثمّة خيوط للشدّ، ولكنِّي لم أعرف أن أعثر عليها». كان دانيال يجعل من أمثال «ناتانايل» و«رامبو» قضيَّته؛ ولكنّ الجيل الجديد كان يحيِّره: «أيّ مزيج غريب: نرجسيّة، وأفكار اشتراكيّة. إنَّ هذا لا يُجاري المعقول». ومع ذلك، فإنّ الأمور بالإجمال لم تسر سيرًا رديئًا: كان الفتى هنا، مقفلاً عليه. ففي حالة الشكّ، لن يكون سيِّئًا أن يلعب المرء ورقة الاختلال النظاميّ. فلقد كان ذلك ينجح دائمًا بعض الشيء. كان يثير الغرور. وفكَّر: «سأحصل عليك، وسأغسل مبادئك، يا ملاكي. أفكار اشتراكيّة! سترى ما سوف تنتهي إليه»! وكانت هذه الحميّا التي بردت تثقل على معدته، وكان بحاجة إلى كمِّيّة طيِّبة من الوقاحة ليكنسها: «إذا استطعت أن أحتفظ به وقتًا طويلاً، كانت مسألة طيِّبة: فأنا بحاجة إلى التخفُّف، وأفتقر إلى شخص في البيت». حفلات الكرميس، غراف وتوتو، العمّة دونفلور، ماريوس، «الحسّ» الممنوع: كلّ ذلك قد انتهى. وانتهت الانتظارات عند حواشي محطّة «غارديست» وابتذال المأذونين الذين تنبعث من أقدامهم الروائح الكريهة: إنَّني أُصلح سيرتي. (انتهى الإرهاب)! وجلس على السرير وبدأ ينزع ثيابه، وصمَّم: ستكون علاقة جدِّيّة رصينة. وكان يحسُّ النعاس، وكان هادئًا. ونهض ليأخذ حوائجه، فلاحظ أنَّه كان هادئًا، وفكَّر: عجيب ألَّا أكون في ضيق وقلق. وفي تلك اللحظة، كان خلف ظهره أحد، فالتفت، فلم ير أحدًا، فشقّه الضيق شقّين. «مرّة أخرى بعد! مرّة أخرى بعد!» وكان كلُّ شيء يبدأ من جديد، وكان يعرف كلّ شيء، وبوسعه أن يتنبَّأ بكلِّ شيء. كان يستطيع أن يروي دقيقة فدقيقة سنوات الشقاء التي ستلي، السنوات الطويلة، الطويلة، السنوات اليوميَّة المملّة التي لا أمل فيها، ثم النهاية القذرة الأليمة: كلّ شيء كان هنا. ونظر إلى الباب المغلق، وكان يتألَّم، ويفكِّر: «هذه المرَّة، سأموت بذلك» وكان

في فمه مرارة الآلام القادمة.

قال عجوز: ـ إنَّها تحترق جيّدًا.

وكان الجميع في الطريق، جنودًا وعجائز وفتيات. وكان المدرِّس يصوِّب عصاه نحو الأفق؛ وفي أقصى العصا، كانت شمس زائفة تدور، كرة من نار تخفي فجرًا ممتقعًا: كانت تلك «روبيرفيل» التي تحترق.

ـ إنَّها تحترق جيّدًا.

ـ أجل! أجل.

ـ وكان المسنُّون يترنَّحون قليلاً، وأيديهم خلف ظهورهم، ويقولون: أجل! أجل! بأصواتهم العميقة الهادئة.. وترك شارلو ذراع ماتيو، وقال:

ـ إنَّ هذه مصيبة!

فأجابه عجوز:

ـ إنَّه قدر الفلَّاح. فحين لا تكون الحرب، يكون الثلج أو الجليد: فليس ثمّة سلام على الأرض، بالنسبة للفلَّاح.

وكانت أيدي الجنود تجسّ الفتيات في الظلام فتثير الضحكات؛ وكان ماتيو يسمع خلف ظهره صرخات الصبية الذين كانوا يلعبون في أزقَّة القرية المهجورة. تقدَّمت امرأة، وكانت تحمل صبيًّا بين ذراعيها، فسألت:

ـ أيكون الفرنسيُّون هم الذين أشعلوا النار؟

فقال لوبيرون: ـ هل أنتِ مجنونة، أيّتها الأمّ الصغيرة؟ إنَّهم الألمان، نعم.

فهزّ عجوز رأسه، وقال غير مصدِّق:

ـ الألمان؟

ـ أجل، الألمان: الألمان!

ولم يبد أنّ العجوز قد اقتنع:

ـ لقد سبق للألمان أن جاءوا، في الحرب الماضية، ولم يفعلوا شرًّا كبيرًا: إنَّهم لم يكونوا رجالاً مؤذين.

فسأل لوبيرون مغتاظًا:

ـ ولماذا ترانا نُشعل نحن النار؟ إنّنا لسنا متوحِّشين.

ـ ولماذا تراهم يشعلونها، هم؟ أين سيقيمون؟

ورفع جنديٌّ ملتحٍ يده، فقال:

ـ لا بدَّ أنَّ بعضَ اللؤماء عندنا أرادوا أن يتخابثوا، فأطلقوا النار. فإذا سقط قتيل واحد من الألمان، أحرقوا القرية.

فالتفتت إليه المرأة قلقةً، وسألت:

ـ وأنتم؟

ـ ماذا، نحن؟

ـ ألن تفعلوا حماقات؟

فأخذ الجنود يضحكون، وقال أحدهم في اقتناع:

ـ آه! تستطيعين أن تنامي قريرة العين، معنا. إنّنا نعرف الحياة.

وكانوا يتبادلون النظر ويضحكون متواطئين:

ـ نعرف الحياة، نعرف الحياة.

ـ أتظنِّين، أنَّنا سنختلق أسباب الخصام مع الألمان، عشيّة توقيع السلام؟!

كانت المرأة تداعب رأس صغيرها، فسألت بصوت متردِّد:

ـ أهو السلام؟

فقال المدرِّس في قوّة:

ـ نعم، هو السلام. هو السلام. هذا ما ينبغي أن نقوله:

فحدثت رعشة في الجمع، وسمع ماتيو خلف ظهره نسمةً صغيرة من كلام فرِح بعض الشيء:

ـ إنَّه السلام، إنَّه السلام.

كانوا ينظرون إلى روبيرفيل تحترق ويردِّدون فيما بينهم: لقد انتهت الحرب، إنَّه السلام. وكان ماتيو ينظر إلى الطريق: كانت تفلت من الليل، على بعد مئتي متر، وتسيل بياضًا متردِّدًا حتى قدميه، ثم تمضي خلفه فتغسل البيوت ذوات المصاريع المغلقة. طريق جميلة تغري بالمغامرة والموت، طريق جميلة ذات اتّجاه واحد. كانت قد وجدت وحشيّة الأنهار القديمة: وهي ستحمل غدًا حتى القرية سفنًا محمّلة بالقَتَلة. وتنهَّد شارلو، فشدَّ ماتيو على ذراعه من غير أن يقول شيئًا.

وقال صوت: ـ ها هم أولاء!

ـ ماذا؟

ـ الألمان، أقول لك: ها هم أولاء!

وكان الظلام قد تحرَّك، وثمَّة جنود في وضع استكشاف، يخرجون واحدًا إثر واحد من ماء الليل الأسود، وبنادقهم تحت أذرعهم. كانوا يتقدَّمون على مهل وحذر، مستعدِّين للإطلاق.

ـ ها هم أولاء.. ها هم أولاء!

وصُدم ماتيو ودُفع: كان اهتزاز واسع مبهم ينفض الجمع حوله.

وصاح لوبيرون:

ـ لنهرب أيُّها الرفاق!

ـ هل أنت مجنون؟ لقد رأونا، فلم يبقَ إلَّا أن ننتظرهم.

ـ ننتظرهم؟ سوف يطلقون النار علينا. نعم.

وأطلق الجمع زفرة هائلة مرهقة؛ وثقب الليلَ صوتُ المدرِّس الحادّ:

ـ النساء إلى الوراء. والرجال: اتركوا بنادقكم إذا كان لديكم بنادق، وارفعوا أيديكم في الهواء.

وصاح ماتيو مجروحًا:

ـ يا لكم من فروج حمقى! إنّكم ترون جيّدًا أنَّهم فرنسيُّون.

ـ فرنسيُّون..

وسادت لحظة توقُّف، ووطءٍ مُراوِحٍ، ثم قال واحد بلهجة تحدٍّ:

ـ فرنسيُّون؟ ومن أين يخرجون؟

كانوا فرنسيين، زهاء خمسة عشر رجلاً يقودهم ملازم: وكانت لهم وجوه قاسية سوداء. واصطفّ أهالي القرية على حافّتيّ الطريق ينظرون إليهم قادمين، بلا ترحيب. فرنسيُّون، أجل، ولكنَّهم كانوا قادمين من مقاطعة أجنبيّة وخطرة. ومعهم بنادق. عند الليل الهابط. فرنسيُّون يخرجون من الظلام والحرب، ويعودون بالحرب إلى هذه القرية التي سبق للسلام أن قام فيها. فرنسيُّون. باريسيُّون، ربّما، أو من سكّان بوردو؛ ليسوا ألمانًا تمامًا؛ ومرّوا بين سياجين من العداء الرخو، من غير أن ينظروا إلى أحد؛ وكان يبدو عليهم الفخر. أطلق الملازم أمرًا فتوقَّفوا.

وسأل: ـ أيّة فرقة هنا؟

ولم يكن يوجِّه كلامه إلى أحد معيِّن. وساد صمت. فكرَّر سؤاله، فقال رجل بلهجة مستاءة:

ـ الواحدة والستُّون.

ـ وأين هم رؤساؤكم؟

ـ مشطوبون.

ـ ماذا؟

فكرَّر الجنديّ في اعتزاز واضح:

ـ مشطوبون.

ولوى الملازم حَنَكه، ولم يجب.

ـ أين دار البلديّة؟

فتقدَّم شارلو، وقال بملاطفة:

ـ إلى اليسار، في آخر الطريق. أمامك مئة متر تمشيها.

فانفتل الضابط فجأة على نفسه، ورمقه قائلاً:

ـ ما هذه الطريقة في التحدُّث إلى رئيس؟ ألا يمكنك أن تقوِّم الوضع؟ وهل يخنقك أن تقول لي: يا سيِّدي الملازم؟

ومرّت لحظات صمت. وكان الضابط ينظر إلى شارلو في عينيه؛ وحول ماتيو، كان الأفراد ينظرون إلى الضابط. وأدّى شارلو التحيّة العسكريّة.

ـ سمعًا وطاعة، يا سيِّدي الملازم.

ـ حسنًا.

وألقى الضابط نظرة احتقار دائريّة، وقام بحركة، فعاود الفريق سيره. وتطلّع إليهم الأفراد ينغمسون في الليل دون أن ينبسوا بكلمة.

سأل لوبيرون بمشقَّة:

ـ ألم ننتهِ من الضبَّاط بعد؟

فردّد صوت عصبيّ بمرارة:

ـ مع الضبّاط؟ إنَّك لا تعرفهم. سيظلُّون يبعصوننا حتى النهاية.

وصاحت امرأة فجأة:

ـ إنَّهم لن يقاتلوا هنا، على الأقلّ؟

فندت ضحكات من الجمع، وقال شارلو بصوت مفرط الحلم:

ـ لا تخافي يا ماما، فليسوا مجانين.

وعاد الصمت من جديد. كانت جميع الرؤوس قد التفتت نحو الشمال. كانت روبيرفيل، المعزولة التي أصبحت خارج نطاق الإدراك،

وباتت أسطوريّة، تحترق من نكد الطالع في بلد أجنبيّ، من الجهة الأخرى من الحدود. إنَّ الصدام والقتال والحريق أمور تناسب روبيرفيل؛ وليست أمورًا يمكن أن تحدث لنا نحن. وعلى مهل، وبلا اكتراث، انفصل أفراد عن الجمع وتوجَّهوا نحو القرية. كانوا عائدين ليناموا نومتهم القصيرة، حتى يكونوا على استعداد، حين يصل الألمان عند الفجر. وفكّر ماتيو: «أيّة قذارة».

قال شارلو: ـ إنّني إذن أنسحب.

ـ أنت ذاهب للنوم؟

ـ يقولون.

ـ أتريد أن أصحبك؟

قال شارلو وهو يتثاءب:

ـ لا تزعج نفسك.

وابتعد، وبقي ماتيو وحده. وفكَّر: «إنّنا عبيد، نعم، عبيد». ولكنَّه لم يكن عاتبًا على الرفاق، فلم تكن تلك غلطتهم: لقد قضوا عشرة أشهر في الأشغال الشاقَّة؛ وكان ثمّة الآن نقل السلطة، فهم ينتقلون إلى أيدي الضبَّاط الألمان، وسوف يحيّون «الفيلدووبل» و«الاوبرلوتنان»؛ ولم يكن الفرق كبيرًا، فطبقة الضبّاط عالميّة؛ كلّ ما في الأمر، أنَّ الأشغال الشاقَّة مستمرَّة. وفكَّر: إنّما أعتب على نفسي. ولكن كان يعتب على نفسه أنَّه عتب على نفسه، لأنَّ تلك كانت طريقة في التعالي على الآخرين. كان رحيمًا مع الجميع، قاسيًا مع نفسه: حيلة أخرى من حِيَل الكبرياء. بريء ومذنب، مفرط القسوة ومفرط الرحمة، عاجز ومسؤول، متضامن مع الجميع ومرفوض من كلّ إنسان، متبصِّر غاية التبصُّر ومخدوع غاية الخداع، عبدٌ وسيِّد: الواقع أنّي كجميع الناس. وأحسّ بيدٍ على ذراعيه ـ وكانت يد موظَّفة البريد. كانت عيناها تحرقان وجهها.

ـ إمنعه، إنْ كنت صديقه.

ـ ماذا؟

ـ إنَّه يريد أن يقاتل: فامنعه.

وبدا بينيت خلفها، ممتقعًا، ميِّت العينين، وعلى شفتيه بسمة رديئة.

فسأله ماتيو:

ـ ماذا تريد أن تفعل إذن، أيُّها العنيد الصغير؟

ـ أقول لك إنَّه يريد أن يقاتل، لقد سمعته: فهو قد ذهب يلتقي الكابتين، ويقول له إنَّه يريد أن يقاتل.

ـ أيّ كابتين؟

ـ الذي مرَّ مع رجاله.

وكان بينيت يقهقه، ويداه خلف ظهره.

ـ لم يكن «كابتين»، بل هو ملازم.

وسأله ماتيو: أصحيح أنّك تريد أن تقاتل؟

فأجاب: ـ إنّكم جميعًا تزعجونني!

قالت موظَّفة البريد: ـ أترى! أترى! لقد قال إنَّه يريد أن يقاتل. وقد سمعته.

ـ ولكن من قال لكِ إنَّهم سيتقاتلون؟

ـ ألم ترهم إذن؟ إنّ في عيونهم الجريمة. وهو (وأومأت بإصبعها إلى بينيت) انظر إليه، إنَّه يخيفني. إنَّه وحش!

وهزَّ ماتيو كتفيه:

ـ ماذا تريدين منِّي أن أفعل به؟

ـ ألست صديقه؟

ـ بلى.

ـ إذا كنت صديقه، فعليك أن تقول له إنَّه لا يحقّ له أن يعرِّض نفسه للقتل.

وتشبَّثت بكتفيْ ماتيو:

ـ لا يحقّ له ذلك!

ـ ولماذا؟

ـ أنت تعرف السبب جيّدًا.

فَبَسم بينيت بسمة قاسية ورخوة:

ـ أنا جنديٌّ، فيجب أن أقاتل: إنَّ الجنود قد خُلقوا لذلك.

ـ كان ينبغي إذن ألَّا تأتي للبحث عنِّي.

وقبضت على ذراعه، وأضافت بصوت راعش:

ـ إنَّك لي.

فتخلَّص بينيت:

ـ لست لأحد.

قالت: ـ بلى، أنت لي (والتفتت إلى ماتيو ونادته بلهجة ناريّة)، ولكن، قل له أنت! قل له إنَّه لا يحقّ له بعد أن يعرِّض نفسه للقتل! إنَّه واجبك، أن تقول له ذلك.

وصمت ماتيو، فتقدَّمت نحوه، ووجهها يلتهب: وللمرَّة الأولى، وَجَدها ماتيو قابلة للاشتهاء.

ـ أنت تزعم أنّك صديقه، وسواء لديك أن يناله بعد ذلك أذى؟

ـ كلّا، ليس الأمر سواء لديَّ.

ـ أتجد من المستحسن أن يذهب فيطلق بندقيَّته كالأحمق على جيش برمّته؟ وليت ذلك يفيد شيئًا بعد! ولكنَّك تعلم جيّدًا أنْ ليس ثمّة من يقاتل بعد.

قال ماتيو: ـ أعلم.

ـ ماذا تنتظر إذن لتقول له ذلك؟

ـ أنتظر أن يسألني رأيي.

ـ هنري! أبتهل إليك: أطلب منه النصيحة، فهو أكبر منك سنًّا، ولا بدَّ أن يعرف.

ـ فرفع بينيت يده علامة الرفض، ولكن جاءته فكرة، فترك ذراعه تسقط وهو يغضّ عينيه بهيئة مرائية لم يكن ماتيو يعهدها فيه:

ـ أتريدين أن أناقش الأمر معه؟

ـ نعم، ما دمت لا تحبّني حبًّا كافيًا لتصغي إليَّ.

ـ حسنًا. اتّفقنا. ولكن يجب أن تذهبي.

ـ لماذا؟

ـ لأنِّي لا أريد أن أناقش بحضورك.

ـ ولكن، لماذا؟

ـ هكذا! ليست هذه شؤونًا نسائيّة.

ـ إنَّها «شؤوني» ما دام الأمر متعلِّقًا بك.

فقال مغتاظًا: ـ آه.. إنّك تفقرين لي بيضتيّ!

وغرس مرفقه في جنب ماتيو، فقال ماتيو بحيويّة:

ـ لا حاجة بكِ حتى لأن تذهبي: فسوف نتمشّى قليلاً على الطريق، وليس عليكِ إلَّا أن تنتظرينا هنا.

ـ نعم، ثم لا تعودان.

قال بينيت: ـ إنَّكِ مجنونة! أين تريديننا أن نذهب؟ سنكون على بعد عشرين مترًا منك، وسترييننا طوال الوقت.

ـ وإذا قال لك صديقك بألَّا تقاتل، فهل تصغي إليه؟

قال بينيت: بالتأكيد. إنّني أفعل دائمًا ما يقوله.

فتعلَّقت بعنق بينيت.

ـ أتقسم لي بأن تعود؟ حتى ولو قرَّرت أن تقاتل؟ حتى ولو نصحك صديقك؟ إنّني أفضّل تحمُّل كلّ شيء على ألَّا أراك ثانية. ـ أتقسم لي؟

ـ نعم، نعم، نعم.

ـ قل إنّك تقسم! قل: أقسم على ذلك.

قال بينيت: ـ أقسم على ذلك.

فقالت لماتيو: ـ وأنت، هل تقسم على أن تُعيده إليَّ؟

ـ طبعًا.

قالت: ـ لا تبقيا طويلاً، ولا تبتعدا.

ومشيا بضع خطوات على الطريق، في اتّجاه روبيرفيل؛ وكانت أدغال وأشجار تنبثق من الظلام. وبعد لحظة، التفت ماتيو: فإذا موظَّفة البريد منتصبة متوتِّرة، يكاد الليل يمحوها، وهي تجهد لتميِّزهما في الظلمات. خطوة أخرى، وامَّحت تمامًا. وفي تلك اللحظة صاحت:

ـ لا تذهبا بعيدًا، فأنا لا أراكما بعد.

فأخذ بينيت يضحك؛ وكوَّر يديه فوق فمه وصاح:

ـ أوهو! أوهوهو! أوهوهوهو!

فتابعا سيرهما. وكان بينيت ما يزال يضحك:

ـ كانت تودُّ أن تجعلني أصدِّق أنَّها عذراء؛ هذا هو السبب.

ـ آه!

ـ هذا ما تقوله هي. أمَّا أنا، فلم ألاحظ ذلك.

ـ هناك فتيات على هذا النحو: تحسب أنَّهنَّ يكذبن عليك، ثم تتبيَّن أنَّهنَّ عذراوات حقًّا.

فقال بينيت مقهقهًا: ـ هكذا إذن؟

ـ هذا يحدث.

ـ ماذا تقول! حتى ولو أقررت ذلك، فسيكون اتّفاقًا عجيبًا أن يحدث هذا لي بالذات.

فابتسم ماتيو من غير أن يُجيب؛ وهزَّ بينيت رأسه في الخلاء.

ـ ثم اسمعْ، إنّني لم أغتصبها. حين تكون الفتاة رصينة، فهي تجعلك تجهد كثيرًا حتى تصل إليها. خذ مثلاً زوجتي: لقد كنّا كلانا نموت رغبة، ولكن لم يحدث شيء قطّ قبل ليلة العرس.

وشقّ الهواء بيد قاطعة:

ـ لا تخلط الأمور: فهذه الفتاة، كان يتأكَّلها حيث أفكِّر، وأعتقد جيّدًا أنّني أنا أدَّيت لها خدمة.

ـ وإذا جعلتها تحمل؟

فقال بينيت دهشًا: ـ أنا؟ آه، لا، لا! إنَّك لا تعرفني. فأنا النكّاح النظاميّ. لم تكن زوجتي تريد أولادًا لأنَّنا كنَّا فقيريْن أكثر ممّا ينبغي، فتعوَّدت أن أراقب نفسي. لا، لا. لقد حصلتْ على لذّتها، وأنا كذلك: فنحن سواء.

قال ماتيو: ـ إذا كانت هذه هي المرَّة الأولى حقًّا، فسيكون أمرًا نادرًا جدًّا أن تكون قد حصلت على لذّة.

قال بجفاء: ـ طز! إنَّها في هذه الحالة هي المخطئة.

وصمتا. وبعد لحظة، رفع ماتيو رأسه وبحث عن عينيْ بينيت في الظلام.

ـ أصحيح أنَّهم سيقاتلون؟

ـ صحيح.

ـ في القرية؟

ـ وأين تريد أن يقاتلوا؟

فانقبض قلب ماتيو، ثم فكَّر فجأة في لونجان متقيِّئًا تحت شجرته، وفي غيكيولي متمرِّغًا على الأرض الخشبيّة، وفي لوبيرون الذي كان ينظر إلى روبيرفيل تحترق فيصيح: «إنَّه السلام»؛ وضحك من فرط الغضب.

ـ لماذا تضحك؟

قال ماتيو: ـ بسبب الرفاق. سيواجهون مفاجأة طريفة.

ـ صحيح؟

ـ هل يريدك الملازم؟

ـ إذا كان معي بندقيّة. قال لي: تعال إذا كانت معك بندقيّة.

ـ وهل أنت مصمِّم تمامًا؟

فضحك بينيت ضحكة متوحِّشة. وبدأ ماتيو يقول:

ـ هناك...

فالتفت بينيت فجأة إليه:

ـ إنّني بالغ سنّ الرشد. فلستُ بحاجة إلى نصيحة.

قال ماتيو: ـ حسنًا. إذن، لنرجع.

فقال بينيت: ـ لا، بل تقدَّم.

فتقدَّما بضع خطى، وقال بينيت بغتةً:

ـ اقفزْ في الحفرة.

ـ كيف؟

ـ هيّا.. اقفز!

وقفزا، وتسلَّقا الكثيب، فألفيا نفسهما وسط القمح، وقال بينيت موضِّحًا:

ـ إلى اليسار، هناك ممرٌّ يفضي إلى القرية.

وتعثَّر ماتيو، فسقط على ركبته، وقال:

ـ يلعن دين! أيّة حماقة تجعلني أرتكبها؟

فأجاب بينيت: ـ إنّني لا أطيق أن أراها بعد.

وسمعا صوت امرأة آتيًا من الطريق:

ـ هنري! هنري!

قال بينيت: ـ كم هي لصقة ملحاح!

ـ هنري! لا تتركني!

وجذب بينيت ماتيو من ذراعه، فانبطحا بين القمح؛ وكان صوت موظَّفة البريد يُسمع وهي تعدو في الطريق؛ وتطايرت حزمة سنابل على وجه ماتيو، وفرّ حيوان من بين يديه.

ـ هنري! لا تتركني، افعلْ ما تشاء، ولكن لا تتركني. عد إليّ. هنري، لن أقول شيئًا، أعدك بذلك، ولكن عُدْ، ولا تتركني هكذا! هنري ـ ي ـ ي ـ ي! لا تتركني من غير أن تقبِّلني.

ومرّت الفتاة بقربهما، لاهثة. وهمس بينيت:

ـ من حسن الحظّ، أنَّ القمر لم يظهر بعد.

وكان ماتيو يتنسَّم رائحة أرض قويّة؛ الأرض رطبة ورخوة تحت يديه؛ كان يسمع نَفَس بينيت الأبحّ ويفكّر: «سوف يقاتلون في القرية». وصاحت الفتاة مرَّتين أخريين بصوت مبحوح من القلق، وفجأة ارتدَّت على أعقابها وأخذت تعدو باتّجاه معاكس.

قال ماتيو: ـ إنَّها تحبّك.

فأجاب بينيت: ـ طز فيها!

ونهضا. فرأى ماتيو، إلى الشمال الشرقي، فوق السنابل تمامًا، الكرة الناريّة التي كانت تنوس. «إذا سقط للألمان قتيل واحد، أحرقوا كلّ شيء».

وسأله بينيت في تحدٍّ:

ـ وإذن؟ أتراك لن تؤاسيها؟

قال ماتيو: ـ إنَّها تزعجني. ومهما يكن، فإنَّ حكايات الفرج لا تثير حماستي اليوم. ولكنَّك قد أخطأت في مضاجعتها، إذا كان قصدك أن تتركها بعد ذلك.

قال بينيت: ـ آه، خراء! الإنسان معك دائمًا على خطأ.

قال ماتيو: ـ هذا هو الممرّ.

ومشيا لحظة. وقال بينيت:

ـ القمر!

فرفع ماتيو رأسه، ورأى نارًا أخرى في الأفق: كان ذلك حريقًا فضِّيًا.

قال بينيت: ـ سنكون لهم كرتونًا سهلاً!

قال ماتيو: ـ على أيِّ حال، لا أعتقد أنَّهم سيأتون قبل صباح الغد.

وأضاف بعد لحظة، من غير أن ينظر إلى بينيت:

ـ ستعرِّضون أنفسكم حتى يقتلوكم عن آخركم.

قال بينيت بصوت أبحّ:

ـ إنَّها الحرب.

قال ماتيو: ـ الحقيقة أن لا. الحقيقة أنَّها ليست الحرب «بعد».

ـ لم أتوقَّع الهدنة.

وأخذ ماتيو يد بينيت فشدّها قليلاً بين أصابعه، كانت مثلّجة.

ـ هل أنت متأكِّد بأنّك راغب في أن تُقتل؟

ـ لست راغبًا في أن أُقتل، وإنّما أنا راغب في قتل ألمانيّ..

ـ الأمران مرتبطان.

وخلَّص بينيت يده من غير أن يُجيب. وأراد ماتيو أن يتكلَّم، وكان يفكِّر.

«إنَّه يموت من أجل لا شيء»، وكان هذا يخنقه. ولكنَّه أُصيب فجأة بالبرد، فصمت: «بأيِّ حقٍّ أمنعه من ذلك؟ وماذا لديّ لأهبه إيّاه؟» والتفت إلى بينيت ونظر إليه وصفَّر بهدوء: كان بينيت غير قابل للإدراك؛ كان يمشي أعمى في ليله الأخير؛ يمشي، ولكنَّه لم يكن يتقدَّم: كان قد وصل؛ وكان موته ومولده قد اتّصلا، كان يمشي تحت القمر، وكانت

الشمس القادمة قد بدأت تُضيء جروحه. لقد كفَّ عن أن يجري وراء نفسه، فقد كان حاضرًا كلّه في ذاته، بينيت برمَّته، كثيفًا ومغلقًا. تنهّد ماتيو وأخذ له ذراعه في صمت، أخذ ذراع موظَّف شابّ في المترو، نبيل وعذب وشجاع ورقيق كان قد قُتل يوم ١٨ حزيران ١٩٤٠. وبسم له؛ ومن أعماق الماضي، بسم له بينيت؛ ورأى ماتيو البسمة وأحسّ بأنَّه وحيد تمامًا. ينبغي لتحطيم هذه القشرة التي تفصله عنّي ألَّا أريد بعدُ مستقبلاً آخر غير مستقبله، ولا شمسًا أخرى غير التي سيراها غدًا للمرَّة الأخيرة؛ ولكي أعيش الدقائق نفسها، في الوقت نفسه، يجب أن أريد أن أموت الميتة نفسها. وقال بهدوء:

ـ الحقيقة، أنّ عليّ أنا أن أذهب للقتال بدلاً منك. لأنّني أنا، لا أملك بعدُ أسبابًا للحياة كما تملك.

فنظر إليه بينيت في فرحٍ؛ وكانا قد عادا فأصبحا تقريبًا متعاصرين:

ـ أنت؟

ـ لقد خدعت نفسي منذ البدء.

قال بينيت: ـ حسنًا، ليس لك إلَّا أن تأتي. إنّنا نمحو كلّ شيء ونبدأ من جديد.

فابتسم ماتيو، وقال:

ـ نمحو كلّ شيء، ولكنّنا لا نبدأ من جديد.

فوضع بينيت يده حول عنقه، وقال في شغف:

ـ دولارو، يا صديقي الصغير، تعال معي، تعال. إنَّه ليسرّني، لو تعلم، أن نكون معًا نحن الإثنين: فأنا لا أعرف الآخرين.

وتردَّد ماتيو: أن يموت، فيدخل في خلود هذه الحياة التي سبق لها أن ماتت. . . أن يموتا معًا. . وهزّ رأسه.

ـ لا.

ـ ماذا، لا؟

ـ لا أريد.

ـ هل أنت خائف؟

ـ لا، بل أجد ذلك سخيفًا.

أن يشقَّ يده بضربة سكّين، أن يقذف خاتم الزواج، أن يطلق النار على الألمان: ثم ماذا بعد ذلك؟ التحطيم والتخريب: ليس ذلك بالحلّ؛ وضربة عناد، ليس هذا هو الحرّيّة. ليتني فقط أستطيع أن أكون «متواضعًا». وسأل بينيت مغتاظًا:

ـ ولماذا تراه سخيفًا؟ أريد أن أقتل ألمانيًّا، ليس في ذلك أيّ سخف.

ـ بوسعك أن تقتل مئة، فإنَّ الحرب ستكون خاسرة مع ذلك.

فقهقه بينيت:

ـ سأنقذ الشرف!

في نظر من؟

وكان بينيت يسير خافض الرأس، من غير أن يجيب. وقال ماتيو:

ـ وحتى لو نصبوا لك تمثالاً، حتى ولو نثروا رمادك تحت «قوس النصر». أيستحقّ ذلك تعريض قرية برمّتها للحرق؟

قال بينيت: ـ لتحترق، فهذه هي الحرب.

ـ هناك نساء وأطفال.

ـ ليس عليهم إلَّا أن يلتجئوا إلى الحقول. آه (وأضاف بهيئة بلهاء) يجب أن تنفجر الفرقعات!

ووضع ماتيو يده على كتفه:

ـ أإلى هذا الحدّ تحبّها إذن، زوجتك؟

ـ ما دخلها في هذا؟

فسأله ماتيو: ـ أمن أجلها تريد تعريض نفسك للموت؟

فصاح بينيت: ـ إنّك تُضحكني! لقد مللت تفسيراتك. إذا كان هذا هو كلّ ما تنتجه الثقافة، فسوف أتعزّى من أنّني لا أملكها.

وكانا قد بلغا بيوت القرية الأولى، وبغتة، أخذ ماتيو يصيح هو أيضًا:

ـ كفى! كفى! كفى!

وتوقَّف بينيت لينظر إليه:

ـ ماذا دهاك؟

فقال ماتيو مشدوهًا:

ـ لا شيء. إنّني أصبح مجنونًا.

فهزّ بينيت كتفيه، وقال:

ـ يجب أن أدخل إلى المدرسة. إنّ البنادق موجودة في غرفة الدرس.

وكان الباب مفتوحًا: فدخلا. وكان ثمّة جنود ينامون على بلاط الرواق. أخرج بينيت مصباح جيبه، فارتسمت على الجدار دائرة مضيئة.

ـ هنا.

وكان ثمّة ركام من البنادق، فأخذ بينيت إحداها، وتفحَّصها طويلاً على ضوء مصباحه، ثم وضعها وأخذ غيرها وفحصها بعناية. وكان ماتيو يستشعر الخجل لكونه قد صرخ: يجب أن ينتظر المرء وأن يحتفظ بذهنه صافيًا. أن يحتفظ بنفسه لفرصة مناسبة. إنَّ ضروب العناد لا تيسِّر أمرًا. وبَسَم لبينيت:

ـ يبدو عليك وكأنّك تختار سيكارًا.

وأخذ بينيت السلاح فوضعه راضيًا على كتفه:

ـ إنّي آخذها. هيّا بنا.

قال ماتيو: ـ أعطني مصباحك.

وأمرّ نور المصباح على البنادق: كانت تبدو ضجرة، إداريّة، كأنَّها آلات كاتبة. وقد كان صعبًا أن يفكِّر المرء أنَّ بوسعه أن يقتل بمثل هذه الأدوات. وانحنى فتناول إحداها بلا تمييز.

وسأله بينيت مندهشًا:

ـ ماذا تفعل؟

قال ماتيو: ـ كما ترى: إنَّني آخذ بندقيّة.

قالت المرأة، وهي تصفق الباب في وجهه: ـ لا.

وظلَّ على الدرج، مسترخي الذراعين، على تلك الهيئة المظلومة التي يتّخذها حين لا يستطيع بعدُ أن يخيف، وتمتم «أيّتها الساحرة العجوز» بصوت مرتفع بما فيه الكفاية حتى أسمعه، ومنخفض بما فيه الكفاية حتى لا تسمعه؛ كلّا، كلّا، يا عزيزي المسكين جاك: كلّ شيء ما عدا «ساحرة عجوز». اخفضْ الآن، اخفضْ عينيك الزرقاوين، وانظر ما بين قدميك: إنَّ العدالة، لعبتك الرجاليّة الجميلة، هي مهشَّمة، عُد إلى السيّارة «بخطوتك» الأليمة إلى أبعد حدّ، أنا أعرف: إنَّ الإلٰه الرحيم مدين لك بحساب، ولكنَّكما ستسوِّيان الأمر يوم الحساب (وعاد إلى السيّارة «بخطوته» الأليمة إلى أبعد حدّ). أمَّا بشأن «ساحرة عجوز» فلا؛ كان بوسعه أن يجد شيئًا آخر، أن يقول «جلد قديم، حطام قديم، شيء قديم، ولكن لا «ساحرة عجوز» إنّك تحسدينه على لغته العامِّيّة؛ كلّا، ما كان ليقول شيئًا، كان الناس ليفتحوا لنا أبوابهم على سعتها، وليعطونا سريرهم وأغطيتهم وقمصانهم، وكان ليجلس على حافّة السرير، فيضع باطن يده الكبيرة على الغطاء الأحمر، وكان ليقول في احمرار: «أوديت، إنَّهم يظنّوننا زوجًا وامرأة» وما كنت لأقول شيئًا، وكان ليقول: «سأنام على الأرض الخشبيّة» وكنت لأقول: «ولكن لا، لا بأس، إنَّها ليلة وتنقضي بسرعة، فلننم في السرير نفسه؛ تعال يا جاك، تعال، فأغلق عينيَّ، واسحقْ فكري، اشغلْني، كن ثقيلاً، متطلِّبًا، مستأثرًا، لا تتركني

وحدي معه»؛ وأتى، فهبط الدرج، شفّافًا، متوقّعًا جدًّا حتى ليشبه ذكرى، سوف تنشقّ وأنت ترفع حاجبك الأيمن، وستطبّل على الغطاء، وستنظر إليّ بعمق، وقام بنشقته، وبرفع حاجبه، وبنظرته العميقة المفكِّرة، وكان هنا، منحنيًا فوقها؛ كان يطفو في هذا الليل الضخم القاسي الذي كانت تداعبه بأطراف أصابعها، يطفو، بلا كثافة، عاديًا وعتيقًا، فأرى عبره المزرعة المظلمة الكثيفة، والطريق، والكلب الذي يروح ويجيء، كلّ شيء جديد، كلّ شيء ما عداه، إنَّه ليس زوجًا، بل فكرة عامّة؛ أناديه، ولكنَّه لا يساعد. وبسمت له، لأنَّه ينبغي دائمًا أن تبسم لهم، ومنحته الهدوء وعذوبة الطبيعة، تفاؤل المرأة السعيدة الواثق؛ وكانت من تحت تذوب في الليل، تذوب في هذا الليل النسائيّ الكبير الذي كان يخفي ماتيو في مكان ما من قلبه؛ ولم يبتسم، وحكَّ أنفه، تلك حركة استعارها من أخيه، وانتفضت: ولكن بمَ تراني قد فكَّرت، إنّني أنام واقفة، فلست بعدُ هذه المرأة العجوز الوقحة، لقد حلمت، واستغرق الكلام في ليل حلقها، ونُسي كلّ شيء، ولم يكن باقيًا على السطح إلَّا عموميّتهما المزدوجة الهادئة. وسألت بمرح:

ـ وإذن؟

ـ غير وارد، يدَّعون أنْ ليس عندهم عنبر. ولكنّي أراه، أنا، عنبرهم. إنَّه في أقصى الحديقة. ليست لي مع ذلك هيئة لصّ يجوب الطرقات.

قالت: ـ اسمعْ، لا شكّ في أنَّنا لا نبدو في حالة لامعة، بعد أربع عشرة ساعة من السير.

فنظر إليها بمزيد من التنبُّه، فأحسَّت أنَّ أنفها، تحت النظر، يبرق كأنَّه منارة؛ سيقول لي إنَّ أنفي يبرق، وقال:

ـ إنَّ تحت عينيكِ جيوبًا، يا عزيزتي المسكينة، فلا بدّ أنَّكِ مرهقة.

فأخرجت بحيويّة علبة البودرة من حقيبتها، ونظرت في المرآة

بقسوة؛ إنّني أُخيف: لقد كان وجهها، تحت ضوء القمر، يبدو مرخَّمًا بلطخات سود؛ قد تكون البشاعة محتملة، ولكنّي أستفظع القذارة.

وسأل جاك في تبرّم:

ـ ما عسانا نفعل؟

وكانت قد سحبت ممسحتها، فجعلت تمرِّرها على وجنتيها وتحت عينيها، وقالت:

ـ ما تشاء.

ـ إنّني أستشيرك.

وكان قد التقط اليد التي تمسك بالممسحة فجمَّدها بسلطة باسمة. إنّني أستشيرك، أستشيرك هذه المرَّة؛ كلّما استشرتك، يا صديقي العزيز، أنت تعلم جيّدًا أنّك لن تتّبع رأيي. ولكنَّه كان بحاجة إلى نقد أفكار الآخرين، ليعي أفكاره. وقالت كيفما تأتّى لها:

ـ لنتابع، فربّما وجدنا أناسًا ألطف.

ـ لا، شكرًا! إنَّ التجربة تكفيني. ها! (وأضاف بقوَّة) إنّني أحتقر الفلّاحين!

ـ أتريد أن نظلّ سائرين طوال الليل بالسيّارة؟

وفتح عينيه على سعتهما:

ـ طوال الليل؟

ـ سنكون صباح الغد في غرنوبل، فيكون بوسعنا أن نرتاح لدى أسرة «بليريو»، ثم نستأنف بعد الظهر لننام في كاستيلان: وسنصل إلى «جوان» بعد الظهر.

ـ إنَّكِ لا تقدِّرين هذا!

واتّخذ هيئته الرصينة ليضيف:

ـ إنّني متعبٌ جدًّا، وسوف أنام وراء المقود ونستيقظ في الحفرة.

ـ أستطيع أن أحلَّ محلّك.

ـ يا حبيبتي، ضعي دائمًا في رأسك فكرة أنّي لن أدعك أبدًا تسوقين في الليل. فستكون العمليّة، بسبب نظرك الحسير، عمليّة قتل. إنَّ الطرقات مزدحمة بالعربات والشاحنات والسيّارات: أشخاص لم يمسُّوا المقود في حياتهم، وقد انطلقوا مع ذلك يخبطون خبط عشواء، بدافع الذعر. كلّا، كلّا، إنَّنا بحاجة إلى أعصاب رجل.

وانفتحت مصاريع، فبرز رأس على نافذة، وقال صوت خشن:

أترانا نستطيع أن ننام بهدوء؟ إذهبا فتحدَّثا بعيدًا! يلعن دين..

فقال جاك بسخرية صافعة:

ـ شكرًا كثيرًا يا سيِّدي، إنَّك مؤدَّب جدًّا ومضياف!

وغرق في السيّارة، فصفق الباب وأقلع بوحشيّة، ونظرت إليه أوديت بطرف عينها: كان الأفضل أن تصمت؛ إنَّه يسير بسرعة ثمانين على الأقلّ، مطفئًا كلّ أنواره لأنَّه كان يخشى الطائرات؛ ومن حسن الحظّ، أنّ القمر بدر. وانقذفت إلى الباب:

ـ ماذا تفعل؟

كان قد حاد بالسيّارة، من غير أن يخفِّف السير، إلى طريق معترضة. وسار فترة أخرى، ثم توقَّف فجأة. فصفّ السيّارة في آخر الطريق، تحت باقة من الشجر.

ـ سننام هنا.

ـ هنا؟

وفتح الباب، فهبط من غير أن يجيب، فانسلَّت خلفه، وكان الهواء رطبًا تقريبًا.

ـ أتريد أن ننام خارجًا؟

ـ كلّا.

فنظرت بأسف إلى العشب الأسود الرقيق، وانحنت فجسَّته كما تجسُّ الماء.

ـ أوه! جاك! سنكون في وضع مريح؛ وبوسعنا أن نُخرج الأغطية مع وسادة.

فردَّد: ـ كلّا (وأضاف بحزم) سننام في السيّارة، فنحن لا نعرف من يمرُّ على الطرقات في هذه اللحظة.

وكانت تنظر إليه يذرع الطريق جيئة وذهابًا، يداه في جيبه، وخطواته فتيّة راقصة؛ فأيُّ شيطان يغنّي في الأشجار، فيضطرّ جاك إلى القفز والرقص على الإيقاع. وأدار نحوها سحنة مهمومة شائخة، ذات عينين هاربتين: هناك أمرٌ ذو بال؛ لكأنَّه كان يشعر بالعار؛ وعاد إلى السيّارة، وكانت نضارة الآلة السحريّة وانطلاقها قد ذابا فيه، وسالا حتى قدميه يستخفّانه بجذل. كان يكره النوم في السيّارة. فمن تراه يعاقب؟ أيعاقب نفسه، أم يعاقبني؟ وكانت تحسّ نفسها مذنبة، من غير أن تعرف الذنب. وسألها:

ـ لماذا تبدين متجهّمة هكذا؟ ها نحن على دروب المغامرة الكبيرة: فينبغي أن تكوني مسرورة.

فخفضت عينيها: لم أكن أريد الرحيل، يا جاك. إنّني أسخر بالألمان، وكنت أريد أن أبقى في بيتي؛ فإذا استمرَّت الحرب، قُطعنا عنه، بل لن نعرف إن كان قد قُتل. وقالت:

أفكِّر في أخي وفي ماتيو.

قال جاك في بسمة مريرة:

ـ إنَّ راوول في هذه اللحظة، موجود في كاراكاس، في سريره.

ـ وليس ماتيو...

فأجاب جاك: ـ أذكري جيّدًا أنَّ أخي قد عُيِّن في الخدمات الفرعيّة. وهو بهذا لا يجابه أيّ خطر. كلّ ما في الأمر أنَّه قد يكون

أسيرًا. أنتِ تتصوَّرين أنَّ جميع الجنود أبطال. ولكن لا، يا عزيزتي المسكينة: إنَّ ماتيو كاتب بسيط في أركان حرب غير محدَّد، فهو لا يقلّ اطمئنانًا عمّا إذا كان في المؤخِّرة؛ بل لعلَّه أكثر اطمئنانًا منّا في هذه اللحظة. وهم يسمُّون هذا «مخبأ» في لغتهم الخاصَّة. والحقّ، أنّي أُهنِّئ نفسي من أجله.

فقالت أوديت من غير أن ترفع عينيها:

ـ ليس طريفًا أن يكون المرء أسيرًا.

فتأمَّلها برصانة.

ـ لا تقوّليني ما لم أقله! إنَّ مصير ماتيو يُحدث لي قلقًا كبيرًا.

ولكنَّه شخص صلب، يعرف أن يتدبَّر أمره بشطارة. بلى، بلى، شاطر أكثر ممّا تظنِّين، بالرّغم من منظره الشارد، وأنا أعرفه خيرًا ممّا تعرفينه. إنَّ في تردُّداته السرمديّة عمقًا وصلابة، وهو صاحب شخصيّة. وسوف يتدبَّر أمره هناك لإيجاد الوضع المناسب: إنَّني أتمثَّله ناجحًا في أن يكون سكرتيرًا لضابط ألمانيّ، أو طبَّاخًا... إنَّ هذا يناسبه كما يناسب القفّاز يدًا! (وابتسم وردَّد بتلذُّذ): طبّاخ. أجل. طبّاخ. كالقفّاز! (وأضاف في مسارّة) إذا أردتِ أن تعرفي، فإنّي أعتقد أنَّ الأسر سيثقل رأسه ويزيل شروده، فيعود إلينا رجلاً آخر.

فسألت أوديت، منقبضة الحلق:

ـ وكم يدوم الأسر؟

ـ كيف تريدينني أن أعرف ذلك؟

وهزَّ رأسه، وقال:

ـ إنَّ ما يمكنني أن أقوله لك هو أنّي لا أرى أنَّ الحرب يمكن أن تدوم وقتًا طويلاً. إنّ الهدف التالي للجيش الألماني هو إنكلترا... و«الشانيل» ضيّق جدًّا...

قالت أوديت: ـ سيدافع الإنكليز عن أنفسهم.

ـ بكلِّ تأكيد.. بكلِّ تأكيد (وباعد بين ذراعيه في إرهاق) وأنا لا أدري إن كان علينا أن نتمنّى ذلك!

ماذا ينبغي أن نتمنَّى؟ ماذا ينبغي أن أتمنّى؟ كان الأمر في البدء يبدو بسيطًا: كانت قد ظنَّت أنَّها ينبغي أن تتمنّى النصر، كما في عام الـ ١٤. ولكن لم يكن ثمّة من يبدو عليه أنّه يشتهيه. لقد ابتسمت في جذل، كما رأت أمّها تبتسم، ساعة هجوم «نيفل»، وردَّدت بقوّة: «أجل! سننتصر، ويجب أن نقول بيننا إنّنا «لا يمكن» إلَّا أن ننتصر». وكان ذلك يوحي لها بالاشمئزاز من نفسها، لأنَّها كانت تحتقر الحرب حتى ولو في النصر. ولكنَّ الناس كانوا يهزُّون رؤوسهم من غير أن يجيبوا، كما لو أنَّها كانت تعوزها البصيرة. فلزمت إذ ذّاك الصمت، وحاولت أن تجعل الجميع ينسونها؛ كانت تسمعهم يتحدَّثون عن ألمانيا، وعن إنكلترا، وعن روسيا، فلم تكن تدرك حتى ما يريدونه؛ وكانت تفكِّر: «لو كان هنا، لشرح لي». ولكنَّه لم يكن هنا، بل هو لم يكن حتى ليكتب: فطوال تسعة أشهر، أرسل رسالتين لجاك. ما هو رأيه؟ لا بدَّ أنَّه يعرف، لا بدَّ أنَّه يدرك. وإذا لم يكن يدرك؟ إذا لم يكن ثمّة أحد يدرك؟ ورفعت رأسها فجأة: كانت تودّ لو تجد لدى جاك تلك الهيئة من الوثوق القرير الذي كان ما يزال يطمئنها أحيانًا، كانت تودّ لو تقرأ في نظره أنَّ كلّ شيء على ما يرام، وأنَّ الناس كانوا يملكون أسبابًا للأمل كانت تغيب عنها. أمل في أيِّ شيء؟ أصحيح أنَّ أنتصار الحلفاء لا يمكن أن يفيد غير روسيا؟ كانت تسأل هذا الوجه المألوف أكثر ممّا ينبغي، وفجأة بدا لها وجهًا جديدًا: لقد رأت عينين مسودّتين بالقلق؛ وكان قد بقي بعض العبوس عند زاويتي الشفتين، ولكنَّ ذلك كان غطرسة متجهّمة لصبيٍّ اكتُشفت غلطته. «إنَّه يشكو شيئًا؛ فهو غير مطمئنّ». والواقع أنَّه كان يتصرَّف بغرابة، منذ تركا باريس، فيبدو تارة أعنف ممّا ينبغي، وطورًا أرقّ ممّا ينبغي. إنَّه لمريع أن يبدو الرجال وكأنَّهم يُحسّون بأنَّهم مذنبون. وقال:

ـ إنّني أموت رغبة في التدخين.

ـ أليس معك سجاير بعد؟

ـ لا.

قالت: ـ خذ، بقي معي أربع منها.

وكانت سجاير «دوريزك».. فمطّ شفتيه، وتناول إحداها متحدِّيًا، وقال وهو يضع العلبة في جيبه:

ـ إنَّها من القشّ!

ولأوَّل نفثة نفثها، شمّت أوديت رائحة التبغ، وجفَّفت حلقها رغبةٌ في التدخين. لمدّة طويلة، وبالرّغم من أنَّها كفَّت عن أن تحبّه، كان يروق لها أن تستشعر العطش حين كان يشرب بقربها، والجوع بينما يأكل، وأن تنعس إذ تنظر إليه نائمًا. كان ذلك يطمئنها: لقد كان يأخذ منها رغباتها، فيطهِّرها، ويُشبعها لها، على نحو أكثر رجولة وأخلاقيّة وحسمًا. أمّا الآن..

وقالت بضحكة خفيفة:

ـ أعطني منها واحدة على الأقلّ.

فنظر إليها من غير أن يفهم، ثم رفع حاجبيه.

أوه! عفوًا، يا عزيزتي المسكينة: لقد كانت منّي حركة آليّة.

وأخرج العلبة من جيبه، فقالت:

ـ تستطيع أن تحتفظ بالعلبة، ولكن أعطني منها واحدة.

ودخّنا في صمت، وكانت خائفة من نفسها؛ تتذكَّر الرغبات العنيفة والتي لا تُقاوم التي كانت تزرع فيها الاضطراب إذ كانت فتاة. ربّما كانت ستعاودها الآن. وسعل مرَّتين أو ثلاثًا ليصفِّي صوته: إنَّه يريد أن يحدِّثني، ولكنَّه يتباطأ كالعادة. كانت تدخِّن بصبر: إنَّه سيدخل موضوعه من جانب، كالعقارب. وكان قد استقام، فألّف ملامح وجهه ونظر إليها في قسوة، وقال:

ـ هكذا، يا عزيزتي المسكينة أوديت!

فبسمت له بإبهام، لمجرَّد ما سيقول. ووضع يده على كتفها:

ـ يجب أن تقرِّي الآن أنَّها مغامرة شاقَّة.

قالت: ـ نعم. نعم. إنَّها كذلك.

وظلّ ينظر إليها. وأطفأ سيجارته على عتبة السيّارة، وسحقها تحت قدمه؛ واقترب منها، وقال لها بقوَّة، كأنَّما ليقنعها:

ـ ولكنَّنا لا نواجه أيّ خطر.

فلم تجب، وتابع بصوت ملحٍّ ورقيق:

ـ إنّني على ثقة من أنّ الألمان سيتصرَّفون جيّدًا، سيحرصون على أن يتصرَّفوا تصرُّفًا جيّدًا.

وكان هذا هو ما فكَّرتْ به دائمًا. ولكنَّها قرأت في عينيْ جاك الجواب الذي كان ينتظره منها، فقالت:

ـ من يدري؟ وإذا أغرقوا باريس بالخراب؟

فهزّ كتفيه:

ـ ولكن كيف تظنِّين ذلك؟ الحقّ أنَّ هذه أفكار نسويّة!

وانحنى عليها، وأوضح لها بصبر:

ـ اسمعي يا أوديت، وحاولي أَن تفهمي: لا شكَّ في أنَّ برلين ستكون لديها الرغبة، بعد الهدنة مباشرة، أن تجعل فرنسا ممثّلة في عداد أعضاء «المحور»؛ بل ربّما كانوا يعتمدون هناك على نفوذنا في أميركا ليُبقوا الولايات المتّحدة خارج الحرب. هل تتابعينني جيّدًا؟ وبكلمة واحدة، إنَّ لنا مزايا كثيرة، حتى ولو هُزمنا. (وأضاف بضحكة صغيرة) بل سيكون هناك دور هامّ يلعبه رجالنا السياسيُّون إذا أحسُّوا أنَّهم قادرون على ذلك. حسنًا. في مثل هذه الشروط، لا يمكن حتى أن نتخيّل الألمان وهم يوشكون أن يثيروا عليهم الرأي العامّ الفرنسيّ بارتكاب أعمال عنف غير مجدية.

فقالت منزعجة: ـ هذا رأيي بالذات.

ـ آه!

وكان ينظر إليها وهو يعضّ شفته؛ وكان يبدو من شدَّة الحيرة بحيث أسرعت تضيف:

ـ ولكن مع ذلك، كيف لنا أن نتأكَّد؟ إفرض أنَّهم أطلقوا عليهم النار من النوافذ؟

فالتمعت عينا جاك:

ـ لو كان ثمّة من خطر، لبقيت. فإنَّما صمّمت على الذهاب لأنِّي كنت متأكِّدًا من أنّه لم يكن هناك خطر.

وكانت تتمثَّله يدخل الصالون في هدوء كبير مستطار، وتسمعه مرَّة أخرى يقول بأوضح صوت يملكه، وهو يشعل سيجارة بيد ترتجف: «أوديت، احْزمي أمتعتك، فالسيّارة تحت، وسنرحل بعد ثلاثين دقيقة». فما الذي يقصده؟ وندّت منه ضحكة سيِّئة؛ وقال في هيئة من يختتم الحديث:

ـ على كلّ حال، هذا ما يسمّى «ترك المركز».

ـ ولكن لم يكن لك مركز؟

قال: ـ بلى كنت قائد حاملة طائرات: (ودفع براحته اعتراضًا ممكنًا) أعرف أنَّ هذا مضحك؛ وأنا لم أقبل إلَّا على إلحاح شامبوتوا. ولكن، حتى هناك، كان يمكنني أن أقدِّم خدمة. ثم إنَّه كان علينا أن نكون قدوة.

وكانت تنظر إليه بلا ودّ: نعم، نعم، «نعم» كان عليك أن تبقى في باريس، فلا تعتمد عليّ لأقول لك العكس. وتنهَّد:

ـ مهما يكن. ما حصل قد حصل. كان الأمر يكون مريحًا أكثر ممّا ينبغي لو لم يكن لدينا إلَّا واجبات متوافقة. (وأضاف) إنّني أضجرك يا عزيزتي المسكينة! فهذه وساوس رجاليّة.

قالت: ـ أحسب أنّي أستطيع أن أفهمها.

ـ طبعًا، يا صغيرتي، طبعًا (وبَسَم بسمة رجوليّة متوحِّدة، ثم أخذ معصمها وقال لها بصوت مطمئنّ)، ولكن لنفكِّر: ماذا كان عساه يحدث لي؟ في أسوأ الظروف كانوا ليأخذوا الرجال الأصحَّاء إلى ألمانيا، وبعد ذلك؟ إنَّ ماتيو هناك. صحيح أنَّه ليس له قلبي الملعون، ولكن تذكرين، حين سرّحني ذلك الماجور الأبله!

ـ نعم.

ـ لقد كنت أُجَنّ من الغضب، وكنت مستعدًّا أن أفعل أيَّ شيء: أتذكرين؟ أتذكرين كم كنت غاضبًا؟

ـ نعم.

وجلس على عتبة السيّارة، ووضع رأسه بين يديه؛ وكان ينظر أمامه باستقامة؛ وقال وعيناه ثابتتان:

ـ لقد بقي شرفوز.

ـ ماذا؟

ـ لقد بقي. التقيت به هذا الصباح في المرأب، وقد بدت عليه الدهشة أن أرحل.

فقالت بآليّة: ـ ولكنَّ الأمر معه يختلف.

قال في مرارة: ـ نعم، في الواقع. فهو عازب.

وكانت أوديت واقفة إلى يساره، تنظر إلى جلدة رأسه التي كانت تلمع، في أماكن، تحت شعره، وتفكِّر: هذا هو السبب إذن!

وكانت عيناه غائمتين. وقال بين أسنانه:

ـ لم يكن ثمّة من أستودعه إيّاكِ.

فتصلَّبت:

ـ ماذا؟

ـ أقول إنّي لم أكن أستطيع أن أستودعك أحدًا. ولو جرؤت على أن أدعك تذهبين وحدك إلى بيت عمّتك...

فسألته بصوت مرتجف:

ـ أتعني أنّك إنّما رحلت بسببي؟

فأجاب: ـ كانت هذه حالة ضميريّة.

وكان ينظر إليها بشغف:

ـ في هذه الأيّام الأخيرة، كنتِ ثائرة الأعصاب جدًّا. كنتِ تخيفينني.

وكانت بكماء من الذهول: ولكن لماذا يجب؟ لماذا يعتقد نفسه مضطرًّا؟

وكان يتابع بمرحٍ يثير الأعصاب:

ـ كنتِ تُبقين النوافذ مغلقة، وكنّا نعيش طوال النهار في الظلام. كنت تراكمين المعلّبات، وكنت أمشي على علب السردين... وأظنّ بعد ذلك أنَّ لوسيان كانت تُسيء إليكِ كثيرًا، وحين كانت تخرج من بيتنا، تتغيَّرين تمامًا: لقد كانت شديدة الذعر، وساذجة جدًّا أيضًا، وتميل إلى تصديق جميع قصص الاغتصاب والأيدي المقطوعة.

لا أريد. لا أريد أن أقول له ما يريد أن يحملني على قوله. فماذا يبقى لي في الدنيا إذا احتقرته؟ وتراجعت خطوة إلى الوراء، وكان يحدِّد فيها نظرًا فولاذيًّا، ويبدو وكأنَّه يقول: «قوليها، ولكن آن لكِ أن تقوليها»! ومن جديد كانت تشعر تحت هذا النظر النسريّ، هذا النظر الزوجيّ، بأنَّها مذنبة، ربّما ظنّ بأنَّه كانت لي رغبة في الرحيل، وربّما كنت أبدو خائفة، وربّما كنت خائفة من غير أن أدري. فما هو الصحيح؟ إنّ ما كان صحيحًا حتى الآن، هو ما كان يقوله جاك، فإذا كففت عن تصديقه، فماذا أصدِّق؟ وقالت وهي تخفض رأسها:

ـ ما كنت أحبّ أن أبقى في باريس.

فسألها بطيبة: ـ هل كنت خائفة؟

قالت: ـ نعم. كنت خائفة.

وحين رفعت رأسها، كان ينظر إليها وهو يضحك، وقال:

ـ كفى! كلّ هذا ليس خطيرًا: صحيح أنَّ قضاء ليلة تحت ضوء القمر لا يناسب عمرنا بعد، ولكنّا ما نزال نجد في ذلك بعض السحر. (وداعب رقبتها قليلاً) أتتذكرّين «هيار» عام ٣٦؟ ـ لقد نمنا تحت الخيمة، وهذه من ذكرياتي الجميلة.

فلم تجب، وكانت قد وضعت يدها على مقبض الباب تشدّه بكلّ قواها. وخنق تثاؤبة:

ـ ولكن أصبح الوقت متأخِّرًا. أتريدين أن ننام؟

فأومأت برأسها إيجابًا. وصاح حيوان ليليّ، فانفجر جاك ضاحكًا، وقال:

ـ إنَّ هذا ريفيّ! ادخلي إلى السيّارة (قالها بملاطفة) وتستطيعين أن تمدّي ساقيك قليلاً، أمّا أنا، فسأنام على المقود.

ودخلا السيّارة، وأقفل بالمفتاح الباب الأيمن، ودفع كلب الأيسر.

ـ هل أنتِ مرتاحة؟

ـ مرتاحة جدًّا.

وأخرج المسدَّس وتفحَّصه في متعة، وقال:

ـ هذا وضع كان يمكن أن يسحر جدِّي القرصان (وأضاف بمرح): إنّنا كلّنا في الأسرة لا نخلو من طبع القرصنة.

ولم تكن تقول شيئًا. التفت من مقعده، فأخذ بيده ذقنها:

ـ قبّليني يا حبيبتي.

وشعرت بفمه الحارّ المفتوح ينسحق على فمها، ولحس قليلاً شفتيها كما كان يفعل في السابق، فارتعشت، وفي الوقت نفسه أحسَّت يدًا تتسلَّل

تحت إبطها وتداعب نهدها، وقال بحنان:

ـ عزيزتي المسكينة أوديت، عزيزتي الصغيرة.

وارتمت إلى خلف، وقالت:

ـ إنّني أموت من النعاس.

قال باسمًا: ـ تصبحين على خير، يا حبيبتي.

وانفتل، فشبك ذراعيه على المقود وترك رأسه يسقط على يديه. وظلَّت هي جالسة، مستقيمة الصدر، منزعجة: كانت تترصّده. زفرتان، ليس هذا بعد. فهو ما يزال يتحرَّك. ولم تكنْ تستطيع أن تفكِّر بشيء ما دام ساهرًا وفي رأسه هذه الصورة عنها؛ «لم أكن أستطيع قطّ أن أفكِّر بشيء ما دام بالقرب منِّي». حسنًا: لقد أرسل أنّاته الثلاث؛ واسترخت قليلاً: فهو ليس بعد إلَّا حيوانًا. كان نائمًا، وكانت الحرب نائمة. وكان عالم البشر نائمًا، غارقًا في هذا الرأس، المستقيم في الظلام، بين النافذتين المغبرّتين، في جوف بحيرة قمريّة. كانت أوديت ساهرة، وعاود ذهنها انطباع قديم جدًّا، كنت أعدو على درب صغير ورديّ، وكنت في الثانية عشرة، فتوقَّفت وقلبي يخفق بفرحة قلقة، وقلت بصوت مرتفع: إنَّني لازمة ولا غنى عنِّي. وردّدت: إنَّني لازمة ولا غنى عنِّي، ولكنَّها لم تكن تعرف لأيِّ شيء؛ وحاولت أن تفكِّر في الحرب، وكان يُخيّل إليها أنَّها ستجد الحقيقة: «أصحيح أنَّ النصر لن يفيد إلَّا روسيا؟» وسرعان ما تركت، وانقلبت فرحتها إلى اشمئزاز: إنَّني لا أعرف من الأمر ما فيه الكفاية.

وأخذتها الرغبة في التدخين. ليست حقًّا رغبة، وإنّما هي عصبيّة. وانتفخت الرغبة وانتفخت، فملأت نهديها. رغبةٌ حاسمةٌ وفاتحةٌ، كما كان يحدث في زمن طفولتها المتغطرسة؛ لقد وضع العلبة في جيب سترته، لماذا تراه يدخِّن بعد؟ إنّ مذاق التبغ ذاك في فمه، لا بدَّ أن يكون مضجرًا جدًّا، اصطلاحيًّا جدًّا، فلماذا تراه يدخِّن ولا أدخِّن؟ وانحنت فوقه، وكان يتنفّس، فدسّت يدها في جيبه، وأخرجت السجاير، ثم فتحت

الباب على مهل وهي تردّ الكلب، وانسلّت إلى الخارج. إنّ القمر عبر الأوراق، وبحيرات القمر على الطريق، وهذه النسمة الرطبة، وصرخة ذلك الحيوان، كلّ هذا لي أنا. وأشعلت سيجارة. إنّ الحرب تنام، وبرلين تنام، وموسكو، وتشرشل، والمكتب السياسيّ، ورجالنا السياسيّين ينامون، كلّ شيء ينام، وليس ثمّة من يرى ليلي، إنّني لازمة ولا غنى عنّي، والمعلّبات كانت لجنودي الذين أهتمّ بهم في الحرب. ولاحظت فجأة أنَّها كانت تحتقر التبغ؛ وسحبت نَفَسين آخرين من سيجارتها ثم رمتها: إنَّها لم تكن لتعرف لماذا شاءت أن تدخِّن. وكان حفيف الشجر ينبعث بعذوبة، والريف يقضقض كالأرض الخشبيّة. وقد كانت النجوم حيوانات: وكانت هي خائفة، كان ينام، وكانت هي قد وجدت ثانية عالم طفولتها المظلم، غابة الأسئلة التي ليس لها أجوبة؛ كان هو الذي يعرف أسماء النجوم، والمسافة الدقيقة التي تفصل الأرض عن القمر، وعدد سكّان المنطقة، وتاريخهم وشواغلهم. هو ينام، وأنا أحتقره ولا أعرف شيئًا؛ وكانت تحسّ نفسها ضائعة في هذا العالم غير القابل للاستعمال، في هذا العالم الذي «يُرى ويُلمس». وهرعت إلى السيّارة، وكانت تودّ أن توقظه على الفور، أن توقظ «العلم» و«الصناعة» و«الأخلاق». ووضعت يدها على المقبض، وانحنت على الباب، فرأت عبر الزجاج فمًا كبيرًا فاغرًا. وقالت في نفسها: ما الفائدة؟ وجلست على العتبة، وأخذت ككلّ مساء، تفكِّر في ماتيو.

كان الملازم يرقى السلّم راكضًا، وكانوا يركضون ويدورون حوله، وتوقَّف في وضح الليل، فدفع برقبته باب سقف، فبهرهم ضوء فضِّيّ:

ـ اتبعوني.

فانبثقوا في السماء الباردة النيِّرة المليئة بالذكريات وبالأصوات الخفيفة.

وقال صوت:

ـ ما هذا؟

قال الملازم: ـ هذا أنا.

ـ انتبهوا!

قال: ـ استراحة.

وكانوا يجدون أنفسهم فوق سطح مربّع، في رأس برج الأجراس. وكانت أربعة أعمدة تسند السقف، لدى الزوايا الأربع. وبين الأعمدة كان يركض إفريز حجريّ بارتفاع متر تقريبًا. وكانت السماء في كلّ مكان. وكان القمر يعكس على الأرض الخشبيّة ظلّ عمود مائلاً.

قال الملازم:

ـ هل الأمور على ما يرام، هنا؟

ـ لا بأس، يا سيِّدي الملازم.

وكان ثلاثة أفراد يواجهونه: كانوا ثلاثتهم طوالاً هزالاً يحملون البنادق. وكان ماتيو وبينيت واقفيْن خلف الملازم، خائفيْن. وسأل أحد الجنود الثلاثة:

ـ هل نبقى هنا، يا سيِّدي الملازم؟

قال الملازم: ـ نعم (وأضاف) لقد أقمت «كلاسون» وأربعة أفراد في دار البلديّة، أمّا الباقون فيحتلُّون المدرسة معي، وسيقوم درايز بعمليّة الإتصال.

ـ وما هي الأوامر؟

ـ إطلاق النار كما تريدون. وباستطاعتكم تصفية الذخيرة.

ـ ما هذا؟

نداءات مخنوقة، وجرجرة أقدام: وكانت الأصوات صادرة عن الشارع. ابتسم الملازم:

ـ إنَّهم فاتنو أركان الحرب الذين حبستهم في قبو البلديّة. إنَّ المكان ضيِّق عليهم، ولكن ذلك سيكون لليل فحسب: فغدًا صباحًا، يتسلّمهم الألمان بعد أن يفرغوا منّا.

ونظر ماتيو إلى الجنود: كان يشعر بالعار من أجل الرفاق، ولكنّ الوجوه الثلاثة ظلّت جامدة. وقال الملازم:

ـ آه! في الساعة الحادية عشرة سيجتمع سكّان القرية في الساحة؛ فلا تطلقوا عليهم النار. إنّني أرسلهم ليقضوا الليل في الغابات. وبعد مرورهم، أطلقوا النار على كلّ من يعبر الطريق. ولا تهبطوا لأيّة ذريعة: فإذا فعلتم، أطلقنا نحن النار عليكم.

وتوجّه نحو باب السقف. وكان الجنود يحدِّجون ماتيو وبينيت في صمت.

قال ماتيو: ـ يا سيِّدي الملازم..

فالتفت الملازم، وقال:

ـ لقد نسيتكما. إنّ هذين يريدان أن يقاتلا (متوجِّهًا إلى الآخرين) إنَّ معهما بندقيّتين، وقد أعطيتهما جرابين للطلقات. فانظروا ما تفعلون بهما. فإذا أساءا إطلاق النار، فاستردُّوا منهما الجرابين.

ونظر إلى الجنود في صداقة:

ـ وداعًا أيُّها الرفاق، وداعًا.

فقالوا بأدب: ـ وداعًا يا سيِّدي الملازم.

وتردَّد لحظة وهو يهزّ رأسه، ثم هبط درجات السلّم الأولى متقهقرًا، وردّ دونه باب السقف. وكان الأفراد الثلاثة ينظرون إلى ماتيو وبينيت من غير فضول ولا ودّ. وقام ماتيو بخطوتين إلى الخلف، فاستند إلى عمود. وكانت بندقيّته تزعجه. كان أحيانًا يحملها في كثير من اللامبالاة، وأحيانًا أخرى يمسكها كشمعدان. وانتهى بأن أضجعها على الأرض في حيطة. ولحق به بينيت، وكان كلاهما يولي القمر ظهره. وعلى العكس، كان

الجنود الثلاثة في صميم النور؛ وكان الزبد الأسود نفسه يلطِّخ وجوههم الطبشوريّة، وكان لهم نظر واحد محدِّق يشبه نظر طيور الليل.

قال بينيت: ـ لكأنّنا في زيارة.

فابتسم ماتيو، ولم يبتسم الأفراد الثلاثة. واقترب بينيت من ماتيو، وهمس:

ـ لا يبدو أنَّهم يتقبّلوننا تقبُّلاً حسنًا.

قال ماتيو: ـ صحيح!

وسكتا منزعجيْن. ومال ماتيو، فرأى تحته تموّج أشجار الكستناء المعتم.

وقال بينيت:

ـ إنّني ذاهب للتحدُّث معهم.

ـ لا، إلزم هدوءك.

وكان بينيت قد تقدّم باتّجاه الجنود:

ـ إسمي بينيت. أمّا رفيقي، فهو دولارو.

وتوقَّف ينتظر. أومأ أكبرهم برأسه، ولكنَّهم لم يعرِّفوا أنفسهم.

وتنحنح بينيت، وقال:

ـ نحن هنا لنقاتل.

فظلُّوا على صمتهم، وكزّ الطويل الأشقر وصرف رأسه. تردَّد بينيت مرتبكًا:

ـ فأيّ عمل نعمله؟

وكان الطويل الأشقر قد ارتدَّ إلى الخلف يتثاءب. ورأى ماتيو أنَّه كان «عريفًا».

وكرَّر بينيت:

ـ أيّ عمل نعمله؟

ـ لا شيء.

ـ كيف، لا شيء؟

ـ لا شيء، الآن.

ـ وبعد ذلك؟

ـ سنبلِّغكما.

وابتسم ماتيو لهم:

ـ إنّنا نبعصكم، أليس كذلك؟ إنّكم تفضِّلون أن تكونوا وحدكم، ونظر إليه الأشقر الطويل بتفكُّر، ثم التفت إلى بينيت:

ـ ما مهنتك أنت؟

ـ موظَّف في المترو.

فضحك الكابورال ضحكة قصيرة، ولكنَّ عينيه لم تكونا تضحكان.

ـ أتحسب نفسك قد عدت مدنيًّا؟ انتظر قليلاً.

ـ آه! تعني: هنا؟

ـ نعم.

ـ مراقب.

ـ وهو؟

ـ على المخابرات التلفونيّة.

ـ مساعد؟

ـ نعم.

فنظر إليه العريف في جُهد، كما لو أنَّه يجد مشقَّة في تثبيت انتباهه عليه:

ـ ما الذي تشكوه؟ يبدو عليك القوَّة والشدّة...

ـ القلب...

ـ هل أطلقت النار في حياتك على رجال؟

ـ قال ماتيو: ـ أبدًا.

فالتفت العريف نحو رفاقه. وكانوا ثلاثتهم يهزُّون رأسهم. وقال بينيت بصوت مخنوق:

ـ سنبذل جهدنا للتصويب جيّدًا.

وسادت فترة صمت طويلة. كان العريف ينظر إليهم وهو يحكُّ رأسه. وأخيرًا تنهّد وبدا عليه أنَّه صمّم. ونهض فقال بصوت أجشّ:

ـ إنّني أُدعى كلابو. ويجب أن تطيعاني أنا. أمّا الآخران فهما شاسيريو وادنديو، وما عليكما أن تفعلا إلّا ما يقولانه لكما، لأنّ خمسة عشر يومًا قد انقضت ونحن نقاتل، فألفنا ذلك.

فردَّد بينيت غير مصدِّق:

ـ منذ خمسة عشر يومًا؟ وكيف حدث ذلك؟

فأجاب دانديو: ـ كنّا نغطي انسحابكم.

فاحمرّ بينيت وخفض أنفه. وأحسَّ ماتيو بفكّيه ينقبضان. وأوضح كلابو بلهجة أكثر مصالحة:

ـ مهمّة تأخير.

وتبادلوا النظر من غير أن يقولوا شيئًا. وأحسَّ ماتيو بالضيق؛ وكان يفكِّر: «لن نكون أبدًا منهم؛ لقد قاتلوا خمسة عشر يومًا متتالية، وكنّا نحن نهرب على الطرقات، وسيكون الأمر أيسر ممّا ينبغي إذا كان يكفي أن ننضمَّ إليهم حين يطلقون الأسهم الناريّة النهائيّة. لن نكون أبدًا منهم، أبدًا. إنّ الذين نمتّ إليهم هم تحت، في القبو، يأسنون في العار والشقاء، ومكاننا بينهم، وقد تخلّينا عنهم في اللحظة الأخيرة بدافع الكبرياء». وانحنى فرأى البيوت السوداء، والطريق التي تلمع، وكان يردِّد لنفسه: «إنَّ مكاني هو تحت، مكاني تحت». وكان يعلم في صميم قلبه أنَّه لن يستطيع بعد أن يهبط من جديد. وجلس بينيت راكبًا الإفريز، ليمنح نفسه التماسك من غير شكّ.

وقال كلابو: ـ انزلْ من هنا، فإنّك قد ترشدهم إلينا.

ـ إنَّ الألمان ما يزالون بعيدين!

ـ وما أدراك؟ أقول لك أن تنزل.

فقفز بينيت على الأرض الخشبيّة في استياء، وفكَّر ماتيو: «إنَّهم لن يقبلونا أبدًا». وكان بينيت يزعجه: كان يتحرَّك ويتحدَّث حين كان ينبغي له أن يمّحي ويُمسك أنفاسه ويجعل الناس ينسونه. وانتفض ماتيو: فقد انفجر في أذنه انفجار هائل، ثقيل ودبق، ثم انفجار ثانٍ، وثالث: صرخات برونزيّة، وكانت الأرض الخشبيّة تهتزّ تحت قدميه. وأطلق بينيت ضحكة عصبيّة:

ـ لا حاجة بك للخوف: إنَّها الساعة تدقّ.

وألقى ماتيو نظرة على الجنود، فلاحظ برضى أنَّهم كانوا هم أيضًا قد انتفضوا مذعورين.

قال بينيت: ـ إنَّها الساعة الحادية عشرة.

وارتعش ماتيو: كان يحسّ البرد، ولكن ذلك لم يكن بلا لذّة.

كان عاليًا جدًّا في السماء، فوق السقوف وفوق الرجال، وكان يشعر بالبرد، وكان الظلام سائدًا. «كلَّا، لن أنزل ثانية، لن أنزل بأيِّ ثمن».

ـ ها هم المدنيُّون يرحلون.

وانحنوا جميعًا فوق الإفريز. ورأى حيوانات سوداء تتحرَّك تحت الأوراق، فكأنَّها أعماق البحر تتحرَّك. وفي الشارع الكبير، انفتحت أبوابٌ ببطء، وكان رجال ونساء وأطفال ينسلّون إلى الخارج، معظمهم يحملون حزمًا أو حقائب. وتشكّلت جماعات صغيرة في الشارع: كان يبدو أنَّهم ينتظرون. ثم ذابت الجماعات في موكب واحد تحرَّك ببطء نحو الجنوب.

قال بينيت: ـ لكأنَّها جنازة!

قال ماتيو: ـ يا للمساكين!

فأجاب دانديو بجفاء:

ـ لا ترْثِ لهم. فسوف يعودون إلى بلدهم. ونادرًا ما يُشعل الألمان النار في القرى.

قال ماتيو وهو يشير إلى روبيرفيل:

ـ وتلك؟

ـ ليس الأمر سواء: فقد كان الفلّاحون يطلقون النار معنا.

وأخذ بينيت يضحك:

ـ لم يكن الأمر إذًا كما هو هنا! فكم كان الفلّاحون هنا هادئين!

فنظر إليه دانديو:

ـ إنّكم لم تكونوا تقاتلون: وأظنُّ أنْ ليس على المدنيِّين أن يبدأوا.

فسأل بينيت في غضب:

ـ ومن هو المذنب؟ من هو المذنب إذا لم نكن نقاتل؟

ـ لا أدري.

ـ الضبَّاط! إنَّ الضبَّاط هم الذين خسروا الحرب.

قال كلابو: ـ لا تتحدَّث بالسوء عن الضبَّاط. فليس لك الحقّ أن تتحدَّث عنهم بالسوء.

ـ إنَّ هذا لا يزعجني.

قال كلابو بحزم: ـ لن تتحدَّث عنهم بالسوء أمامنا. لأنّي سأقول لك: فباستثناء الملازم، وهي ليست غلطته، فإنّ جميع ضبَّاطنا بقوا.

وأراد بينيت أن يوضِّح رأيه، فمدّ ذراعيه نحو كلابو، ثم تركهما تسقطان، وقال في إعياء:

ـ إنّنا لا نستطيع أن نتفاهم.

وكان شاسيريو ينظر إلى بينيت في فضول:

ـ ولكنْ لماذا أتيت إلى هنا إذن؟

ـ لقد جئنا لنقاتل، كما قلت لك من قبل.

ـ ولكنْ لماذا؟ أنت لست مجبرًا على ذلك.

وكان بينيت يقهقه بهيئة بليدة:

ـ هكذا! لنتلوّى من الضحك!

قال كلابو بلا عذوبة:

ـ حسنًا! ستتلوّيان من الضحك! أؤكّد لكما ذلك!

وكان دانديو يضحك إشفاقًا:

ـ اسمعهما: لقد جاءا يزوراننا، ليتلوّيا من الضحك، ليريا كيف يكون البارود؛ وهما يريدان أن يتمرّنا على إصابة المرمى، كما في صيد الحمام. ثم إنَّهما غير مجبريْن حتى على ذلك!

فسأله بينيت: ـ وأنت، يا أبله، من يجبرك على أن تقاتل؟

ـ نحن، ليس الأمر مشابهًا: فإنَّنا جنود مطاردة.

ـ يعني؟

ـ لو كنتَ كذلك، لقاتلت.

فهزَّ رأسه:

ـ أنت تتحدَّث كما لو أنّني سأُطلق النار على الرجال لمجرّد لذّتي.

وكان شاسيريو ينظر إلى بينيت في مزيج من الذهول والنفور:

ـ هل تُدرك أنّك تجازف بروحك؟

فهزّ بينيت كتفيه من غير أن يُجيب. وتابع شاسيريو:

ـ إذا كنت مدركًا ذلك، فإنّك أشدّ بلاهة ممّا يبدو عليك.

فليس من سلامة الحسّ أن يجازف المرء بحياته إذا لم يكن مجبرًا على ذلك.

قال ماتيو فجأة:

ـ كنّا مجبرين على ذلك. كنّا مجبرين. كنّا ضجرين، ولم نكن

نعرف ما ينبغي لنا أن نعمل!

وأشار إلى المدرسة تحتهم:

ـ كان أمامنا أن نختار بين برج الأجراس والقبو.

فبدا على دانديو الاهتمام، وتقلَّصت ملامحه قليلاً. وتابع ماتيو:

ـ فما عساكم تفعلون، لو كنتم في وضعنا؟

ولم يكونوا يجيبون، فألحّ قائلاً:

ـ ما عساكم تفعلون؟

فهزَّ دانديو رأسه:

ـ ربّما كنت أختار القبو. فسترى: إنَّ عملنا ليس بالطريف.

قال ماتيو: ـ صحيح، ولكن ليس من الطريف أيضًا أن نبقى في القبو حين يحارب الآخرون.

قال شاسيريو: ـ لا أنكر ذلك.

وأقرّه دانديو: ـ نعم، لن يشعر المرء في هذا الوضع بالاعتزاز.

وبدا عليهم أنَّهم أصبحوا أقلَّ عداء. وحدَّج كلابو بينيت في شيء من الدهشة، ثم انتقل واقترب من الإفريز. وامّحت قسوة نظره المحمومة. كانت هيئته مبهمة عذبة، وكان ينظر بإبهام إلى الليل العذب، والريف الطفوليّ الأسطوريّ، ولم يكن ماتيو يعرف إذا كانت عذوبة الليل هي التي تنعكس على هذا الوجه، أم أنَّ وحدة هذا الوجه هي التي تنعكس على ذلك الليل.

قال دانديو: ـ هو! كلابو!

فاستقام كلابو واستعاد هيئة الاختصاصيّ الجادّة:

ـ ماذا تريد؟

ـ أريد أن أقوم بجولة في الغرفة التحتيّة، فقد رأيت فيها شيئًا ما.

ـ اذهبْ.

وإذ كان دانديو يرفع باب السقف، صعد إليهم صوت امرأة:

ـ هنري! هنري!

وأطلَّ ماتيو على الشارع. فكان ثمّة متخلِّفون يَعْدون في كلّ اتّجاه، كأنَّهم نملٌ مجنون؛ ورأى في الشارع، بالقرب من البريد، طيفًا صغيرًا.

ـ هنري!

فاسودَّ وجه بينيت ولكنَّه لم يقل شيئًا. كان ثمّة نساء يمسكن بذراع عاملة البريد ويحاولن أن يجررنها. ولكنَّها كانت تتخبَّط وهي تصيح:

ـ هنري! هنري!

وتحلَّلت منهنَّ، ثم ارتمت داخل قاعة البريد، وأغلقت الباب دونها. قال بينيت بين أسنانه:

ـ إنَّ هذا لبلاهة!

وكان يحكُّ أظافره بحجر الإفريز:

ـ يجب أن تذهب مع الآخرين.

قال ماتيو: ـ صحيح.

ـ وإلَّا أُصيبت بِشَرٍّ.

ـ مَن المسؤول عن ذلك؟

فلم يجب. وارتفع باب السقف:

ـ ساعدوني.

فردُّوا الباب إلى خلف، وانبثق دانديو من الظلّ، كان يحمل على ظهره فراشين.

ـ لقد وجدت هذا الوعاء.

فابتسم كلابو للمرَّة الأولى، وكان يبدو على هيئته ابتهاج، وقال:

ـ إنّنا محظوظون.

وسأل ماتيو: ـ ماذا تريدون أن تفعلوا بهذا؟

فنظر إليه كلابو في دهشة:

ـ لأيِّ شيء يُستعمل هذا، في رأيك؟ لإخفاء الجواهر؟

ـ هل تراكم ستنامون؟

قال شاسيريو: ـ سنكسر الصَفْرة أوّلاً.

ونظر إليهم ماتيو ينشغلون حول الفراشين، ويخرجون من قِرَبهم علبًا من لحم القرد: أتراهم لا يُدركون أنَّهم سيموتون؟ وكان شاسيريو قد عثر على مفتاح علب، ففتح ثلاث علب بحركات سريعة ودقيقة، ثم جلسوا وسحبوا مُداهم من جيوبهم.

ألقى كلابو نظرة إلى ماتيو، من فوق كتفه، وسأل:

ـ هل أنتما جائعان؟

وكان قد انقضى يومان لم يأكل ماتيو فيهما شيئًا، وكان اللعاب يملأ فمه. فقال:

ـ أنا؟ كلّا.

ـ ورفيقك؟

فلم يجب بينيت. كان مطلًّا من فوق الإفريز ينظر إلى بناية البريد.

قال كلابو:

ـ هيّا، كُلا: فليس الطعام هو ما ينقصنا.

قال شاسيريو: ـ إنَّ من يقاتل يحقُّ له أن يأكل.

وفتَّش دانديو في قِرْبة، فأخرج منها علبتين مدّهما لماتيو. وتناولهما ماتيو وضرب على كتف بينيت، فانتفض بينيت:

ـ ماذا تريد؟

ـ هذا لك: كُلْ!

وأخذ ماتيو مفتاح العلب الذي مدّه له دانديو، فأسنده على حافّة العلبة وشدّ بكلِّ قواه، ولكنَّ الشفرة انزلقت من غير أن تعضّ، وقفزت

خارج الخطّ فأتت تصدم إبهامه الأيسر.

قال بينيت: ـ كم أنت أخرق! هل آذيت نفسك؟

قال ماتيو: ـ لا.

ـ هاته.

وفتح بينيت العلبتين، وأخذا يأكلان في صمت، بالقرب من عمود: ولم يكونا قد جرؤا على الجلوس. كانا يحفران بمديتهما في لحم القرد، ويعلّقان القطع على رأس الشفرتين. وكان ماتيو يمضغ باهتمام، ولكن حنجرته كانت مشلولة: لم يكن يحسّ طعم اللحم، ويشقّ عليه أن يبتلع. وكان الجنود الثلاثة جالسين على الفراشين، منحنين فوق طعامهم بهيئة جادَّة، ومديَّتهم تبرق تحت ضوء القمر.

قال شاسيريو حالمًا:

ـ لذيذ أن نأكل في برج كنيسة.

في برجٍ كنيسة. وخفض ماتيو عينيه. تحت أقدامهم كانت رائحة البهار والبخُور تلك، وهذه الرطوبة، وذلك الزجاج المقطّع الذي كان يلمع لمعانًا خفيفًا في ظلام الإيمان. تحت أقدامهم الثقة والأمل. إنَّه يشعر بالبرد، ويرى السماء، ويتنشّق السماء، ويفكِّر تفكيرًا ممزوجًا بالسماء، كان عاريًا على كومة جليد، في الأعالي؛ وبعيدًا جدًّا تحته، كانت طفولته.

كان كلابو قد قلب رأسه. يأكل وهو ينظر إلى السماء.

قال بصوت منخفض:

ـ انظر إلى القمر.

قال شاسيريو: ـ ما به؟

ـ أليس هو اليوم أكبر من العادة؟

ـ كلّا.

ـ آه! إنّني أجده أكبر من العادة.

وخفض عينيه فجأة:

ـ تعالا، فكلا معنا: إنَّ المرء لا يأكل واقفًا.

فتردَّد ماتيو وبينيت. قال كلابو:

ـ هيّا! هيّا!

قال ماتيو لبينيت: ـ تعال!

وجلسا، وكان ماتيو يشعر بحرارة كلابو إزاء خاصرته. وكانوا صامتين: كانت هذه آخر وجبة لهم، وكانت مقدَّسة.

قال دانديو: عندنا «روم» ولكنَّه غير كثير: جرعة واحدة لكلِّ إنسان. وأمرّوا تنكة، ووضع كلّ منهم شفتيه حيث شرب الآخرون.

وانحنى بينيت على ماتيو:

ـ أظنّ أنَّهم تبنّونا.

ـ نعم.

ـ ليسوا جماعة سيِّئين. إنّني أحتملهم جيّدًا.

ـ وأنا أيضًا.

واستقام بينيت في انتفاضة كبرياء، وكانت عيناه تلتمعان.

ـ كنّا نكون شبيهين بهم، لو كان لنا قائد.

ونظر ماتيو إلى وجوههم الثلاثة، وهزّ رأسه.

ـ أليس صحيحًا ما أقول؟

قال ماتيو: ـ ربّما.

وكانت قد مضت لحظة على بينيت وهو ينظر إلى يديْ ماتيو، وانتهى بأن لامس مرفقه:

ـ ما بك؟ إنّك تنزف؟

فأخفض ماتيو عينيه على يديه: كان قد جرح إبهامه الأيسر، وقال:

ـ آه، لا بدَّ أنَّ ذلك حدث بمفتاح العِلَب، منذ لحظة.

ـ وتركته ينزف، أيُّها الثقيل؟

قال ماتيو: ـ لم أحسّ بشيء.

فقال بينيت بلهجة توبيخ وافتتان:

ـ آه! ما عساك كنت تفعل، لو لم أكن هنا؟

وكان ماتيو ينظر إلى إبهامه، دهشًا أن يكون له جسم: إنَّه لم يكن يشعر بعد بشيء، لا بطعم اللحم، ولا بطعم الخمر، ولا بالألم، كنت أحسبني من ثلج، وضحك.

ـ ذات مرَّة، كان معي مدية في مرقص..

وتوقَّف. وكان بينيت ينظر إليه في دهشة:

ـ وماذا حدث؟

ـ لا شيء. لا حظَّ لي مع الآلات القاصّة.

قال كلابو: ـ هاتِ يدك.

وكان قد أخرج من رزمته ملفًّا من الشاش وزجاجة زرقاء. وسكب المائع المحرق على إبهام ماتيو ولفّه بالشاش. حرَّك ماتيو الدمية وتأمَّلها مبتسمًا: هذه العناية كلّها للحؤول دون أن يسيل الدم قبل الأوان.

قال كلابو: ـ هكذا!

قال ماتيو: ـ هكذا!

واستشار كلابو ساعته:

ـ إلى الفراش، أيُّها الرفاق: سيحلّ منتصف الليل.

وأحاطوا به، فقال وهو يلفت نظر دانديو إلى ماتيو:

ـ ستقوم بالحراسة معه يا دانديو.

ـ حسنًا.

وتمدَّد شاسيريو وبينيت وكلابو جنبًا إلى جنب على الفراشين.

وأخرج دانديو غطاء من رزمته فألقاه على أجسامهم الثلاثة. وتمطّى بينيت بشهوة، وغمز ماتيو غمزة خبيثة وأسبل جفنيه.

وقال دانديو: ـ أنا أحرس من هنا، وأنت من هناك، فإذا سمعت طلقات، فلا تفعل شيئًا قبل أن تخبرني.

ومضى ماتيو إلى ركنه فاستعرض الريف بعينيه، وكان يفكِّر بأنَّه سيموت، فيبدو له ذلك طريفًا. كان ينظر إلى السقوف المظلمة، وتلألؤ الطريق بين الأشجار الزرقاء وكلّ هذه الأرض الفخمة غير المسكونة، ويفكِّر: إنَّني أموت من أجل لا شيء. وانبعث شخير ناعم فجعله ينتفض، والتفت: فإذا النوم قد استغرق الأفراد؛ وكان كلابو يبتسم للملائكة، مغمض العينين، منتعش الشباب؛ وكان بينيت يبتسم أيضًا. وانحنى ماتيو فوقه ونظر إليه طويلاً؛ وفكَّر: «يا للخسارة!». وفي الجهة المقابلة من السطيحة، كان دانديو قد انحنى إلى أمام، ويداه على مؤخّرته، في وضع حارس مرمى. وقال ماتيو بصوت منخفض:

ـ هيه!

ـ هيه!

ـ أكنت حارس مرمى؟

فالتفت إليه دانديو مندهشًا:

ـ وما أدراك بذلك؟

ـ هذا واضح.

وأضاف:

ـ وهل كنتَ موفّقًا؟

ـ مع بعض الحظّ، كنت سأصبح محترفًا.

وتبادلا تحيّة صغيرة باليد، وعاد ماتيو إلى مركزه. وكان يفكِّر: «سأموت من أجل لا شيء»، وأخذته الشفقة على نفسه. وذات لحظة، أصدت ذكرياته كأوراق الشجر تحت الريح. جميع ذكرياته: «كنت أحبّ

الحياة». وكان سؤال حائر يكمن في جوف حلقه: «أكنتُ على حقّ بأن أترك الرفاق؟ هل أملك الحقّ بأن أموت من أجل لا شيء؟» واستقام. فاستند بكلتا يديه على الإفريز، وهزّ رأسه في غضب. «كفى، كفى! هم وشأنهم أولئك الذين تحت، هم وشأنهم، الجميع. لقد انتهى الندم، والتحفُّظات، والتقييدات: ليس هناك من هو قاضيَّ، فليس ثمّة من يفكِّر بي، ولن يكون هناك من يتذكّرني، ولا يستطيع أحد أن يقرِّر بدلاً منِّي». وقرَّر بلا ندم، واعيًا كلّ الوعي. لقد قرَّر، وفي اللحظة نفسها، تدحرج قلبه الموسوس المشفق من غصن إلى غصن؛ ولم يبق ثمّة قلب بعد: لقد انتهى. «إنّني أقرِّر أن الموت كان المعنى السرِّيّ لحياتي، وإنّني عشت لأموت؛ إنّني أموت لأشهد بأنَّ من المستحيل أن يعيش الإنسان؛ وسوف تطفئ عيناي العالم وتغلقانه إلى الأبد».

وكانت الأرض ترفع نحو هذا المقبل على الموت وجهها المقلوب، وكانت السماء المقلوبة تسيل عبره بكلِّ نجومها: ولكن ماتيو كان يترصّد، من غير أن يتنازل لالتقاط هذه الهدايا اللامجدية.

الثلاثاء ١٨ حزيران، الساعة ٥،٤٥

ـ لولا!

وأفاقت على اشمئزاز، ككلّ صباح، وعادت تقيم ككلّ صباح في جسمها القديم الفاسد.

ـ لولا، هل تنامين؟

قالت: ـ لا. كم هي الساعة؟

ـ الخامسة وخمس وأربعون.

ـ الخامسة وخمس وأربعون؟ وقد أفاق سارقي الصغير؟ لقد غيّروه لي.

قال: ـ تعالي.

ففكَّرت «لا. لا أريد أن يلمسني!».

ـ بوريس . . .

إنّ جسمي يثير اشمئزازي، فإذا لم يكن يثير اشمئزازك، فهذا تدجيل، إنَّه فاسد، وأنت لا تعرف ذلك، ولو كنت تعرفه لأثار نفورك.

ـ بوريس، إنّني متعبة.

ولكنَّه كان قد أمسك بها من كتفيها؛ وكان يُثقل عليها. إنّك إنّما «سوف تدخل في جرح». حين كان يلمسني، كنت أصبح مخملاً. أمّا الآن، فإنَّ جسمي تراب جافّ؛ وتحت أصابعه أتصدّع وأتفتّت؛ إنَّه يدغدغني. كان يمزِّقها حتى أعمق أعماق بطنها، ويحرِّك في بطنها ما يشبه السكِّين؛ وكان يبدو وحيدًا ومهووسًا، حشرة، ذبابة تصعد زجاجًا فتسقط ثم تصعد ثانية. ولم تكن تُحسّ، إلَّا الوجع؛ إنَّه يلهث، وهو غارق في العرق، إنَّه يكابد اللذّة، في دمي يكابد لذّته، في ألمي. وفكَّرت: «طبعًا! انقضت ستَّة أشهر عليه بلا امرأة؛ وهو الآن يضاجع كجنديّ في ماخور». وتحرَّك فيها شيء ما، خفق أجنحة، ولكن لا: لا شيء. والتصق بها، وكان نهداها وحدهما يتحرَّكان، ثم ابتعد فجأة، فأحدث نهدا لولا صوت محجم يُنزع عن اللحم؛ وأخذتها الرغبة بأن تضحك، ولكنَّها نظرت إلى وجه بوريس فزالت الرغبة؛ وكان قد اتّخذ هيئة قاسية متوتِّرة. إنَّه يضاجع كما يثمل! فلا شكّ في أنَّه يريد أن ينسى شيئًا ما. وانتهى بأن تداعى للسقوط عليها، نصف ميِّت، ولامست رقبته وشعره بآليّة؛ كانت باردة وهادئة، ولكنَّها كانت تشعر بخفقات جرس كبيرة تصعد سريعة من بطنها إلى صدرها: لقد كان ذلك قلب بوريس يخفق فيها. «إنّني مسنّة أكثر ممّا ينبغي، مسنَّة جدًّا، مسنَّة أكثر ممّا ينبغي». وبدت لها هذه الرياضة الجسديّة غريبة مضحكة، فدفعته عنها على مهل.

ـ انسحب منِّي.

ـ ماذا؟

وكان قد رفع رأسه ينظر إليها باندهاش، فقالت:

ـ بسبب قلبي. إنَّه يخفق أقوى ممّا يجب، وأنت تخنقني.

وبسم لها، وانزلق عنها، وظلّ نائمًا على بطنه، وجبينه في الوسادة، وعيناه مغمضتان، وفي زاوية فمه ثنية غريبة. تحاملت على مرفقها فنظرت إليه، فإذا هيئته من شدّة الألفة والاعتياد بحيث لم تكن تستطيع بعد أن تراقبه. ليس أكثر ممّا لو كان يدها بالذات، إنّني لم أحسّ شيئًا. أمس، حين ظهر في الباحة، جميلاً كفتاة، لم أحسّ شيئًا. لا شيء، حتى ولا ذلك المذاق من الحمّى في فمي، حتى ولا ذلك الثقل الكثيف في بطني: كانت تنظر إلى هذا الرأس الذي تألفه ألفة مفرطة، وتفكِّر: «إنَّني وحيدة». يا للرأس الصغير، الرأس الصغير الذي كانت تتدحرج فيه غالبًا أسرار مرائيّة، كم أخذته بين يديها وضمَّته؛ كانت تتهالك، وتسأل، وتبتهل، وكانت تودّ لو تفتحه كرمّانة وتلحس ما كان في داخله، وفي النهاية، كان السرُّ يفلت، فلا يكوْن، كما في الرمّان، إلّا بعض ماء مسكر. كانت تنظر إليه في حقد، وتأخذ عليه أنَّه لم يُحسن إثارتها، وكانت تنظر إلى ثنية فمه المريرة: إذا فقد مرحه، فماذا يبقى له؟ وفتح بوريس عينيه فبسم لها:

ـ كم أنا مسرور أن تكوني هنا، أيّتها العجوز المجنونة.

فبادلته بسمته: أنا الآن من يكنُّ سرًّا، وبوسعك أن تحاول أن تحملني على البوح به. ونهض، فدفع الغطاء ونظر إلى جسم لولا في تنبّه. ولامس نهديها بيد خفيفة؛ فكانت تشعر بالانزعاج.

وقال: ـ عاج.

وفكَّرت في الحيوان القذر الذي كان يتكاثر في ليل لحمها، فصعد الدم إلى رأسها.

وقال بوريس: ـ إنّني فخور بك.

ـ لماذا؟

ـ هكذا! لقد جعلت الأفراد، في المستشفى، ينقلبون على أقفيتهم.

فضحكت لولا ضحكة صغيرة:

ـ ألم يسألوك عمَّا عساك تفعل مع هذه العجوز؟ ألم يظنّوني أمّك؟

فقال بوريس معاتبًا: ـ لولا...

وضحك، وقد أجذلته ذكرى، فعادت الفتوّة تفيض للحظة على وجهه.

ـ ما الذي يضحكك؟

ـ إنَّه فرانسيون. فإنَّ صاحبته مكوَّنة تكوينًا رائعًا، وهي لمّا تبلغ الثامنة عشرة؛ ومع ذلك، فقد قال لي: إذا أردت، قمتُ بالمبادلة على الفور».

قالت لولا: ـ إنَّه مؤدَّب جدًّا.

وتسلَّلت فكرة، كالغيمة، على وجه بوريس، فاسودّت عيناه. كانت تنظر إليه من غير ودّ: «طبعًا، طبعًا، إنَّ لك همومك كجميع الناس». لو كنت أطلعه على همومي: فماذا يفعل؟ ما عساك تفعل لو قلت لك: «إنَّ في رحمي دمّلاً، ويجب أن أجري عمليّة؛ وقد تكون نتيجة ذلك، بالنظر لعمري، سيِّئة جدًّا». إنّك إذن ستفتح عينيك البغيّتين، وتقول لي: «هذا غير صحيح!» فأقول لك بلى، فتقول إنَّ هذا غير ممكن، وإنَّ ذلك يُشفى جيّدًا بالعقاقير، والأشعّة، وإنّني واهمة. وسأقول لك: إنَّني لم أعد إلى باريس من أجل المال، وإنّما من أجل استشارة «لوغوبيل» وقد كان قاطعًا. فتقول لي إنَّ «لوغوبيل» حمار، وليس هو الشخص الذي كان ينبغي أن أتوجَّه إليه: وسوف تنكر وتحتجّ وتحرّك رأسك بهيئة من هو مطارَد، ثم ينتهي بك الأمر إلى السكوت، على ضيق شديد، وستنظر إليّ بعينين كارثيّتين طافحتين بالحقد. ورفعت ذراعها العارية وأمسكت بوريس من شعره:

ـ هيّا! أيُها الدجّال الصغير! لِذْ! قل لي ما الذي تشكوه.

فقال بلهجة مزيَّفة: ـ كلّ شيء على ما يرام.

ـ إنّك تدهشني. فليس من عادتك أن تستيقظ في الخامسة صباحًا.

فردّد بلا اقتناع:

ـ كلّ شيء على ما يرام.

ـ أرى ذلك. إنّ عندك ما تقوله لي، ولكنَّك تريد أن أحملك على أن تلد.

فابتسم ووضع رأسه في إبط لولا، فتشمّمه وقال:

ـ إنَّ رائحتك لذيذة.

فهزّت كتفيها:

ـ وإذن؟ هل تتكلَّم أم لا تتكلَّم؟

فهزّ رأسه مسحوقًا. وصمتتْ، واستلقتْ بدورها على ظهرها: حسنًا، لا تتكلَّم! فما عسى ذلك أن ينفعني؟ إنَّه يحدِّثني، ويضاجعني ولكنِّي سأموت وحيدة. وسمعتْ بوريس يتنهَّد، فأدارت رأسها إليه. وكان له فم حزين قاس لم تكن تعهده فيه. وفكَّرت بلا حماسة: «حسنًا، سأهتمّ بأمرك». كان لا بدَّ من سؤاله، وترصّده، وتفسير هيئاته، كما في العهد الذي كانت تغار فيه، وإجهاد نفسها لتحمله على أن يعترف أخيرًا بما كان يموت رغبة للاعتراف به، وجلست:

ـ حسنًا! أعطني الروبديشامبر وسيجارة.

ـ ولماذا الروبديشامبر؟ أنتِ هكذا أفضل.

ـ أعطني الروبديشامبر. إنّني أشعر بالبرد.

فنهض، أسمر عاريًا، وأدار عينيه، وتناول الروبديشامبر عند قدم السرير، فمدّه لها، فارتدته: وتردّد لحظة، ثم انزلق في بنطاله وجلس على كرسيّ.

وسألته: ـ هل وجدت عذراء، وتريد أن تتزوَّج؟

فنظر إليها بانشداه شديد، حتى إنَّها احمرَّت وقالت:

ـ حسنًا، حسنًا.

وساد صمت قصير، ثم استطردت:

ـ ما الذي تنوي أن تفعله إذن، حين يسرِّحونك؟

قال ـ أتزوّجك.

فتناولت سيجارة وأشعلتها، وسألته:

ـ ولماذا؟

ـ يجب أن أكون محترمًا. وليس بوسعي أن آخذك إلى كاستيلنوداري إذا لم تكوني زوجتي.

ـ وماذا أنت ذاهب تفعل في كاستيلنوداري؟

فقال في قسوة: ـ أكسب معيشتي. كلّا، بلا مزاح: سأكون أستاذًا في كلّيّة.

ـ ولكن لماذا في كاستيلنوداري؟

قال: ـ سترين، سترين. ستكون كاستيلنوداري.

ـ وهل تعني أنّني سأُدعى السيِّدة سرغين، وسأضع قبّعة لأذهب فأرى زوجة مدير المدرسة؟

قال بوريس: ـ إنَّه يُدعى رئيسًا. نعم، هذا ما ستفعلينه. وأنا سألقي في آخر العام خطاب حفلة توزيع الجوائز.

فقالت لولا: ـ هكذا!

قال بوريس: ـ وستأتي إيفيش، فتعيش معنا.

ـ إنَّها لا تستطيع أن تطيقني.

ـ صحيح، ولكن هذا هو الوضع.

ـ وهي التي تريد؟

ـ نعم. إنَّها مبعوصة جدًّا لدى أهل زوجها؛ وهي تكاد تُجنُّ معهم؛

حتى إنّك ستنكرينها إذ ترينها.

وساد صمت. وكانت لولا تراقبه من طرف عينها، وسألته:

ـ وهل رتَّبت كلّ شيء؟

ـ نعم.

ـ وإذا كان ذلك لا يروق لي؟

قال: ـ أوه، لولا، فكيف تريدين؟

قالت لولا: ـ لأنّك تفكِّر طبعًا بأنّني سأكون دائمًا مسرورة جدًّا لمجرّد أن أعيش معك.

وحسبت أنَّها ترى شعاعًا يضيء في عينيْ بوريس، وسألها بوريس:

ـ أليس ذلك صحيحًا؟

قالت: ـ بلى، صحيح. ولكنَّك دجّال صغير، وأنت تبالغ في الثقة بمفاتنك.

وانطفأ الشعاع، كان ينظر إلى ركبتيه، وكانت لولا ترى فكَّيه يتحرَّكان.

وسألته: ـ وهل تروقك، تلك الحياة؟

فقال بوريس بأنس: ـ سأكون دائمًا مسرورًا إذا استطعت أن أعيش معك.

ـ كنت تقول إنّك تستفظع أن تكون أستاذًا.

ـ ماذا تريدين أن أفعل غير ذلك، الآن؟ (وأضاف) سأشرح لك الأمر: حين كنت أقاتل، لم أكن أطرح على نفسي الأسئلة. غير أنّني أتساءل الآن لأيِّ شيء خُلقت؟

ـ كنت تريد أن تكتب.

ـ إنّني لم أفكِّر بذلك قطّ بصورة جدِّيّة: فليس لديّ ما أقوله. أنتِ تدركين، كنت أحسب أنّي سأبقى في الميدان، فأُخذتُ على حين غرّة.

فنظرت إليه لولا بتنبُّه:

ـ أيؤسفك أن تكون الحرب قد انتهت؟

قال بوريس: ـ إنَّها لم تنته. فالإنكليز يقاتلون، وقبل مضيّ ستّة أشهر سيدخل الأميركيُّون الحلبة.

ـ على كلّ حال، انتهت بالنسبة إليك.

قال بوريس: ـ بالنسبة لي، نعم.

وكانت لولا ما تزال تنظر إليه، وقالت:

ـ بالنسبة لي، ولجميع الفرنسيين.

فقال في حماسة:

ـ لا بالنسبة للجميع! إنَّ هناك من هم في إنكلترا، وسيحاربون حتى النهاية.

قالت لولا: ـ فهمت.

وسحبت نَفَسًا من سيجارتها وألقت بالعقب على الأرض الخشبيّة.

وقالت بلطف:

ـ هل تملك الوسائل للسفر إلى هناك؟

فقال بوريس بلهجة إعجاب وعرفان:

ـ أوه، لولا! نعم، نعم. أملك الوسائل.

ـ أيّة وسائل؟

ـ طائرة.

فردَّدت من غير أن تفهم:

ـ طائرة؟

ـ بالقرب من مارينيان. هناك مطار صغير خاصّ، بين تلّتين. وقد حطّت فيه طائرة عسكريّة منذ خمسة عشر يومًا، لأنَّها كانت مضطرّة. وقد أُصلحت الآن.

ـ لكنَّك لست طيّارًا.

ـ عندي أصدقاء طيّارون.

ـ أيُّ أصدقاء؟

ـ هناك فرنسيُّون: الشخص الذي قدَّمته لكِ. ثم غابيل، وتيراس.

ـ وقد اقترحوا عليك أن تذهب معهم؟

ـ نعم.

ـ وماذا قلت؟

فقال بسرعة: ـ لقد رفضت.

ـ صحيح؟ ألم تقبل بكلّ رضى وأنت تقول لنفسك: سأمهِّد للعجوز قليلاً قليلاً؟

قال: ـ لا.

وكان ينظر إليها بحنوٍّ. وكان نادرًا أن يظهر بهاتين العينين المائعتين تقريبًا: في الماضي، كنت مستعدّة لقتل نفسي من أجل نظرة كهذه.

وقال: ـ أنت امرأة عجوز ومجنونة. ولكنِّي لا أستطيع أن أتركك: فلن ترتكبي إلَّا الحماقات إذا لم أكن هنا لأحملك على السير باستقامة.

قالت لولا: ـ وإذن؟ متى نتزوَّج؟

فقال بلامبالاة: ـ متى شئت. المهمّ أن نكون متزوِّجيْن عند بدء الفصل الدراسيّ.

ـ بدء فصل الدراسيّ في أيلول؟

ـ كلّا: في تشرين الأوَّل.

قالت: ـ حسنًا. إنّ لدينا متّسعًا من الوقت.

ونهضت وأخذت تذرع الغرفة. وكان على الأرض الخشبيّة أعقاب ملطَّخة بالأحمر: وكان بوريس قد انحنى ليلمّها بهيئة بلهاء، وسألته:

ـ متى يسافر رفاقك؟

وكان بوريس يصفّ الأعقاب بعناية على بلاط طاولة الليل، فقال من غير أن يلتفت:

ـ غدًا مساء.

قالت: ـ أبهذه السرعة؟

ـ نعم: يجب أن يعجّلوا.

ـ بهذه السرعة!

ومشت حتى بلغت النافذة ففتحتها: وكانت تنظر إلى سواري قوارب الصيد المهتزَّة، وإلى الأرصفة الخالية، وإلى السماء الورديّة وتفكِّر: غدًا مساء. وكان ثمّة قلس واحد بعد ينبغي أن يُقطع، قلس واحد. وحين يُقطع القلس، سوف تلتفت، وفكَّرت: فليكن غدًا مساء بدلاً من يوم آخر. وكان الماء يحرِّك بهدوء موجاته الفجريّة، وسمعت لولا في البعيد صفَّارة سفينة، وحين أحسَّت أنَّها أصبحت حرَّة تمامًا، التفتت إليه، وقالت:

ـ إذا أردت أن تذهب، فلست أنا التي أحول بينك وبين ذلك.

وكانت العبارة قد خرجت بمشقّة وجهد، ولكن لولا كانت تشعر الآن بالفراغ والعزاء. كانت تنظر إلى بوريس، وتفكِّر، من غير أن تعرف السبب: يا للفتى المسكين، يا للفتى المسكين، وكان بوريس قد نهض فجأة، فأقبل عليها وأمسك بذراعها:

ـ لولا.

قالت: إنّك توجعني.

فتركها: ولكنَّه كان ينظر إليها نظرة ارتياب.

ـ إنَّ ذلك لن يعود عليكِ بالهمّ؟

فقالت بصوت متعقِّل: ـ بلى، سيشقُّ عليَّ ذلك، ولكنِّي أفضِّل ذلك على أن تكون أستاذًا في كاستيلنوداري.

فبدا مطمئنًّا بعض الاطمئنان، وسألها:

ـ أنتِ أيضًا، لا تستطيعين أن تعيشي فيها؟

قالت: ـ نعم. أنا أيضًا لا أستطيع.

وكان يحني كتفيه ويتهالك بذراعيه، للمرَّة الأولى في حياته، كان يبدو مرتبكًا بجسمه. وحمدت له لولا أن لا يُظهر فرحه، وقال:

ـ لولا!

ومدَّ يده فأراحها على كتف لولا، فكانت بها رغبة لأن تنزع هذه اليد عن كتفها، ولكنَّها تمالكت نفسها. كانت تبتسم له، وتحسّ بثقل يده، وبأنَّه كفّ عن أن يكون لها، فقد كان في إنكلترا الآن، وقد ماتا، كلّ من جهته.

وقال بصوت راجف:

ـ لقد سبق أن رفضت، لو تعلمين، لقد رفضت.

ـ أعرف ذلك.

قال: ـ إنّني لن أخونك. لن أنام مع أحد.

فابتسمت:

ـ يا لصغيري المسكين!

وكان وجوده في تلك اللحظة «زائدًا عن اللزوم». فقد كانت تودّ لو تكون الآن في مساء اليوم التالي. وضرب جبينه فجأة:

ـ خراء!

فسألته: ـ ماذا هنا بعد؟

ـ إنّني لن أذهب! لا أستطيع أن أذهب!

ـ لماذا؟

ـ إيفيش! لقد قلت لك إنَّها كانت تريد أن تعيش معنا.

فقالت لولا غاضبة: ـ اسمعْ يا بوريس! إذا لم تبق من أجلي، فأمنعك أن تبقى من أجل إيفيش.

ولكنَّ ذلك كان غضبًا «سابقًا» ما لبث أن انطفأ، وقالت:

ـ سأهتمّ بأمر إيفيش.

ـ أتأخذينها معك؟

ـ ولِمَ لا؟

ـ ولكن إحداكما لا تطيق الأخرى.

قالت لولا: ـ وماذا يمكن لذلك أن يُنتج؟

وكانت تحسّ بتعب فظيع، فقالت:

ـ ارتدِ ثيابك أو نم، فسوف تُلحق بنفسك الأذى.

وتناول منشفة وأخذ يدلِّك صدره. وكان يبدو مشدوهًا. وفكَّرت: هذا طريف: لقد قرَّر الآن حياته كلّها. وجلست على السرير، وكان يدلِّك نفسه بقوّة، ولكنَّه ظلّ متجهِّمًا، وسألته:

ـ ماذا هناك بعد؟

قال: ـ كلّ شيء على ما يرام. ولكن كم نزفت من العرق!

ونهضت بإعياء، فأمسكته من خصلته ورفعت له رأسه:

ـ أُنظرْ إليّ؛ ماذا هناك بعد؟

فصرف بوريس عينيه:

ـ إنّني أجدك غريبة.

ـ لماذا غريبة؟

ـ لا أراكِ غاضبة لذهابي كما كنت أتوقَّع. وهذا ما يصدمني!

فردّدت لولا: ـ هذا ما يصدمك؟ هذا ما يصدمك؟

وانفجرت ضاحكة.

السـاعة السادسة صباحًا

دمدم ماتيو وجلس، ثم حكّ رأسه. وكان ديك يغنِّي، وكانت الشمس حارّة جذلة، ولكنَّها كانت ما تزال منخفضة.

قال ماتيو: ـ الطقس جميل.

فلم يجب أحد: كانوا جميعًا راكعين وراء الإفريز. ونظر ماتيو إلى ساعته فرأى أنَّها كانت السادسة: وسمع هديرًا بعيدًا ومتعدِّدًا، فركع على ركبتيه وانضمّ للرفاق:

ـ ما هذا؟ طائرة؟

ـ لا: إنَّهم هم، فرقة المشاة الآليّة.

فارتفع ماتيو فوق أكتافهم، فقال كلابو:

ـ حذارِ! تخفَّ جيّدًا، فإنَّ معهم مناظير.

وكانت الطريق، على بعد مئتي متر قبل البيوت، تنعطف نحو الغرب، وتختفي خلف رابية معشبة، وتنساب بين أبنية المطحنة العالية التي كانت تقنِّعها، لتأتي فتحاذي القرية بشكل مائل، في اتِّجاه الجنوب الغربي. ورأى ماتيو، في البعيد البعيد، سيّارات كانت تبدو ثابتة، ففكَّر: «إنّهم الألمان»! وأصابه الخوف، خوف غريب، يكاد يكون دينيًّا، نوع من الرعب المقدَّس. كانت آلاف العيون الأجنبيّة تلتهم القرية، عيون رجال فوق الرجال، وحشرات. وغمرت ماتيو بدهيّة فظيعة:

ـ «سوف يرون» جثّتي.

وقال بالرّغم عنه:

ـ سيكونون هنا بعد دقيقة.

فلم يجيبوا. وبعد لحظة، قال دانديو بصوت ثقيل بطيء:

ـ لن نطلق النار وقتًا طويلاً!

قال كلابو: ـ إلى الخلف.

فتراجعوا وجلسوا هم الأربعة على فراش. لكأنَّ شاسيريو ودانديو خوختان متشابهتان. وكان بينيت قد أخذ يشبههما: كانت لهم جميعًا السحنة المتربة نفسها والعيون الكبيرة العذبة التي لا جوف لها، وفكَّر ماتيو: «إنَّ لي هاتين العينين الوعليّتين». وكان كلابو قد تداعى للسقوط

على عقبيه؛ فأخذ يُحدِّثهم من فوق كتفه:

ـ سوف يتوقَّفون عند مدخل القرية، وسيرسلون عيونًا للاستطلاع، فحذارِ أن تطلقوا عليهم.

وتثاءب شاسيريو؛ وهذه التثاؤبة نفسها، اللذيذة كالغثيان، كانت تفتح فم ماتيو. وحاول أن يقاوم الضيق وأن يُحرَّ نفسه بالغضب، فقال في نفسه: «إنّنا مقاتلون، ولسنا ضحايا»! ولكن ذلك لم يكن غضبًا «حقيقيًّا». وتثاءب من جديد، وكان شاسيريو ينظر إليه في ودّ، وقال:

ـ البداءة قاسية، وفيما بعد، سيتحسّن الوضع.

استدار كلابو على نفسه وجلس القرفصاء تجاههم، وقال لهم:

ـ ليس هناك إلّا أمر واحد: الدفاع عن المدرسة ودار البلديّة؛ فيجب ألَّا يقتربوا منهما. والرفاق تحت هم الذين سيعطون الإشارة، فما أن يبدأوا بالإطلاق، حتى تطلقوا كما تشاؤون. وتذكَّروا: لن يكون دورنا إلَّا دور حماية، ما استطاعوا أن يقاتلوا.

وكانوا ينظرون إليه بهيئة وادعة مجدَّة، وسأل بينيت:

ـ وبعد ذلك؟

فهزّ كلابو كتفيه، وقال:

ـ أوه! بعد ذلك..

قال دانديو: ـ لا أعتقد أنّنا سنقاوم طويلاً.

ـ لا نستطيع أن نعرف. من المرجَّح أن يكون معهم مدفع للمشاة. فيجب أن نحاول منعهم من تركيزه. سنواجه مصاعب، ولكن إذا وُجدت هذه المصاعب، فستكون لهم أيضًا، لأنَّ الطريق والساحة يكوِّنان زاوية.

وعاد يركع على ركبتيه، وزحف حتى الإفريز. كان يراقب الريف مختبئًا وراء عمود.

ـ دانديو؟

ـ نعم؟

ـ تعال.

وأوضح من غير أن يلتفت:

ـ كلّا يا دانديو، سنأخذهم مواجهة، وأنت يا شاسيريو، قف إلى اليمين، ودولارو إلى اليسار. وأنت يا بينيت، ستنتقل إلى الجهة الأخرى، إذا انعطفوا حولنا.

وسحب شاسيريو فراشًا إلى الغرب، فأسنده إلى الإفريز، وأخذ ماتيو الغطاء، فتداعى للسقوط فوقه على ركبتيه. وكان بينيت يقول في غضب:

ـ إنّني أريهم ظهري، هؤلاء الملعونين.

قال شاسيريو: ـ أراك تشكو. ستكون الشمس في صميم وجهي.

وكان ماتيو ملتصقًا بالعمود، ودار البلديّة تجاهه، فكان إذا انحنى قليلاً إلى اليمين يستطيع أن يرى الطريق. أمَّا الساحة، فكانت حفرة ظلٍّ سامَّة، شَرَكًا: وكان يؤذيه أن ينظر إليها. وكانت عصافير تغنِّي في شجر الكستناء.

ـ حذارِ!

فأمسك ماتيو نفسه: كان راكبا درّاجتين أسودان يرتديان قبّعتين يدلفان إلى الشارع؛ فارسان من فرسان ما فوق الطبيعة: وحاول عبثًا أن يتميَّز وجهيهما: لم يكن لهما وجهان. قامتان دقيقتان، أربع سيقان طويلة متوازية، رأسان مدوّران أملسان، لا عينان فيهما ولا فم. وكانا يسيران بتقطُّعات آليّة، وفي كبرياء صلبة تشبه كبرياء الأشخاص الآليّين الذين يتقدَّمون تحت وجه الساعات القديمة حين تدقّ الساعة. وكانت الساعة على وشك أن تدقّ.

ـ لا تطلقوا النار!

وقامت الدرّاجتان بدورة الأرض وهما تضرِّطان، ولم يتحرَّك شيء.

باستثناء بعض عصافير الدوري التي تطايرت: كذلك تلك الساحة المزوَّرة تظهر بمظهر الموت، وكان ماتيو يفكِّر، مسحورًا: «إنَّهم ألمان». وارتدّ سائقا الدرَّاجتين إلى مقربة من دار البلديّة، ومرّا تحت ماتيو تمامًا، فرأى أيديهما الضخمة الجلديّة ترتجف على المقودين، ودلفا إلى الشارع الكبير. وبعد لحظة، عادا إلى الظهور، مستقيمين، مركوزين فوق سرجيهما المترجرجين، ثم عادا بسرعة إلى الطريق الذي جاءا منه. وكان ماتيو مسرورًا أنّ كلابو قد منعهما من الإطلاق: فقد كانا يبدوان له غير قابلين للجَرح. وتطايرت العصافير مرَّة أخرى، ثم اندسَّت بين الأوراق.

وقال كلابو: ـ جاء دورنا.

وأنّت فرملة، واصطفقت أبواب، وسمع ماتيو أصواتًا وخطى، فسقط في اشمئزاز يشبه النعاس: كان عليه أن يجالد ليُبقي عينيه مفتوحتين. وكان ينظر إلى الطريق عبر جفنيه نصف المغلقين، ويشعر بنفسه ميّالاً للمصالحة؛ إذا هبطنا ونحن نلقي بنادقنا، فسيحيطون بنا، وربّما قالوا لنا: «أيُّها الأصدقاء الفرنسيُّون، لقد انتهت الحرب». وكانت الخطى تقترب، إنَّهم لم يفعلوا لنا شيئًا، وهم لا يفكِّرون بنا، ولا يريدون بنا شرًّا. وأغمض عينيه تمامًا: إنَّ الحقد سيتدفَّق حتى يبلغ السماء. سيرون جثّتي، وسيركلونها بأقدامهم. ولم يكن يخاف أن يموت، وإنّما كان يخاف الكراهية والحقد.

انتهى الأمر! وطقّ الطلق شديدًا في أذنيه، ففتح عينيه: فإذا الشارع خال صامت. حاول أن يصدِّق أنّه كان يحلم.. إنَّ أحدًا لم يطلق، لا أحد..

وتمتم كلابو: ـ يا للحمقى!

فانتفض ماتيو: ـ أيُّ حمقى؟

ـ أفراد دار البلديّة، لقد تعجَّلوا إطلاق النار، لا بدَّ أنَّ في الهواء أصوات انفجار، وإلّا لتركوهم يجيئون.

وتطلَّع ماتيو في مشقّة إلى الطريق، وانزلق نظره على البلاط، وعلى أدغال من العشب بين البلاط، حتى زاوية الشارع. لا أحد. الصمت. «إنَّها قرية في شهر آب، فالرجال في الحقول». ولكنَّه كان يعلم أنَّهم كانوا يخترعون موته فيما وراء هذه الجدران: إنَّهم يعملون على أن يُلحقوا بنا أكبر أذى ممكن. وغرق في الحنوّ، كان يحبّ جميع الناس: الفرنسيين، الألمان، هتلر. وفي حلم دبق، سمع صرخات، تبعها انفجار عنيف وتكسُّر زجاج، ثم تتابعت أصوات الانفجار. وشنّج يده على قبضة بندقيّته ليحول دون سقوطها.

قال كلابو بين أسنانه: ـ إنَّ مدى القنبلة أقصر ممّا ينبغي.

وكانت الطلقات تتوالى دون انقطاع؛ وكان الألمان قد أخذوا يطلقون، وانفجرت قنبلتان أخريان. ليت هذا يمكن أن يتوقَّف دقيقة لأتنفَّس؛ ولكنَّ الطلقات كانت مستمرَّة، والانفجارات تتزايد؛ وفي رأسه كانت عجلة مخرَّمة تدور بسرعة متنامية: وكانت كلّ تخريمة طلقة ناريّة. يلعن دين! وإذا كنت، فوق هذا كلّه، جبانًا! والتفت فنظر إلى رفاقه: كان كلابو ودانديو يراقبان مقرفصين على أعقابهما، ممتقعين، وعيونهما تلتمع في قسوة. وكان بينيت موليًا ظهره، متصلِّب الرقبة، وكتفاه تقفزان، فكأنَّه في رقصة، أو في ضحك جنوني. واحتمى ماتيو بالعمود، وانحنى بحذر. ونجح في الاحتفاظ بعينيه مفتوحتين، ولكنَّه لم يستطع أن يقسر نفسه على الالتفات نحو دار البلديّة: كان ينظر إلى الجنوب القاحل الهادئ، وكان يفرّ نحو مارسيليا، نحو البحر. وحدث انفجار جديد تبعته تدحرجات جافّة على أحجار برج الأجراس. فحملق ماتيو بعينيه، ولكنَّ الطريق كانت تجري تحته بأقصى سرعتها، فالأشياء تنسرب وتنزلق وتختلط وتبتعد، فكان ذلك حُلمًا، وكانت الحفرة تنحفر وتجذبه، وكان ذلك حلمًا، وكانت عجلة النار تدور وتدور كعجلة باعة الحلويات الناعمة، وكان موشكًا على أن يستيقظ في سريره حين لمح ضفدعًا يزحف نحو

المعركة. ونظر ماتيو لحظة إلى هذا الحيوان المسطَّح في غير اكتراث، ثم أصبح الضفدع رجلاً، وكان ماتيو يرى بوضوح مدهش ثنيتيْ رقبته الحليقة، وسترته الخضراء، ونطاقه وحذاءه الطريّ الأسود. «لا بدّ أنَّه قام بالدورة عبر الحقول، وها هو يزحف الآن باتّجاه البلديّة ليلقي قنبلته». وكان الألمانيّ يزحف على مرفقيه وركبتيه، ويده اليمنى التي كان يرفعها في الهواء تشدُّ عصا تنتهي بأسطوانة معدنيّة في شكل مرجل. وقال ماتيو: «ولكن، ولكن...»، وتوقَّفت الطريق عن الجري، وجمدت العجلة، فقفز ماتيو على قدميه، وركَّز بندقيّته على كتفه، وقست عيناه: كان واقفًا كثيفًا، في عالم يتكوَّن من شديديِّ الأسر، وهو يمسك عدوًّا في طرف أنبوب بندقيّته، ويصوِّب بهدوء إلى جنبيه. وقهقه قهقهة تَرفَع قصيرة: إنَّ الجيش الألمانيّ العظيم، جيش الرجال الذين هم فوق الرجال، جيش الجراد، إنّما كان هذا الشخص المسكين، الذي يبعث على الرأفة لفرط ما هو مخطئ، والذي كان يستغرق في الخطأ وفي الجهل، والذي كان منهمكًا انهماك صبيّ مضحك، ولم يكن ماتيو ليعجِّل، كان يحدِّج صاحبه بفضول، إنَّ لديه متَّسعًا من الوقت: إنَّ الجيش الألمانيّ «قابل للجَرح». وأطلق، فقام الرجل بقفزة غريبة على بطنه وهو يدفع ذراعيه إلى أمام: كمن يتعلَّم السباحة، وأطلق ماتيو مرَّة أخرى، وقد أبهجه ذلك، فانتفض الرجل المسكين باعين أو ثلاثة وهو يترك القنبلة التي تدحرجت على الطريق من غير أن تنفجر. إنَّه الآن هادئ، مضحك، لا خطر منه، ميِّت.. وقال ماتيو بصوت منخفض: «لقد هدّأته، لقد هدّأته». وكان ينظر إلى الميّت ويفكِّر: «إنَّهم كسائر البشر!»، وكان يحسّ بنفسه قويًّا نشيطًا.

وحطّت يد على كتفه: كان كلابو قد أتى ينظر إلى عمل الهاوي. تأمَّل الحيوان الميِّت وهو يهزّ رأسه، ثم التفت:

ـ شاسيريو!

فجرّ شاسيريو نفسه على ركبتيه حتى بلغهما، فقال كلابو:

ـ راقب قليلاً من هنا.

فقال ماتيو متضايقًا:

ـ لست بحاجة إلى شاسيريو.

قال كلابو: ـ سيأتون لأخذه، فإذا كان عددهم كبيرًا، تغلّبوا عليك.

وانطلق صوت رشّاش، فرفع كلابو حاجبيه، وقال وهو يعود إلى مركزه:

ـ هيه! لقد بدأ الإطلاق جدِّيًا.

والتفت ماتيو إلى شاسيريو، وقال في حيويّة:

ـ حسنًا! أظنّ أنّنا نحدث للألمان مصاعب.

فلم يجب شاسيريو. كان يبدو، ثقيلاً، خامًا، شبه نائم، وسأله ماتيو منزعجًا:

ـ ألا ترى كم هم بطيئون؟ كنت أحسب أنَّهم سيصفّون حسابنا في ضربتيْ ملعقة!

فتأمَّله شاسيريو في دهشة، ثم نظر إلى ساعة يده، وقال:

ـ لم تنقضِ ثلاث دقائق على مرور الدرّاجات.

فانحسر هياج ماتيو، وأخذ يضحك. كان شاسيريو يراقب، وكان ماتيو ينظر إلى ميِّته ويضحك. لقد حاول طوال أعوام أن يعمل، ولكنْ عبثًا. فقد كانت أفعاله تُسرق منه بالتتالي. أمّا هذا العمل، فلم يُسرق منه شيء على الإطلاق. لقد ضغط على الزناد، فحدث شيء ما في هذه المرَّة، وفكَّر وهو يزداد ضحكًا: شيء حاسم. وكانت أذنه مثقوبة بالانفجارات والصراخ، ولكنَّه كان لا يكاد يسمعها؛ كان ينظر إلى ميِّته في رضى؛ ويفكِّر: «يلعن دين! لقد أحسّ به يمرّ. لقد فهم، ذاك، لقد فهم!» ميِّته «هو» عمله «هو»، أثر مروره «هو» على الأرض. وأخذته الرغبة بأن يقتل آخرين: كان ذلك مسلِّيًا وسهلاً، كان يريد أن يُغرق ألمانيا في الحِداد.

ـ حذار!

كان شخص يزحف بحذاء الجدار، وفي يده قنبلة، وصوَّب ماتيو على هذا الكائن الغريب المرغوب فيه، وكان قلبه يخفق خفقات كبيرة.

ـ خراء!

لقد أخطأه. وانطوى الشيء على نفسه، فأصبح رجلاً تائهًا ينظر فيما حوله من غير أن يفهم، وأطلق شاسيريو، فتمدَّد الرجل كأنَّه زنبرك، وانتصب، فقفز في الهواء وهو يطوي ذراعه، وقذف قنبلته، ثم انهار على ظهره في وسط الشارع. وفي اللحظة نفسها، تطايرت ألواح زجاج ورأى ماتيو، في نهار ممتقع باهر، أشباحًا تتلوَّى في الطابق الأسفل من دار البلديّة، ثم عاد الليل، وكانت سمادير صفراء تنسحب في عينيه، وكان غاضبًا من شاسيريو، وردَّد:

ـ خراء! خراء! خراء!

قال شاسيريو: ـ لا تحزن، فقد أخطأ هدفه على كلّ حال: إنَّ الرفاق في الطابق الأوَّل.

وكان ماتيو يطرف بعينيه، وينفض رأسه ليتخلَّص من السمادير الصفراء التي كانت تبهره، وقال:

ـ حذار! إنّني أعمى.

قال شاسيريو: ـ سيزول ذلك، يلعن دين! أنظرْ إلى الشخص الذي رميته، إنَّه يحرِّك ساقيه.

فأطلَّ ماتيو، وكانت قد تحسَّنت رؤيته، فإذا الألماني الملقى على ظهره، مفتوح العينين على سعتهما، يحرِّك ساقيه! وركَّز ماتيو البندقيّة على كتفه، فقال شاسيريو:

ـ هل أنت مجنون؟ لا تبذِّر طلقاتك!

فأراح ماتيو بندقيّته في كزازة، وفكَّر: «ربّما استطاع هذا الفرج أن ينجو بنفسه».

وانفتح باب البلديّة على سعته، وظهر شخص على العتبة، فتقدَّم بخيلاء. وكان عاريًا حتى النطاق، لكأنَّه رجل مسلوخ. وكانت تتدلّى من خدَّيه الأحمرين اللذين يبدوان كأنَّهما منحوتان، برايات من اللحم. وأخذ فجأة يصرخ، فانطلقت عشرون بندقيّة في وقت واحد، فتهاوى، وهوى بأنفه، ثم سقط على درجات الحاجز.

وقال شاسيريو: ـ إنَّه ليس من فرقتنا.

فقال ماتيو بصوت يخنقه الغضب:

ـ كلّا، بل هو من فرقتنا، واسمه لاتيكس.

كانت يداه ترتجفان، وعيناه تؤلمانه، وكان يردِّد بصوت مبحوح:

ـ كان يُدعى لاتيكس، وعنده ستّة أولاد.

ثم انحنى فجأة، فصوَّب إلى الجريح الذي كانت عيناه الكبيرتان تبدوان وكأنَّهما تنظران إليه:

ـ ستدفع الثمن، أيُّها القذر.

قال شاسيريو: ـ أنت مجنون. قلت لك ألَّا تبذِّر طلقاتك.

قال ماتيو: ـ حلَّ عن ديني!

ولم يكن يعجِّل في الإطلاق: إذا رآني هذا القذر، فسيكون في وضع شاقّ، وكان يصوِّب على رأسه، وأطلق: انفجر الرأس، ولكنَّ الرجل ظلَّ يحرِّك رجليه.

وصاح ماتيو: ـ قذر! قذر!

ـ حذارِ! يلعن دين! حذارِ! إلى اليسار.

وكان خمسة ألمان أو ستّة قد ظهروا، فأخذ شاسيريو وماتيو يطلقان، ولكنّ الألمان كانوا قد غيّروا خطَّتهم. كانوا يبقون واقفين، مختفين في الزوايا، وكأنَّهم ينتظرون! قال شاسيريو:

ـ تعال يا كلابو.. يا دانديو! لقد تكاثروا.

قال كلابو: ـ لا أستطيع.

فصاح ماتيو: ـ بينيت!

فلم يجب بينيت، ولم يجرؤ ماتيو على الالتفات.

ـ حذار!!

كان الألمان قد أخذوا يركضون، وأطلق ماتيو، ولكنَّهم كانوا قد عبروا الشارع؛ وصاح بهم كلابو من مكانه:

ـ عجبًا! إنَّ هناك ألمانًا تحت الأشجار في هذه الساعة، فمن تركهم يمرُّون؟

فلم يجيبوا، كانت ثمّة تحرُّكات تحت الأشجار. وأطلق شاسيريو على هواه.

ـ سيكون مستحيلاً أن نخرجهم من أماكنهم.

وكان أفراد المدرسة قد أخذوا يطلقون، والألمان يجيبونهم، وهم في مخابئهم خلف الأشجار. وكفَّت البلديّة عن إطلاق النار بتاتًا. وكان الشارع يصعِّد الدخان ببطء، على مستوى الأرض.

وصاح كلابو: ـ لا تطلقوا في الأشجار، سيكون ذلك بارودًا ضائعًا.

وفي اللحظة نفسها، انفجرت قنبلة على واجهة البلديّة، في مستوى الطابق الأوَّل، وقال شاسيريو: ـ إنَّهم يتسلَّقون الأشجار.

فقال ماتيو: ـ إذا تسلَّقوا الأشجار، سهل علينا اصطيادهم.

وكان نظره يحاول أن يخرق الأوراق، ورأى ذراعًا ترتفع فأطلق. ولكن ذلك بعد فوات الآوان: لقد انفجرت البلديّة، فانتزعت نوافذ الطابق الأوَّل، ومن جديد، أعماه ذلك النور الأصفر الفظيع، وأطلق كيفما تأتّى له: فسمع ثمارًا ضخمة ناضجة تتدحرج من غصن لغصن، ولم يكن يعلم إن كان الأشخاص يسقطون أم يهبطون.

قال كلابو: ـ لقد كفَّت البلديّة عن الإطلاق.

وكانت الشمس تذهّب مثلّث دار البلديّة الملتهب. نظر شاسيريو إلى ساعته. فقال:

ـ سبع دقائق.

وكان ماتيو يتلوّى في اللهب، إنّه لم يكن بعد إلّا حرقًا، وكان يختنق، ووجب عليه أن يشدّ يديه على صدره ويهبط بهما رويدًا رويدًا حتى بطنه، ليتأكّد من أنّه كان سليمًا. وقال كلابو فجأة:

ـ هناك جنود على السقوف.

ـ على السقوف؟

ـ تجاهنا تمامًا. إنّهم يُطلقون على المدرسة، خراء! هكذا إذن!

ـ ماذا؟

ـ إنّهم ينصبون رشّاشًا، (وصاح): بينيت!

فانزلق بينيت إلى الخلف.

ـ تعال إلى هنا! إنّ أفراد المدرسة سيتعرّضون للقتل.

وانحنى بينيت على أربع: وكان ينظر إليهم بهيئة غائبة. وكان وجهه رماديًا.

وسأل ماتيو: ـ هل تشكو شيئًا؟

فقال بجفاء: ـ الأمور على أحسن ما يرام.

وجرَّ نفسه نحو كلابو، وركع.

قال كلابو: ـ أَطلقْ، أَطلقْ في الشارع لتشغلهم.. أمّا نحن، فسنتولّى أمر الرشّاش.

وأخذ بينيت يطلق، من غير أن يقول كلمة. فقال كلابو:

ـ أطلق بطريقة أفضل، يلعن دين! لا يطلق الإنسان، وعيناه مغمضتان.

فارتعش بينيت وبدا وهو يبذل جهدًا عنيفًا على نفسه؛ فعاود خدّيه

وأرهفوا آذانهم، ممسكين أنفاسهم، كان الألمان ما يزالون يطلقون، ولكنَّ البلديّة لم تكن تجيب. وارتعش ماتيو: ماتوا. قطع من اللحم الدامي فوق أرض مبعوجة، في قاعات فارغة.

قال شاسيريو: ليست غلطتنا. كانوا أكثر ممّا ينبغي.

وفجأة، خرجت من نوافذ الطابق الأوَّل دوَّامات دخان، وتميّز ماتيو، عبر الدخان، لهبًا أحمر وأسود. وأخذ أحدهم يصيح في دار البلديّة، وكان صوتًا حادًّا أبيض، صوت امرأة. أحسّ ماتيو فجأة أنَّه سيموت؛ وأطلق شاسيريو النار.

قال له ماتيو: ـ إنّك مجنون، ها أنت الآن تطلق على دار البلديّة، أنت الذي تأخذ عليّ أن أبذِّر الطلقات.

وكان شاسيريو يصوِّب على نوافذ البلديّة، وأطلق ثلاث مرَّات في اللهيب، وقال:

ـ إنَّه هذا الذي يزعق، لا أستطيع بعد أن أسمعه.

قال ماتيو: ـ ما يزال يزعق.

وكانا يصغيان، مثلوجين.. ثم ضعف الصوت.

ـ انتهى.

ولكنَّ الصرخات ما لبثت فجأة أن عادت بصورة أقوى، وكانت لاإنسانيّة، كانت أصداء هائلة ضخمة تزداد حدّة وثقوبًا، وأطلق ماتيو بدوره على النافذة، ولكن بلا جدوى.

قال شاسيريو: ـ إنَّه لا يريد أن يموت.

وفجأة انقطع الصراخ، فقال ماتيو:

ـ أفّ!

قال شاسيريو: ـ انتهى. مات. شُوي.

ولم يكن ثمّة بعد ما يتحرَّك، لا تحت الشجر، ولا في الشارع،

الشمس. قال دانديو بين أسنانه:

ـ «شنلفوراكنون».

وزحف ماتيو نحوهم. كانوا يطلقون، ولكن لم يكن يُرى أحد: وكان يبدو أنّ المدفع يسير من تلقاء نفسه. كانوا يطلقون إرضاء لضمائرهم، لأنَّه كان ثمّة بعد طلقات. وكانت لهم وجوه جميلة هادئة ومتعبة، وجوههم الأخيرة.

ـ إلى الوراء!

وبدا فجأة إلى شمال المدفع رجل يرتدي قميصًا بنصف كمّ، ولم يكن يسعى للاحتماء بشيء: بل كان يصدر أوامره في هدوء، وهو يرفع ذراعه. وانتصب ماتيو بغتة: كان هذا الرجل القصير ذو العنق العارية يُلهبه رغبة.

ـ إلى الوراء، وعلى بطونكم!

وارتفع فم المدفع في هدوء، ولم يكن ماتيو قد تحرّك: كان على ركبتيه يصوِّب ناره على نائب الضابط، وصاح به كلابو:

ـ هل سمعت أمري؟

فدمدم ماتيو: اسكتْ!

وأطلق، فصدم مقبض بندقيّته كتفه، وحدث انفجار هائل كأنَّه صدى مبسَّط لطلقة بندقيَّته، ورأى لونًا أحمر. ثم سمع ضجَّة تمزُّق، طويلة، مائعة.

قال كلابو: ـ أخطأوا الهدف، لقد صوَّبوا أعلى ممّا ينبغي!

وكان نائب الضابط يتخبَّط، وساقاه في الهواء. وكان ماتيو ينظر إليه وهو يبتسم. يوشك أن يُجهز عليه حين بدا جنديّان فحملاه، وزحف ماتيو القهقرى، وأتى يتمدَّد بالقرب من دانديو، وكان كلابو قد بدأ برفع باب السقف.

ـ عجِّلوا، لنهبط!

بعض الاحمرار؛ وصوّب وهو يحملق بعينيه. وكان كلابو وادنديو، إلى جانبه، يطلقان بلا انقطاع، ثم أطلق كلابو صيحة انتصار:

ـ حسنًا! حسنًا! لقد أغلق الرشّاش فمه.

وأرهف ماتيو أذنه: لم يكن يُسمع شيء بعد، وقال:

ـ نعم، ولكنّ الرفاق لا يطلقون بعد.

كانت المدرسة صامتة، واجتاز الطريق ركضًا ثلاثة ألمان كانوا قد اختبأوا تحت الأشجار وارتموا على باب المدرسة فانفتح. ودخلوا، ثم ظهروا بعد لحظة مطلّين من نوافذ الطابق الأوّل، يصرخون ويأتون بالحركات. وأطلق كلابو، فاختفوا، وبعد لحظات، سمع ماتيو، للمرّة الأولى منذ الصباح، أزيز رصاصة، ونظر شاسيريو إلى ساعته:

ـ عشر دقائق.

قال ماتيو: ـ نعم، إنّها بداية النهاية.

كانت البلديّة تحترق، وكان الألمان يحتلُّون المدرسة: فكأنَّ فرنسا هُزمت مرَّة أخرى.

ـ أطلقوا، يلعن دين!

وكان بعض الألمان قد ظهروا، حذرين، في مدخل الشارع الكبير. وأطلق شاسيريو، وكلابو: فاختفت الرؤوس.

ـ لقد اهتدوا إلى مكاننا، هذه المرَّة.

وعاد الصمت من جديد، صمت طويل، وفكَّر ماتيو: «ماذا تراهم يُعِدُّون؟» في الشارع الخالي، كان ثمّة أربعة قتلى؛ وعلى بُعد قليل، اثنان آخران: هذا كلّ ما استطعنا أن نفعله. أمّا الآن، فيجب أن ننجز مهمّتنا: أن نقتل أنفسنا. وبالنسبة إليهم، ماذا يشكّل ذلك؟ عشر دقائق تأخير عمّا هو مقرَّر.

وقال كلابو فجأة: ـ عليهم!

كان شيطان صغير قصير وسمين يجري نحو الكنيسة؛ وكان يلتمع في

فهزَّ دانديو رأسه:

ـ تحت، ليس ثمّة من نوافذ.

وتبادلوا النظر، وقال شاسيريو:

ـ إنَّنا لا نستطيع أن ندع الطلقات تذهب هدرًا.

ـ وهل بقي معك منها كثير؟

ـ مشطان.

ـ وأنت، يا دانديو؟

ـ مشط واحد.

فعاد كلابو يغلق باب السقف، وهو يقول:

ـ أنت على حقّ، لا نستطيع أن ندعها تذهب هدرًا.

وسمع ماتيو خلفه نَفَسًا أبحّ؛ فالتفت! كان بينيت قد امتقع حتى الشفتين وكان يتنفَّس بمشقّة.

ـ هل أنت مجروح؟

فنظر إليه بينيت نظرة قاسية:

ـ لا.

ونظر كلابو إلى بينيت بتنبُّه:

ـ إذا أردت أن تهبط، يا صغيري، فلست مجبرًا على البقاء. ليس ثمّة من هو مدين لأحد بشيء. إنَّها كما تعلم طلقاتنا. ولا نستطيع أن ندعها تذهب هدرًا.

قال بينيت: ـ خراء إذن! ولماذا تراني أهبط، إذا لم يهبط دولارو؟

وزحف حتى الإفريز، وأخذ يطلق.

وصاح ماتيو: بينيت!

فلم يجب بينيت. وكان الرصاص يصفِّر فوقهم؛ قال كلابو:

ـ دعه وشأنه، فإنّ هذا يشغله.

وأطلق المدفع طلقتين متتاليتين، فسمعوا صدمة قاسية فوق رؤوسهم، وانفصل عن السقف وابل من أحجار الجبس، وسحب شاسيريو ساعته:

ـ إثنتا عشرة دقيقة.

وزحف ماتيو وشاسيريو حتى الإفريز. وجلس ماتيو القرفصاء، بالقرب من بينيت؛ وكان شاسيريو، إلى يمينه، واقفًا منحنيًا إلى أمام. قال شاسيريو:

ـ لا بأس بها، إثنتا عشرة دقيقة حتى الآن. لا بأس بها.

وهبَّت الريح وزأرت وصفعت ماتيو على وجهه: ريح حارَّة ثقيلة كأنَّها الحساء، وسقط ماتيو جالسًا على الأرض. كان الدم يعميه، وكانت يداه حمراوين حتى المعصمين. كان يفرك عينيه فيمزج دم يديه بدم وجهه، ولكنْ ذلك لم يكن دمه: فإنَّ شاسيريو كان جالسًا على الإفريز، بلا رأس؛ مزيد من الدم والفقّاعات يخرج من عنقه.

قال بينيت: ـ لا أريد، لا أريد!

ونهض فجأة، فركض إلى شاسيريو وضربه في صدره بمقبض بندقيّته، فتهاوى شاسيريو وهوى من فوق الإفريز، ورآه ماتيو يسقط بلا انفعال: كان ذلك بداية موته هو بالذات.

وصاح كلابو: ـ أطلقوا النار كما تشاؤون.

وفجأة، أصبحت الساحة تنغل بالجنود، وعاد ماتيو إلى مركزه وأخذ يطلق. ودانديو يطلق بالقرب منه.

قال دانديو ضاحكًا: ـ إنَّ هذه مذبحة!

وترك بندقيّته التي سقطت في الشارع، ونام على ماتيو وهو يقول:

ـ يا عزيزي! يا عزيزي!

فدفعه ماتيو عنه بضربة كتف. فسقط دانديو إلى الخلف، واستمرّ ماتيو يطلق النار. وكان ما يزال يُطلق حين انهار السقف عليه. وتلقّى

عارضة على رأسه، فترك بندقيّته وسقط. وفكّر في جنون، خمس عشرة دقيقة، إنّني أهب كلّ شيء لأقاوم خمس عشرة دقيقة! وكانت قبضة بندقيّته تخرج من فوضى الخشب المحطَّم والأحجار المتناثرة، فسحبها إليه، كانت البندقيّة دبقة بالدم، ولكنّها معبّأة بالطلقات.

وصاح بينيت: ـ ماتيو!

فلم يجب أحد. كان انهيار السقف يسدّ شمال السطيحة كلّه. والأنقاض والعوارض تسدّ باب السقف؛ وكانت عصا من حديد تتدلّى من السقف الفاغر. كان ماتيو وحيدًا.

وقال بصوت مرتفع: ـ يلعن دين! لن يُقال إنّنا لم نقاوم خمس عشرة دقيقة.

واقترب من الإفريز وأخذ يطلق واقفًا. كان ذلك ثأرًا هائلاً؛ كلّ طلقة تثأر له من وسواس قديم، طلقة على لولا التي لم أجرؤ على سرقتها، وطلقة على مارسيل التي كان عليّ أن أهجرها، وطلقة على أوديت التي لم أرد أن أضاجعها، وهذه للكتب التي لم أجرؤ على كتابتها، وتلك للرحلات التي امتنعت عن القيام بها، وهذه الأخرى على جميع الأشخاص، جملة، الذين كنت راغبًا في احتقارهم والذين حاولت أن أفهمهم. كان يطلق، وكانت القوانين تتطاير في الهواء، ستحبّ قريبك كما تحبّ نفسك، طق في فم هذا الفرج، لن تقتل أبدًا، طق في الطرح المزيَّف الساكن قبالتي. كان يطلق على الإنسان، على «الفضيلة»، على العالم: «الحرّيّة» هي «الإرهاب»؛ كانت النار تشتعل في البلديّة، تشتعل في رأسه: كان الرصاص يئزّ، حرًّا كالهواء، سينفجر العالم، وأنا معه، وأطلق، ونظر إلى ساعته: أربع عشرة دقيقة وثلاثون ثانية: لم يبق ما يُطلب بعدُ إلَّا مهلة نصف دقيقة، ما يكفي فحسب لإطلاق النار على الضابط الجميل الفخور الذي كان يعدو نحو الكنيسة؛ وأطلق على الضابط الجميل، على كلّ «جمال» «الأرض»، على الشارع، على

الأزهار، على الحدائق، على كلّ ما سبق له أن أحبّه، وغطس «الجمال» غطسة داعرة.. وأطلق ماتيو مرَّة أخرى. أطلق: وكان نقيًّا، وكان قديرًا، وكان حرًّا.

خمس عشرة دقيقة.

القسم الثاني

الليل، النجوم؛ نار حمراء في الشمال، إنَّها دسكرة تحترق. في الشرق والغرب، بروق حرّ طويلة وجافَّة: إنَّها مدافعهم. إنَّهم في كلّ مكان، وسيعتقلونني غدًا. ويدخل إلى القرية النائمة؛ ويعبر الساحة، ويقترب من بيت صدفة، فيطرق بابه، لا جواب، ويشدّ على المقبض، فينفتح الباب. ويدخل، ويغلق الباب خلفه: الظلام. عود ثقاب. هو في الممرّ، وتخرج مرآة من الظلام بغموض، فيرى فيها نفسه: إنَّني بأشدّ الحاجة إلى حلق ذقني. وينطفئ عود الثقاب. وقد أُتيح له أن يلمح سلَّمًا يهبط إلى اليسار. ويقترب منه متحسِّسًا: السلّم يهبط منعطفًا، وينعطف برونيه، فيلمح ضياء غامضًا منتشرًا، وينعطف مرَّة أخرى: القبو. إنَّ رائحة الخمر والفطر تنبعث منه. براميل، كومة قشّ. رجل ضخم في قميص الليل والبنطلون، جالس على القشّ بالقرب من شقراء نصف عارية تمسك طفلاً بين ذراعيها. وينظرون إلى برونيه، فاغري الأفواه، خائفين. ويهبط برونيه درجات السلّم، والرجل لا ينفكّ ينظر إليه. ويظلّ برونيه يهبط، ويقول الرجل فجأة:

ـ إنَّ زوجتي مريضة.

فيسأل برونيه: ـ يعني؟
ـ لم أرد أن تقضي الليل في الغابات.
قال برونيه: ـ تقول لي هذا، وهو لا يهمّني على الإطلاق.
وهو الآن في القبو. وينظر إليه الرجل في تحدٍّ:
ـ ولكن ماذا تريد؟
قال برونيه: ـ أريد أن أنام هنا.
فكزّ وجه الرجل، وظلّ ينظر:
ـ هل أنت ملازم؟
فلم يجب برونيه. فسأله الرجل بارتياب:
ـ أين هم رجالك؟
قال برونيه: ـ لقد ماتوا.
واقترب من كومة القشّ، وقال الرجل:
ـ والألمان، أين هم؟
ـ في كلّ مكان.
قال الرجل: ـ لا أريد أن يجدوك هنا.
ونزع برونيه سترته فطواها ووضعها على برميل. وصاح الرجل:
ـ أتسمع؟
فقال برونيه: ـ أسمع.
ـ إنَّ لي امرأة وطفلاً: فلا أريد أن أدفع ثمن حماقاتكم.
قال برونيه: ـ لا تهتمّ بالأمر.
وجلس. ونظرت إليه المرأة في حقد. وقالت:
ـ هناك فرنسيُّون سيقاتلون فوق. فكان ينبغي لك أن تكون معهم.
ونظر إليها برونيه، فرفعت قميص النوم على نهديها، وصاحت:
ـ أخرج من هنا، أخرج من هنا. يكفي أنّكم خسرتم الحرب، فلا

تعرِّضونا فوق ذلك للقتل.

فقال لها برونيه: ـ لا تخافي. فليس عليكما إلَّا أن توقظاني حين يصبح الألمان هنا.

ـ وماذا ستفعل؟

ـ سوف أستسلم.

قالت المرأة: ـ قذارة! بينما هناك أخيرًا أُناس يعرِّضون أنفسهم للذبح.

وتثاءب برونيه وتمطّى ثم ابتسم. إنَّه يقاتل منذ ثمانية أيّام، من غير أن ينام، ومن غير أن يأكل تقريبًا. وقد أوشك عشرين مرَّة أن يُقتل. ولقد انتهى القتال الآن، لقد خُسرت الحرب، وهناك ما ينبغي أن يُعمل. عمل كثير. وتمدّد على القشّ، وتثاءب، ونام.

قال الرجل: ـ هيّا.. ها هم أولاء!

وفتح برونيه عينيه، فرأى وجهًا ضخمًا أحمر، وسمع طلقات وانفجارات.

ـ هل وصلوا؟

ـ نعم. والقتال دائر. إنّني لا أستطيع أن أحتفظ بك عندي.

ولم تتحرَّك المرأة. إنَّها تنظر إلى برونيه بعينيها المتوحِّشتين، وهي تضمّ ولدها النائم في ذراعيها.

وقال برونيه: ـ إنّني ذاهب.

ونهض، وتثاءب، واقترب من نافذة، وفتّش عن قربته، فأخرج منها قطعة مرآة وآلة للحلاقة. ونظر إليه الرجل، مذهولاً من شدّة الغيظ:

ـ أتراك ستحلق ذقنك؟

فسأله برونيه: ـ ولِمَ لا؟

ويحمرّ وجه الرجل من الغضب:

ـ أقول لك إنَّهم سيرموننا بالرصاص إذا وجدوك هنا!

ويقول برونيه: ـ سأنتهي بسرعة.

ويشدّه الرجل من ذراعه ليخرجه:

ـ إنّني لا أريد ذلك، فلي امرأة وطفل، ولو علمت، لما تركتك تدخل.

فتخلَّص برونيه بانتفاضة، ونظر باشمئزاز إلى هذا المائع الخرع الذي يُصرّ على الحياة، والذي سيحيا في جميع العهود، متواضعًا مخاتلاً، وسيحيا من أجل لا شيء. وارتدّ الرجل عليه، فقذفه برونيه على الجدار:

ـ إهدأ وإلَّا.

وتوقَّف

وظلّ الرجل مشدوهًا. ينتفض وهو منطوٍ على نفسه ويدير عينيْ الكحوليّتين، وكانت تنبعث منه رائحة موت وزبل. وأخذ برونيه يحلق ذقنه، بلا صابون ولا ماء، وكان جلده يحرقه؛ وإلى جانبه، كانت المرأة ترتجف خوفًا وغيظًا، وعجَّل برونيه: إذا استمرّ ذلك طويلاً، أصبحت مجنونة. ووضع آلته في قربته: إنَّ الشفرة ما زالت تصلح مرّتين.

ـ أرأيت؟ لقد انتهيت. إنَّ الأمر لم يكن يستحقّ كلّ هذه المشاكل.

فلم يجب الرجل، وصاحت المرأة:

ـ أخرج من هنا، أيُّها القذر، أيُّها الجبان القذر، إنَّك ستعرِّضنا للقتل!

وارتدى برونيه سترته، وأحسّ نفسه نظيفًا، جديدًا وصلبًا، وكان وجهه أحمر.

ـ أخرج من هنا! أخرج من هنا!

وحيّا بأصبعين وقال:

ـ شكرًا على أيّ حال.

ورقي السلّم المظلم، واجتاز مدخلاً: وكان باب الدخول مفتوحًا على سعته؛ وفي الخارج، كان شلّال النهار الأبيض، وطقطقة الرشَّاشات العنيدة، كان البيت مظلمًا ورطبًا. واقترب من الباب؛ يجب أن يغطس في زبد هذا النور. ساحة صغيرة، الكنيسة، المقبرة، زبل أمام الأبواب. وبين بيتين يحترقان، كانت الطريق الوطنيّة، مورّدة بالصباح. وكان الألمان هناك، زهاء ثلاثين رجلاً منهمكين، عمَّال في أثناء عملهم، يُطلقون النار على الكنيسة، ويُطلق عليهم من برج الأجراس، فكأنَّهم في ورشة. وفي وسط الساحة، كان الجنود الفرنسيُّون في قمصانهم تحت النيران المتشابكة، وعيونهم متورِّدة من النعاس، يمشون على رؤوس أصابعهم، بخطى صغيرة مسرعة، كما لو أنَّهم يسيرون في استعراض لإحدى مسابقات الجمال. وكانوا رافعين أيديهم الممتقعة فوق رؤوسهم، والشمس تتلاعب بين أصابعهم. وينظر إليهم برونيه، وينظر إلى برج الأجراس، وإلى يمينه بناء ضخم يحترق. ويحسّ الحرارة على خدِّه، ويقول: «خراء!»، ويهبط درجات السلّم الثلاث. وهكذا: لقد أُخذ. ويحتفظ بيديه في جيبيه، وهما ثقيلتان كأنَّهما من رصاص. «إرفع يديك»! ويصوِّب عليه ألماني ببندقيّته. ويحمرّ وجهه، وترتفع يداه ببطء، وها هما في الهواء فوق رأسه: سيدفعون لي ذلك دمًا. وينضمّ إلى الفرنسيين فيرقص معهم، فكأنَّه فيلم سينمائيّ، لا شيء يبدو حقيقيًّا، وهذا الرصاص الذي يئزّ لا يمكن أن يقتل، والمدفع يطلق بارودًا أبيض. وينحني فرنسيٌّ في شكل تحيّة ثم يسقط، فيتجاوزه برونيه. وينعطف غير معجّل عند زاوية البيت الأسمر ثم يسلك الشارع الكبير، في الوقت الذي ينهار فيه برج الأجراس. ليس من ألمان بعد، وليس من رصاص، انتهى الفيلم، وها هو الريف الحقيقيّ، ويعود فيضع يديه في جيبيه. إنَّهم فرنسيُّون فيما بينهم. جمع من الفرنسيين القصار في ثياب الكاكي، متَّسخون، طويلو اللحى، مسودّة وجوههم من الدخان، يضحكون ويمزحون ويهمسون، موجة من الرؤوس العارية، أو طاقيّات رجال الشرطة، وليس من قبّعة

واحدة، ويعرف بعضهم بعضًا، ويتبادلون التحيّات: «لقد رأيتك في سافيرن في شهر كانون الأوَّل. هي! جيرار، مرحبًا، يجب أن تحدث الهزيمة لنلتقي من جديد، كيف حال ليزا؟» ويحرس قطيع المهزومين الصغار جنديٌّ ألمانيٌّ يبدو عليه الضجر، وسلاحه على كتفه، وهو يرافق كردحتهم المستعجلة بخطوات واسعة بطيئة. ويكردح برونيه مع الآخرين، ولكنَّه في طول الألمان، وهو حليق الذقن مثلهم. والطريق الورديّة تسيل بين العشب، ليس من نسمة هواء، والحرّ حرّ هزيمة. إنَّ رائحة الرجال منبعثة، وهم يثرثرون والعصافير تغنِّي. ويلتفت برونيه إلى جاره، وهو رجل سمين يبدو عليه اللطف ويتنفّس من فمه، فيسأله:

ـ من أين أنتم قادمون؟

ـ كنَّا نازلين من «سافيرن» وقد قضينا الليل في المزارع.

قال برونيه: ـ أمّا أنا، فقد جئت وحدي. إنَّ هذا لطيف، فقد كنت أحسب القرية خالية.

وكان شابّ أشقر برونزيّ يسير على بعد صفَّين منه، عاريًا حتى النطاق، وبين راسليه قشرة ضخمة دامية. وارتفع في ظهر برونيه ضجيج طبيعيّ هائل من الضحك والصراخ واصطدام الأقدام بالأرض، ممّا يشبه صوت الريح في الشجر. والتفت: إنَّ آلاف الرجال هم الآن خلفه، وقد جُمِّعوا من كلّ مكان، من الحقول، من الدساكر، ومن المزارع. وانتصبت كتفا برونيه ورأسه متوحِّدة فوق هذا السهل المتموِّج.

وقال الشخص السمين: ـ إسمي مولو، وأنا من «بارلودوك».

وأضاف باعتزاز: ـ إنّني أعرف المنطقة.

وفي طرف الشارع، كانت مزرعة تحترق، وكان اللهيب أسود في وجه الشمس، وكان كلب يعوي. وقال مولو لجاره:

ـ أتسمع الكلب؟ لقد سجنوه في الداخل.

والجار هو بكلّ تأكيد من الشمال، أشقر، وليس قصيرًا جدًّا، وله

بشرة حليبيّة، وكان يشبه الألمانيّ الذي يحرسهم. ويقطِّب حاجبيه ويدير عينيه الكبيرتين الزرقاوين، نحو مولو:

ـ ماذا؟

ـ الكلب مسجون في الداخل؟

قال «الشتيمي»: ـ يعني؟ إنَّه كلب.

ـ أواه! أواه! أواه! أواه!

ـ ولم يكن الكلب هو الذي ينبح، هذه المرّة، وإنَّما كان الفتى ذا الظهر العاري. وأقبل واحد يجرُّه ويضع يده على فمه؛ وأُتيح لبرونيه أن يلمح وجهه الممتقع الضخم المشدوه ذا العينين اللتين لا أهداب لهما. وقال مولو للشتيمي:

ـ لا يبدو على «شاربان» أنَّه في حالٍ طيِّبة.

فنظر إليه الشتيمي:

ـ ماذا تقول؟

ـ أقول إنَّ رفيقك «شاربان» لا يبدو في حال طيِّبة.

وضحك الشتيمي فبدت أسنانه البيضاء:

ـ لقد كان دائمًا غريبًا.

وكانت الطريق صاعدة، ترافقهم رائحة طيِّبة لأحجار ساخنة وحطب محروق، وكان الكلب يعوي في ظهرهم. بلغوا قمَّة الشاطئ؛ فانحدرت الطريق في مهبط صلب. وأشار مولو بأصبعه إلى العمود الذي لا ينتهي:

ـ أوه! من أين تراهم يخرجون، هؤلاء؟

والتفت إلى برونيه:

ـ كم يبلغ العدد؟

ـ لا أدري. ربَّما عشرة آلاف، وربَّما أكثر.

فنظر إليه مولو غير مصدِّق:

ـ وتستطيع أن ترى ذلك هكذا، بمجرَّد نظرة؟

ويفكِّر برونيه في أيَّام ١٤ تمُّوز، وأيَّام أيّار؛ كانوا يوقفون الأفراد في جادّة ريشار ـ لونوار، ثم يقومون بإحصائهم وفقًا لمدَّة العرض، جموع صامتة وحارّة؛ وكان يحترق إذ يكون في وسطهم. أمّا هذا الجمع، فهو صاخب، ولكنَّه بارد وميِّت. ويبتسم ويقول:

ـ لقد ألفت ذلك.

فسأل الشتيمي:

ـ أين هم ذاهبون؟

ـ لا أدري.

ـ وأين هم الألمان؟ ومن الذي يقود؟

ولم يكن ثمَّة ألمان، باستثناء زهاء عشرة يتفكَّهون في الشارع. كان القطيع الهائل ينسرب حتى منخفض الشاطئ، كما لو أنَّه يستجيب لثقله وحده، وقال مولو:

ـ هذا طريف.

قال برونيه: ـ نعم. هذا طريف.

هذا طريف؛ كان بوسعهم أن يرتموا على الألمان، فيخنقوهم ويفرُّوا عبر السهول: ولكنْ ما جدوى ذلك؟ كانوا يسيرون باستقامة، أيَّان تقودهم الطريق. وها هم أولاء في أسفل الشاطئ، في حفرة شبه مغلقة. وها هم الآن يصعدون ثانية، وهم يحسّون بالحرّ. ويسحب مولو من جيبه رزمة من الرسائل يربطها خيط من المطّاط، فيقلبها لحظة بين أصابعه الضخمة المرتبكة. ويخلِّف العرق لطخات على الورق، فيكمد الحبر البنفسجيّ في مواضع. وينزع مولو الخيط المطّاط، ويأخذ يمزِّق الرسائل بانتظام، من غير أن يُعيد قراءتها، إلى قصاصات صغيرة ينثرها شيئًا فشيئًا، في حركة باذر. ويتابع برونيه بعينيه طيران القصاصات اللاهث: وكان معظمها يسقط نثارًا على أكتاف الجنود، ومن ثم تحت أقدامهم؛ وتطايرت قصاصةٌ

لحظة، ثم حطَّت على باقة عشب، فانثنى العشب قليلاً وحملها كمظلَّة. وعلى طول الطريق، كان ثمّة أوراق أخرى، ممزَّقة ومدعوكة ومكوَّرة، في الحفر، وبين البنادق المحطَّمة، والقبَّعات المبعوجة. وكان برونيه يلتقط كلمة في عبوره، إذ يكون الخطّ كبيرًا وعاليًا: كُلْ جيدًا، تغطّ جيّدًا، جاءت هيلين مع الصغار، في ذراعيك يا حبيبي. الطريق كلّها رسالة غرام ملطَّخة. وكانت مسوخ صغيرة مائعة تزحف على الأرض، وتنظر إلى قطيع المهزومين المرح بعيونها التي لا حدق فيها: أقنعة للوقاية من الغازات السامَّة. ويدفع مولو مرفق برونيه، ويومىء إلى قناع:

ـ إنَّ من حظِّنا على كلِّ حال أنَّنا لم نحتج إليها للاستعمال.

فلا يُجيب برونيه؛ ويبحث مولو عن مشاركين آخرين:

ـ إيه! لامبير!

فالتفت رجل كان بالقرب من برونيه، فنبّهه مولو إلى قناع، من غير تعليقات؛ فأخذا يضحكان، وكان الباقون يضحكون حولهما: كانوا يحتقرونهم، هؤلاء الدعاميص الطفيليِّين، وكانوا يخافون منهم، ومع ذلك فقد كان ينبغي إطعامهم والاعتناء بهم. إنَّهم الآن ملقون تحت أقدامهم، أمواتًا، وهم يرونهم فيتذكَّرون بأنَّ الحرب قد انتهت. وكان فلَّاحون آتون، على مألوف عادتهم كلّ يوم، ليشتغلوا في الحقول، ينظرون إليهم يمرُّون وهم يستندون على مقالبهم؛ وأخذ لامبير الجذل، فصاح بهم: «مرحبًا يا أولادي! هذا هو الصفّ؟» فردَّدت عشرة أصوات، مئة صوت، في لهجة تحدّ: «هذا هو الصفّ! هذا هو الصفّ! إنّنا عائدون إلى بيوتنا». ولم يجب الفلَّاحون، بل لم يكن يبدو عليهم أنَّهم يسمعون. وسأل شابّ أشقر مجعَّد الشعر، يبدو أنَّه پاريسيّ، سأل لامبير:

ـ كم تظنّ عددهم؟

قال لامبير: ـ قليل، يا بلوندنيه، قليل.

ـ أتعتقد؟ هل أنت متأكِّد؟

ـ ما عليك إلَّا أن ترى. أين هم الأشخاص الذين يجب أن يحرسونا؟ لو كنّا حقًّا من الأسرى، لرأيت كيف كنّا نكون محاطين.

فسأل مولو: ـ لماذا أخذونا إذن؟

ـ أخذونا؟ إنَّهم لم يأخذونا: وإنَّما هم ركنونا جانبًا حتى لا نكون بين سيقانهم، فيما هم يتقدَّمون.

فتنهَّد الأشقر: ـ حتى في هذا الوضع، يمكن لذلك أن يدوم طويلاً.

ـ هل أنت مجنون؟ إنَّهم لا يستطيعون حتى أن يركضوا في مثل السرعة التي نهرب بها.

وكان يبدو جذلاً ويقهقه:

ـ إنّ الألمان لا يكترثون بذلك، فهم يتنزَّهون: دجاجة صغيرة في باريس، قدح خمر في ديجون، وسمك مطبوخ في مارسيليا. ولكن ينتهي الأمر في مارسيليا، فعليهم أن يتوقَّفوا هناك: لأنَّ البحر أمامهم. وفي تلك اللحظة يتركوننا، فنكون في بيوتنا، في منتصف آب.

ويهزّ بلوندنيه رأسه:

ـ شهران! إنَّ هذا طويل.

ـ يبدو أنَّك مستعجل جدًّا. ولكن اسمع: يجب أن يصلحوا الخطوط، حتى يستطيع القطار أن يمرّ.

قال مولو: ـ القطار؟ إنّني أهديهم إيّاه. إذا كان الأمر مقتصرًا على ذلك، فإنِّي مستعدٌّ للعودة إلى بيتي مشيًا على الأقدام.

ـ خراء إذن! أمَّا أنا فلا، لقد انقضى عليّ خمسة عشر يومًا وأنا أمشي، وقد امتلأت مؤخَّرتي مشيًا، وأريد أن أرتاح.

ـ أليست لك رغبة إذن في أن تضاجع صاحبتك؟

ـ ولكنْ بأيِّ شيء أفعل ذلك؟ لقد أفرطت في المشي، حتى لم يبق لي شيء في البنطلون. أريد أن أنام، وأنام وحدي.

وكان برونيه يستمع إليهم، وينظر إلى رقابهم، ويفكِّر بأنَّ هنالك عملاً كثيرًا يُعمل. شجر الحور، شجر الحور، جسر على ساقية، شجر الحور. وقال مولو:

ـ إنّني عطشان.

فقال الشتيمي: ـ ليس هو العطش، وإنَّما الجوع: فأنا لم أقضم لقمة منذ الأمس.

وكان مولو يكردح ويعرق، ويلهث، ونزع سترته، ووضعها على ذراعه، وفكّ أزرار قميصه وقال مبتسمًا:

ـ نستطيع الآن أن نخلع ستراتنا، فنحن أحرار.

توقُّفٌ مفاجئ. وصدم برونيه بصدره ظهر لامبير. والتفت لامبير؛ وكانت لحيته متّصلة بسالفيه، وكانت له عينان حيّتان تحت حاجبين كثيفين أسودين.

ـ ألا تستطيع أن تنظر أمامك، أيُّها الأبله؟ أليست عيناك في ثقبيك؟

وكان ينظر إلى ثوب برونيه العسكري في وقاحة:

ـ انتهى عهد المائعين. وليس هناك من يأمر. ليس هناك إلّا بشر.

ونظر إليه برونيه بلا غضب، وصمت الرجل. وتساءل برونيه عمّا يستطيع أن يعمل إذ يعود مدنيًّا. تاجر صغير؟ عامل؟ طبقة وسطى، على أيِّ حال. إنَّهم مئات ألوف على هذا الوضع: ليس ثمَّة أيُّ حسٍّ للسلطة أو للنظافة الشخصيّة. ولا بدّ من نظام حديديّ. وسأل مولو:

ـ لماذا توقَّفنا؟

فلم يجب برونيه. إنَّ هذا هو أيضًا بورجوازيّ صغير، شبيه كلّ الشبه بالآخر، ولكنَّه أكثر بلاهة: فلن يكون مناسبًا العمل هنا. وتنهَّد مولو رضى وتروّح:

ـ لعلّ لدينا متَّسعًا من الوقت للجلوس على الأرض.

ووضع قربته في الطريق وجلس عليها، واقترب منهم الجنديّ

الألمانيّ، فأدار نحوهم وجهه الجميل الخالي من التعبير، وكانت غشاوة مبهمة من الودّ تطوف بعينيه الزرقاوين، وقال في اهتمام:

ـ يا للفرنسيِّين المساكين، لقد انتهت الحرب. فعودوا إلى بيوتكم، عودوا إلى بيوتكم.

ـ ماذا يقول؟ ماذا يقول؟ إنَّنا سنعود إلى بيوتنا؟ طبعًا سنعود إلى بيوتنا، خراء، يا جوليان، أتسمع؟ سنعود إلى بيوتنا، اسأله متى، أجل، اسأله متى نعود إلى بيوتنا؟

كانوا يكلِّمونه بلا كلفة، بألفة وودّ. إنَّه الجيش المنتصر كلّه، وليس إلَّا عسكريًّا بسيطًا. وردَّد الألمانيّ، فارغ العين:

ـ عودوا إلى بيوتكم، عودوا إلى بيوتكم.

ـ ولكن متى؟

ـ أيُّها الفرنسيُّون المساكين، عودوا إلى بيوتكم.

ويستأنفون السير، أيَّتها الحور، أيَّتها الحور. ويئنُّ مولو، إنَّه يُعاني الحَرّ، ويُعاني العطش، ويُعاني التعب، ويودّ لو يقف، ولكن ليس ثمَّة من يستطيع أن يوقف هذا السير العنيد الذي لا يقوده أحد. وأنَّ شخص آخر: «إنَّ بي صداعًا» ومشى، وثقلت الثرثرة، تقطعها لحظات صمت طويلة، وقالوا فيما بينهم: «أنظلّ نمشي هكذا حتى برلين؟» وظلُّوا يمشون؛ وكانوا يتبعون من يسبقهم، مدفوعين بمن يليهم. قرية، كومة قبّعات وأقنعة وبنادق في الساحة الكبرى. وقال مولو:

ـ بودرو: لقد مررت من هنا أمس الأوَّل.

فقال بلوندينه: ـ عجبًا، وأنا، أمس. وكنت في الشاحنة: وكان ثمَّة ناس على عتبات بيوتهم، ولم يكن يبدو عليهم أنَّهم ينظرون إلينا باحترام.

وكانوا ما يزالون هناك، على عتبات بيوتهم، صامتين، متشابكي الذراعين، نساء ذوات شعر أسود، وعيون سوداء، وثياب سوداء، وشيوخ. إنَّهم ينظرون. وأمام هؤلاء الشهود، كان الأسرى ينتصبون،

فتصبح وجوههم وقحة مروّسة، وتتحرَّك أيديهم ويضحكون ويصرخون: «مرحبًا بالأمِّ الصغيرة! مرحبًا بالأب! هذه هي العودة إلى الصفّ، انتهت الحرب، مرحبًا». ويمرُّون ويحيُّون، ويُرسلون غمزات وبسمات مثيرة، فيصمت الشهود وينظرون. وتتمتم السمّانة الطيِّبة السمينة وحدها: «يا للشباب المساكين». ويبتسم الشتيمي باقتضاب، ويقول للامبير:

ـ من حسن الحظّ أنَّنا لسنا في الشمال.

ـ لماذا؟

ـ لو كنّا هناك، لقذفونا بالكراسي والصحون.

نبع، عشرة أشخاص، مئة شخص ينفصلون عن الصفوف، ويذهبون ليشربوا. ويهرع مولو، فينحني بارتباك ونَهَم. وكانوا يتلامسون من التعب فترتعش أكتافهم، ويسيل الماء على وجوههم. ولم يكن يبدو على الحارس أنَّه يراهم: لسوف يبقون في القرية إذا شاءوا وإذا كانت لديهم الجرأة على مجابهة الأنظار. ولكن لا، إنَّهم يعودون واحدًا واحدًا، متعجِّلين كما لو أنَّهم يخشون أن يفقدوا مراكزهم. ويعدو مولو كأنّه امرأة، وهو يلوي ركبتيه، ويتدافعون ويضحكون ويصرخون، يثيرون الدهشة والتحدِّي؛ وكانت أفواههم تنشقّ عن جروح ضاحكة تحت عيون تشبه عيون كلابٍ مضروبة. ومسح مولو شفتيه، وقال:

ـ كان ذلك منعشًا.

ونظر إلى برونيه في دهشة:

ـ ألم تشرب أنت؟ ألست عطشًا؟

فهزّ برونيه كتفيه من غير أن يُجيب؛ مؤسف ألَّا يكون هذا القطيع محاطًا بخمسمئة جنديٍّ مسلَّح ينغزون مؤخِّرات المتخلِّفين، ويقتلون الثرثارين بأعقاب البنادق: لو كان الأمر كذلك، لكانت هيئتك مختلفة الآن. ونظر إلى يمينه، وإلى يساره، والتفت، باحثًا عن وجه شبيه بوجهه في هذه الغابة من الوجوه المهجورة، الثملة، التي يعذِّبها مَرَحٌ لا يُقهر.

أين هم الرفاق! إنَّ الشيوعيَّ يُعرف من النظرة الأولى. وجه، وجه واحد قاس وهادئ، وجه إنسان. ولكن لا: إنَّهم يمشون منحنين إلى أمام، قصارًا، قبيحين، تسوق السرعة أجسامهم السقيمة المفتّشة، ويلهو على سحنهم القذرة كلّ الذكاء الفرنسيّ، فيشدّ على زوايا الأفواه بخيوط، ويقلِّص المناخر أو يمدِّدها، ويجعِّد الجباه، ويلهب العيون؛ إنَّهم يقدِّرون، ويميِّزون، ويحاكمون، ويحكمون، وينتقدون، ويَزِنُون الحسنات والسيِّئات، ويتذوَّقون اعتراضًا، ويدلِّلون وينتهون إلى نتائج، جَدَل لا ينتهي يشكِّل كلّ وجه فيه طرفًا. إنَّهم يسيرون بوداعة، ويحاكمون وهم سائرون، إنَّهم هادئون: فلقد انتهت الحرب؛ ولم تحدث معارك ضارية، فالألمان لا يبدون مفرطين في الوحشيّة. هادئون لأنَّهم يحسبون أنَّهم قدّروا بلمحة واحدة أسيادهم الجدد؛ وقد عادت وجوههم تفرز ذكاء، لأنّ هذا صنفٌ كماليٌّ باذخ يختصّ به الفرنسيُّون، ويمكن منحه للألمان في الوقت المناسب لقاء منافع دقيقة. شجر الحور، شجر الحور، والشمس تصفع، والوقت ظهر: «ها هم أولاء!» ويمّحي الذكاء. ويئنّ القطيع برمَّته من الشهوة، ولم يكن ذلك صرخة، حتى ولا تنهّدة: بل كان نوعًا من التهالك الإعجابيّ، وحفيفًا عذبًا لأوراق شجر تنحني تحت ثقل المطر. «ها هم أولاء!» وكان ذلك يعدو من أمام إلى خلف، وينتقل من رأس إلى رأس كنبأ سارّ، ها هم أولاء! ها هم أولاء! وتتزاحم الصفوف، وتتدافع في الجوانب، وترتعش دودة الفراش الطويلة: إنَّ الألمان يمرُّون في الطريق، على الدرّاجات، وفي العربات والشاحنات، حليقي الذقون، مرتاحين، برونزيّين، بوجوه جميلة هادئة غامضة كأنَّها المراعي. إنَّهم لا ينظرون إلى أحد، ونظرهم محدِّق في الجنوب، إنّهم يلجون في فرنسا وقوفًا وصامتين، ويُنقلون بالمجّان، إنَّهم فرقة مشاة راكبة، وأنا أسمّي ذلك خوض الحرب، أنظر إلى الرشَّاشات، أوه! والمدافع الصغيرة، ما أروع ذلك، وليس مستغربًا بعد أن نكون قد خسرنا الحرب. إنَّهم مفتونون بأن يكون الألمان أقوياء إلى هذا الحدِّ. ويحسُّون

بأنَّهم غير مذنبين: «إنَّهم لا يُقهرون، فليس هنالك من شكّ، إنَّهم لا يُقهرون!» وينظر برونيه إلى هؤلاء المهزومين المشدوهين، ويفكِّر: هذه هي المادَّة. صحيح أنَّها تساوي ما تساوي، ولكن لا أملك سواها. بوسعنا أن نعمل في كلٍّ مكان، ولا شكَّ في أنَّ هناك، في النصيب، من هم قابلون للاسترداد. ويمرّ الألمان، وتزحف الدودة إلى خارج الطريق، وها هم أولاء على ساحة لكرة السلَّة يملأونها بصمغهم الأسود، فيجلسون ويضطجعون، ويصنعون من صحف شهر أيّار قبَّعات كبيرة تقي من الشمس، فكأنَّها الأرض الخضراء لحلبة سباق، أو غابة «فانسين» يوم أحد.

ـ كيف حدث أن توقَّفنا؟

قال برونيه: ـ لا أدري.

ونظر في غيظ إلى هذا الجمع المقلوب، ولم تكن به رغبة للجلوس، ولكن تلك حماقة، فينبغي ألَّا يُحتقروا، فتلك خير وسيلة للقيام بعمل سيِّئ، ثم من يدري إلى أين نحن ذاهبون، فلا بدّ له من مراعاة قواه، وجلس. ومرّ ألمانيّ خلفه، ثم آخر: فنظرا إليه وهما يضحكان بودّ، وسألا في سخرية أبويّة:

ـ أين هم الإنكليز؟

ونظر برونيه إلى حذاءيهما الأسودين الطريّين، ولم يجب، فمضيا؛ وظلّ نائب ملازم طويل في الخلف، وردّد في حزن مليء بالعتاب:

ـ أين هم الإنكليز، أيُّها الفرنسيُّون المساكين، أين هم الإنكليز؟

فلم يجب أحد، وهزّ رأسه بضع مرَّات. وحين ابتعد الألمان، أجابهم لامبير من بين أسنانه:

ـ في مؤخِّرتي هم الإنكليز؛ وأنت لا تستطيع أن تركض بالسرعة التي يبعصونك بها!

قال مولو: ـ أويه!

ـ ماذا؟

فأوضح مولو: ـ من الممكن أن يبعص الإنكليز الألمان، ولكنْ ليس هناك كيلومترات طويلة ـ حتى يصبحوا مبعوصين بدورهم، وبطريقة قذرة!

ـ ليس هذا مؤكَّدًا.

ـ بلى، بالتأكيد، أيُّها الممحون! إنَّهم يتطاوسون لأنَّهم في جزيرتهم؛ ولكنْ، انتظر قليلاً لترى كيف يجتاز الألمان المانش، وسترى! وأنا أقول لك، إذا لم يستطع الجنديّ الفرنسيّ أن يقاوم، فليس الإنكليز هم الذين سيربحون الحرب!

أين هم الرفاق؟ ويُحسّ برونيه بأنَّه وحيد. ها هي عشرة أعوام تنقضي من غير أن يشعر بمثل هذه الوحدة. إنَّه جائع وعطش، وهو خجلٌ أن يحسّ الجوع والعطش. ويلتفت إليه مولو:

ـ سيعطوننا طعامًا.

ـ صحيح؟

ـ يبدو أنَّ نائب الملازم قد قال ذلك: سوف يوزِّعون خبزًا ومعلَّبات.

وابتسم برونيه: هو يعلم بأنَّهم لن يعطوهم شيئًا يأكلونه. يجب أن يسيل لعابهم لذلك، ولن يسيل لعابهم بما فيه الكفاية أبدًا. وفجأة نهض رجال، وتبعهم آخرون، ثم نهض الجميع، ومضوا. ويستبدّ الغضب بمولو، ويُبدي استياءه:

ـ من الذي أمر بأن نمضي؟

فلم يُجب أحد، فصاح مولو:

ـ لا تذهبوا، يا جماعة، فسوف يعطوننا ما نأكله.

ولكنَّ القطيع كان قد انخرط في السير، أعمى وأصمّ. كانوا يمشون. غابة؛ أشعَّة صفراء وحمراء تتخلَّل الأوراق، ثلاثة مدافع عيار

٧٥ متروكة، ما تزال تهدِّد الشرق؛ الرجال مسرورون لأنّ هناك ظلًّا؛ وتمرّ فرقة من ممهِّدي الطرق الألمان. فينظر إليهم الأشقر ببسمة دقيقة، ويتسلىّ بأن يراقب المنتصرين عليه عبر أجفانه نصف المغلقة، ويلاعبهم كما يلاعب القطّ الفأرة ويتنعَّم بتفوُّقه، ويقبض مولو على ذراع برونيه ويهزّه.

ـ أنظر هناك! المدخنة الرماديّة!

ـ يعني؟

ـ إنّها «بكارا».

وينتصب على رؤوس أصابعه، ويكوِّر يده حول فمه ويصيح:

ـ بكارا عجِّلوا يا رفاق: إنّنا نصل إلى بكارا.

الرجال متعبون، والشمس في عيونهم؛ وهم يردِّدون بوداعة: «بكارا، بكارا» ولكنَّهم لا يبالون. ويسأل بلوندينه برونيه:

ـ بكارا، أهي التخريم؟

قال برونيه: ـ كلًا، هي معمل الزجاج.

فقال بلوندينه بلهجة غموض واحترام:

ـ آه! آه!

والمدينة سوداء تحت السماء الزرقاء، وجوه تحزن، ويقول رجل بحزن: طريف أن نرى مدينة.

وهبطوا شارعًا خاليًا مسرعين؛ وكانت شظايا زجاج تملأ الرصيف والطريق، ويضحك بلوندينه مشيرًا إليها بأصبعه، ويقول:

ـ هذا هو مصنع زجاج بكارا.

يرفع برونيه رأسه: البيوت سليمة، ولكن جميع الزجاج محطَّم، ويردِّد صوت خلفه:

ـ طريف أن نرى مدينة.

جسر؛ ويتوقّف العمود، وتلتفت ملايين العيون نحو النهر: خمسة ألمان عراة تمامًا يلعبون في الماء، يتراشقون به وهم يطلقون صرخات صغيرة، وعشرون ألف فرنسيّ ترشح أثوابهم بالعرق ينظرون إلى تلك البطون والأفخاذ التي حماها متراس المدافع والدبّابات مدّة عشرة أشهر والتي تعرض نفسها الآن بطراوتها في قحّة هادئة. كان الأمر كذلك، ولم يكن إلّا كذلك: إنَّ المنتصرين عليهم هم هذا اللحم الأبيض الرخص. ومزّقت الجمع تنهُّدة منخفضة وعميقة: لقد تحمّلوا بلا غضب عرض جيش منتصر على دبّابات النصر؛ أمّا هؤلاء الألمان العراة الذين يلعبون في الماء، فإنَّها إهانة. وانحنى لامبير فوق الإفريز، فنظر إلى الماء وتمتم:

ـ لا بدّ أنَّه ماء لذيذ!

وكان ذلك أقلّ من رغبة: لم يكن إلّا أسفَ ميِّت. وعاد الجمع، وهو ميِّت، منسيّ، مدفون في حربٍ فات أوانها، عاد يسير في الجفاف والحرّ ودوّامات الغبار، وانفتح باب كبير وهو يصرّ، وتقاربت جدران عالية، داخل ساحة هائلة، عبر الهواء الذي يرتعش، ورأى برونيه ثكنة ذات نوافذ مغلقة؛ وتقدّم، ودُفع من الخلف، فالتفت:

ـ كفى دفعًا، سندخل جميعًا.

واجتاز العتبة، وضحك مولو راضيًا:

ـ انتهينا اليوم.

انتهى عالم المدنيِّين والمنتصرين، عالم الحور والأنهار المرتعشة من الشمس، وهم سيُكفِّنون بين هذه الجدران حربَهم القديمة القذرة، سينسلقون في مرَقهم، بلا شاهد، فيما بيهم. ويتقدّم برونيه، ويُدفع من خلف، يتقدَّم داخل الساحة، ويتوقَّف عند الجرف الرماديّ الطويل. ويدفعه مولو من مرفقه:

هذه ثكنة الحرس المتحرِّك.

مئة شبّاك مغلق؛ وسلّم من ثلاث درجات يفضي إلى باب مقفل. وإلى يسار السلّم، على بعد مترين من الثكنة، أُقيم متراس صغير من القرميد ارتفاعه متر وطوله متران؛ واقترب منه برونيه فأسند جانبه إليه. الساحة، وامتلأت وكان تيّار متّصل يركم القادمين الأُوَل بعضهم لصق بعض ويدفعهم إلى جدار الثكنة، وكانوا لا ينقطعون لحظة؛ وفجأة دار مصراعا الباب الثقيلان على نفسيهما وانغلقا، وقال مولو:

ـ حسنًا، ها نحن في بيتنا.

ونظر لامبير إلى الباب، وقال في رضى:

ـ هناك جمع لم يستطع أن يدخل: فينبغي أن يناموا خارجًا.

وهزّ برونيه كتفيه:

ـ أن تنام في الساحة أو في الشارع..

قال لامبير: ـ ليس الأمر سواء.

فوافق الأشقر برأسه، وقال موضِّحًا:

ـ نحن هنا، لسنا خارجًا.

وأضاف لامبير:

ـ إنّنا في بيت لا سقف له.

واستدار برونيه، فأخذ يتفحّص الأمكنة، موليًا الثكنة ظهره: كانت الساحة أمامه تهبط في منحدر دقيق حتى جدار السور، وكان مَرْكزا مراقبة يقومان على قمّة الجدار، يفصل بينهما مئة متر: وكانا خاليين. وكان صفّ من الأوتاد المغروسة حديثًا والتي مُدَّت بينها أسلاك حديديّة وحبال، يقسم الساحة إلى قسمين غير متساويين، كان أصغرهما ـ وهو رقعة أرض ضيِّقة نسبيًا تمتدّ بين السور والأوتاد ـ فارغًا. أمّا في القسم الآخر، من الأوتاد والثكنة، فقد كان الجميع متراكمين. الرجال منزعجون، وكأنَّهم في زيارة وليس ثمَّة من يجرؤ على الجلوس؛ وهم يحملون قربهم ورزمهم في أيديهم وفوق أذرعتهم، والعرق يسيل على

خدودهم، وقد غادر الذكاء الفرنسيّ وجوههم، ودخلت الشمس إلى عيونهم الفارغة، وهم يفرُّون من الماضي والمستقبل القريب إلى موت صغير مزعج وموقّت. ولم يكن برونيه ليعترف لنفسه بأنّه عطش، وقد أزاح قربته ووضع يديه في جيبه، وأخذ يصفِّر، أدّى رقيبٌ التحيّة العسكريّة له، فبسم له برونيه من غير أن يردّ له التحيّة. واقترب الرقيب:

ـ ماذا ننتظر؟

ـ لا أدري.

وكان رجلاً طويلاً هزيلاً صلبًا ذا عينين كبيرتين كدّرهما الكِبَر؛ وكان شارب يعترض وجهه المعظَّم، وله حركات حيّة قاسية قد تعلّمها. وسأل:

ـ من يأمر؟

ـ ومَنْ تريد أن يأمر؟ إنَّهم الألمان.

ـ ولكن عندنا؟ أين هم المسؤولون؟

فضحك برونيه، وقال:

ـ ابحث عنهم.

فامتلأت عينا الرقيب بلوم محتقر: كان بودِّه أن يأمر في المحلّ الثاني، أن يجمع سُكر الطاعة إلى لذّة إصدار الأوامر؛ ولكن برونيه لا يريد بعد أن يأمر قطّ؛ لقد انتهت قيادته حين سقط آخر رجاله ميّتًا. أمّا الآن، فإنَّ في رأسه شيئًا آخر. وسأل الرقيب بنفاد صبر:

ـ لماذا يُترَك هؤلاء المساكين على أهبّة الاستعداد؟

فلم يجب برونيه، ورماه الرقيب بنظرة غاضبة، وقرَّر أن يأمر في المحلّ الأوَّل. وتجمهر، وأحاط فمه بيديه وصاح:

ـ ليجلس الجميع!

فالتفتت رؤوس، حيرى، ولكنَّ الأجسام لم تتحرَّك. وكرَّر الرقيب:

ـ ليجلس الجميع! الجميع!

فجلس البعض بهيئة مستنيمة، وردّدت أصواتُ الصدى: ليجلس الجميع؛ وتماوج الجمع ورقد. واستدارت الصيحة فوق الرؤوس، ليجلس الجميع؛ وانسلّت إلى الجانب الآخر من الساحة، فاصطدمت بالجدار، وعادت. مقلوبة بطريقة سرِّيَّة: ليقف الجميع، ليبقوا واقفين، انتظروا الأوامر. وينظر الرقيب إلى برونيه في حيرة: إنَّ له هناك منافسًا، من جانب الباب الكبير. ونهض بعض الرجال قافزين، فتناولوا قربهم وضمُّوها إلى صدورهم وهم يرسلون نظرات مطاردة في كلِّ مكان. ولكن معظمهم يظلّ جالسًا، ثم يعود من كان وَقَف إلى الجلوس. رويدًا رويدًا. ويتأمَّل الرقيب عمله في ضحكة بلهاء:

ـ لم يكن ثمَّة إلَّا أن آمر.

فنظر إليه برونيه وقال له:

ـ اجلس، يا رقيب.

فطرف الرقيب بعينيه، فردّد برونيه:

ـ اجلس: الأمر هو أن تجلس.

فتردّد الرقيب، ثم تداعى للسقوط على الأرض بين لامبير ومولو: وأحاط ركبتيه بذراعيه، ونظر إلى برونيه من تحت إلى فوق، فاغر الفم. وشرح له برونيه:

ـ أنا أبقى واقفًا لأنِّي ضابط صفّ.

ولا يريد برونيه أن يجلس: لقد كانت الأوجاع تصعد من ركبتيه إلى فخذيه، ولكنَّه لا يريد أن يجلس. ويرى ألوفًا من الظهور وأمشاط الأكتاف، ويرى رقابًا تتحرَّك، وأكتافًا تهتزّ؛ إنّ لهذا الجمع حركاته وعاداته. وكان ينظر إليه يحترق ويخفق، وكان يفكِّر بلا ضجر ولا لذَّة: تلك هي المادَّة. إنَّهم ينتظرون متوتِّرين؛ ولا يبدو عليهم بعد أنَّهم جائعون. . فلا بدّ أنَّ الحرارة قد أفسدت مِعَدهم. فهم خائفون،

منتظرون. وما عساهم ينتظرون؟ أمرًا أو كارثة أو الليل: أيّ شيء يحرِّرهم من ذواتهم. ويرفع احتياطيٌّ ضخم رأسه الممتقع، ويومئ إلى أحد برجي المراقبة:

ـ لماذا يتغيَّب الحرَّاس عنه؟ ماذا تراهم يفعلون؟

ويتلبَّث لحظة، وتغمر الشمس عينيه المقلوبتين، ثم ينتهي إلى أن يهزّ كتفيه، ويقول بصوت خائب قاس:

ـ عندهم كما عندنا، ينتهزون عدم التنظيم.

وينظر برونيه، وهو واقف وحده، إلى الرؤوس ويفكِّر. إنَّ الرفاق هنا في الداخل، ضائعين كالإبر في التبن، ويحتاج تجميعهم من جديد إلى الوقت. وينظر إلى السماء، وإلى الطائرة السوداء في السماء، ثم يخفض عينيه ويدير رأسه، فيلمح إلى يمينه شخصًا طويلاً لم يجلس. إنَّه عريف؛ وهو يدخِّن سيكارة. وتمرُّ الطائرة في ضجَّة هادرة، ويحول الجمع، وهو مقلوب كالسهل، من الأسود إلى الأبيض، ويزدهر: فبدلاً من الرؤوس القاسية السوداء، تتفتَّح بالألوف زهرات كاميليا كبيرة: وتلتمع نظّارات شظايا زجاج وسط الزهرات. ولم يتحرَّك العريف: بل إنَّه يقوِّس كتفيه العريضتين وينظر إلى الأرض بين قدميه. ويلاحظ برونيه في ودٍّ أنَّه كان حليق الذقن. ويلتفت العريف وينظر إلى برونيه بدوره: إنَّ له عينين كبيرتين محاطتين بدائرة مزرقّة؛ ولولا أنفه الأفطس، لكان جميلاً على وجه التقريب، وفكَّر برونيه: «لقد رأيت هذا الوجه في مكان ما». ولكن أين؟ «إنّه لا يَذكر بعد». فكثيرة هي الوجوه التي رآها! وتخلّى عن التذكُّر؛ ليس لذلك كبير أهمِّيَّة، ثم إنَّ الرجل لم يبد عليه أنّه عرفه. وفجأة صاح برونيه:

ـ إيه!

فرفع الرجل عينيه:

ـ ماذا؟

ولا يبدو السرور على برونيه: لم تكن به رغبة قطّ في أن ينادي هذا الشخص. غير أنَّ الآخر كان واقفًا، ونظيفًا تقريبًا، وحليقًا.. وقال برونيه بغير حماسة:

ـ تعال، من هنا. إذا أردت أن تظلّ واقفًا، فبوسعك أن تستند إلى الجدار الصغير.

فانحنى الرجل، والتقط رزمته، ولحق ببرونيه وهو يتخطّى الأجسام.

إنَّه شديد البأس، ولكنَّه سمين بعض الشيء.

وقال: ـ مرحبًا، يا صاح.

قال: ـ مرحبًا.

قال الرجل: ـ سأقف هنا.

فسأله برونيه: ـ هل أنت وحدك؟

قال الرجل: ـ لقد مات رجالي.

قال برونيه: ـ ورجالي أيضًا. ما اسمك؟

فسأله الرجل: ـ ماذا تقول؟

ـ أسألك عن اسمك.

ـ آه، نعم: اسمي شنايدر. وأنت؟

ـ برونيه.

ولَزِما الصمت: ما حاجتي إلى مناداة هذا الرجل، إنَّه سيزعجني. ونظر برونيه إلى ساعته: إنَّها الخامسة؛ الشمس مختبئة خلف الثكنة، ولكنّ السماء تظلّ ساحقة؛ لا غيمة، ولا رعشة: البحر الميِّت. ليس ثمَّة من يتكلَّم؛ وحول برونيه، يحاول البعض أن ينام، وهم يدسُّون الرأس بين الذراعين، ولكنّ القلق يخلِّفهم يقظين: فيستقيمون أو يتنهَّدون أو يحكُّون رؤوسهم، وقال مولو:

ـ إيه! إيه! إيه!

فالتفت برونيه: كان عشرة من الضبّاط يقودهم حارس الألمانيّ يمرّون خلفه وهم يلامسون الجدران، وسأل الأشقر، من بين أسنانه:

ـ ألا يزال هناك بعضهم؟ ألم يلوذوا جميعًا بالفرار؟

ويبتعد الضبَّاط في صمت، من غير أن ينظروا إلى أحد، ويقهقه الرجال في انزعاج ويصرفون رؤوسهم لدى مرورهم: فكأنَّهم يخافون بعضهم بعضًا. ويبحث برونيه عن نظر شنايدر، ويتبادلان بسمة. انفجار صيحات على الأرض: إنَّه الرقيب يضحك مع بلونديته. وقال البلونديته الأشقر:

ـ جميعًا! في السيَّارات، وعلى الدرَّاجات، لقد افرنقعوا جميعًا وتركونا في الخراء.

وشبك الرقيب ذراعيه:

ـ من المؤلم أن نسمع هذا. من المؤلم، بالرَّغم من كلِّ شيء.

فأجاب الأشقر:

ـ والدليل أنَّ الألمان قالوها لنا. قالوها لنا حين اصطادونا، قالوا لنا: الجيش الفرنسي جيش بلا قائد!

ـ والحرب الماضية، ألم يربحها القوَّاد؟

ـ لم يكونوا القوّاد أنفسهم.

ـ بل كانوا هم أنفسهم! ولكن كانت لديهم فرقٌ أخرى.

ـ يعني؟ أنحن الذين خسرنا الحرب؟ الصفّ الثاني؟ ولكنْ قلها، ما دمت تعنيها!

فأجاب الرقيب: ـ إنّني أقولها. أقول إنَّكم هربتم أمام العدوّ وسلّمتم فرنسا.

واحمرّ لامبير الذي كان يستمع إليهما من غير أن يقول كلمة، وانحنى على الرقيب:

ـ ولكنْ قل لي: يا صديقي الصغير، كيف حدث أنّك هنا، لو لم تهرب؟ لعلَّك تظنّ أنّك متَّ في ساحة الشرف، وأنَّنا الآن في الجنَّة؟ أمَّا أنا، فأظنُّ أنَّهم قبضوا عليك، لأنَّك لم تكن تستطيع أن تركض بسرعة كافية!

ـ لست صديقك الصغير: فأنا رقيب، ويمكنني أن أكون أباك. ثم إنّني لم أهرب: فقد قبضوا عليّ حين نفد رصاصي.

وزحف إليهم رجال من كلٍّ صوب، فاستشهدهم الأشقر وهو يضحك:

ـ أتسمعونه؟

فضحك الجميع. والتفت الأشقر إلى الرقيب:

ـ نعم، يا بابا، نعم. لقد أسقطت عشرين مظلِّيًّا، وأوقفت دبّابة بمفردك. وبوسعي أن أقول مثل ذلك: فليس هناك من أدلَّة.

فأشار الرقيب إلى ثلاثة أمكنة فاتحة على سترته، والتمعت عيناه:

ـ المداليّة العسكريّة، جوقة الشرف، صليب الحرب: لقد حصلت عليها في حرب ١٤، حين لم تكونوا قد ولدتم بعد؛ هذه هي أدلَّتي.

ـ وأين هي أوسمتك؟

ـ لقد نزعتها حين وصل الألمان.

وكان الجميع يصرخون حوله، مستلقين على بطونهم، أو مقوّسين من الأقدام حتى الرقبة، فكأنَّهم الفقم؛ كانوا ينبحون، وكانت الحماسة تلوِّن وجوههم؛ وكان الرقيب في جلسته متربِّعًا يشرف عليهم، وحيدًا ضدّ الجميع. وصاح رجل:

ـ إيه! قل لي أيُّها المنفوخ، أتظنُّ أنّي كنت مستعدًّا للقتال حين كانت إذاعة الأب بيتان تهتف في آذاننا أنّ فرنسا طلبت الهدنة؟

وقال آخر: ـ وكنت تريد أن نعرِّض نفوسنا للقتل، بينما كان الجنراليّة يُصفُّون الحساب مع الألمان في قصر تاريخيّ؟

فأجاب الرقيب في غضب:

ـ ولِمَ لا؟ إنَّ الحرب قد صُنعت لقتل الناس، أليس كذلك؟

فصمتوا لحظة؛ مشدوهين بالغيظ، فانتهزها الرقيب فرصة ليتابع:

ـ مضى وقت طويل وأنا أراكم قادمين، أنتم فتيان الـ ٤٠، الضرّاطين الصغار، والسِّحن الغراميّة، وجماعة الاحتجاجات. لم يكن أحد يجرؤ على التحدُّث إليكم، وكان يجب على الكابتين أن يضع قبّعته بيده حتى يوجِّه إليكم الكلام: عفوًا، المعذرة، هل يزعجكم كثيرًا أن تقشِّروا البطاطا؟ وكنت أقول لنفسي: حذار! سيأتي يوم تقع في الحرب، فماذا تراهم سيفعلون، قوّادي الأشدّاء؟ ثم جاءت نهاية كلّ شيء: المأذونيّات. آه! حين رأيت المأذونيّات قلت لحقيبتي وداعًا! مأذونيّات! لا بدّ أنَّهم كانوا يجدونكم منفوخين جدًّا، فكانوا يرسلونكم سريعًا لتمصّكم صاحباتكم حتى يزلن نفختكم قليلاً، أكنّا نأخذ مأذونيّات في عام ١٤؟

ـ نعم، كنتم تأخذون مأذونيّات. لقد أخذتم بالفعل!

ـ وكيف عرفت ذلك أيُّها الطفل؟ هل كنت في تلك الحرب؟

ـ لم أكن فيها، ولكن كان لي فيها صديق، وهو الذي أخبرني.

ـ إنَّ صديقك كان يخوض الحرب في مارسيليا. أمّا نحن، فقد انتظرناها عامين، هذه المأذونيّات، ومع ذلك، فقد كانت تُلغى لأدنى سبب، أتعرف كم قضيت من الوقت في بيتي خلال اثنين وخمسين شهرًا من الحرب؟ قضيت اثنين وعشرين يومًا. أجل، اثنان وعشرون يومًا، يا صغيري، فهل يدهشك هذا؟ وهناك من يقول إنِّي كنت محظوظًا.

قال لامبير: ـ كفى، لا تقصّ علينا حياتك.

ـ إنّني لا أقصّ عليكم حياتي، وإنّما أشرح لكم لماذا ربحنا حربنا، ولماذا خسرتم حربكم.

والتمعت عينا بلونديه بالغضب:

ـ ما دمت ذكيًّا إلى هذا الحدّ، فربَّما كان باستطاعتك أن تشرح لنا لماذا خسرتم السلم؟

فقال الرقيب مندهشًا: ـ السلم؟

فصاح الآخرون: ـ نعم! السلم.. السلم! لقد فقدت السلم.

قال بلونديه: ـ أنتم، أنتم المحاربين القدامى، كيف تراكم قد حميتم أبناءكم؟ هل جعلتم ألمانيا تدفع الثمن؟ هل نزعتم سلاحها؟ ورينانيا والرور؟ وحرب إسبانيا؟ والحبشة؟

وقال فتى طويل ذو رأس شبيه برغيف سكّر:

ـ ومعاهدة فُرساي! أأنا الذي وقّعتها؟

فقال الرقيب ضاحكًا من الغيظ:

ـ بل ربَّما كنت أنا!

ـ نعم، أنت! أنت تمامًا! كنت تنتخب، أليس كذلك؟ أنا لم أكن أنتخب، لأنِّي في الثانية والعشرين، إنّني لم أنتخب قطّ.

ـ وعلامَ يدلُّ هذا؟

ـ هذا يدلُّ على أنَّك كنت تنتخب كالحمار، وأنّك ألقيت بنا في الخراء. كان أمامك عشرون عامًا لتُعدَّها أو لتتجنَّبها، هذه الحرب، فماذا فعلت؟ أقول لك يا صديقي إنّني أنا أساويك، ولو كان لي قادة وسلاح، لحاربت مثلك. ولكن قل لي: بِمَ تريدني أن أُحارب؟ لم يكن معي حتى الرصاص.

فسأله الرقيب: ـ وعلى من يقع الذنب؟ من الذي كان يصوِّت لستالين؟ من الذي كان يعلن الإضراب لمجرَّد ضرطة، لا لشيء إلَّا ليبعص ربّ العمل؟ من الذي كان يُطالب بالزيادات؟ من الذي كان يرفض الساعات الإضافيّة؟ السيَّارات والدرَّاجات، أليس كذلك؟ المومسات الصغيرات، العطل المدفوعة أيّام الأحد في الأرياف، نوادي الشبيبة والسينما؟ لقد كنتم كسالى إلى أبعد حدٍّ. أمّا أنا، فقد اشتغلت حتى في

أيّام الأحد، وطوال حياتي الكلبة كلّها.

وأصبح وجه الأشقر أحمر، فاقترب من الرقيب زاحفًا على أربع، وصاح في وجهه:

ـ كرِّرها، كرِّر أنِّي لم أشتغل! قلها ثانية! إنّني ابن أرمل، أيُّها الفرج! وقد تركت المدرسة وأنا في الحادية عشرة لأساعد أمّي.

كان يحتمل، في أقسى الظروف، أن يكون قد خسر الحرب، ولكنَّه لا يسمح أن يُتَّهَم بأنّه لم يعمل. وفكَّر برونيه: قد يكون في هذا ما يُفيد. وركع الرقيب، هو أيضًا، على أربع، وأخذا يصيحان معًا، جبينًا لجبين. وانحنى شنايدر، كما لو أنَّه يريد التدخُّل؛ فوضع برونيه يده على ذراعه:

ـ دعهما: إنَّهما يمضيان الوقت.

فلم يُصرّ شنايدر، واستوى وهو يرمق برونيه بنظرة غريبة.

وقال مولو: ـ كفى، كفى، لا تتقاتلا.

فعاد الرقيب إلى الجلوس وهو يطلق ضحكة قصيرة، وقال:

ـ أنت على حقّ في ذلك! لقد فات الأوان قليلاً لنتقاتل. لو كان يرغب في ذلك، فما كان عليه إلّا أن يفعله ومع الألمان.

فهزّ الأشقر كتفيه وعاد يجلس بدوره. وقال:

ـ عجبًا! إنّك تحدث لي ألمًا في بطني!

صمت طويل. إنَّهم جالسون جنبًا إلى جنب؛ وينزع الأشقر باقات عشب، ويتسلّى في جَدْلها؛ وينتظر الآخرون لحظة، ثم يعودون إلى أمكنتهم زاحفين! ويتمطّى مولو ويبسم، ويقول بصوت مصالح:

ـ هذا كلُّه غير جدِّيّ، هذا غير جدِّيّ.

ويفكِّر برونيه بالرفاق: كانوا يخسرون معارك، وأسنانهم منقبضة، ومن هزيمة إلى هزيمة، كانوا يسيرون إلى النصر. وينظر إلى مولو. إنّني لا أعرف هذا النوع. إنَّه بحاجة إلى أن يتكلَّم: إنَّ شنايدر هنا، ويتحدَّث إليه برونيه:

ـ أترى؟ لم تكن بك حاجة إلى التدخُّل.

فلا يجيب شنايدر. ويقهقه برونيه، مقلِّدًا مولو:

ـ هذا غير جدِّيّ!

فلا يجيب شنايدر بشيء، ويظلّ وجهه الثقيل الجميل محايدًا. وينزعج برونيه ويوليه ظهره: إنّه يكره المقاومة السلبيّة.

ويقول لامبير: ـ أريد أن آكل.

فيومئ مولو بأصبعه إلى الحيِّز الذي يفصل السور عن الأوتاد، ويتكلَّم بصوت بطيء حارّ؛ كأنّه ينشد قصيدة:

ـ سيأتي الطعام من هناك، سينفتح الحاجز، وتدخل الشاحنات، فيلقون إلينا بالخبز من فوق الشريط الحديديّ.

وينظر برونيه إلى شنايدر من زاوية عينه ويقهقه مردِّدًا:

ـ أترى؟ يخطئ من ينفعل. فالهزيمة، والحرب، ليسا شيئًا جدِّيًا. إنَّ الطعام هو المهمّ.

فتسيل نظرة هازئة قصيرة بين أجفان شنايدر، ويقول بلهجةٍ مشاركة:

ـ ماذا فعلوا لك، يا صديقي المسكين؟ فإنّه لا يبدو عليك أنَّك تطيقهم.

قال برونيه بجفاء: ـ لم يفعلوا لي شيئًا، ولكنّي أسمعهم.

ويخفض شنايدر عينيه على يده اليمنى نصف المغلقة، وينظر إلى أظافره، ويقول بصوته الأجشّ اللامبالي:

ـ من الصعب أن نساعد الآخرين حين لا نكنُّ لهم الودّ:

ويقطِّب برونيه حاجبيه: كانت صورتي غالبًا ما تظهر في الصفحة الأولى من «الأومانيتيه»، فمن السهل معرفتي.

ـ ما الذي يجعلك تعتقد أنّي أريد مساعدتهم؟

فانطفأ وجه شنايدر، وقال برخاوة:

ـ يجب علينا جميعًا أن نساعد بعضنا بعضًا.

قال برونيه: ـ بكلٍّ تأكيد.

ويحنق على نفسه: كان ينبغي عليه أوّلاً ألّا يغضب. ولكنَّه كان يؤاخذ نفسه، خاصّة لأنَّه أظهر غضبه لهذا الأبله الذي يرفض أن يشاطره إيّاه. وابتسم وهدأ.

وقال وهو يبتسم:

ـ إنّني لست ألومهم.

ـ ومن تلوم إذن؟

فنظر برونيه إلى شنايدر بتنبّه:

ـ الذين تلاعبوا بهم.

فضحك شنايدر ضحكة رديئة، وصحّح:

ـ الذين تلاعبوا بنا. فكلُّنا مركونون تحت لافتة واحدة.

وأحسَّ برونيه غيظه يولد من جديد، فكاد يختنق، وقال بصوت مفرط الحلم:

ـ إذا شئت. ولكنّي أنا، لو تعلم، لم أكن مخدوعًا بذلك.

قال شنايدر: ـ وأنا أيضًا. وماذا يؤثّر ذلك؟ فمخدوعين كنّا أم لا، فنحن هنا.

ـ وبعد ذلك؟ لماذا نكون هنا، وفي مكان آخر أيضًا؟

أصبح الآن هادئًا تمامًا، وفكّر: إنَّ لي مكاني وعملي، حيثما يوجد الرجال. وكان شنايدر قد أدار عينيه نحو الباب؛ ولم يقل شيئًا بعد. وينظر إليه برونيه بلا كراهية: ترى، ما هذا الشخص؟ مثقّف؟ فوضويّ؟ ما كانت مهنته في عهد السلم؟ إنّه مفرط السمنة وبه شيء من عدم الكلفة، ولكنَّه بالإجمال متماسك، ربَّما كان باستطاعته أن يخدم.

وهبط المساء، رماديًا مورّدًا على الجدران، وعلى المدينة السوداء

التي لا تُرى؛ إنَّ الرجال محدِّدو النظر، وهم يتطلَّعون إلى المدينة عبر الجدران. إنَّهم لا يفكِّرون بشيء ولا يتحرَّكون بعد قطّ، فقد هبط الصبر العسكريّ الطويل عليهم مع المساء: إنَّهم ينتظرون. لقد انتظروا البريد، والمأذونيّات والهجوم الألمانيّ، وكانت تلك طريقتهم في انتظار نهاية الحرب. لقد انتهت الحرب، وما يزالون ينتظرون. ينتظرون الشاحنات المليئة بالخبز، والحرّاس الألمان، والهدنة ليحتفظوا فقط بكسرة مستقبلٍ أمامهم، وحتى لا يموتوا. وبعيدًا في المساء، في الماضي يقرع جرس.

ويبتسم مولو:

ـ إيه يا لامبير! لعلَّها الهدنة!

فأخذ لامبير يضحك، وتبادلا غمزة مفهومة. وشرح لامبير للآخرين:

ـ لقد تعاهدنا على أن نأكل وجبة لذيذة هائلة!

قال مولو: ـ سنفعل ذلك يوم الصلح.

وقهقه البلوندينه الأشقر لهذه الفكرة، وقال:

ـ أمَّا أنا، فلن أفيق من سكري خمسة عشر يومًا.

وقال الأفراد من حوله:

ـ خمسة عشر يومًا، بل شهرًا! حتى نموت من السكر، يلعن دين!

كانوا بحاجة إلى أن تُهدم آمالهم واحدًا واحدًا، وفي صبر، وأن تفجَّر أوهامهم وأن يُكشف لأعينهم وضعهم المريع عاريًا، وأن يُثار اشمئزازهم من كلّ شيء، ومن الجميع، ومن أنفسهم بادئ ذي بدء. إذ ذاك فقط.. وكان شنايدر هو الذي ينظر إليه هذه المرَّة، كما لو أنّه كان يقرأ فكرته. نظرة قاسية. وبادله نظرته.

وقال شنايدر: ـ سيكون صعبًا.

وانتظر برونيه، مرفوع الحاجبين.

وردّد شنايدر: ـ سيكون صعبًا.

ـ ما الذي سيكون صعبًا؟

ـ أن نُعطي وعيًا. فنحن لسنا طبقة. لسنا أكثر من قطيع. قليل من العمّال: فلّاحون، وبورجوازيُّون صغار. بل نحن لا نعمل: فنحن مجرَّدون.

فقال برونيه بالرّغم منه:

ـ لا تحزن، فسوف نعمل...

ـ نعم، بكلِّ تأكيد. ولكن كعبيد، وليس هذا عملاً يحرِّر، ولن نكون أبدأ إلّا تكملة. فأيّ عملٍ مشترك يمكن أن يُطلب منّا؟ إنَّ الإضراب يمنح المضربين وعيًا بقوَّتهم. ولكنْ حتى ولو شبك جميع الأسرى الفرنسيِّين أذرعتهم، فإنَّ الاقتصاد الألمانيّ لن يتأثَّر بذلك.

وتبادلا النظر ببرودة، وفكَّر برونيه: لقد عرفتني إذن؛ لا بأس، سوف أسهر عليك. وفجأة أضاء الحقد وجه شنايدر، ثم انطفأ كلّ شيء. ولم يدر برونيه إلى من كان هذا الحقد متّجهًا. وندّ صوت مندهش مفتون:

ـ ألمانيّ!

ـ أين هو؟ أين هو؟

ورفع الجميع أنوفهم، فإذا بجنديٍّ يبرز في برج المراقبة الأيسر، مرتديًا قبّعة، والرشّاش في يده، والقنبلة في الرزمة، وتبعه آخر يحمل بندقيّة.

قال رجل: ـ أوه! لقد تأخَّروا في الاهتمام بنا.

فبدا على الجميع العزاء: ها هو عالم الرجال يعود، بقوانينه ونواميسه وممنوعاته؛ هذا هو النظام البشريّ. والتفتت الرؤوس نحو برج المراقبة الآخر. إنّه ما يزال خاليًا، ولكنّ الناس ينتظرون بثقة، كما ينتظرون فتح النوافذ في البريد أو مرور القطار الأزرق. وبدت قبّعة على ارتفاع الجدار ثم اثنتان: مسخان يرتديان قبّعتين ويحملان رشّاشًا يركّزانه

على محمله ويصوِّبانه إلى الأسرى. ليس ثمَّة من يخاف، ويُقيم الجنود في البرجين، ويُعلن هؤلاء الحرس الواقفون على قمّة الجدار ليلاً لا مغامرة فيه؛ لن يأتي أيّ أمر فيخرج الأسرى من سباتهم ليلقي بهم في الطرقات؛ إنّهم يستشعرون الطمأنينة. وسحب فتى كبير يضع نظّارتين من حديد كتابًا كهنوتيًّا من جيبه، وجعل يقرأه مدمدمًا. وفكَّر برونيه: «إنَّه يمارس البغاء»، ولكنّ الغضب انزلق عليه من غير أن يخترقه. وارتاح. للمرَّة الأولى منذ خمسة عشر عامًا، يسير نهارٌ ببطء شديد، وينتهي بمساء جميل، من غير أن يكون لديه ما يفعله. وصعدت بطالة قديمة من أيّام حداثته، وكانت السماء هنا قد حطَّت على الجدار، متورِّدة، قريبة، غير صالحة للاستخدام. ونظر إليها برونيه في خجل، ثم نظر إلى الأفراد عند قدميه يتحرَّكون ويهمسون ويحلُّون رزمهم ويربطونها: مهاجرون على ظهر سفينة. وفكَّر: «ليس الذنب ذنبهم»، وأخذته الرغبة في أن يبتسم لهم. وفكَّر بأنّ قدميه تؤلمانه؛ وجلس بالقرب من شنايدر، فحلّ سير حذائه. وتثاءب، وأحسّ بجسمه غير صالح للاستخدام كالسماء، وقال: «بدأ الطقس يبرد»، غدًا سوف يبدأ العمل. وكان اللون الرماديّ يشمل الأرض، وسمع صوت مصفَقات، صوتًا صغيرًا عذبًا، ضجَّة صغيرة متلاحمة وغير منتظمة، فأصغى إليها، وحاول أن يتابع إيقاعها وتسلّى بالتفكير بأنّها «مورس»، وفكَّر فجأة: «بل هو شخص يصفق أسنانه» واستوى، فميّز أمامه ظهرًا عاريًا تمامًا عليه قروح متصلِّبة سوداء، إنَّه الشخص الذي كان يصرخ في الطريق، وزحف إليه: كان الرجل مقشعرًّا.

قال برونيه: ـ إيه!

فلم يُجب الرجل، فأخرج برونيه صدرة من قربته.

ـ إيه!

ولمس الكتف العارية، فأخذ الرجل يهمدر، والتفت فنظر إلى برونيه لاهثًا، وكان المخاط يسيل من منخريه حتى فمه. ورآه برونيه مواجهة

للمرَّة الأولى: إنَّه فتى جميل نضر ذو خدّين أزرقين وعينين عميقتين، ولكنْ بلا أهداب. وقال له برونيه بهدوء:

ـ لا تنفعل أيُّها الصغير. أردت أن أُعطيك صدرة.

فأخذ الفتى الصدرة بهيئة خائفة، فارتداها بوداعة وظلّ جامدًا، متباعد الذراعين. وكان كمّاها مفرطين في الطول بحيث كانا يبلغان أظافره. وضحك برونيه:

ـ شمِّرهما.

فلم يجب الفتى، وكانت أسنانه تصطكّ، وأخذ برونيه ذراعيه فشمّر كمَّيه، وقال الفتى:

ـ إنَّها لهذا المساء.

قال برونيه: ـ بلا مزاح؟ ما الذي هو لهذا المساء؟

قال الفتى: ـ المجزرة.

قال برونيه: ـ حسنًا، حسنًا.

وبحث في جيب الفتى، فأخرج منه منديلاً قذرًا وملطَّخًا بالدم، فرماه، وأخذ منديله الخاصّ فمدَّه له:

ـ بانتظار ذلك، تمخّط.

فتمخَّط الفتى، ووضع المنديل في جيبه وبدأ يهذي. فلامس برونيه رأسه بلطف، كما يُلامس رأس حيوان، وقال له:

ـ أنت على حقّ.

فهدأ الفتى، وكفّت أسنانه عن الاصطكاك. واستدار برونيه إلى جيرانه:

ـ من يعرفه؟

فتحامل قصير أسمر ذو هيئة حيّة على مرفقيه، وقال:

ـ إنّه شاربان.

قال برونيه: ـ راقبه بين وقت وآخر، حتى لا يرتكب حماقات.

قال الرجل: ـ سأراقبه.

وسأله برونيه: ـ ما اسمك؟

ـ فيرنييه.

ـ ماذا كنت تفعل؟

ـ كنت عامل مطبعة في ليون.

عامل مطبعة: حظّ من ثلاثة؛ سأتحدَّث إليه غدًا.

قال برونيه: ـ ليلة سعيدة.

فقال عامل المطبعة: ـ ليلة سعيدة.

وعاد برونيه إلى مكانه، فجلس، واستعرض الوضع. مولو: تاجر، هذا مؤكَّد. لن نفيد شيئًا كثيرًا منه. وكذلك الرقيب، لا يمكن إصلاحه؛ فهو من نوع كاغول. لامبير: شرس معاند. وهو الآن في إبّان التحلُّل تحت وقاحته. يمكن كسبه. الشتيمي: فلَّاح. جدير بالإهمال. ولم يكن برونيه يحبُّ الفلَّاحين. البلونديته الأشقر: هو ولامبير من طينة واحدة؛ ولكنَّ الأشقر أكثر ذكاء، ثم إنّه يملك حسّ احترام العمل. إنّه ثمرة ناضجة. عامل المطبعة: هو بالأغلب رفيق جديد؛ وألقى برونيه نظرة على شنايدر الذي يُدخِّن، جامدًا، مفتوح العينين على سعتهما. «أمَّا هذا، فسنرى أمره». ووضع الكاهن كتابه، وتكلَّم؛ وكان ثلاثة فتية مضطجعين بالقرب منه، يصغون إليه في ألفة تقيّة. لقد كسب ثلاثة: سوف يهزمني بسرعة، في الفترة الأولى على الأقلّ. وفكَّر برونيه: إنَّ هؤلاء الفتية محظوظون. فبوسعهم أن يعملوا في وضح النهار؛ سيتلون يوم الأحد قدَّاسهم. وتنهَّد مولو:

ـ لن تأتي بعد هذا المساء.

فسأله لامبير: ـ من تعني؟

ـ الشاحنات. فالليل مفرط الظلام.

ونام على الأرض، واضعًا رأسه على قربته. وقال لامبير:

ـ انتظر. إنَّ عندي شراع خيمة. كم يبلغ عددنا؟

قال مولو: ـ سبعة.

قال لامبير: ـ سبعة. إنَّه يسعنا جميعًا. وسننام عليه نحن السبعة.

بسط شراعه أمام السلَّم.

ـ ومن معه لحاف؟

فأخرج مولو لحافه، وبسط الرقيب والشتيمي لحافيهما. ولم يكن بلوندينه يملك لحافًا. وكذلك برونيه. وقال لامبير:

ـ لا بأس. سوف نتدبَّر الأمر.

وخرج من الظلِّ وجه خجول مبتسم:

ـ إذا تركتموني أنام على شراع الخيمة، شاركتكم بغطائي.

فنظر لامبير وبلوندينه إلى الدخيل ببرود، وقال بلوندينه:

ـ لم يبق مكان لك.

وأضاف مولو في لهجة أكثر ودًّا:

ـ إنَّك تفهم، فنحن رفاق فيما بيننا.

واختفت البسمة، وقد التهمها الليل. وهكذا: تشكَّل فريق وسط هذا الجمع، فريق مصادفة، بلا صداقة ولا تضامن حقيقيّ، ولكنَّه قد بدأ ينغلق من دون الآخرين؛ وكان برونيه في داخله، وقال له شنايدر:

ـ تعال. فسوف ننام كلانا تحت غطائي.

فتردَّد برونيه:

ـ بعد قليل. لا رغبة لي بالنوم.

قال شنايدر: ـ وأنا كذلك.

وظلَّا جالسين جنبًا إلى جنب، بينما كان الآخرون يلتفُّون بأغطيتهم، وكان شنايدر يدخِّن وهو يخفي سيكارته في يده بسبب الحرس. وأخرج

علبة «غولواز» فمدَّها إلى برونيه.

ـ سيكارة؟ إذا أردت أن تشعلها فاذهب وراء الجدار الصغير، فإنَّهم لا يرون اللهب.

وكان برونيه راغبًا في التدخين. ورفض:

ـ شكرًا. ليس الآن.

إنَّه لن يلعب لعب التلاميذ، فهو ليس بعد في السادسة عشرة: إنَّ معصية الألمان في الأمور الصغيرة هي طريقة للاعتراف بسلطتهم.

وأضاءت النجوم الأولى. وفي الجانب الآخر من الجدار، كانت تُسمع موسيقى حامزة، موسيقى المنتصرين. وكان النوم يتدحرج على عشرين ألف جسم مهترئ، وكلّ جسم موجة. وكان هذا التموُّج الغامض يهدر كالبحر. وبدأ برونيه يشعر بالضجر من أن لا يفعل شيئًا؛ إنَّ من الممكن تقليب أوراق سماء جميلة، ونحن في الانتظار. ومثل ذلك النوم. والتفت إلى شنايدر وهو يتثاءب، وفجأة قست عيناه فاستوى: لم يكن شنايدر متنبِّهًا، فقد انطفأت سيكارته ولم يشعلها من جديد، وتدلَّت من شفته السفلى، وكان ينظر إلى السماء بأسى، آن الأوان لمعرفة ما بداخله.

وسأل برونيه: ـ أنت من باريس؟

ـ لا.

فاتَّخذ برونيه هيئة اللامبالاة، وقال:

ـ أمَّا أنا فأسكن باريس، ولكنِّي من كومبلو، بالقرب من سانت اتيان. صمت. وبعد لحظة، قال شنايدر على مضض:

ـ إنّني من بوردو.

قال برونيه: ـ آه! آه! إنّني أعرف بوردو جيِّدًا. مدينة جميلة، ولكنَّها حزينة، أليس كذلك؟ أهناك كنت تعمل؟

ـ نعم.

ـ وماذا كنت تعمل؟

ـ ماذا كنت أعمل؟

ـ نعم.

ـ مساعد. مساعد محام.

قال برونيه: ـ آه!

وتثاءب؛ لا بدّ من أن يتدبّر الأمر لرؤية دفتر شنايدر العسكريّ. وسأله شنايدر:

ـ وأنت؟

فانتفض برونيه:

ـ أنا؟

ـ نعم.

ـ وكيل.

ـ وعمّ كنت تتوكّل؟

ـ كلّ شيء تقريبًا.

ـ فهمت.

وتداعى برونيه للاستناد إلى الجدار الصغير، ثم رفع ركبتيه حتى أنفه وقال بصوت قصيّ، كما لو أنَّه يستعرض أحداث يومه قبل أن ينام:

ـ وهكذا!

قال شنايدر بالصوت نفسه:

ـ هكذا! هكذا!

قال برونيه: ـ لقد عرّوا لنا مؤخّراتنا.

قال شنايدر: ـ كان ذلك مؤكّدًا.

قال برونيه: ـ بالرَّغم من هزيمتنا، فمن حسن الحظّ أنَّ ذلك انتهى بسرعة: إنَّ النزف أقلّ.

فقهقه شنايدر: ـ سوف ينزفوننا شيئًا فشيئًا: وستكون النتيجة واحدة.

فرمقه برونيه: يبدو لي أنَّك انهزاميّ.

ـ لست انهزاميًّا، ولكنِّي أحقِّق الهزيمة.

فسأله برونيه: ـ أيّة هزيمة؟ ليس ثمَّة من هزيمة أكبر ممَّا هناك من خراء!

وتوقّف، ظانًّا أنَّ شنايدر سيحتجّ، ولكنَّه لم يبال. وكان ينظر إلى قدميه في كسل: وكان عقب سيكارته ما يزال متدلّيًا من زاوية شفته. ولم يكن برونيه ليستطيع أن يتوقَّف الآن: فيجب أن يبسط فكرته؛ ولكنَّها «ليست بعد» الفكرة نفسها. فلو أنَّ هذا الأحمق قد سأله مجرّد سؤال «لألقاها برونيه عليه كالخاطوف؛ أمَّا الآن، فينفره أن يتكلَّم. إنَّ الكلمات ستنزلق على هذه الكتلة الضخمة اللامبالية من غير أن تخلِّف فيها أثرًا.

ـ يظنّ الفرنسيُّون أنَّ الحرب خاسرة، بدافع من الشوفينيّة. إنَّهم يتصوَّرون دائمًا أنَّهم وحدهم في الدنيا، فإذا تلقّى جيشهم الذي لا يُقهر صفعةً ما، أقنعوا أنفسهم بأنَّ كلّ شيء قد ضاع وهلك.

فأرسل شنايدر صوتًا مخنًّا صغيرًا، وعزم برونيه على أن يكتفي به، واستطرد:

ـ إنَّ الحرب في بدايتها يا صديقي. وبعد ستَّة أشهر سنقاتل من «الكاب» إلى مضيق «بهرنغ».

فقهقه شنايدر، وقال:

ـ نحن؟

قال برونيه: ـ نحن، الفرنسيِّين، سنتابع الحرب في ميادين أخرى. إنَّ الألمان يريدون أن يجعلوا صناعتنا عسكريّة، وتستطيع البروليتاريا، ويجب عليها أن تمنعهم من ذلك.

فلم يكن لدى شنايدر أيُّ ردّ فعل، وظلّ جسمه العتليتيّ جامدًا. ولم

يكن برونيه يحبّ ذلك، فإنَّ الصمت الثقيل المربك هو من اختصاصه؛ لقد هُزم على أرضه بالذات؛ كان يريد أن يحمل شنايدر على الكلام، وكان هو الذي ابتلع الصنّارة في آخر المطاف. وصمت بدوره، وظلّ شنايدر على صمته: وكان يمكن لذلك أن يدوم طويلاً. وبدأ برونيه يقلق: إنَّ هذا الرأس أفرغ ممَّا ينبغي، أو أملأ ممَّا ينبغي. وكان ثمَّة، غير بعيد عنهما، رجلٌ يعوي عواء خفيفًا. وكان شنايدر هو الذي قطع الصمت هذه المرَّة، فتكلَّم في شيء من الحرارة:

ـ أتسمعه؟ إنَّه يظنّ نفسه كلبًا.

فهزّ برونيه كتفيه: لم يكن ذلك أوان التعطّف على فتًى يحلم، وليس لي وقت أضيّعه. وقال شنايدر بصوت ثقيل متحمّس:

ـ يا للمساكين! يا للمساكين!

وصمت برونيه، فأضاف شنايدر:

ـ إنَّهم لن يعودوا أبدًا إلى بيوتهم. أبدًا.

والتفت إلى برونيه وجعل ينظر إليه في كراهية، فقال برونيه ضاحكًا:

ـ هيه! لا تنظر إليّ هكذا، فليس لي في الأمر دخل.

فأخذ شنايدر يضحك، وارتخى وجهه، وانطفأت عيناه:

ـ صحيح، لا دخل لك في الأمر.

وصمتا؛ وخطرت لبرونيه فكرة، فاقترب من شنايدر وسأله بصوت منخفض:

ـ إذا كان هذا ما تفكّر به، فلماذا لا تحاول أن تفرّ؟

قال شنايدر: ـ يعني!

ـ هل أنت متزوّج؟

ـ وعندي طفلان.

ـ ألست متفاهمًا مع زوجتك؟

ـ أنا؟ بل نحن نعبد بعضنا بعضًا.

ـ وإذن؟

قال شنايدر: ـ لا أدري. وأنت؟ هل ستفرّ!

قال برونيه: ـ لا أدري، سنرى ذلك فيما بعد.

وحاول أن يرى وجه شنايدر، ولكنَّ الليل لفّ الساحة، فلم يكن يُرى شيء بعدُ أبدًا، إلَّا ظلّ برجيْ المراقبة دون السماء. وقال برونيه وهو يتثاءب:

ـ أظنّ أنّي سأنام.

قال شنايدر: ـ طيّب. وأنا أيضًا.

وتمدّد على شراع الخيمة، ودفعا قربتيهما إلى الجدار؛ ونشر شنايدر غطاءه فالتفّا به. وقال شنايدر:

ـ مساء الخير.

ـ مساء الخير.

وانقلب برونيه على ظهره ووضع رأسه على قربته، واحتفظ بعينيه مفتوحتين، وأحسّ بحرارة شنايدر، وحدس بأنّ عينيْ شنايدر مفتوحتان. وفكَّر: «كنت بحاجة شديدة إلى أن أرتبك بهذا الشخص». وتساءل أيّهما حاور الآخر وناوره. وبين الفينة والفينة، كان انهيارٌ مضيء صغير يخطّ السماء بين باقات النجوم؛ وتحرَّك شنايدر على مهل تحت الغطاء، وقال:

ـ هل نمت يا برونيه؟

فلم يجب برونيه، وكان ينتظر. ومرّت لحظة، فسمع شخيرًا صغيرًا مخنًّا؛ لقد نام شنايدر. وسهر برونيه وحده: ضوءًا وحيدًا وسط هذه الليالي العشرين ألفًا. وابتسم، وأغمض عينيه واستسلم؛ وكان عربيّان يضحكان في الغابة الصغيرة:

ـ أين عبد الكريم؟

فأجابت العجوز: ـ لن يدهشني كثيرًا أن يكون في مخزن الثياب.

وكان، في الواقع، هناك، جالسًا أمام طاولة عمل، هادئًا جدًّا وهو يهدر: «قَتَلة! قتلة!» وينزع أزرار ثوبه، فيحدث كلّ زرّ انفجارًا جافًّا والتماعًا.

وقال شنايدر: ـ خلف الجدار، اسمع!

فاستوى برونيه جالسًا، وحكّ رأسه، فإذا هو أمام ليل غريب مليء بالضجيج:

ـ ماذا هناك؟

ـ اسمع! اسمع!

فرمى برونيه الغطاء، وانبطح خلف الجدار الصغير مع شنايدر. وانتحب صوت:

ـ قَتَلة!

وصرخ أحدهم بالألمانيّة، ثم كانت طلقات الرشّاش الجافَّة. وتطلّع برونيه بحذر، من فوق الجدار، فرأى على ضوء الالتماعات فرقةً برمّتها من الشجر الكسيح، رافعًا نحو السماء أغصانًا معقَّدة وملويّة، فآلمته عيناه، وأحسّ رأسه فارغًا، فقال:

ـ الإنسانيّة المتألِّمة.

فجرَّه شنايدر إلى خلف:

ـ الإنسانيّة المتألِّمة، طزْ فيها؛ إنَّهم يضحُون بنا.

فبكى الصوت: ـ كالكلاب! كالكلاب!

وكفّ الرشّاش عن الإطلاق، وأمرّ برونيه يده على جبينه، واستيقظ تمامًا.

ـ ما الذي يحدث؟

قال شنايدر: ـ لا أدري. لقد أطلقوا مرّتين؛ في المرَّة الأولى ربّما

كان ذلك في الهواء، أمَّا في الثانية، فقد كان الأمر جدِّيًا.

وكانت الغابة تنغل حولهما: ما هذا؟ ماذا حدث؟ ويُجيب قادة مرتجلون: اسكتوا، لا تتحرَّكوا، ابقوا نائمين. ويبدو برجا المراقبة أسودين إزاء السماء الحليبيّة، وفيهما رجال يرصدون، والإصبع على زناد الرشّاشات. وكان برونيه وشنايدر راكعين خلف الجدار، يريان في البعيد العين المستديرة لمصباح كهربائيّ. ويقترب المصباح، تؤرجحه يد غير مرئيّة: فيكنس بضوئه حشرات رماديّة ومسطّحة. ويتحدّث صوتان أبحّان باللغة الألمانيّة؛ ويتلقّى برونيه المصباح ملء وجهه فيغمض عينيه، وقد أعماه النور؛ ويسأل صوت بلهجة قويّة:

ـ من الذي صرخ؟

فقال برونيه: ـ لا أدري.

ونهض الرقيب، وكان بالغ السرور، منتصبًا باستقامة تحت النور الكهربائيّ قريبًا وبعيدًا في وقت واحد:

ـ إنَّه جنديٌّ أُصيب بالجنون، فأخذ يصرخ، وخاف رفاقه فنهضوا. وعند ذاك أطلق الحارس النار.

فلم يفهم الألمانيَّان، فحدَّثهما شنايدر بالألمانيّة، ودمدم الألمانيَّان بدورهما، فالتفت شنايدر نحو الرقيب:

ـ يقولان أن تسأل إن كان هناك جرحى.

فاستوى الرقيب، ووضع يديه حول فمه بحركة دقيقة حيّة وصلّى:

ـ أخبرونا عن الجرحى.

فأجابته أصوات ضعيفة من كلِّ صوب؛ وأضاءت منارتان فجأة، وهبط كالثلج نور ساحر يداعب الجمع الراكع؛ واجتاز ألمان الساحة بالحمّالات، فلحق بهم ممرِّضون فرنسيُّون، وسأل الضابط الألمانيّ في جهد:

ـ أين المجنون؟

فلم يجب أحد، ولكنَّ المجنون كان هناك واقفًا، مرتجف الشفتين أبيضهما، ودموع تسيل على خدَّيه، فأحاط به الجنود وأخذوه، فاستسلم لهم مذهولاً، ومسح أنفه وفمه بمنديل برونيه. وكان الرجال منتصبين نصف انتصاب، ينظرون إلى هذا الشخص الذي تألَّم ألمهم حتى ذروته؛ وكان لذلك مذاق الهزيمة والموت. واختفى الألمان، وتثاءب برونيه، وكان النور يؤلم عينيه. وسأل مولو:

ـ ماذا سيفعلون به؟

فهزّ برونيه كتفيه، واكتفى شنايدر بالقول:

ـ إنَّ النازيِّين لا يحبُّون المجانين.

وكان رجال يروحون ويجيئون بالحمَّالات، وقال برونيه:

ـ أعتقد أنَّ بوسعنا أن نعود إلى النوم.

فعادوا إلى النوم. وضحك برونيه: ففي المكان نفسه الذي كان متمدِّدًا عليه، كان ثمَّة ثقب في شراع الخيمة، ثقب ذو أطراف مشيّطة؛ وأشار إليه، فاخضرّ مولو وارتجفت يداه وقال:

ـ أوه! أوه! أوه!

وقال برونيه وهو يبتسم لشنايدر:

ـ لقد أنقذت حياتي بالإجمال.

فلم يبتسم شنايدر، بل نظر إلى برونيه نظرة جدّ وتبرُّم، وقال ببطء:

ـ نعم، لقد أنقذت حياتك.

وقال برونيه وهو يلتفّ بالغطاء:

ـ شكرًا على كلّ حال.

قال مولو: ـ أمَّا أنا، فسأنام خلف الجدار.

وانطفأت المنارتان فجأة، وصرّت الغابة، وطقطقت، وضجَّت، وهمست، واستوى برونيه، وملء عينيه شمس، وملء رأسه نعاس، ونظر

إلى ساعته: الساعة السابعة. وكان الرجال منهمكين في طيّ أشرعة الخيم، ولفّ الأغطية. وأحسّ برونيه بأنَّه متّسخ دَبِق: لقد رشح في أثناء الليل وكان قميصه يلتصق بجسمه. وقال بلوندينه:

ـ يلعن دين! إنّني جائع!

وبحزن، سأل مولو بعينيه الباب الكبير المغلق:

ـ يوم آخر بلا طعام!

ففتح لامبير عينه غاضبًا:

ـ لا سمح الله!

ونهض برونيه، فحدَّج الساحة، فرأى تجمُّعًا حول أنبوب سقاية، فاقترب؛ كان رجل ضخم عارٍ تمامًا يغتسل وهو يطلق صرخات امرأة. ونزع برونيه ثيابه، فأخذ دوره، وتلقَّى على ظهره وعلى بطنه وابلاً مثلجًا قاسيًا؛ وارتدى ثيابه من جديد من غير أن يتجفَّف، وراح يُمسك بالأنبوب، ويغسل الثلاثة التالين. وكان هواة «الدوش»، قليلين، فقد كان الرجال يحرصون على عرقهم الليليّ. وسأل برونيه:

ـ دور مَنْ؟

فلم يجب أحد، فوضع الأنبوب في شيء من الغضب، وفكَّر: «هكذا! هكذا الرجال!» سيكون الأمر قاسيًا. ووضع سترته تحت ذراعه، ليخفي أوسمته، واقترب من جمع يتحدَّث بصوت منخفض رغبة منه في معرفة الجوّ. إنَّ هناك تسعة حظوظ على عشرة أنَّهم يتكلَّمون على الطعام. ولن يشكو برونيه من ذلك: فالطعام نقطة ممتازة؛ إنَّ ذلك شيء بسيط ومحسوس، إنَّه حقيقيّ: فالإنسان الجائع عجينة يسهل العمل فيها. ولكنَّهم لم يكونوا يتحدّثون عن الطعام؛ وعرفه شابّ طويل هزيل ذو عينين حمراوين:

ـ أأنت الذي كنت إلى جانب المجنون؟

قال برونيه: ـ نعم.

ـ ماذا فعل، تمامًا؟

ـ لقد صرخ.

ـ هذا كلّ شيء؟ خراء إذن! المجموع: أربعة قتلى، وعشرون جريحًا.

ـ كيف عرفت ذلك؟

ـ لقد أبلغنا ذلك غارتيزر.

وكان غارتيزر رجلاً مربوعًا ذا خدَّين رخوين، وعينين كئيبتين تنمّان عن الاهتمام. وسأله برونيه:

ـ أنت ممرِّض؟

فأومأ غارتيزر برأسه: نعم، إنّه ممرِّض، وقد أخذه الألمان إلى الإصطبلات خلف الثكنة، ليُعنى بالجرحى.

ـ وكان في الجرحى من مات بين يديّ.

وقال رجل: ـ إنَّ هذا لؤم. لؤم أن نموت هنا، قبل ثمانية أيّام من العودة.

فسأل برونيه: ـ ثمانية أيّام؟

ـ ثمانية أيّام أو خمسة عشر إذا شئت. فلا بدّ أن يُطلقونا ما داموا لا يستطيعون إطعامنا.

وسأل برونيه: ـ والمجنون؟

فبصق غارتيزر بين قدميه:

ـ لا تتحدَّث عنه!

ـ ماذا؟

ـ لقد أرادوا أن يُسكتوه، فقام أحدهم يضع يده على فمه، وإذ ذاك عضّه. أوه! يا أمّي ليتك رأيتهم! لقد أخذوا يصرخون بلغة غير مفهومة، ودفعوه إلى زاوية من الإصطبل وراحوا يضربونه بقبضات أيديهم وأعقاب بنادقهم، وكان ذلك في النهاية يسلّيهم ويُثير ضحكهم، وكان ثمَّة

أشخاص من عندنا يحمِّسونهم، لأنَّ ابن البغيّ هذا هو، على حدِّ قولهم، سبب كلّ شيء. وأخيرًا، لم يكن الفتى جميلاً، كان فمه مهروسًا، وعينه جاحظة، فوضعوه على حمّالة وساقوه إلى حيث لا أدري، ولكن لا بدّ أنَّهم تسلُّوا معه مرَّة أخرى، لأنِّي سمعته يزعق حتى الساعة الثالثة صباحًا.

وأخرج من جيبه شيئًا ما ملفوفًا بقصاصة جريدة:

ـ انظروا هذا.

وفتح الورقة:

ـ إنَّها سنّ. لقد وجدتها هذا الصباح في المكان الذي سقط فيه.

ثم طوى الورقة بعناية، ووضعها في جيبه، وقال:

ـ إنّني أحتفظ بها كتذكار.

وأولاهم برونيه ظهره، وعاد بهدوء إلى السلّم. وصاح به مولو من بعيد:

ـ هل عرفت النتيجة؟

ـ أيّة نتيجة!

ـ نتيجة هذه الليلة: عشرون قتيلاً وثلاثون جريحًا.

قال برونيه: ـ فظاعة!

قال مولو: ـ لا بأس.

وابتسم بسرور غامض، وردّد:

ـ كنتيجة ليلة أولى، لا بأس على الإطلاق.

وسأل لامبير: ـ ما حاجتهم إلى تبذير رصاصهم! إذا أرادوا أن يتخلَّصوا منَّا فليس عليهم إلَّا أن يتركونا نموت جوعًا، كما بدأوا.

قال مولو: ـ لن يدعونا نموت جوعًا.

ـ وما يُدريك؟

فابتسم مولو: ـ ليس لك إلّا أن تفعل مثلي: أنظر إلى الباب الكبير، فهذا يسلّيك، ثم إنَّ الشاحنات ستأتي من هنا.

وغطّى صوته ضجيج محرِّك، فصاح الشتيمي:

ـ أنظر إلى الطائرة.

وكانت طائرة مراقبة تحلِّق على ارتفاع خمسين مترًا، سوداء لامعة، وكانت تمرّ فوق الساحة، ثم انعطفت على جناحها الأيسر مرَّتين، ثلاث مرَّات.. وكان عشرون ألف رأس يتابعونها، والساحة كلُّها تدور. وقال المجعّد الشعر في لامبالاة:

ـ وإذا قصفونا؟

قال مولو: ـ قصفونا؟ ولماذا؟

ـ لأنَّهم لا يستطيعون إطعامنا.

ونظر شنايدر إلى الطائرة وهو يطرف بعينيه؛ وقال وهو يكزّ في الشمس:

ـ بل أعتقد أنَّهم يصوِّروننا...

فسأل مولو: ـ لماذا؟

فأوضح شنايدر بغموض: ـ مراسلو حرب..

فاحمرّ خدّا مولو السمينان، وتحوّل خوفه إلى غضب، فإذا به يستوي فجأة، ويمدّ ذراعيه نحو السماء، ويصيح:

ـ مدُّوا لهم ألسنتكم أيُّها الرفاق، مدّوا لهم ألسنتكم، فيبدو أنَّهم يصوِّروننا.

وتسلّى برونيه: إنَّ رعشة غضب قد سرت في الجموع؛ فمدّ جنديٌّ قبضته، بينما أبرز جنديٌّ آخر بطنه، وأدخل بنصره في شقّ بنطاله ونصب إبهامه نحو الطائرة كأنَّه عضو تناسليّ، وارتمى الشتيمي على أربع، فخفض رأسه ورفع مؤخِّرته:

ـ قفاي، سيصوِّرونه!

ونظر شنايدر إلى برونيه، وقال:

ـ أترى، ما تزال لدينا قوَّة.

وقال برونيه:

ـ هذا لا يدلّ على شيء.

ومضت الطائرة في الشمس.

وقال مولو: ـ إذن سيرون مخِّي في جريدة «الفرنكفورتر»؟

وكان لامبير قد اختفى وعاد هائجًا:

ـ يبدو أنَّ باستطاعتنا أن نؤثِّث أنفسنا بثمنٍ غير مرتفع.

ـ ماذا تقول؟

ـ إنَّ وراء الثكنة أثاثًا، كالفُرُش والدلاء، والآنية، وليس علينا إلَّا أن ننحني لنأخذها، ولكن يجب أن تعجِّلوا لأنَّ هذه سوق السرقة!

ونظر إلى رفاقه بعينين ملتمعتين:

ـ هل يأتي الرفاق؟

قال المجعَّد وهو يقفز على قدميه:

ـ أنا آتي.

ولم يحرِّك مولو ساكنًا، فقال لامبير:

ـ تعال يا مولو.

قال مولو: ـ لا، فأنا أقتصد، فما دمت لم آكل، فلن أتحرّك.

فقال الرقيب: ـ إذن، احرسْ الأمتعة.

ونهض وانضمّ إلى الآخرين وهو يعدو. وحين بلغوا زاوية الثكنة، صاح بهم مولو بصوت رخو:

ـ إنَّكم تبذِّرون قواكم، أيُّها الفروج الحمير!

وتنهَّد، ونظر إلى برونيه وشنايدر في قسوة، وقال هامسًا:

ـ ما كان ينبغي حتى أن أصرخ.

وسأل شنايدر: ـ هل نلحق بهم؟

فسأله برونيه: ـ وماذا نفعل بدلو ماء؟

ـ أوه! لنُذهِبَ فقط خدرَ سيقاننا.

وكان في الجهة الأخرى من الثكنة ساحة أخرى وبناية طويلة ذات طابق واحد ذي أربعة أبواب: الإصطبلات. وكان مركومًا في زاوية منها فرش قديمة ورقّاصات وسُرُر ذات أُطر، وخزائن مرتعشة، وطاولات عرجاء. وكان الجنود يتدافعون حول هذه البقايا؛ واجتاز أحدهم الساحة حاملاً فراشًا، بينما احتمل آخر تمثالاً من الخيزران. وطاف برونيه وشنايدر بالإصطبلات، فاكتشفا تلّة صغيرة معشبة. وسأل شنايدر:

ـ هل نرقاها؟

ـ لنصعد.

وأحسّ برونيه بالضيق: ماذا يريد، صاحبنا؟ صداقة؟ إنَّ ذلك لا يناسب بعدُ عمري. وفي أعلى التلّة، رَأيا ثلاث حُفَر مردومة حديثًا، فقال شنايدر:

ـ أترى، إنّهم لم يقتلوا إلّا ثلاثة.

وجلس برونيه على العشب بالقرب من القبور.

ـ أعطني مديتك.

فناوله شنايدر إيّاها، ففتحها برونيه وبدأ يفتق أوسمته. فقال شنايدر:

ـ أنت على خطأ، إنَّ نوّاب الضبّاط معفون من العمل.

فهزّ برونيه كتفيه من غير أن يُجيب، ووضع الأوسمة في جيبه ثم نهض. وعادا إلى الساحة الأولى، فإذا بالأشخاص ينتقلون؛ وكان فتًى جميل ذو وجه وقح يتأرجح في أريكة هزّازة؛ وأمام خيمة منصوبة، جرَّ رجلان طاولة وكرسيّين، وراحا يلعبان بالورق في انتصار؛ وكان غارتيزر جالسًا متربّعًا على حافّة سرير فارسيّ منقّطة بالحروق. وقال برونيه:

ـ إنَّ ذلك يذكِّرني «بسوق البراغيث»[1].

وقال شنايدر: ـ أو بسوق عربيّة.

واقترب برونيه من لامبير:

ـ بمَ تراك قد عُدت؟

فرفع لامبير رأسه في زهو، وقال:

ـ صحون.

وأشار إلى نضد من الصحون المثلَّمة ذات القعر المسودّ.

ـ وماذا تريد أن تفعل بها؟ أن تأكلها؟

قال مولو: ـ دعه وشأنه، فربَّما جاء ذلك بالطعام.

وكانت الصبيحة بطيئة: وقد سقط الرجال مرَّة أخرى في الخدَر؛ حاولوا أن يناموا، أو يتمدَّدوا على ظهورهم، وسحنهم متّجهة إلى السماء، وعيونهم مفتوحة ثابتة؛ كانوا جائعين. وانتزع المجعَّد الشعر العشب الذي ينبت بين الحصى وأخذ يمضغه؛ وأخرج الشتيمي مديته وأخذ ينقش قطعة من خشب. وأشعلت جماعة من الرجال نارًا تحت قدرة صدئة. ونهض لامبير، فذهب يرى، وعاد خائبًا، وقال موضحًا وهو يتداعى للسقوط بين المجعَّد ومولو:

ـ إنّه حساء القرّاس. وهو لا يغذّي.

تبديل الحرَّاس الألمان، وقال الرقيب بلهجة شاردة:

ـ ذهبوا يأكلون.

وقام برونيه يجلس بالقرب من عامل المطبعة، وقال له:

ـ هل نمت جيِّدًا؟

قال عامل المطبعة: ـ لا بأس!

---

(١) هي سوق يُباع فيها الأثاث القديم الذي قد تعشِّش فيه الحشرات والبراغيث لِقِدَمِه، وهي معروفة في باريس، (المترجم).

ونظر إليه برونيه في رضى: كان على هيئة واضحة ونظيفة، مع شعاع مرح في عينيه، حظَّان من ثلاثة.

ـ قل لي، كنت أودّ أن أسألك: أفي باريس كنت تعمل؟

قال عامل المطبعة: ـ لا، بل في ليون.

ـ أين؟

ـ في مطبعة ليفرو.

قال برونيه: ـ آه! ليفرو، لا أعرف غيرها. لقد قمتم بإضراب رائع عام ٣٦، إضراب جريء ومنظَّم.

فضحك عامل المطبعة ضحكة اعتزاز. وسأله برونيه:

ـ لا بدّ إذن أن تكون قد عرفت بيرنو؟

ـ بيرنو، الممثِّل النقابيّ.

ـ نعم.

ـ طبعًا.

ونهض برونيه: ـ تعال لنقم بدورة. أريد أن أكلِّمك.

وحين أصبحا في الساحة الثانية، نظر إليه برونيه مواجهة:

ـ هل أنت في الحزب؟

فتردّد العامل، وقال له برونيه:

ـ أنا برونيه، من جريدة «الأوما».

قال العامل: ـ هكذا إذن. كنت أقول لنفسي...

ـ هل لك رفاق هنا؟

ـ اثنان أو ثلاثة.

ـ أشخاص شجعان؟

ـ أشدّاء جدًّا، ولكنِّي أضعتهم أمس في الصفوف.

قال برونيه: ـ حاول أن تجدهم. وتعال لتراني معهم: فيجب أن نتجمّع من جديد.

وعاد يجلس بالقرب من شنايدر، فرماه بنظرة سريعة، فإذا وجه شنايدر هادئ لا يعبِّر عن شيء.

وسأل شنايدر: ـ كم الساعة؟

قال برونيه: ـ الساعة الثانية.

وقال المجعّد: ـ أنظر إلى الكلب.

وكان يعبر الساحة كلب كبير أسود، متدلِّي اللسان، وكان الرجال ينظرون إليه نظرة غريبة. فسأل الرقيب:

ـ من أين هو قادم؟

قال برونيه: ـ لا أدري.

وربَّما كان في الإصطبلات. وتحامل لامبير على مرفقه، وتابع بعينيه الكلب في تململ. وقال كأنَّما يحدِّث نفسه:

ـ إنَّ لحم كلب ليس رديئًا بالدرجة التي يقولون.

ـ هل أكلت منه؟

فلم يجب لامبير؛ وأتى بحركة انزعاج، ثم تداعى للسقوط على ظهره في استسلام قدريّ. وكان الشخصان اللذان يلعبان بالورق أمام الخيمة قد تركا ورقهما على الطاولة ونهضا بهيئة إهمال؛ وكان أحدهما يحمل تحت ذراعه شراع خيمة. وقال لامبير:

ـ بعد فوات الأوان.

لقد اختفى الكلب خلف الثكنة، فتبعاه بلا عجلة، واختفيا خلفه. وقال الشتيمي:

ـ أتراهما سيقبضان عليه، أم لا؟

وبعد لحظة، عاد الرجلان: وكانا قد عقدا الشراع حول شيء ضخم وحملاه كلٌّ بطرف، كأرجوحة للنوم. وحين ألمّا ببرونيه، سقطت نقطة من الشراع، وانسحقت حمراء على الحصى. وقال الرقيب ملاحظًا:

ـ مادَّة رديئة. فقد كان على القماش أن يكون كتيمًا.

فهزّ رأسه ودمدم:

ـ كلّ شيء متشابه. فكيف كنت تريد أن نربح الحرب؟

وألقى الرجلان رزمتهما في الخيمة، ودخلها أحدهما على أربع، بينما ذهب الآخر يبحث عن خشب لإيقاد النار. وتنهّد المجعّد:

ـ على كلّ حال، سيخلّف ذلك اثنين من الأحياء.

وكان برونيه نائمًا، فأيقظه ذعر في صرخة من مولو:

ـ هاي؟ هاي! الطعام.

وانفتح الباب على مهل. ونهض مئة شخص: «سيَّارة شحن».

ودخلت السيَّارة مغطّاة، وعلى ظهرها زهور وأوراق، كأنّها الربيع، ونهض ألف شخص، وسلكت السيَّارة الطريق بين جدران السور والحاجز. ونهض برونيه، فإذا هو مدفوع، مسحوب، ملقى على الأسلاك الحديديّة. وكانت السيَّارة فارغة. وكان ألمانيّ عارٍ حتى النطاق ينظر إليهم قادمين إليهم بتثاقل. بشرة سمراء، شعر أشقر، عضلات طويلة مغزليّة الشكل، عليه هيئة رجل مترف، من هؤلاء الشباب الجميلين الذين يتزلّجون نصف عراة في سان موريتز. وارتفع نحوه ألف زوج من العيون، فكان ذلك يسلّيه: كان ينظر في ابتسام إلى هذه الحيوانات الليليّة الجائعة التي تلتصق بقضبان قفصها لتراه رؤية أفضل. وبعد لحظة، انحنى إلى الخلف، ونادى حرّاس البرجين الذين أجابوه وهم يضحكون. وانتظر الجمع مبهورًا، وكان يترصَّد حركات سيِّده، ويهذي من فرط السرور ونفاد الصبر. وانحنى الألمانيّ، فالتقط كرة من الخبز في قعر السيَّارة، وأخرج مدية من جيبه ففتحها وسنّها بنعله وقطع شريحة. وخلف برونيه، أخذ شخص يلهث. وحمل الألمانيّ الشريحة إلى أنفه، وتظاهر بأنَّه يشمّها في تلذذ، وعيناه نصف مغمضتين؛ وكانت الحيوانات تزمجر، وأحسّ برونيه بأنّ الغضب يلوي حلقه. ونظر إليهم الألمانيّ من جديد،

فابتسم وتناول الشريحة بين الإبهام والسبّابة كالمطثّة، وصوَّب إلى مكان أقرب ممَّا ينبغي ـ وربَّما عن قصد ـ فسقطت بين السيَّارة والأوتاد. وكان رجال قد انحنوا لينسلّوا تحت الأسلاك الحديديّة: فصاح حارس البرج بأمر جافّ، وصوّب إليهم رشّاشه. وظلّ الرجال ملتصقين بالحاجز، فاغري الفم، وفي عيونهم الجنون. وتمتم مولو وهو ملتصق ببرونيه:

ـ سيسوء الوضع، فأريد أن أذهب.

ولكن ضغط الجمع يسحقه على برونيه، فيحاول عبثًا أن يتحلّل ويصيح:

ـ ارجعوا، ارجعوا، أيُّها الحمقى؛ ألا ترون أنَّ الأمر سيُعاد من جديد، كما حدث هذه الليلة؟

وفي السيَّارة، كان الألمانيّ يقطع شريحة ثانية؛ وقذف بها.. فدارت في الهواء وسقطت بين الرؤوس المرفوعة؛ وأخذ برونيه في اهتزاز هائل، فأحسّ بأنَّه مدفوع، مُزاح، مضروب: ورأى مولو تحمله دوّامة فيرفع يديه في الهواء، كما لو أنَّه كان يغرق. وفكَّر: «يا للقذرين! يا للقذرين!» وكان يودّ لو يضرب الرجال الذين يحيطون به، بيديه أو بقدميه. وسقطت شريحة أخرى، وثالثة، وكان الرجال يتنازعون: وتخلّص شخص شديد البأس وهو يضغط في يده شريحة، فقبضوا عليه، وحاصروه، فدسّ الشريحة برمّتها في فمه وهو يدفعها بظاهر يده ليدخلها؛ وتركوه، فمضى بخطى بطيئة وهو يُدير عينين قلقتين. وظلّ الألمانيّ يتسلّى، فيرسل الشرائح إلى الشمال واليمين، ويتصنّع حركات ليخيِّب الجمهور. وسقطت قطعة خبز تحت قدميْ برونيه، فرآه عريف أوَّل، فانزلق وهو يصدم برونيه؛ وقبض عليه برونيه من كتفيه فألصقه به. وكان الجمع قد انقذف على القطعة الراقدة في الغبار. ووضع برونيه قدمه على القطعة، ونكث الأرض بنعله، وأمسكت أيدٍ ساقه، وأبعدته. والتقطت الفتافيت الأرضيَّة، وكان العريف الأوَّل يتخبّط بغضب: لقد سقطت قطعة أخرى إزاء حذائه.

ـ هل لك أن تتركني، أيُها الفرج القذر! هل تتركني؟

ولكنَّ برونيه يقاوم بشدّة، فيحاول الرجل أن يضرب، ويتفاداه برونيه بمرفقه، ويضغط بكلِّ قواه: وكان مسرورًا. وقال الرجل بصوت أبيض:

ـ إنَّك تخنقني!

ويظلّ برونيه يشدّ، ويرى الشرائح تمرّ فوق رأسه في طيران أبيض، فيظلّ يشدّ ويزداد سرورًا، فيستسلم الرجل بين ذراعيه. وقال صوت:

ـ انتهى.

فارتدّ برونيه برأسه إلى خلف: كان البربريّ يُغلق مديته. ويفتح برونيه ذراعه: فيتهادى العريف الأوّل، ثم يخطو خطوتين جانبيَّتين ليستعيد توازنه، ويسعل وهو ينظر إلى برونيه في ذهول حاقد. وابتسم برونيه، ونظر الرجل إلى كتفيْ برونيه، فتردَّد ثم تمتم:

ـ فرج قذر!

وانفتل. وسال الجمع ببطء خائبًا، ولكنْ فخورًا. وكان بعض المحظوظين ما يزالون يمضغون، في إحساس من العار، وأيديهم أمام أفواههم، وهم يديرون عيونًا طفوليّة. وكان العريف الأوَّل قد انزرع بإزاء وتد، وكانت شريحة خبز ترقد في الغبار المفحم، بين سيَّارة الشحن والحاجز؛ فكان ينظر إليها. وقفز الألمانيّ من سيَّارة الشحن، فسار محاذيًا الجدار، وفتح باب كوخ. التمعت عينا العريف الأوَّل، وراح يترصَّد. وأدار الحرَّاس رؤوسهم، فارتمى على أربع، وانسلّ تحت أسلاك الحديد، فمدّ يده. همدرة: وصوّب إليه الحارس. وأراد أن يتقهقر، فأومأ له الحارس الآخر بأن يظلّ جامدًا. وانتظر ممتقعًا، لا تزال يده ممدودة، ومؤخِّرته في الهواء. وكان ألمانيّ سيَّارة الشحن قد عاد أدراجه، فاقترب على غير عجل، ورفع الرجل بيده، وباليد الأخرى أرسل صفعة شديدة، وضحك برونيه حتى سالت دموعه، وقال صوتٌ وراءه بهدوء:

ـ إنّك لا تحبّنا كثيرًا.

فانتفض برونيه واستدار. إنَّه شنايدر. وساد صمت، وتابع برونيه بعينيه العريف الأوَّل الذي كان الألمانيّ يقوده بركلات شديدة نحو الكوخ، ثم قال شنايدر بصوت محايد:

ـ إنّنا جائعون.

فهزّ برونيه كتفيه:

ـ لماذا تقول «إنّنا»؟ هل التقطت الشرائح أنت؟

قال شنايدر: ـ طبعًا، فأنا جائع كجميع الآخرين.

قال برونيه: ليس هذا صحيحًا. لقد رأيتك.

فهزّ شنايدر رأسه:

ـ سواء التقطت الشرائح أم لا، فالأمر سواء.

وراح برونيه، خافض الجبين، ينكث الأرض بعقبه ليدفن الفتات في الغبار؛ وعَراه إحساس غريب جعله يرفع رأسه بسرعة؛ وفي اللحظة نفسها، انطفأ شيء ما في عينيْ شنايدر، فلم يبق بعدهُ إلَّا غضب مائعٌ يُثقل وجهه. وقال شنايدر:

ـ نعم، نحن جشعون! نعم، نحن جبناء، نحن منحطُّون. أتكون هذه غلطتنا؟ لقد سرقوا منّا كلّ شيء: مهننا، وأسرنا، ومسؤوليّاتنا. ولكي تكون شجاعًا، فيجب أن يكون لديك شيء تفعله، وإلَّا فأنت تحلم. ولم يكن لدينا «شيء» ما نفعله بعد، حتى ولا أن نكسب قُوتنا، لم يُحسب لنا بعد حساب. إنَّنا نحلم؛ وإذا كنّا جبناء، ففي الحلم. أعطنا عملاً، سترى كيف نستيقظ.

وكان الألمانيّ قد خرج من الكهف، وكان يدخِّن؛ وخرج العريف الأوَّل خلفه وهو يعرج: وكان يحمل مجرفة ومعولاً. قال برونيه:

ـ ليس عندي عمل أعطيك إيّاه. ولكنْ، حتى بلا عمل، يستطيع المرء أن يتصرَّف تصرُّفات سليمة.

فرفعت رعشةٌ شفة شنايدر العُليا، ثم سقطت. وابتسم شنايدر:

ـ كنت أحسبك أكثر واقعيّة. تستطيع بكلِّ تأكيد أن تتصرَّف تصرُّفًا سليمًا، ولكن ماذا يغيّر ذلك: إنّك لن تساعد أحدًا، ولن يُفيد ذلك إلَّا بخلق رضى شخصيّ. (وأضاف بسخرية) إلَّا إن كنت تؤمن بفضيلة القدوة.

ونظر برونيه ببرودة إلى شنايدر، وقال له:

ـ لقد عرفتني، أليس كذلك؟

قال شنايدر: ـ نعم، أنت برونيه من «الأوما»، غالبًا ما رأيت صورتك.

ـ هل كنت تقرأ «الأوما»؟

ـ كان يتّفق لي ذلك أحيانًا.

ـ هل أنت منّا؟

ـ كلَّا، ولكنِّي لست ضدَّكم.

فكزّ وجه برونيه. وعادا بهدوء إلى السلّم وهما يتخطّيان الأجسام: كان الرجال قد عادوا إلى النوم، بعد أن أرهقهم عنف رغبتهم وخيبتهم، فهم مزرقّون وعيونهم ملتمعة. وكان لاعبا الورق قد بدآ لعبة «المانيل»، بالقرب من خيمتهما؛ وكان تحت الطاولة عظامٌ ورماد. وحدّج برونيه شنايدر من طرف عينه؛ وكان يسعى لأن يجد على هذا الوجه هيئة الألفة التي لاحظها بالأمس. ولكنَّه كان قد رأى مليًّا هذا الأنف الكبير وهذين الخدَّين: فتلاشى انطباعه. وقال بين أسنانه:

ـ أنت تعلم ما يعني أن يكون المرء شيوعيًّا حين يسقط بين أيدي النازيّين؟

فابتسم شنايدر من غير أن يُجيب. وأضاف برونيه:

ـ سنكون قساة مع الثرثارين.

وظلّ شنايدر يبتسم، وقال:

ـ لست ثرثارًا.

وتوقَّف برونيه، فتوقَّف شنايدر أيضًا، وسأله برونيه:

ـ أتريد أن تعمل معنا؟

ـ وماذا ستفعل؟

ـ سأقول لك. ولكن أَجِب أوَّلاً.

ـ لِمَ لا؟

وحاول برونيه أن يستقرئ هذا الوجه الضخم الناعم المائع تقريبًا، وقال من غير أن يغادر شنايدر بنظره:

ـ لن يكون العمل طريفًا كلّ يوم.

قال شنايدر: ـ لم يبقَ لي ما أفقده بعد. ثم إنَّ ذلك سيشغلني.

وعادا إلى الجلوس، وتمدّد شنايدر، عاقدًا يديه خلف رقبته، وقال وهو يغمض عينيه:

ـ هذا لا يمنع أنّك لا تحبّنا قطّ، وهذا ما يقلقني.

واضطجع برونيه بدوره. ما عساه يكون هذا الشخص؟ أيكون من المؤيِّدين المتعاطفين؟ وفكَّر: لقد قبلت ذلك، لقد قبلت ذلك، فلن أتركك بعد. ونام، ثم استيقظ، فكان المساء؛ وعاد ينام، فكان الليل؛ ثم كانت الشمس، واستوى ونظر فيما حوله، وتساءل أين يكون، ثم تذكَّر وأحسَّ برأسه فارغًا. وكان بلونْدينه الأشقر جالسًا، وعليه هيئة الخبل والأسى، وكانت ذراعاه تتدلّيان بين ساقيه المنفرجتين. وسأل برونيه:

ـ هل تشكو شيئًا؟

ـ إنّني جائع. أتظنّ أنَّهم سيطعموننا هذا الصباح؟

ـ لا أدري.

ـ أتظنّ أنَّهم يريدون أن يميتونا جوعًا؟

ـ لا أظنّ.

وتنهّد بلوندينه: ـ إنّني مبعوص. فأنا غير معتادٍ أن أظلّ بلا عمل.

ـ تعال إذن فاغتسل.

فنظر الأشقر جهة أنبوب السقاية بغير حماسة.

ـ سيكون الماء باردًا.

ـ تعال.

ونهضا. كان شنايدر نائمًا، ومولو نائمًا، والعريف راقدًا على ظهره مفتوح العينين على سعتهما، يمضغ شاربه؛ وعلى الأرض آلاف العيون. آلاف العيون المفتوحة، وأخرى كانت الحرارة والشمس تفتحانها رويدًا رويدًا؛ وتهادى الأشقر على ساقيه:

ـ خراء! لا أستطيع بعد أن أتماسك على ساقيَّ، وسوف أسقط في الهواء.

وفكّ برونيه أنبوب السقاية، فأثبته في الصنبور وأداره. وكان يحسّ نفسه ثقيلاً. وتعرّى الأشقر: إنَّه قاس ومشعرّ، ذو عضلات ضخمة مكتَّلة. واحمرّ لحمه وتكوَّم تحت الفوَّارة، ولكن وجهه ظلَّ رماديًّا. وقال برونيه:

ـ هذا دَوري.

فأخذ الأشقر الأنبوب، وقال:

ـ الحقيقة أنَّه ثقيل الوزن!

وتركه ثم التقطه. ووجَّه الفوَّارة نحو برونيه، فاصطكَّت ركبتاه وترك الأنبوب فجأة، ثم قال:

ـ إنَّ ذلك يتعبني.

وارتديا ثيابهما. وظلَّ الأشقر جالسًا على الأرض فترة طويلة، وإحدى طماقتيه في يده، وهو ينظر إلى الماء الذي ينبجس بين الحصى، ويتابع بعينيه الأنبوب الموحل، وقال:

ـ إنَّنا نفقد قوانا.

وأغلق برونيه الصنبور، وساعد المجعَّد على النهوض، فعاد به إلى السلّم. وكان لامبير قد استيقظ، فنظر إليهما مقهقهًا:

ـ إنَّكما لا تسيران سيرًا مستقيمًا، وتبدوان مرهقين.

وتداعى المجعَّد للسقوط على شراع الخيمة، ودمدم:

ـ لقد أتعبني ذلك، ولن أستعيد ما فقدت.

ونظر إلى يديه الضخمتين المرتجفتين المشعَّرتين:

ـ بمثل هاتين اليدين، لا يمكن لردّ الفعل أن يحدث.

قال برونيه: ـ تعال نتنزّه.

فالتفّ بغطائه وأغمض عينيه. ومضى برونيه إلى الساحة الخلفيّة، وكانت فارغة. ثلاثون دورة بخطوة رياضيّة. ولدى الدورة العاشرة، كان رأسه يدور، ولدى التاسعة عشرة اضطرّ للاستناد إلى جدار، ولكنَّه كان متماسكًا، وكان يريد أن يروِّض جسمه، ومضى حتى النهاية، ثم توقّف لاهثًا. وكان قلبه ينبض حتى رأسه، ولكنَّه سعيد: إنَّ الجسم قد خُلق ليطيع. سأقوم بهذا كلّ يوم، وسأتابع حتى أتمكَّن من القيام بخمسين دورة. ولم يكن يشعر بالجوع، وكان سعيدًا بألَّا يشعر بالجوع: إنَّ هذا هو اليوم الخامس من صيامي، وما زلت متماسكًا بما فيه الكفاية. وعاد إلى الساحة الأماميّة. وكان ما يزال نائمًا، فاغر الفم؛ وكان جميع الأفراد مضطجعين، جامدين وبكمًا، فكأنّهم الجثث. وكان برونيه يودّ أن يتحدّث إلى عامل المطبعة، ولكنَّ عامل المطبعة كان ينام أيضًا. وعاد يجلس، ما يزال خفق قلبه على شدّته؛ وأخذ الشتيمي يضحك، فالتفت برونيه: كان الشتيمي يضحك وعيناه منخفضتان على العصا التي ينقشها؛ وكان قد نقش تاريخًا، وها هو الآن يرسم زهورًا برأس مديته. وسأل لامبير:

ـ ما بك تضحك؟ أتجد هذا طريفًا، أنت؟

فظلّ الشتيمي يضحك، وقال موضحًا، من غير أن يرفع عينيه:

ـ أضحك، لأنَّه قد انقضت ثلاثة أيَّام عليّ دون أن أخرأ.

قال لامبير: ـ هذا طبيعي. فممّ تريد أن تخرأ؟

قال مولو: ـ هناك مع ذلك من يخرأون. وقد رأيت بعضهم.

قال لامبير: ـ إنَّهم محظوظون صغار. أشخاص جلبوا معهم علبًا من لحم القرود.

واستوى الرقيب، ونظر إلى مولو وهو يشدّ على شاربه:

ـ ما هي أخبار سيَّارات شحنتك؟

قال مولو: ـ سوف تصل، سوف تصل.

ولكن لم يكن في صوته بعدُ كثير من الاقتناع. وقال الرقيب:

ـ ولكن يجب عليها أن تستعجل، وإلَّا فلن تجد بعدُ أحدًا.

وظلّ مولو ينظر إلى البوّابة، وسمعت قرقرة مائعة منغَّمة، فاعتذر مولو وقال:

ـ إنَّها معدتي!

واستيقظ شنايدر، فأخذ يفرك عينيه، وابتسم وتمتم:

ـ واحدة قهوة بحليب.

فقال المجعَّد: ـ مع «الكرواسان»[1].

قال الشتيمي: ـ أمَّا أنا فأفضِّل حساء طيِّبًا، مع قليل من الخمر الأحمر فيه.

وسأل الرقيب: ـ أليس مع أحد منكم سكاير؟

فمدّ له شنايدر علبته، ولكنَّ برونيه أوقفه منزعجًا: إنَّه لم يكن يحبّ حركات السخاء الفرديّة:

ـ الأفضل أن نجعلها مشتركة.

---

(١) نوع من المعجَّنات على شكل هلال، (المترجم).

قال شنايدر: ـ كما تريد. إنَّ معي علبة ونصف العلبة.

فقال برونيه: ـ وأنا معي علبة.

وأخرجها من جيبه ووضعها على شراع الخيمة. وأخرج مولو علبة من الحديد الأبيض من قربته، ففتحها:

ـ بقي معي سبع عشرة.

فسأله برونيه: ـ أهذا كلّ شيء؟ وأنت يا لامبير، أليس معك سكاير؟

قال لامبير: ـ لا.

فقال مولو: ـ غير صحيح. كانت علبتك ملأى، مساء أمس.

ـ دخَّنتها هذه الليلة.

ـ تدجيل! لقد سمعتك تشخر.

قال لامبير: ـ خراء أخيرًا! أريد عن رضى أن أُعطي الرقيب سيكارة، إذا لم تكن معه سكاير، ولكن إذا لم أرد أن أجعل سكايري مشتركة، فهذا يعنيني.

قال برونيه: ـ أنت حرٌّ يا لامبير في أن تلمّ شراع خيمتك وأن تذهب إلى مكان آخر، ولكن إذا شئت أن تبقى معنا، فينبغي أن تتبنّى روح الجماعة وتألف أن تضع كلّ شيء في حالة الاشتراك. هات سكايرك.

فهزّ لامبير كتفيه، وقذف علبته بغضب على غطاء شنايدر. وجعل مولو يعدّ السكاير.

ـ ثمانون، أي إحدى عشرة لكلّ رأس، وتبقى ثلاث تجري عليها القرعة، فهل نوزِّعها؟

قال برونيه: ـ لا. إذا وزَّعتها، فهناك أشخاص يدخِّنونها كلّها من الآن حتى المساء. إنّي أحتفظ بها. وسوف أعطيكم ثلاثًا منها كلّ يوم لمدّة ثلاثة أيّام؛ وفي اليوم الرابع أعطيكم اثنتين. اتّفقنا؟

كان الأفراد ينظرون إليه، ويدركون بغموض أنَّهم بسبيل أن يتَّخذوا قائدًا لهم. وكرَّر برونيه:

ـ اتّفقنا؟

إنَّهم لا يكترثون بهذا، في آخر المطاف: فإنَّهم يودُّون أن يأكلوا، هذا ما كان همّهم. وهزّ مولو كتفيه وقال:

ـ اتّفقنا؟

ووافق الآخرون بإيماءة رأس، فوزَّع برونيه ثلاث سكاير لكلٍّ منهم ووضع الباقي في قربته. وأشعل الرقيب سيكارة، فسحب منها أربع مجّات وأطفأها، ثم وضعها خلف أذنه. وأخذ الشتيمي أحد سكايره، فشقّ ورقتها ووضع التبغ في فمه، وقال موضحًا، وهو يمضغ:

ـ إنَّ ذلك يخدع الجوع.

ولم يقل شنايدر شيئًا: إنَّه أكثرهم خسرانًا في هذه الصفقة، ولكنَّه لم يقل شيئًا. وفكَّر برونيه: «ربَّما كان كسبًا طيِّبًا في جماعتنا». وفكَّر في شنايدر ثم في شيء آخر؛ وتساءل فجأة بمَ كان يفكِّر، ولم يبلغ أن يتذكَّر ذلك بعد، وظلَّ لحظة ثابت العينين، وقبضة من الحصى في يده، ثم نهض بتثاقل؛ وكان عامل المطبعة قد استيقظ، فسأل برونيه:

ـ وإذن؟

قال عامل المطبعة: ـ لا أدري أين هم. لقد طفت بالساحة ثلاث مرّات، فلم أستطع العثور عليهم.

قال برونيه: ـ استمرّ، ولا تثبط همَّتك.

وراح يجلس، ونظر إلى ساعته وقال:

ـ هذا غير ممكن. كم هي الساعة، أيُّها الرفاق؟

قال مولو: ـ الرابعة وخمس وثلاثون.

ـ إذن هذا هو الأمر، هذا هو تمامًا.

الساعة الرابعة وخمس وثلاثون، ولم أفعل شيئًا. كنت أحسب أنّها الساعة العاشرة صباحًا. وخُيِّل إليه أنَّ الوقت قد سُرق منه. «وعامل المطبعة الذي لم يعثر على رفاقه..» إنَّ كلّ شيء هنا بطيء. بطيء، متردِّد، معقَّد؛ ولا بدَّ من أشهر طويلة قبل تحقيق شيء ما. إنَّ السماء ذات زرقة فجَّة، والشمس قاسية. ورقَّت شيئًا فشيئًا، وتورَّدت السماء، ونظر برونيه إلى السماء، وفكَّر في طير الزمج، وكان به نعاس، ورأسه يطنّ، ولم يكن جائعًا، وفكَّر: لم أشعر بالجوع طوال النهار، واستنام، وحلم بأنَّه جائع، واستيقظ، فلم يكن جائعًا، وإنَّما كان ثمَّة غثيان خفيف ودائرة من نار حول رأسه. السماء زرقاء مرحة، والهواء رطب؛ وبعيدًا في الريف، كان صوت ديك أبحّ يصرّ، وكانت الشمس مختفية، ولكنَّ أشعَّتها كانت تتسلَّل ضبابًا ذهبيًّا من فوق قمّة جدار؛ وكانت ظلال بنفسجيّة كبيرة ما تزال تتمدَّد في الساحة. وصمت الديك، وفكَّر برونيه: أيُّ صمت! وخُيِّل إليه لحظة أنّه وحيد في العالم، واستوى على مشقَّة وجلس: كان الرجال هناك، حوله، ألوف الرجال الجامدين النائمين. فكأنَّها ساحة معركة. ولكنَّ جميع العيون مفتوحة على سعتها. ورأى برونيه حوله سحنًا مقلوبة وسط شعر متناثر، وعيون تترصَّد. والتفت نحو شنايدر ورأى عينيه الثابتتين، فقال برقّة:

ـ شنايدر! إيه! شنايدر!

فلم يجب شنايدر، ورأى برونيه في البعيد أفعى طويلة رخوة يسيل لعابها: أنبوب السقاية. وفكَّر: يجب أن أغتسل. وكان رأسه ثقيلاً، وخُيِّل إليه أنَّه يشدُّه إلى خلف، فعاد يضطجع، وانتابه شعور الطفو. «يجب أن أغتسل» وحاول أن ينهض من جديد، ولكنَّ جسمه لم يكن ليطيعه بعد؛ كانت ساقاه وذراعاه رخوة، ولم يكن يحسّ بها بعد، فقد كانت موضوعة إلى جانبه كأنَّها أمتعة. وبدت الشمس من فوق الجدار: يجب أن أغتسل، وكان يزعجه أن يكون ميِّتًا بين هؤلاء الموتى المفتَّحي

العيون، وتشنَّج، وجمع أعضاءه، وانقذف إلى أمام. وها هو ذا واقف، ولكنَّ ساقيه تصطكّان، وجسمه يرشح؛ وخطا بضع خطوات، وكان يخشى أن يسقط، واقترب من عامل المطبعة، فقال:

ـ مرحبًا!

فاستوى العامل ونظر إليه نظرة غريبة. قال برونيه:

ـ مرحبًا! مرحبًا!

فسأله العامل: ـ ألا تريد أن تجلس؟ هل تشكو شيئًا؟

قال برونيه: ـ كلَّا، فالأمور على ما يرام. وأنا أفضِّل أن أبقى واقفًا.

إذا جلس، فليس هو على ثقة من أنَّه يستطيع أن ينهض ثانية. وجلس عامل المطبعة، وكان يبدو منتعشًا، وكانت عيناه اللوزيَّتان تلتمعان في وجهه الأنثويّ الجميل. وقال بفرح:

ـ لقد عثرت على أحدهم، واسمه بيران. وهو عامل في السكَّة الحديديّة بأورليان. وقد أضاع رفاقه، فهو يبحث عنهم، فإذا وجدهم، جاءوا ثلاثتهم ظهرًا.

ونظر برونيه إلى ساعته: إنَّها العاشرة، ومسح بكمِّه جبينه الذي يرشح عرقًا، وقال: «ممتاز»، وخُيِّل إليه أنَّه يريد أنْ يقول شيئًا آخر، ولكن لا يدري بعد ما هو. وظلّ لحظة يتهادى فوق عامل المطبعة وهو يكرِّر: «ممتاز! ممتاز!» ثم عاد إلى السير في جهد، ورأسه يشتعل نارًا؛ وتداعى للسقوط بتثاقل على شراع الخيمة، وفكَّر: «إنّني لم أغتسل» وتحامل شنايدر على مرفقه في قلق:

ـ هل تشكو شيئًا؟

فقال برونيه منزعجًا: ـ لا، لا، لا أشكو شيئًا.

وأخرج منديلاً، وبسطه على وجهه بسبب الشمس. إنَّه يحسّ بالنعاس. ليس هو تمامًا بالنعاس. كان رأسه فارغًا، وكان يُخيَّل إليه أنَّه

يهبط في مصعد. وسعل أحدهم فوق رأسه. فنزع منديله: إنَّه عامل المطبعة مع ثلاثة أشخاص آخرين، ونظر إليهم برونيه في دهشة، وقال بصوت دبق:

ـ هل جاء وقت الظهر؟

ثم حاول أن يستوي: كان يحسّ الخجل أن تأخذه الدهشة؛ وفكَّر في أنَّه لم يحلق ذقنه، وأنَّه لا يقلّ قذارة عن الآخرين؛ وبذل جهدًا عنيفًا فاستقام على قدميه، وقال:

ـ مرحبًا.

فنظر إليه الأشخاص في فضول؛ إنَّهم فتيان كما يحبّهم أن يكونوا: شديدو البأس، نظيفون، ذوو عيون قاسية. أدوات طيِّبة. وكانوا ينظرون إليه، فيفكِّر:

ـ «ليس لهم هنا بعدُ غيري» وأحسّ بالانتعاش. وقال:

ـ هل نسير قليلاً؟

فتبعوه. وانعطف عند زاوية الثكنة، فمضى حتى الساحة الأخرى، والتفت فبسم لهم. وقال رجل شديد السمرة ذو رأس حليق:

ـ إنّني أعرفك.

فقال برونيه: ـ كان يُخيّل إليَّ جيِّدًا أنّي سبق أن رأيتك في مكان ما.

فقال الأسمر: ـ لقد جئتِ أراك عام ٣٧، واسمي ستيفان؛ وكنت من «الفرقة العالميّة».

وقال الآخران اسميهما: بيران، من أورليان؛ ودواوروكير، عامل في منجم من لانس.

واستند برونيه إلى جدار الإصطبلات. ونظر إليهم وفكَّر، في غير ما رضى، بأنَّهم شبّان. وتساءل عمّا إذا كانوا جائعين. وقال ستيفان:

ـ وإذن ماذا ينبغي لنا أن نفعل؟

فنظر إليهم برونيه، ولم يتذكَّر بعدُ ما كان يريد أن يقول لهم؛ وصمت، وقرأ الدهشة في عيونهم، ثم فتح فمه:

ـ لا شيء. ليس هناك ما يُعمل في الوقت الحاضر. سوى أن تعدّوا بعضكم، وتظلّوا على اتِّصال.

وسأله بيران: ـ أتريد أن تجيء معنا؟ إنَّ معنا خيمة.

فقال برونيه بحيويّة: ـ كلّا. لنبق حيث نحن، وحاوِلوا أن تروا أكبر عدد ممكن من الأشخاص، وميّزوا الرفاق، وتدبَّروا الأمرَ لتعرفوا قليلاً ما يدور في رؤوس الآخرين. ولا تقوموا بالدعاية، لا تقوموا بها بعد.

فكزّ وجه داوروكير، وقال:

ـ إنَّ ما يدور في رؤوس الآخرين، أعرفه. ليس هناك شيء على الإطلاق. إنَّهم يفكِّرون في مِعَدهم.

وخُيِّل لبرونيه أنَّ رأسه بدأ ينتفخ، فأغمض عينيه نصف إغماضة وقال:

ـ يمكن أن يتغيّر هذا. هل في قطاعاتكم كهنة؟

قال بيران: ـ نعم، في قطاعي. بل هم يقومون بأعمال مجدية.

قال برونيه: ـ دعوهم يعملوا، ولكنْ احترسوا من أن يعرفوكم. أمَّا إذا فتحوا لكم أبوابًا، فلا تسدُّوها في وجوههم. مفهوم؟

فأومأوا برؤوسهم علامة الإيجاب، وقال لهم برونيه:

ـ الموعد، غدًا عند الظهر.

نظروا إليه، وتردَّدوا قليلاً، فقال لهم في لهجة لا تخلو من انزعاج:

ـ هيَّا: اذهبوا! إنّني باقٍ هنا.

فذهبوا. ونظر إليهم برونيه ذاهبين، وانتظر حتى انعطفوا عند الزاوية ليقدِّم رِجْلاً: لم يكن متأكِّدًا من أنَّه لن ينهار. وفكَّر: «ثلاثون دورة بخطوة رياضيّة». وخطا خطوتين وهو يتهادى، وأصعد الغضبُ الدم إلى

وجهه، وكانت تصفق رأسه ضربات عنيفة: ثلاثون دورة، على الفور! وانتزع نفسه عن الجدار، وتقدَّم ثلاثة أمتار، ثم تمدّد على بطنه. وعاد ينهض ويسقط، وهو يمزِّق يده. ثلاثون دورة كلّ يوم. وتشبّث بحلقة حديديّة معلَّقة في الجدار، فاستوى واقفًا، وقام باندفاعه. عشر دورات، عشرون دورة. واصطكّت ركبتاه، وكانت كلّ خطوة تشبه سقطة، ولكنَّه كان يعلم أنَّه سيسقط إذا توقّف. تسع وعشرون دورة؛ وبعد الثلاثين، انعطف لدى زاوية الثكنة وهو يعدو، ولم يبطئ إلَّا حين ولج الساحة الأماميّة. وتخطّى الأجسام، فبلغ السلّم. ولم يتحرَّك أحد: كانوا كومة طافية من السمك الميِّت، وبطونه في الهواء. وابتسم. واقف وحده. أمّا الآن، فيجب أن أحلق ذقني. والتقط قربته، واقترب من نافذة، فأخذ آلة الحلاقة، ووضع قطعة المرآة بطريقة جانبيّة على طرف النافذة، وحلق ذقنه بلا ماء؛ الألم الذي يغمض العينين نصف إغماضة. وسقطت آلة الحلاقة، فانحنى ليلمّها، وترك المرآة التي انكسرت تحت قدميه، فوقع على ركبتيه. وكان «يعلم» هذه المرَّة أنَّه لن يستطيع بعد أن ينهض. وعاد إلى مكانه، زحفًا على أربع، تداعى للسقوط على ظهره؛ وجُنّ جنون قلبه، فكان يطرق طرقات كبيرة في صدره، ولدى كلّ ضربة، كان حدٌّ من نار يثقب رأسه. ورفع شنايدر له رأسه بلا أيّ كلمة، فدسّ تحت رقبته غطاء مطويًّا إلى أربع. ومرَّت غيوم، وكانت فيها غيمة تشبه راهبة، وأخرى تشبه غندولاً. وشدّه أحدهم من كمِّه:

ـ قف! إنَّنا ننتقل!

فنهض من غير أن يفهم، فدفعوه إلى السلّم، وكان الباب مفتوحًا، ودلفت موجة لا تنقطع من الأسرى تتّجه إلى الثكنة. وأحسّ بأنَّه يصعد درجًا، وأراد أن يقف، لكنَّه دُفع من الخلف، وقال له صوت:

ـ استمرّ في الصعود.

ولكنَّ قدميه لم تحتملاه، فسقط ويداه إلى أمام. وأخذه شنايدر

وعامل المطبعة كلّ من ذراع، فحملاه. وأراد أنَّ يتخلّص، ولكنّه لم يكن يملك القوّة لذلك. وقال:

ـ إنّني لا أفهم.

فضحك شنايدر بلطف:

ـ أنت بحاجة إلى طعام.

ـ مثلك تمامًا، لا أكثر.

فقال عامل المطبعة:

ـ أنت أطول وأصلب. فأنت بحاجة إلى طعام أكثر.

ولم يستطع برونيه أن يتكلّم بعد، فرفعاه حتى العنبر، وكان ممرّ طويل مظلم يخترق الثكنة من جانب إلى جانب، وعلى جانبيه شقق تفصل بينها حواجز ذات شقوق. وولجوا إحداها. ثلاثة صناديق فارغة، هذا كلّ شيء. لا نوافذ. كانت ثمّة كوّة بين كلّ شقّتين أو ثلاث؛ وكانت كوّة الشقّة المجاورة تنثر عليهم نورًا مائلاً، يعكس على الأرض الخشبيّة ظلالاً كبيرة للحواجز الخشبيّة. ومدّ شنايدر غطاءه على الأرض، فتداعى برونيه للسقوط عليه. ورأى ذات لحظة وجه عامل المطبعة مائلاً عليه، فقال له:

ـ لا تبق هنا، بل اذهب إلى بعيد، وموعدنا غدًا عند الظهر.

واختفى الوجه، فبدأ الحلم. وانسلّ ظلّ الحواجز متمهّلاً على الأرض، انسلّ واستدار على الأجسام المقلوبة، وتسلّق الصناديق، ودار ودار وامتقع وصعد الليل على طول الجدار؛ وبدت الكوّة، عبر القضبان، أشبه بجرح، جرح ممتقع، جرح أسود، ثم بدت فجأة عينًا صافية مرحة، فاستعادت القضبان دورتها، فدارت، ودار الظلّ كالمنارة. الوحش في القفص، وتحرّك رجالٌ لحظة ثم اختفوا، وجنحت الباخرة مع جميع المحكومين الذين ماتوا جوعًا في أقفاصهم. لهب عود ثقاب، وانبثقت من الظلّ كلمة مرسومة بأحرف حمراء، وانعكست على أحد الصناديق: «سريع العطب». وكان في القفص المجاور قرود شامبانزي تحشر رؤوسها

الفضوليّة بين الحواجز، وتمدّ أذرعها الطويلة نحو القضبان، وكانت لها عيون حزينة ومجعَّدة، فالقرد هو الحيوان الذي يملك أحزن العيون بعد الإنسان. لقد حدث شيء ما، وتساءل: ما الذي حدث، كارثة. أيّة كارثة؟ ربَّما بردت الشمس؟ وارتفع صوت من جوف الأقفاص: «سأقول لك ذات مساء أشياء رقيقة». كارثة، والجميع في المغطس. أيّة كارثة؟.ما الذي سيفعله الحزب؟ إنَّه لمذاق عذب لأناناس نضر، مذاق طريّ مرح بعض الشيء، طفوليّ. ومَضَغَ الأناناس وفتَّت مرونتها العضليّة الناعمة، متى أكلت منها للمرَّة الأخيرة؟ لقد أحببت الأناناس، وكان أشبه بخشب مقشور لا يملك الدفاع عن نفسه، ومضغ، فصعدَ المذاق الطريّ الخشبيّ الأصفر من جوف حلقه كبزوغ الشمس المتردِّد، وتفتّح على اللسان، وهو «يريد أن يقول» شيئًا، فما الذي يريد أن يقوله، هذا الشراب الشمسيّ؟ لقد أحببت الأناناس، أوه! منذ وقت طويل، يعود إلى العهد الذي كنت أحبّ فيه التزحلق والجبال والملاكمة واليخوت الشراعيّة الصغيرة، والنساء. سريع العطب. سريع العطب. ما الذي هو سريع العطب؟ إنَّنا جميعًا سريعو العطب، ويدور المذاق على اللسان، زوبعة شمسيّة، مذاق قديم، منسيّ، لقد نسيت نفسي. «تنمّل الشمس في أوراق شجر الكستناء، مطر الشمس على جبيني، كنت أقرأ في أرجوحة النوم، البيت الأبيض ورائي، ورائي منطقة التورين، كنت أحبّ الشجر والشمس والبيت، كنت أحبّ العالم والسعادة، أوه! سابقًا!» وتحرَّك وتخبَّط: إنَّ عليّ شيئًا أفعله، شيئًا أفعله على التوّ. إنَّ له موعدًا عاجلاً، مع من؟ مع كروبسكايا. وسقط من جديد: سريع العطب. ماذا فعلت بغراميّاتي؛ لقد قالوا لي، إنَّك لا تحبّنا بما فيه الكفاية، فهزموني. لقد قشّروني فرخَ نبات طريًّا دبقًا بالنسغ، وحين أخرج من هنا، سآكل حبَّة أناناس كاملة. وانتصب: موعد مستعجل؛ فعاد يسقط في طفولة هادئة، في حقل. «أزيحوا العشب وستجدون شمسًا؛ ماذا فعلت بشهواتك؟ ليست لي شهوات، فأنا قشرة، وقد مات النسغ؛ وكانت القرود المعلَّقة بالقضبان تنظر إليه بعيونها المحمومة، لقد حدث شيء ما. وتذكَّر،

فتحامل للنهوض، وصاح: «عامل المطبعة» وسأل:

ـ هل جاء عامل المطبعة؟

فلم يجب أحد. وعاد يسقط في النسغ الدبق، في «الذاتيّة». لقد خسرنا الحرب، وسوف أموت هنا. وانحنى ماتيو وهمس: إنّك لم تحبّنا بما فيه الكفاية، لم تكن تحبّنا بما فيه الكفاية؛ وانفجرت القرود ضاحكة وهي تضرب مؤخِّراتها. لم تكن تحبّ شيئًا. أجل، لم تكن تحبّ شيئًا على الإطلاق. ودار ظلّ القضبان ببطء على وجهه، الظلّ، الشمس، الظلّ إنَّ هذا يسلِّيه. إنّني من أعضاء «الحزب» وأنا أحبّ الرفاق؛ أمَّا الآخرون، فليس لديّ وقت أضيِّعه من أجلهم، إنَّ عندي موعدًا. «سأقول لك ذات مساء أشياء رقيقة، سأقول لك ذات مساء إنّي أحبّك». وجلس، وكان يلهث، وينظر إليهم، وابتسم مولو ذاهلاً، ووجهه ملتفت نحو السقف، وداعبه ظلّ طريّ منسلًّا على خدِّه، فالتمعت أسنانه من الشمس.

ـ إيه! مولو!

وظلّ مولو يبتسم، وقال، من غير أن يتحرَّك:

ـ هل تسمعها؟

فسأل برونيه: ـ ماذا أسمع؟

ـ سيَّارات الشحن؟

فلم يسمع شيئًا، وكان يخاف هذه الرغبة الهائلة التي أغرقته فجأة، رغبة أن يعيش، رغبة أن يحبّ، رغبة أن يداعب نهدين أبيضين، وكان شنايدر مضطجعًا إلى يمينه، فاستنجد به:

ـ هو! شنايدر!

فقال شنايدر بصوت ضعيف:

ـ الأمور سيِّئة.

قال برونيه: ـ خذ السكاير من قربتي. ثلاث كلّ يوم.

وانزلقت كليتاه بهدوء على الأرض الخشبيّة، فألفى نفسه راقدًا،

مقلوب الرأس، ونظر إلى السقف، إنّني أحبّهم، بكلِّ تأكيد أحبّهم، ولكن «يجب أن يخدموا»، ما عساها تكون هذه الرغبة؟ الجسد، الجسد الميِّت، غابة الشهوات، على كلّ غصنٍ عصفور، يقدِّمون لحم الخنزير في «ويستفال» على صحون من خشب، المدية تقطع اللحم، فيحسّ من يسحبها التحامًا خفيفًا للخشب الرطب، لقد هزموني، فلست إلّا رغبة، ونحن جميعًا في الخراء، وسوف أموت هنا. أيّة رغبة؟ وحملوه، وأجلسوه، وسقاه شنايدر حساء.

ـ ما هذا؟

ـ حساء شعير.

وأخذ برونيه يضحك: كان الأمر هكذا، ولم يكن إلّا هكذا. تلك الرغبة الهائلة المذنبة لم تكن إلّا الجوع. ونام، وسهروا عليه، وأكل حساءه الثاني. وأحسّ بحروق في معدته؛ كانت القضبان تدور، وصمت الصوت. وقال:

ـ كان هناك شخص يغنِّي.

قال مولو: ـ أجل.

ـ إنَّه لا يغنِّي بعد.

فقال مولو: ـ لقد مات. وقد نقلوه أمس.

حساء آخر، مع الخبز هذه المرَّة، وقال:

ـ لقد تحسَّنت.

وجلس بلا مساعدة، وابتسم: الحداثة، الحبّ، «الذاتيّة»، لم تكنْ كلُّها شيئًا، لم تكن أكثر من حلم تضوّر. ونادى مولو بجذل:

ـ لقد انتهى الأمر بها إلى المجيء، سيَّارات الشحن؟

فقال مولو: ـ أي نعم! أي نعم!

وكان مولو يحكّ كرة خبز بمديته، فيجوِّفها ويفرغها في بعض أماكن. إنّه ينحتها. وشرح من غير أن يرفع عينيه:

ـ إنَّها كرة خبز عفنة. فإذا أكلت الأزرق، كان ذلك خراء، ولكن هناك ما يؤكل حولها.

ومدّ لبرونيه كسرة خبز، ودسّ في فمه الكبير مثلها، قائلاً باعتزاز:

ـ ظللنا ستَّة أيَّام بلا طعام. وكاد يجنّ جنوني.

فضحك برونيه، وفكَّر في «الذاتيّة»، وقال:

ـ وأنا أيضًا.

ونام، ثم أيقظته الشمس، وأحسَّ أنَّه ما يزال واهنًا، ولكنَّه يستطيع أن ينهض.

وسأل: ـ هل جاء عامل المطبعة ليراني؟

ـ تعلم.. إنَّنا في هذه الأيَّام لم نتنبّه كثيرًا للزوَّار.

وسأل برونيه: ـ وأين شنايدر؟

ـ لا أدري.

وخرج برونيه إلى الممرّ، فإذا بشنايدر يتحدَّث إلى عامل المطبعة، وكانا يضحكان، فنظر إليهما برونيه في ضيق. وجاء إليه عامل المطبعة يقول:

ـ لقد قمنا كلانا، شنايدر وأنا، بعمل محترم.

فالتفت برونيه إلى شنايدر وفكَّر: إنَّه يندسّ في كلّ مكان. وابتسم له شنايدر، وقال:

ـ لقد تنقَّلنا هنا وهناك، منذ أمس الأوَّل، فاكتشفنا رفاقًا جددًا.

فقال برونيه بجفاء: ـ هِمْ! يجب أن أراهم.

وهبط السلّم، فتبعه شنايدر وعامل المطبعة. وفي الساحة، توقَّف وهو يطرف بعينيه، مبهورًا: إنَّه يوم جميل. وكان رجال جالسون على درجات السلّم يدخّنون في سكينة، كأنَّهم في بيوتهم، يستريحون بعد كدّ الأسبوع؛ وبين الفينة والفينة، كان فيهم من يهزّ رأسه ويساقط بضع

كلمات، فيأخذ الجميع في هزّ رؤوسهم. ونظر إليهم برونيه في غضب، وفكّر: «ها هم أولاء يستقرُّون». إنَّ الساحة والبرجين وجدار السور «لهم»، وهم جالسون على عتبات بيوتهم يعلِّقون في حكمة قرويّة بطيئة على جميع أحداث القرية: «ماذا يمكننا أن نفعل بفتية كهؤلاء؟ إنَّهم مصابون بهوس الامتلاك؛ تحشرهم في الزنزانة، وبعد ثلاثة أيَّام، لا تدري إن كانوا أسرى أم مالكي السجن». وكان آخرون يتنزَّهون، كلّ اثنين أو كلّ ثلاثة، وكانوا يسيرون بنشاط، ويتحدَّثون، ويضحكون، ويستديرون: إنَّهم برجوازيُّون يقومون بالعرض. ويمرّ مرشَّحون، بثوب عسكريّ خاصّ، من غير أن ينظروا إلى أحد، ويسمع برونيه أصواتهم المتميِّزة: «كلّا، يا عزيزي، أستميحك العذر، إنَّهم لم يضعوا ميزانيّتهم؛ كان المفروض أن يضعوها، ولكن بنك فرنسا ساعدهم». وكان ثمَّة شخصان يلبسان النظّارات، وهما راكعان يلعبان الشطرنج، يحيط بهما كثيرون؛ وكان رجل قصير أصلع يقرأ وهو مقطّب الجبين، وكان بين فترة وفترة يضع كتابه، ويقلِّب في هياج صفحات كتاب ضخم. ومرّ برونيه خلفه: وكان الكتاب قاموسًا. وسأله برونيه:

ـ ماذا تفعل؟

ـ أتعلّم الألمانيّة.

وحول أنبوب السقاية، كان رجال عراة يصرخون ويتدافعون ضاحكين؛ وكان غارتيزر الألزاسيّ مرتفقًا أحد الأوتاد يتحدّث بالألمانيّة مع حارس ألمانيّ يصغي إليه، وهو يشير برأسه علامة الموافقة. إنَّ لقمة خبز كانت كافية! لقمة خبز، فإذا بهذه الساحة الكئيبة التي كان الجيش المهزوم يحتضر فيها تتحوَّل إلى شاطئ، إلى مشمسة، إلى سوق خيريّة. وكان ثمَّة شخصان عاريان يسمّران جسْمَيهما في الشمس، مضطجعين فوق غطاء؛ وودّ برونيه لو يركل أفخاذهما المذهَّبة بقدمه: أحرقوا مدنهم وقراهم، خذوهم إلى المنفى، فسيصرّون في كلّ مكان على إعادة بناء

سعادتهم الصغيرة العنيدة، سعادة الفقراء؛ اذهبوا إذن، فاعملوا في هذا الميدان. وأولاهم ظهره، ومضى إلى الساحة الأخرى؛ وتوقّف مأخوذًا: ظهور، آلاف الظهور، قرع جرس صغير، وتنحني ألوف الرؤوس. وقال:

ـ بلا مزاح!

فأخذ شنايدر وعامل المطبعة يضحكان:

ـ أي نعم! أي نعم! اليوم هو الأحد. ولقد أردنا أن نطلع عليك بمفاجأة.

قال برونيه: ـ هكذا إذن! إنَّه يوم الأحد!

ونظر إليهما مشدوهًا: أيّ عناد! لقد صنعا لنفسيهما «أحدًا تركيبيًّا»، أحدًا من المدينة والريف، لأنَّهما قرأا في رزنامة أنَّ اليوم يوم أحد. وفي الساحة الأخرى، كان يوم الأحد في القرية، يوم الأحد في شارع الريف الكبير، أمّا هنا، فكان يوم الأحد في الكنيسة؛ ولم يكن ناقصًا إلّا السينما. والتفت إلى عامل المطبعة:

ـ أليس من سينما، هذا المساء؟

فابتسم عامل المطبعة:

ـ إنَّ عمَّال الشبيبة المسيحيّة سيقيمون احتفال ألعاب ناريّة.

فشدّ برونيه على قبضته، وفكَّر في الخوارنة الصغار، فكَّر: لقد عملوا بجدّ، بينما كنت مريضًا. ينبغي للمرء ألّا يمرض قطّ. وقال عامل المطبعة في خجل:

ـ إنَّه نهار جميل.

فقال برونيه بين أسنانه: ـ بكلِّ تأكيد.

بكلِّ تأكيد، نهار جميل، نهار جميل على فرنسا كلّها: إنَّ الخطوط الحديديّة المنتزعة الملويّة تلمع تحت الشمس، والشمس تُذهِّب الأوراق المصفرّة في الأشجار المقتلعة، والماء يبرق في جوف أوعية القنابل، والموتى يخضرّون بين القمح، وبطونهم تغنِّي تحت سماء لا غيوم فيها.

أتراكم قد نسيتم؟ إنَّ الرجال هم من المطّاط. وارتفعت الرؤوس، وتكلّم الكاهن. ولم يكن برونيه يصغي إلى ما يقول، ولكنَّه كان يرى رأسه المحمرّ، وشعره الرماديّ، ونظّارته الحديديّة، وكتفيه القويّتين؛ وعرفه: إنَّه الرجل ذو الكتاب الدينيّ الذي لاحظه في المساء الأوّل. واقترب. وعلى بعد خطوتين منه، كان الرقيب ذو الشارب يصغي إليه بحماسة، ملتمع العينين، متواضع الهيئة.

ـ . . . إنَّ كثيرين منكم مؤمنون، ولكنّي أعرف كذلك أنّ هناك آخرين يصغون إليّ بدافع الفضول، أو ليتثقّفوا، أو بكلّ بساطة ليقتلوا الوقت. إنّكم جميعًا إخوتي، إخوتي الأعزّاء، إخوتي في السلاح، وإخوتي في الربّ، وأنا أتوجَّه إليكم جميعًا، كاثوليكيّين وبروتستانت وملحدين، لأنَّ كلمة الربّ للجميع. والرسالة التي أحملها إليكم في يوم الحداد هذا، الذي هو يوم الربّ أيضًا، تتلخّص في هاتين الكلمتين البسيطتين: «لا تيأسوا! . . .» لأنَّ اليأس ليس فقط إثمًا ضدّ الرحمة الإلٰهيّة المعبودة: فحتى الجاحدون يوافقونني على أنّه اعتداء من الإنسان ضدّ نفسه. وهو إذا صحّ القول انتحار روحيّ. ولا ريب في أنَّ فيكم، يا إخوتي الأعزّاء، من خدعهم التعليم المتعصّب، فحملهم على ألّا يروا في التابع الرائع لأحداث تاريخنا إلّا سلسلة من الحوادث لا معنى لها ولا رابطة. فهم يمضون اليوم مردّدين بأنّنا قد هُزمنا، لأنّنا لم نكن نملك عددًا كافيًا من الدبّابات، ولم يكن لدينا عدد كافٍ من الطائرات. وعن هؤلاء، قال الرب إنَّ لهم آذانًا لا يسمعون بها وعيونًا لا يرون بها، ولا ريب في أنّه، حين سقط الغضب الإلٰهيّ على سدوم وعمّوريّة، كان ثمّة في المدن الفاجرة مذنبون، بلغ بهم العناد أن زعموا أنّ مطر النار الذي كان يُحيل مدنهم إلى رماد لم يكن إلّا ترسُّبًا جوّيًّا أو شهابًا. ألم يكونوا يا إخوتي يأثمون بحقّ أنفسهم؟ فإذا كانت النار قد سقطت على سدوم اتّفاقًا، فلن يكون هناك عمل للإنسان أو ثمرة لصبره وصناعته إلّا وتتحوَّل بين ليلة وضحاها إلى عدم، من غير سبب، بفعل قوى عمياء. فلماذا إذن يبني

الإنسان؟ ولماذا يزرع؟ ولماذا يؤسِّس أسرة؟ ها نحن أولاء مهزومون وأسرى، مُذلُّون في عزّتنا القوميّة المشروعة، متألِّمون في أجسامنا، بلا أخبار من المخلوقات العزيزة علينا، فكيف؟ أيكون هذا كلُّه بلا هدف؟ بلا مصدر آخر غير لعبة القوى الميكانيكيّة؟ إذا كان ذلك صحيحًا، يا إخوتي، فيجب أن نستسلم لليأس، لأنَّه ليس ثمَّة ما هو أبعث على اليأس وأشدّ ظلمًا من أن نتألَّم من أجل لا شيء. ولكنِّي يا إخوتي أسأل هذه العقول القويّة بدوري: «ولماذا لم نكن نملك عددًا كافيًا من الدبّابات؟ لماذا لم يكن لدينا عدد كافٍ من المدافع؟» إنَّهم سيجيبون بلا ريب: «لأنّنا لم نكن ننتج منها العدد الكافي». وهنا ينكشف فجأة وجه هذه الفرنسا الآثمة التي نسيت، منذ ربع قرن، واجباتها وربّها. ولماذا، في الواقع، لم ننتج بما فيه الكفاية؟ لأنّنا لم نكن نعمل. وما هو، يا إخوتي، مصدر هذه الموجة من الكسل التي سقطت علينا كما سقط الجراد على حقول مصر؟ لأنَّنا كنَّا منقسمين بخلافاتنا الداخليّة: فالعمَّال قد قادهم مشاغبون أوقاح، فانتهى بهم الأمر إلى ازدراء أرباب عملهم، وأرباب العمل قد أعمتهم الأنانيّة، فلم يهتمُّوا للاستجابة للمطالب المشروعة، وكان التجّار يحسدون الموظَّفين، وكان الموظَّفون يعيشون كشجرة الدبق على السنديانة، ونوَّابنا، في المجلس، بدلاً من أن يناقشوا هادئين في الصالح العام، كانوا يتصادمون ويتشاتمون ويصلون أحيانًا إلى التماسك بالأيدي. وما سبب هذه الخلافات، يا إخوتي الأعزَّاء، ما سبب هذه المنازعات على المصالح، لماذا هذا الانحلال في الأخلاق؟ لأنَّ ماديّة قذرة قد انتشرت في البلاد كالوباء. وهل الماديّة إلَّا حالة الإنسان الذي انصرف عن الربّ: فهي تفكّر بأنَّه وُلد من الأرض وسيعود إلى الأرض، فليس له ما يهمّه بعد إلَّا مصالحه الأرضيّة. ولكنِّي أردّ على متشكِّكينا: «أنتم على حقّ، يا إخوتي: لقد خسرنا الحرب، لأنَّنا لم نكن نملك «مادَّة» كافية؛ ولكن لستم على حقّ إلَّا جزئيًا، لأنَّ جوابكم «ماديٌّ»، وإنَّما هُزمتم لأنّكم ماديُّون»؛ إنَّ فرنسا، ابنة الكنيسة البكر، هي

التي سجَّلت في التاريخ سلسلة باهرة من انتصاراتها؛ وإنَّ فرنسا التي لا ربّ لها هي التي عرفت الهزيمة عام ١٩٤٠».

وتوقّف؛ وكان الرجال يصغون في صمت، فاغري الأفواه؛ وكان الرقيب يوافق بإيماءات من رأسه. وعاد برونيه ينظر إلى الكاهن، فلاحظ عليه هيئة الانتصار: كانت عيناه الملتمعتان تركضان بين المستمعين، ووجنتاه تحمرّان، ورفع يده واستأنف الكلام في اندفاع يكاد يكون جذلاً:

ـ وهكذا يا إخوتي، لندع التفكير بأنَّ هزيمتنا هي ثمرة المصادفة: إنَّها في الوقت نفسه جزاؤنا وغلطتنا: إنَّها ليست مصادفة، يا إخوتي، بل هي عقاب، وهذا هو النبأ الطيِّب الذي أحمله لكم اليوم.

وتوقّف مرَّة أخرى، يراقب الرؤوس الممدودة نحوه ليحكم على الأثر الذي خلَّفه، ثم انحنى وتابع بصوت أكثر تعريضًا:

ـ إنّه نبأ قاسٍ غير سارّ، أعترف بذلك، لكنَّه مع ذلك نبأ طيِّب. إنَّ من يظنّ نفسه ضحيّة بريئة لكارثة ويلوي يديه من غير أن يفهم، ألا نبلِّغه نبأ طيِّبًا حين نطلعه أن يكفِّر عن خطأه؟ ومن أجل هذا أقول لكم: ابتهجوا يا إخوتي! ابتهجوا من أعماق هوّة آلامكم، لأنَّه إذا كان ثمَّة خطأ وكان ثمَّة تكفير، فهناك أيضًا فداء، وأقول لكم: ابتهجوا أيضًا، ابتهجوا في «بيت أبيكم»، لأنّ هنا سببًا آخر للابتهاج. فإنَّ سيِّدنا ومولانا الذي تألَّم لجميع البشر، والذي أخذ أخطاءنا على عاتقه، والذي تعذّب وما يزال يتعذّب ليكفِّر عنها، إنَّ مولانا قد اختاركم. أجل. أنتم جميعًا، فلَّاحين وعمَّالاً وبورجوازيِّين، ولستم الأبرياء تمامًا، كما أنّكم لستم الأكثر ذنبًا، لقد اختاركم لمصير لا يُقارَن: اختار أن تَفتدي آلامُكم، على غرار آلامه، ذنوبَ فرنسا كلّها التي لم يكفّ الربّ عن حبّها والتي عاقبها على مضض. هنا يا إخوتي يجب أن تختاروا، فإمّا أن تئنُّوا وتقطِّعوا شعوركم قائلين: لماذا تنزل عليّ هذه المصائب؟ عليّ لا على جاري الذي كان غنيًّا شرِّيرًا، ولا على السياسيِّين الممتهنين الذين قادوا بلادي

إلى الهلاك؟ وإذ ذاك لا يبقى لأيِّ شيء معنى، ويبقى لكم أن تموتوا في الحقد والضغينة. وأمّا أن تقولوا لأنفسكم: إنّنا لم نكن شيئًا، وها نحن أولاء مختارون للألم، ها نحن أولاء الشهداء. وإذن، حين يكون رجلٌ أرسلته العناية الإلٰهيّة، ابنٌ محترم لأولئك الذين كان الربّ دائمًا يوقظهم في فرنسا، إذ تكون على قاب قوسين من الهلاك..

ومضى برونيه على رؤوس أصابعه، فوجد شنايدر وعامل المطبعة مستندين إلى جدار الثكنة، وقال:

ـ إنَّه يعرف مهنته.

قال عامل المطبعة: ـ صحيح! إنَّه ينام على بعد شبرين منِّي؛ وفي المساء لا نسمع سواه يعظ الرفاق.

ومرّ رجلان بقربهم، أحدهما طويل هزيل ذو رأس طويل يلبس النظّارة، والآخر قصير سمين ذو فمٍ يحمل الازدراء. وقال الطويل بصوت رقيق:

ـ لقد تكلَّم جيِّدًا جدًّا. وببساطة. وقال ما ينبغي أن يُقال.

فأخذ برونيه يضحك: ـ طزْ!

وخطوا بضع خطوات؛ ونظر عامل المطبعة إلى برونيه في ثقة وسأل:

ـ وإذن؟

فردّد برونيه: ـ إذن!

ـ هذه العظة، ما رأيك فيها؟

ـ فيها الطيِّب وفيها الرديء. وهو على نحو ما يعمل لصالحنا: فقد شرح لهم أنَّ الأسر لن يكون لعبة تسلية؛ وأعتقد أنَّه سيلحّ على هذه النقطة: وفي هذا مصلحته كما فيه مصلحتنا، فما دام هؤلاء الفتيان يتصوَّرون بأنَّهم سيرون صديقاتهنّ الصغيرات في آخر الشهر، فلن نستطيع أن نصنع بهم شيئًا.

ـ ماذا؟

وتباعدت عينا العامل الجميلتان، وأصبحت وجنتاه رماديَّتين. وتابع برونيه:

ـ لا بأس من هذه الناحية، بل إنَّ بوسعكم أن تستغلُّوه. فخذوا رفاقكم وقولوا لهم: هل رأيت الخوري؟ لقد قال إنّنا سنواجه مصاعب شديدة.

فسأل عامل المطبعة جاهدًا:

ـ وهل تظنّ أنت، أنّنا سنقضي هنا وقتًا طويلاً؟

فنظر إليه برونيه بقسوة:

ـ هل تؤمن ببابا نويل!

فصمت العامل وابتلع ريقه؛ والتفت برونيه نحو شنايدر، وأضاف:

ـ غير أنِّي، من جهة أخرى، لم أكن أظنّ أنَّهم سيقرِّرون موقفهم بهذه السرعة، وإنَّما كنت أعتقد بأنَّهم يودّون الانتظار. ومهما يكن، فإنّ عظته كانت برنامجًا سياسيًّا حقيقيًّا: إنَّ فرنسا هي ابنة الكنيسة البكر، وبيتان هو قائد الفرنسيِّين. شيء يخرّيء!

ونظر إلى عامل المطبعة فجأة:

ـ ما رأي الذين حولك فيما قال؟

ـ إنَّ الناس يحبُّونه كثيرًا.

ـ هكذا!

ـ ليس ما قد يؤاخذ عليه بالكثير. فهو يوزِّع كلّ ما يملك، ولكنَّه يشعرك بذلك. إنَّه يبدو عليه دائمًا أنَّه يقول لك، إنّني أمنحك هذا لمحبَّة الربِّ. وأنا أفضِّل ألَّا أدخِّن على أن أدخِّن تبغه؛ ولكنِّي الوحيد في هذا الموقف.

ـ أهذا كلّ ما تعرفه عنه؟

فقال عامل المطبعة، وكأنَّه يعتذر:
ـ أنت تعرف أنَّه لا يكون بيننا إلَّا في المساء.
ـ ماذا يفعل في النهار؟
ـ إنَّه في ردهة المرضى.
ـ وهناك الآن ردهة للمرضى؟
ـ نعم، في البناية الأخرى.
ـ وهل هو ممرِّض؟
ـ لا، ولكنَّه صديق للماجور، فهو يلعب البريدج معه ومع ضابطين جريحين.
قال برونيه: ـ ها! ها! وماذا يقول الفتيان في ذلك؟
ـ لا يقولون شيئًا، يظنُّون؛ ولكنَّهم لا يريدون أن يعرفوا. وأنا قد عرفت ذلك من غارتيزر، وهو ممرِّض.
ـ حسنًا، ستفضح أمامهم القضيّة: وستسألهم كيف يحدث أن يكون الخوارنة محشورين دائمًا مع الضبّاط.
ـ اتّفقنا.
وكان شنايدر ينظر إليهم منذ برهة، ببسمة غريبة، وقال:
ـ إنَّ البناية الأخرى، هي بناية الألمان.
قال برونيه: ـ آه!
واستدار شنايدر نحو عامل المطبعة، وكان ما يزال يبتسم:
ـ إنّك ترى ما ينبغي أن تقوله: إنَّ الخوري يترك رفاقه ليذهب فيتملَّق الألمان بطريقة منحطَّة.
قال عامل المطبعة برخاوة:
ـ أوه، لا أعتقد أنّه يرى كثيرًا من الألمان.
فهزّ شنايدر كتفيه في نفاد صبر متكلِّف، فشعر برونيه بأنّه يتسلّى.

وسأل شنايدر العامل: ـ هل يحقّ لك أنت أن تتنزّه في بناية الألمان؟

فهزّ العامل كتفيه من غير أن يُجيب. وقال شنايدر منتصرًا:

ـ أنت ترى! إنّني أنا لا أُبالي بنواياه: فربَّما كان يريد أنَّ ينقذ فرنسا. ولكنَّه «موضوعيًّا» أسيرٌ فرنسيّ يقضي أيَّامه مع العدوّ. هذا ما ينبغي للرفاق أن يعرفوه.

والتفت عامل المطبعة، مبلبلاً، إلى برونيه. ولم يكن برونيه قد أحبَّ على الإطلاق لهجة شنايدر، ولكنَّه لم يكن يريد أن يناقضه، فقال:

ـ تدبّر الأمر برويّة، ولا تحاول أن تهدمه الآن. والواقع أنَّ هنا أكثر من خمسين مثله، ولن تكفي وحدك لذلك. فجرِّب أن تقول، في الحديث: إنَّ الخوري يعتقد بأنَّنا لن نعود إلى بيوتنا في وقت قريب، ولا بدّ أنَّه يعرف ذلك، لأنَّه يلتقي بالضبّاط ويتحدَّث مع الألمان. فيجب أن يفهموا شيئًا فشيئًا أنَّ الخوري ليس من رأيهم، مفهوم؟

قال عامل المطبعة: ـ نعم.

ـ هل في غرفة الخوري شخص منّا؟

ـ نعم.

ـ هل هو بارع؟

ـ بما فيه الكفاية.

ـ فليتظاهر بأنّه مقتنع بآرائه. إنّنا بحاجة إلى مُخبر.

واستند إلى الجدار، وفكَّر لحظة، وقال لعامل المطبعة:

ـ اذهب فاصطحب رفاقك. اثنين أو ثلاثة. على أن يكونوا جُدُدًا.

وحين أصبحا وحدهما، قال برونيه لشنايدر:

ـ كنت أفضِّل أن أنتظر قليلاً، فبعد شهرين أو ثلاثة، سيصبح الأفراد مستعدِّين. غير أنَّ الخوارنة هم أقوى ممَّا ينبغي. فإذا لم نبدأ على الفور، تخطَّتنا الأحداث. أما تزال موافقًا على أن تعمل معنا؟

فسأله شنايدر: ـ أعمل بأيِّ شيء؟

فقطّب برونيه حاجبيه: ـ كنت أظنّ أنَّك تريد أن تعمل معنا، فهل غيَّرت رأيك؟

قال شنايدر: ـ لم أغيّر رأيي. وإنَّما أسألك عمَّا ستعملونه.

فقال برونيه: ـ لقد سمعت الخوري؟ إنَّ هؤلاء لم يسقطوا من المطرة الأخيرة: فسوف تجدهم بعد شهر في كلّ مكان. وبالإضافة إلى ذلك، فلن يدهشني كثيرًا أن يلتقط الألمان من بيننا كويسلنغين أو ثلاثة وأن يكلِّفوهم بأن يحملوا لنا الكلام الطيِّب. لقد كان بإمكاننا قبل الحرب أن نُقيم بوجوههم التشكيلات الصلبة، الحزب، النقابات، لجنة الطوارئ. أمّا هنا، فلا شيء عندنا. فالقضيّة إذن هي إعادة بناء «شيء ما». وطبعًا، سيتحوّل ذلك إلى مناقشات طويلة مملّة، ولم يسبق لي أن أحببت ذلك كثيرًا، ولكنْ أخيرًا، ليس لنا الخيار. وإذن: معرفة العناصر السليمة وتنظيمها، وشنّ حملة سرِّيَّة معاكسة، تلك هي أهدافنا المباشرة. وثمَّة نظريَّتان ينبغي نشرهما: إنَّنا نرفض الاعتراف بالهدنة؛ والديموقراطيّة هي شكل الحكومة الوحيد الذي نستطيع اليوم أن نقبله. ولا جدوى من المضيّ إلى أبعد من هذا: فيجب علينا في البدء أن نكون حكماء محترسين. وأنا آخذ على عاتقي أن أجد الرفاق في الحزب الشيوعيّ، ولكنّ هناك الآخرين، الاشتراكيِّين والراديكاليِّين وجميع الأفراد الذين هم «من اليسار» على نحوٍ ما، المتعاطفين أمثالك.

وبسم شنايدر بسمة باردة:

ـ المائعون.

ـ لنقل الفاترون.

وسارع برونيه يُضيف:

ـ ولكنْ بإمكان المرء أن يكون فاترًا وشريفًا. ولست على يقين من أنِّي أتحدَّث تمامًا بلغتهم. أمّا أنت، فلن تلاقي هذه الصعوبة، لأنَّ هذه لغتك.

قال شنايدر: ـ اتّفقنا. المطلوب بالإجمال أن نبعث قليلاً روح «الجبهة الشعبيّة»؟

فقال برونيه: ـ لن يكون ذلك رديئًا جدًّا.

وهزَّ شنايدر رأسه، وقال:

ـ إذن سيكون هذا عملي. ولكن... هل أنت واثق من أنَّه «عملك».

فنظر إليه برونيه مندهشًا:

ـ عملي؟

قال شنايدر في لامبالاة:

ـ أوه! إذا كنت واثقًا من ذلك..

فقال برونيه: ـ أوضح قصدك، فأنا لا أحبّ الأفكار المضمرة.

ـ ليس لديَّ ما أوضحه. فكلّ ما أقصد إليه: ماذا يفعل الحزب في هذه اللحظة؟ ما هي أوامره، وأهدافه؟ أنا أفرض أنّك تعرفها.

فنظر إليه برونيه باسمًا، وسأله:

ـ أتراك تُدرك الوضع؟ إنَّ الألمان هم في باريس منذ خمسة عشر يومًا، وفرنسا كلُّها مقلوبة رأسًا على عقب: فهناك رفاق لنا قُتلوا أو أُسروا، وآخرون فرُّوا إلى حيث لا يعلم إلَّا الله مع فرقتهم، في «بو» أو «مونتبلييه»، وآخرون في السجن. فإذا كنت تريد أن تعرف ماذا يفعل الحزب الآن، قلت لك إنّه يُعيد تنظيم نفسه.

فقال شنايدر برخاوة:

ـ فهمت، وأنت من جهتك، تحاول أن تجمع الرفاق الموجودين هنا، هذا ممتاز.

قال برونيه، بمثابة اختتام للحديث:

ـ حسنًا، فإذا كنت موافقًا..

قال شنايدر: ـ ولكن بكلِّ تأكيد يا عزيزي، إنِّي موافق، لاسيّما وأنَّ هذا لا يخصُّني، فأنا لست شيوعيًّا. أنت تقول لي إنَّ الحزب يُعيد تنظيم نفسه: فأنا لا أُريد منه أكثر من ذلك. غير أنَّ ما أردت أن أعرفه، لو كنت في مكانك..

وبحث في جيب سترته، كما لو أنَّه يبحث عن سيكارة، وعاد يُخرج يده بعد لحظة ويجعلها تتدلَّى بإزاء الجدار:

ـ على أيّة أسس يُعيد تنظيم نفسه؟ ذلك هو السؤال.

وأضاف من غير أن ينظر إلى برونيه:

ـ إنَّ السوفياتيين متحالفون مع ألمانيا.

قال برونيه بنفاد صبر:

ـ ولكنْ لا. لقد وقّعوا على ميثاق عدم اعتداء، وهو ميثاق وقتيّ. اسمع قليلاً يا شنايدر: لم يكن بوسع الاتِّحاد السوفياتيّ، بعد ميونيخ..

فتنهَّد شنايدر وقال: ـ أعرف، أعرف كلّ ما ستقوله لي. إنَّ الاتّحاد السوفياتيّ فَقَدَ ثقته بالحلفاء، وأنّه يتمهّل ريثما يصبح قويًّا بما فيه الكفاية ليُعلن الحرب على الألمان. أليس كذلك؟

فتردَّد برونيه، وقال: ـ ليس تمامًا. فأنا أميل إلى الاعتقاد بأنَّ الألمان سيهاجمونه.

ـ ولكنَّك تعتقد أنَّه يفعل ما في وسعه ليؤخِّر ذلك.

ـ أتصوّر.

فقال شنايدر بهدوء:

ـ إذن لو كنت إيّاك، ما كنت واثقًا إلى هذا الحدّ بأنَّ الحزب سيتَّخذ وضعًا حازمًا ضدَّ النازيِّين: فإنَّ ذلك يمكن أن يضرّ الاتِّحاد السوفياتيّ.

وحدَّد على برونيه عينيه. كان له نظر ضعيف كئيب، ولكن تصعب مقاومته. وشعر برونيه بالانزعاج، فأدار رأسه وقال:

ـ لا تجعل نفسك أبله ممَّا أنت. فأنت تعلم جيِّدًا أنَّ القضيّة ليست قضيّة اتّخاذ موقف علني. إنَّ الحزب هو حزب غير مشروع منذ الـ ٣٩، وسيظلّ نشاطه سرِّيًا.

فابتسم شنايدر: ـ سرِّيٌّ، نعم. ولكن ما معنى هذا؟ أيعني أنَّ جريدة «الأومانيتيه» ستُطبع سرِّيًا؟ اسمع إذن: فمن أصل عشرة آلاف نسخة تُوزَّع، ستقع مئة نسخة على الأقلّ في أيدي الألمان، هذا مقدور: فإنَّ بالإمكان، بقليل من الحظِّ، إخفاء مصدر المنشورات، والمطابع، والتحرير إلخ.. إذا كان هذا غير مشروع، ولكن ليس بالإمكان إخفاء المنشورات نفسها؛ لأنَّها مصنوعة لتُنشر وتُوزَّع. وأنا أُعطي الغستابو ثلاثة أشهر ليقفوا تمامًا على سياسة الحزب الشيوعيّ.

ـ وبعد ذلك؟ إنَّهم لا يستطيعون أن يعزوها للاتِّحاد السوڤياتيّ.

وسأل شنايدر: ـ والكومنترن؟ هل تتصوّر أنَّ موضوع الكومنترن لم يُثَرْ بين ريبنتروب ومولوتوف؟

كان يتكلَّم بغير لهجة الهجوم، بصوت محايد. ومع ذلك، فقد كان في إلحاحه شيء مريب. وقال برونيه:

ـ لا نجعل من أنفسنا استراتيجيِّين في غرفة. إنَّ ما يقوله ريبنتروب لمولوتوف أجهله، فأنا لست تحت الطاولة. ولكن ما أعرفه ـ لأنَّ هذه بديهيّة بسيطة ـ هو أنَّ العلاقات قد قُطعت بين الاتِّحاد السوڤياتيّ والحزب.

قال شنايدر: ـ أتظنُّ ذلك؟

وأضاف بعد لحظة: ـ على كلّ حال، إذا كانت قد قُطعت اليوم، فستُعاد غدًا. فهناك سويسرا.

وانتهى القدّاس، ومرّ جنود أمامهما، صامتين شاردين. وأخفض شنايدر صوته:

ـ إنّني واثق من أنَّ الحكومة النازيّة تعتبر الاتِّحاد السوڤياتيّ مسؤولاً

عن نشاط الحزب الشيوعيّ.

قال برونيه: ـ لنُقرّ ذلك جدلاً. فأين يقودنا هذا؟

فقال شنايدر: ـ تصوّر أنَّ الاتِّحاد السوفياتيّ، رغبةً منه في كسب الوقت، يفرض الصمت على الشيوعيِّين في فرنسا وبلجيكا.

فهزّ برونيه كتفيه، وقال:

ـ يُفرض! كيف تراك تتمثَّل العلاقات بين الاتِّحاد السوفياتيّ والحزب الشيوعيّ، ألا تعرف أنَّ هناك خلايا في الحزب الشيوعيّ وأشخاصًا يناقشون ويصوِّتون، في الخلايا؟

فابتسم شنايدر، واستأنف بصبر:

ـ لم أكن أريد أن أجرحك. وأطرح عبارتي على نحو آخر: تصوّر أنَّ الحزب الشيوعيّ، رغبة منه في ألَّا يثير صعوبات للاتِّحاد السوفياتيّ، يفرض على نفسه صمتًا...

ـ وهل يكون ذلك جديدًا؟

ـ ليس جديدًا إلى هذا الحدّ. ماذا فعلتم بإعلان الحرب؟ ومنذ ذلك الحين، ساء الوضع بالنسبة للاتِّحاد السوفياتيّ. وإذا استسلمت إنكلترا، كان هتلر طليق اليدين.

ـ لقد أُتيح للاتِّحاد السوفياتيّ الوقت الكافي للاستعداد. وهو ينتظر الصدمة.

ـ هل أنت واثق من ذلك؟ إنَّ الجيش الأحمر لم يكن لامعًا إلى هذا الحدّ، في هذا الشتاء. وقد كنت أنت نفسك تقول إنَّ مولوتوف يتمهّل...

ـ إذا كان بين الاتِّحاد السوفياتيّ والحزب الشيوعيّ العلاقات التي تُشير إليها، فسيعرف الرفاق في الوقت المناسب درجة استعداد الجيش الأحمر.

ـ الرفاق، نعم، هناك في باريس. أمّا أنت؛ فلا، «أنت» الذي تعمل «هنا»...

قال برونيه وهو يرفع صوته:

ـ وأخيرًا، ما هي غايتك من هذا كلّه؟ ماذا تريد أن تثبت؟ إنَّ الحزب الشيوعيّ أصبح فاشستيًّا؟

ـ كلّا، ولكنِّي أريد أن أُثبت أنَّ النصر النازيَّ والميثاق الجرمانيّ السوڤياتيّ هما واقعان لا يروقان للحزب الشيوعيّ، ولكن عليه أن يرضى بهما. وأنت لا تعرف بالذات «كيف» يرضى بهما.

ـ أيجب عليّ أن أشبّك ذراعيّ؟

قال شنايدر: ـ أنا لا أقول ذلك. وإنَّما نحن نتحدَّث..

واستطرد بعد لحظة، وهو يمرّ سبّابته إلى جانب أنفه الكبير.

ـ إنَّ الحزب الشيوعيّ ليس أعطف من النازيِّين على الديموقراطيّات الرأسماليّة، ولو كانت الأسباب مختلفة، وما دام أنَّه كان ممكنًا تصوُّر تحالف بين الاتِّحاد السوڤياتيِّ وديموقراطيّات الغرب، فقد اخترتم، كقاعدة، الدفاع عن الحرِّيَّات السياسيّة ضدّ الدكتاتوريّة الفاشيّة. ولكنَّك تعلم خيرًا منِّي أنَّ هذه الحرِّيَّات وهميّة. إنَّ الديموقراطيّات الآن راكعة على قدميها، وقد اقترب الاتِّحاد السوڤياتيّ من ألمانيا، وأخذ بيتان السلطة، وإنَّما يجب على الحزب أن يواصل عمله في مجتمع فاشيٍّ أو مرصود للفاشيّة. وأنت، بلا رؤساء، ولا أمر ولا اتِّصال، ولا أخبار، ستعود بدافع من مبادرة خاصَّة إلى اتِّخاذ تلك القاعدة الفاسدة. لقد كنّا نتحدَّث منذ لحظة عن روح «الجبهة الشعبيّة»: ولكنَّ الجبهة الشعبيّة قد ماتت. ماتت ودفنت. لقد كان لها معنى عام ٣٨، في السياق التاريخيّ. أمّا اليوم، فليس لها أيّ معنى. فاحترس يا برونيه، إنَّك ستعمل في الظلام.

وكان صوته قد أصبح خشنًا، فكسره فجأة واستطرد في رقَّة يقول:

ـ من أجل هذا، كنت أسألك عمّا إذا كنت واثقًا من عملك.

فأخذ برونيه يضحك، وقال:

ـ كفى! إنَّ هذا كلّه ليس مريعًا إلى هذا الحدِّ. فلنجمع الأفراد ولنحاول أن نجابه الخوارنة والنازيِّين؛ أمَّا الباقي، فسننظر في أمره: إنَّ المهمَّات تنبثق من تلقاء نفسها.

فأقرّ شنايدر برأسه، وقال:

ـ بكلِّ تأكيد، بكلِّ تأكيد.

فنظر إليه برونيه في عينيه، وقال:

ـ أنت الذي تقلقني، فإنِّي أجدك متشائمًا جدًّا.

قال شنايدر في غير ما اكتراث:

ـ أوه! أنا؟ إذا أردت رأيي، فإنِّي أعتقد أنَّ ما نفعله ليس له أيّة أهمِّيَّة سياسيّة: إنَّ الوضع مجرّد، ونحن غير مسؤولين. إنَّ الذين سيعودون منَّا، فيما بعد، سيجدون مجتمعًا منظَّمًا، بإطاراته وتقاليده. في هذا الميدان، على الأقلّ. لأنَّنا من جهة أخرى إذا استطعنا أن نردّ للرفاق بعض الشجاعة، وإذا حلنا بينهم وبين اليأس، وإذا أعطيناهم سببًا للحياة هنا، ولو كان وهميًّا، فإنَّ ذلك يستحقّ جهد التجربة.

قال برونيه: ـ حسنًا، هذا ممتاز (وأضاف بعد لحظة صمت) هيّا، أريد أنَّ أتنزَّه قليلاً، ما دام هذا أوّل خروج لي. فإلى اللقاء.

فحيّاه شنايدر بأصبعين ومضى. عقلٌ سلبيٌّ، مثقَّف، ما كان ينقصني إلَّا أن أرتبك به. نموذج غريب: تارة ودّيّ حارّ، وأخرى بارد، وقح تقريبًا. فأين رأيته؟ لماذا تراه يقول «الرفاق» وهو يتحدَّث عن أفراد الحزب، ولا يقول «رفاقك» كما يُنتظر منه؟ يجب أن أتدبَّر الأمر لألقي نظرة على دفتره العسكريّ. وفي الساحة المرحة بيوم الأحد، كان الرجال يبدون بهيئة أيَّام النزهة، وعلى جميع هذه الوجوه المغسولة، المحلوقة، كانت الغيبة نفسها مرسومة. كانوا ينتظرون، وكان انتظارهم قد أقام فيما

وراء السور مدينةً برمَّتها ذات حدائق ومواخير ومقاه. وفي وسط الساحة، كان أحدهم يعزف على الأرمونيكا: وأزواج يرقصون، وكانت المدينة الشبح ترفع سقوفها وأوراقها فوق سور السجن، وتنعكس على الوجوه العمياء التي يحملها هؤلاء الراقصون الأشباح. واستدار برونيه على عقبيه، وعاد إلى الساحة الأخرى. تغيير في الإطار: لقد نقلت الكنيسة. كان الفتيان يلعبون لعبة الركض وهم يصرخون، وكانوا يعدون كالمجانين. وارتقى برونيه الجرف الصغير خلف الإصطبل، ونظر إلى القبور؛ فاستشعر الارتياح. وكانت زهور قد أُلقيت على الأرض المنكوثة، وزُرعت ثلاثة صلبان صغيرة متجاورة. جلس برونيه بين قبرين، وكان الأموات تحته: وهدّأه ذلك؛ إنَّ البراءة ستأتي يومًا، بالنسبة إليه أيضًا. وأخرج من التراب علبة سردين مفتوحة وصدئة، ورماها أمامه. إنَّه يوم أحدٍ نزهة ومقبرة: كنت أتنزَّه على رابية، وتحتي كان صبية يلعبون لعبة الركض في مدينة، وكانت أصواتهم تصعد إليّ. أين كان ذلك؟ إنَّه لا يعرف بعد؛ ويفكِّر: «صحيح أنَّنا سنعمل في الظلام». فماذا إذن؟ لا نفعل شيئًا؟ وثارت قوَّته لهذه الفكرة. سأعود، في نهاية الحرب، وسأقول للرفاق: «هأنذا. لقد عشت». وسيكون ذلك رائعًا! هل أهرب؟ ونظر إلى الجدران، ولم تكن مفرطة في الارتفاع: حسبي أن أبلغ نانسي، فإنّ أسرة «بولان» ستخبِّئني. ولكنْ، كان ثمَّة هؤلاء الأموات الثلاثة، تحته، وهناك الصبية الذين يصرخون في هذا الأصيل الأبديّ: وألصق باطن يديه على الأرض الرطبة، وقرَّر أنَّه لن يهرب. مرونة. تجميع الفتيان، والانتظار، وردّ الثقة لهم والأمل، وعلى كلّ حال حثّهم على فضح الهدنة، ثم الاستعداد لتغيير التعليمات وفق الأحداث. وفكَّر برونيه: إنَّ الحزب لن يتخلَّى عنَّا. إنَّ الحزب «لا يستطيع» أن يتخلَّى عنّا. ورقد بطوله، كالأموات، على الأموات؛ ونظر إلى السماء، ثم نهض، وهبط بخطًى بطيئة، وفكَّر بأنَّه وحيد. كان الموت حوله كأنَّه رائحة، كنهاية يوم أحد؛ وللمرَّة الأولى في حياته، شعر بغموض أنَّه مذنب. مذنب بأن يكون

وحيدًا، مذنب بأن يفكِّر ويعيش. مذنب بألّا يكون قد مات، لقد كان فيما وراء الجدران بيوت ميِّتة وسوداء بكلِّ عيونها المفقودة: أبديّة الحجر. وكان ضجيج هذا الجمع الربَّاني يصعد نحو السماء منذ الأزل. وبرونيه وحده ليس خالدًا: ولكنَّ الخلود منصبٌّ عليه كأنَّه نظرة. إنَّه يمشي: وحين عاد، كان المساء قد هبط، لقد تنزَّه طوال النهار، وكان لديه ثمَّة ما يقتله، وهو لا يدري إن كان قد بلغ ذلك: إنَّ من لا يفعل شيئًا، يعاني حالات نفسيّة، هذا طبيعي. وكانت تنبعث من ممرّ العنبر رائحة غبار، وكانت الأقفاص تطنُّ، إنَّه ذيل يوم الأحد يجرجر نفسه، وعلى الأرض، كانت ثمَّة سماء بكاملها متلألئة، وفيها نجوم مذنّبة: كان الأفراد يدخِّنون في الظلام. وتوقّف برونيه، وقال من غير أن يوجِّه كلامه لأحد، بصورة خاصَّة:

ـ تنبَّهوا حين تدخِّنون: حاولوا ألّا تحرقوا الكوخ الخشبيّ.

وكان الرجال يدمدمون تحت هذا الصوت الذي يهبط إليهم، من فوق، على الأكتاف. وصمت برونيه، مبلبلاً؛ وأحسَّ أنَّه زائد. وقام ببضع خطوات أخرى: وانبثق كوكب أحمر، فتدحرج باسترخاء عند قدميه، فوضع عليه حذاءه؛ وكان الليل رقيقًا أزرق، والنوافذ تبرز في الظلّ، بنفسجيّة كالصور التي تبقى في العينين حين يكون صاحبهما قد نظر أطول ممَّا ينبغي إلى الشمس، ولم يجد قفصه، فصاح:

ـ هو! شنايدر!

فقال صوت: ـ هنا! هنا!

فعاد أدراجه، وكان شخص يغنِّي برقَّة، لنفسه: «على الطريق، الطريق الكبيرة، كان شابّ يغنِّي». وفكَّر برونيه: «إنَّهم يحبُّون المساء» وقال شنايدر:

ـ من هنا، تقدَّم قليلاً، لقد وصلت.

ودخل؛ فنظر إلى الكوَّة من خلال القضبان؟ أين هو المصباح؟ كان

الأشخاص من حوله يهمسون. إنَّهم في الصباح يصيحون، وفي المساء يهمسون، لأنَّهم يحبُّون المساء؛ فمع الليل، يدخل «السلام» بخطًى ذئبيّة إلى العلبة الكبيرة المظلمة.. «السلام» والسنوات القديمة؛ بل لكأنَّهم أحبُّوا حياتهم. قال مولو:

ـ أمَّا أنا، فكأس من البيرة، من غير ربطة عنق. في مثل هذه الساعة، أكون في «الكادران بلو» وأنا أشرب كأس بيرة، فيما أنظر إلى المارَّة.

وسأل بلوندينه: ـ و«الكادران بلو» أين تراه يكون معلَّقًا؟

ـ في الغوبلين، عند زاوية جادَّة الغوبلين وبولڤار سان مارسيل، إذا فهمت ما أقصد.

ـ آه! لأنَّ هناك دار سينما سان مارسيل؟

ـ على بعد مئتي متر. وأنا أسكن مقابل ثكنة «لورسين». وقد كنت بعد العمل أعود إلى بيتي لآكل لقمة، ثم أهبط ثانية، فأذهب إلى «الكادران بلو» أو أحيانًا إلى «كانون دي غوبلين». غير أنَّ في «الكادران بلو» فرقة موسيقيّة.

ـ الكلام بسرِّك، في سينما سان مارسيل برامج ممتازة.

ـ صحيح. هناك «شارل تريني»، وكانت من قبل ماري دويا، وقد رأيتها تخرج بلحمها وعظمها، وكانت لها سيَّارة صغيرة جدًّا.

قال بلوندينه: ـ كنت أنا أقصدها. وأنا أسكن «فانف»، وكنت أعود إلى بيتي مشيًا على الأقدام، حين يكون الليل جميلاً.

ـ ولكنَّها ليست قريبة.

ـ صحيح. غير أنِّي كنت شابًّا.

قال لامبير: ـ أمَّا أنا، فليست البيرة هي التي تنقصني، وهي لم تؤذِ قطّ، إنَّما هو الخمر. كان بوسعي أن أشرب من الخمر لترين في اليوم. وأحيانًا ثلاثة. ولكن كان لا بدَّ لي من أن أرشحها عرقًا. تصوّر لو كان

لدينا خمر هذا المساء، زجاجة صغيرة من صنع «ميدوك».

قال مولو: ـ عجبًا ثلاثة ليترات؟

ـ أجل!

ـ أمَّا أنا، فأحسّ الدوار إذا شربت أكثر من ليتر.

ـ ذلك أنَّك تشرب الخمر الأبيض.

قال مولو: ـ آه، صحيح. الخمر الأبيض. لا أعرف غيره.

ـ ينبغي ألَّا تمضي إلى أبعد. خذ مثلاً: إنَّ أمِّي العجوز في الخامسة والستِّين، وأنا أسكن معها. وبالرَّغم من سنِّها، ما تزال تكرع كيلو خمرها كلّ يوم. غير أنَّه من الخمر الأحمر.

وصمت لحظة، وحلم. وكان الآخرون يحلمون أيضًا، ويصغون بهدوء إلى هذه الأصوات التي تتحدَّث باسم الجميع، من غير أن يحاولوا مقاطعتها. وفكَّر برونيه في باريس، وفي شارع مونتمارتر، وفي حانة صغيرة كان يقصدها ليشرب قدح خمر أبيض مصمَّغ إذ يخرج من «الأوما»، وقال الرقيب:

ـ في يوم أحد كهذا، أكون ذاهبًا مع زوجتي إلى حديقتي. إنَّ لي حديقة على بعد خمسة وعشرين كيلومترًا من باريس، فيما بعد «فيلنوف سان جورج» بقليل، وهي تعطي خضارًا عظيمة.

فأقرّه صوتٌ ضخم من الجانب الآخر من القضبان:

ـ آه! إنَّ الأراضي هناك أراض خصبة كلّها.

قال العريف: ـ إنَّ هذه هي ساعة العودة إلى البيت. أو ربَّما قبل ذلك بقليل، تمامًا عندما تغرب الشمس؛ وأنا لا أحبّ أن أسير بسيَّارتي على ضوء مصباحها. وقد كانت زوجتي تعود بزهور على مقودها، وكنت أنا أضع خضارًا على «حامل الأمتعة».

قال لامبير: ـ أمَّا أنا، فلم أكن أخرج يوم الأحد، فالزحام شديد

في الشوارع، ثم إنّني كنت أشتغل يوم الاثنين، ولم يكن بيتي قريبًا جدًّا من «غاردوليون».

ـ وماذا تفعل في «غاردوليون؟».

ـ إنّني موظَّف في «الاستعلامات»؛ المبنى الذي هو في الخارج. فإذا خطر لك يومًا أن تقوم برحلة صغيرة، فليس لك إلَّا أن تأتي لحجز الأماكن. حتى ولو جئت عشيّة رحلتك: فإنِّي أدبِّر أمرك.

قال مولو: ـ أنا لا أستطيع أن أبقى في بيتي، فإنَّ ذلك يورث عندي الكآبة. يجب أن أوضح أنِّي أعيش وحدي.

قال لامبير: ـ وحتى السبت، كان يحدث غالبًا ألَّا أخرج.

ـ والصاحبات؟

ـ والصاحبات؟ كنت أُصعدهنّ إلى البيت.

قال بلوندينه مشدوهًا: ـ إلى البيت؟ وماذا تقول في ذلك، عجوزك؟

ـ لم تكن تقول شيئًا. كانت تعدّ لنا الشورباء وتذهب إلى السينما.

قال بلوندينه: ـ هكذا إذن. تستطيع أن تقول إنَّها ماهرة، فما قولك بأمِّي التي كانت ترسل إليَّ الصفعات، حتى بعد أن بلغت الثامنة عشرة، حين كانت تلتقي بي مع فتاة؟

ـ وتسكن معها، أنت أيضًا؟

ـ الآن، كلّا: فقد فتحتُ الآن بيتًا.

وصمت لحظة، ثم قال: ـ وهذا المساء، لم نكن لنهبط أيضًا. بل كنّا بقينا للمضاجعة.

وساد صمت طويل، وكان برونيه يصغي إليهما، فيحسّ نفسه يوميًّا، ويحسّ نفسه خالدًا، ويقول بشبه خجل:

ـ أمَّا أنا، فقد كنت في مثل هذه الساعة في حانة بشارع مونتمارتر، وكنت أشرب مع الرفاق خمرًا أبيض مصمَّغًا.

فلم يجب أحد، وغنّى رجل «كوخي الصغير» بصوت نحاسيّ.
وسأل برونيه شنايدر:

ـ من هو هذا الفتى؟

فقال شنايدر: ـ إنّه غاسّو، محصّل في الماليّة. وهو من بلدة «نيم».

وظلّ الرجل يغنّي، وفكّر برونيه: «إنّ شنايدر لم يقل ماذا كان يفعل يوم الأحد».

انتفاض نداء طويل رخيم، ما تراه قد كان؟ أبيض لوح زجاج الكوّة؛ وعلى الأرض الخشبيّة البيضاء، كانت القضبان تعكس ظلالها، الساعة الثالثة صباحًا. وكانت الدوالي تتموّج تحت سلفتة القمر، وكان نهر «الأولييه» يداعب نفسه عند جزره الكثيفة العشب؛ وعند جسر «فوفلورفيل»، كان زارعو الكرمة ينتظرون قطار الساعة الثالثة وهم يخفقون نعالهم؛ وسأل برونيه بجذل:

ـ ما تراه قد كان؟

وانتفض، لأنّ أحدًا قد أجابه:

ـ هسّ! هسّ! استمع!

إنّني «لست» في سريري، في «ماكون»، وهذه «ليست» العطلة الكبرى. ومن جديد، النداء الطويل الأبيض، ثلاث صفرات تتمدّد، وتتمطّى، وتنهار. لقد حدث شيء ما. كان العنبر يضجّ والحيوان الهائل يتحرّك على الأرض الخشبيّة؛ ومن أعماق الليل الذي لا عمر له، صوت رقيب:

ـ قطار! قطار! قطار!

كان هذا إذن: القطار الأوّل. وبدأ شيء ما: إنّ الليل المجرّد سيكثّف ويحيا من جديد، وسيعود الليل إلى الغناء. وأخذ الجميع يتكلّمون في وقت واحد: «القطار» القطار الأوّل، «لقد أُصلحت السكّة؛

يجب الاعتراف بأنَّهم أتمُّوا ذلك في سرعة كبيرة، إنَّ الألمانيّ هو دائمًا عامل بارع، ولكن اسمع، إنَّ هذه مصلحتهم، ويجب أن يصلحوا كلّ شيء؛ في هذا القطار سترى، فرنسا، سترى في هذا القطار! إلى أين هو متّجه؟ إلى نانسي، وربَّما إلى باريس؛ أوه أيُّها الأصحاب، أوه أيُّها الأصحاب! لو كان في داخله أسرى، أسرى يعودون إلى بيوتهم، هل تتصوَّرون؟».

كان القطار يسير في الخارج على خطٍّ مرتجل، وكان بيت كبير مظلم كامنًا برمَّته. وفكَّر برونيه: إنَّه قطار ذخيرة؛ وحاول، بداعي الاحتراس، أن يرفض طفولته؛ حاول أن يرى الشاحنات الصدئة، وأغطية الوقاية، وصحراء من الصلب والنحاس؛ ولكنَّه لم يستطع: فقد كانت ثمَّة نساء نائمات تحت ضوء مصباح أزرق خافت، في رائحة من المقانق والخمر، وكان ثمَّة رجل يدخِّن في الممرّ. وكان الليل الراقد على الزجاج يعكس له صورته؛ غدًا صباحًا، باريس. وابتسم برونيه، ثم عاد إلى الرقاد، ملتفًّا بطفولته، تحت ضوء القمر الهامس غدًا باريس، ونَعس في القطار، ورأسه مستند إلى كتف عارية رقيقة، واستيقظ في نور حريريٍّ، باريس! وأدار عينيه نحو الشمال من غير أن يحرِّك رأسه: كان ثمَّة ستَّة وطاويط متشبِّثة بأرجلها بالجدران، وأجنحتها منتشرة كأنَّها تنانير. واستيقظ تمامًا: كانت الوطاويط هي الظلال السوداء لستراتٍ معلَّقة على الجدار، بالطبع لم ينزع مولو سترته: فإذا أجبرناه على نزعها حين ينام، وعلى تغيير قميصه، لأدّى ذلك إلى إلصاق قمله بنا؛ وتثاءب برونيه، صباحٌ آخر، ما تراها قد كانت، هذه الليلة؟ آه نعم، القطار. وانتصب فجأة، فنفض غطاءه وجلس. كان جسمه من خشب، تشنُّجات متعرِّجة، وفرحة مخشوشبة في ضلوعه الخدرة، كما لو أنَّ صلابة الأرض الخشبيّة قد انتقلت إلى لحمه، وتمطّى، وفكَّر: «إذا رجعت، فلن أنام بعد في سرير أبدًا». وكان شنايدر ما زال نائمًا، فاغر الفم، في هيئة أليمة، والشتيمي يبسم للملائكة، وغاسو مشعَّث الشعر، أحمر العينين، يكسِّر

فتاتًا من الخبز على الغطاء ويأكله، يفتح فمه بين الفينة والفينة، ويفرك بإبهامه طرف لسانه لينزع عنه قذًى أو شعرة صوف بقيت في كسرة؛ وكان مولو يحكّ رأسه في تململ، وخطوط مفحّمة ترسم تجعُداته: كيف السبيل إلى إيجاد وسيلة لقسره على الاغتسال؛ وكان البلوندينه الأشقر يطرف بعينيه في هيئة كئيبة متلمِّسة، ثم يشرق وجهه فجأة:

ـ بلا مزاح!

ويطفو وجهه وحده من الغطاء، ويبدو مندهشًا مفتونًا، فسأله مولو:

ـ ما بك، أيُّها الرأس الصغير؟

قال بلوندينه: ـ بي أنِّي متوتِّر!

فقال مولو غير مصدِّق: ـ إنَّك متوتِّر؟ آه، إنّني لا أصدِّقك، متوتِّر كالمنديل!

فألقى بلوندينه عنه غطاءه، فإذا قميصه مشمّر عن ساقيه الشقراوين المشعرتين.

وقال مولو: ـ هذا لعمري صحيح! يا لك من محظوظ!

قال غاسو بلهجة متكلِّفة: ـ محظوظ؟ بل أنا أظنّ ذلك مصيبة!

قال بلوندينه: ـ أيُّها الحاسد الكبير! إنَّك تودُّ كثيرًا لو تحدث لك هذه المصيبة!

وهزّ مولو ذراع لامبير، فصاح لامبير وانتفض:

ـ ماذا هناك؟

قال مولو: ـ أنظر!

وفرك لامبير عينيه وتطلَّع، ثم اكتفى بالقول:

ـ خراء!

ونظر مرَّة أخرى: ـ هل أستطيع أن ألمسه؟

قال بلوندينه: ـ سيُحدث لي ذلك ألمًا كبيرًا.

ـ إنَّه أحيانًا فضيحة.

فردَّد بلوندينه مشمئزًّا:

ـ فضيحة! فضيحة! حين كنت في الوضع المدنيّ، كنت أنهض كلّ صباح بقضيب أكبر من هذا مرَّتين!

وكان راقدًا على ظهره، متشابك الذراعين، مغمض العينين نصف إغماضة، وعلى شفتيه بسمة طفوليّة. وقال، وهو ينظر من بين أجفانه إلى ذكره الذي كان يرتفع ويهبط على إيقاع تنفُّسه:

ـ كنت قد بدأت أقلق. ذلك أنَّ لي امرأة، أنا!

فضحكوا. وصرف برونيه رأسه. وقد صعد الغضب إلى حلقه، وقال مولو:

ـ أمَّا أنا، فقد كنت أذهب إلى الماخور. وقد يحدث أن يزول الأمر في الطريق، فيكون ذلك عمل توفير.

وضحكوا أيضًا، وأخذ البلوندينه يداعب ذكره بيد مهملة حنون، وانتهى إلى القول:

ـ الجنّة الأرضيّة.

والتفت برونيه فجأة نحو البلوندينه، وقال له من بين أسنانه:

ـ خبِّئ هذا!

فسأله المجعَّد بصوت مدبَّق بالشهوة:

ـ وممّ؟

فقال غاسو وهو يقلِّد برونيه:

ـ خبِّئ هذا النهد الذي لا أستطيع أن أراه!

وقال برونيه بجفاف: ـ أنتم جميعًا خنازير!

وأداروا نحوه رؤوسهم ينظرون إليه، وفكَّر برونيه:

ـ إنَّهم لا يحبُّونني.

ودمدم غاسو ببضع كلمات مبهمة، فانحنى عليه برونيه:

ـ ماذا تقول؟

فلم يجب غاسو، وقال مولو بلهجة مصالحة:

ـ ليس من الجريمة أن نتكلَّم بين فترة وفترة على الحبِّ. إنَّ ذلك يغيّر الجوّ.

قال برونيه: ـ إنَّما العاجزون هم الذين يتكلَّمون على الحبّ. إنَّ الحبّ يُعمَل حين يستطيع المرء ذلك.

ـ وحين لا يستطيع المرء ذلك؟

ـ يصمت.

فبدا عليهم الانزعاج والمداراة؛ وعلى مضض، رفع البلوندينه بهدوء غطاءه. وكان شنايدر ما يزال نائمًا، وانحنى برونيه على الشتيمي وهزّه، فدمدم الشتيمي وفتح عينيه، فقال برونيه:

ـ رياضة!

قال الشتيمي: ـ أويه!

ونهض فتناول سترته، وهبطوا إلى ساحة الإصطبلات. وأمام أحد الأكواخ، كان عامل المطبعة وداوروكير وثلاثة آخرون ينتظرونهم. وصاح بهم برونيه من بعيد:

ـ كيف الحال؟

ـ انفجارات. هل سمعت القصف هذه الليلة؟

فأجاب برونيه منزعجًا: ـ نعم، لقد سمعته.

ولكنَّ غيظه ما لبث أن سقط: إنَّ هؤلاء شبّان، نظيفون، ذوو حيويّة، وكان عامل المطبعة قد وضع قبَّعته جانبًا، في شيء من التأنُّق. وبسم لهم برونيه. وكانت الضجَّة قائمة، وكان الجمع في جوف الساحة،

ينتظر القدّاس، ولاحظ برونيه في رضى أنَّهم كانوا أقلّ عددًا من يوم الأحد الأوَّل.

ـ هل قمت بما كلَّفتك به؟

وفتح داوروكير باب الكوخ، من غير أن يُجيب: كان قد نثر القشّ على الأرض، فشمّ برونيه رائحة إصطبل رطبة.

ـ من أين أخذته؟

فابتسم داوروكير:

ـ لقد تدبَّرت الأمر.

قال برونيه: ـ حسنًا.

ونظر إليهم في ودّ ودخلوا، فنزعوا ثيابهم ولم يحتفظوا إلَّا بسراويلهم وجراباتهم، وأغرق برونيه قدميه في عذوبة القشّ المتكسِّرة، وشعر بالرضى، فقال:

ـ هيّا بنا.

فاصطفّ الرجال، مولين الباب ظهورهم. وقام برونيه بالحركات تجاههم، وهو يعدّ. فاحتذوا حذوه، وأنفاسهم تزفر خلال أسنانهم. ونظر إليهم برونيه في سرور بينما كانوا يقرفصون على أعقابهم، وأيديهم خلف رقابهم، أشدّاء ذوي عضلات مستطيلة، وكان داوروكير وبرونيه أقواهم، ولكن كانت لهما عضلات مكوّرة، أمَّا عامل المطبعة، فقد كان مفرط الهزال؛ وتأمَّله برونيه في شيء من القلق، ثم جاءته فكرة، فانتصب وصاح:

ـ قفوا!

فبدا على عامل المطبعة أنَّه سُرَّ لتوقُّفهم، وكان يلهث. واقترب منه برونيه:

ـ إنَّك في الحقيقة شديد الهزال!

ـ منذ عشرين حزيران، فقدت ستَّة كيلوغرامات.

ـ وكيف عرفت ذلك؟

ـ إنَّ في مركز التمريض ميزانًا.

قال برونيه: ـ يجب أن تستعيد صحَّتك. إنَّك لا تأكل طعامًا كافيًا.

ـ كيف تريد أن...

قال برونيه: ـ هناك وسيلة سهلة جدًّا، فسوف يعطيك كلّ منّا جزءًا من حصَّته...

قال عامل المطبعة: ـ إنّني...

ففرض عليه برونيه السكوت:

ـ أنا الطبيب، وإنِّي آمرك بزيادة الغذاء. موافقون؟

قالها ملتفتًا نحو الآخرين، فأجابوا:

ـ موافقون.

ـ حسنًا، ستمرّ إذن كلّ صباح بالغرف لتجمع نصيبك في الوقت المحدَّد.

انحناء، وإدارة الجذع؛ وبعد لحظة، تهاوى العامل، فقطّب برونيه حاجبيه.

ـ ماذا هناك أيضًا؟

فابتسم العامل بسمة اعتذار:

ـ إنَّ هذا قاسٍ بعض الشيء.

قال برونيه: ـ المهمّ ألّا تتوقَّف، لا تتوقَّف.

وكانت الجذوع تدور كأنَّها عجلات، وكانت الرؤوس تتحدَّى السماء وترتمي بين السيقان، ثم ترتفع من جديد. «كفى!» واستلقوا على ظهورهم ليقوموا بالحركات المِعَديّة، وستكون النهاية بالجسر الخلفيّ: وكان ذلك يسلّيهم، لأنَّهم كانوا يظنُّون أنفسهم مصارعين. وأحسّ برونيه عضلاته تعمل، وكان ألمٌ طويل حادّ يشدّ أربيّته، وكان سعيدًا؛ إنَّها اللحظة

الوحيدة الطيِّبة من لحظات النهار؛ وكانت أعمدة السقف السوداء تتدحرج إلى خلف، والقشّ يثب إلى وجهه فيستنشق رائحته الصفراء، وتلامسه يداه أمام قدميه. وقال:

ـ هيّا! هيّا!

قال جنديّ: ـ إنَّه يشدّ.

ـ هذا أفضل! هيّا! هيّا!

ونهض قائلاً:

ـ إنَّه دورك يا ماريو!

وكان ماريو يمتهن المصارعة قبل الحرب: وهو مدلِّك في مهنته. وقد اقترب من داوروكير فتناوله من قامته. وضحك داوروكير، وقد أحسّ الدغدغة، وتداعى للسقوط إلى خلف، على اليدين المقلوبتين. وجاء دور برونيه، فأحسّ هاتين القبضتين الحارَّتين بجنبيه، وارتمى إلى خلف، فقال ماريو:

ـ لا، لا، لا تتشنّج. دع نفسك باسترخاء، لا بقسر.

فضغط برونيه على فخذيه، وصدر صوت قضقضة، لقد شاخ، وأضحت عُقده صلبة، وجهد حتى لمس الأرض بأطراف أصابعه، ثم نهض مسرورًا، مع ذلك، وكان يرشح، فأولاهم ظهره ووثب إلى مكانه.

ـ قفوا!

والتفت فجأة، فإذا العامل قد سقط مغشيًّا عليه. ووضعه ماريو بلطف على القشّ، وقال بعتاب خفيف:

ـ ذلك أقسى من أن يحتمله.

فقال برونيه منزعجًا: ـ كلّا. كلّ ما هناك أنّه لم يعتده.

وكان العامل قد فتح عينيه، فبدا ممتقعًا، وكان يلهث بمشقَّة، فسأله برونيه بودّ:

ـ وإذن، أيُّها الحصان الصغير!

وابتسم العامل في ثقة:

ـ لا بأس، يا برونيه، لا بأس، إنّني أعتذر، فأنا...

قال برونيه: ـ طيّب، طيّب، ستكون في حالة أفضل إذا أكلت أكثر. هذا كلّ شيء لهذا اليوم، أيُّها الأصحاب. فإلى «الدوش» ثم إلى الخطوة الرياضيّة.

فركضوا إلى أنبوب السقاية؛ بسراويلهم، وملابسهم تحت أذرعهم وألقوا بثيابهم على شراع خيمة، فجعلوا منها رزمة غير قابلة للاختراق، ثم اغتسلوا تحت الرذاذ. وكان برونيه وعامل المطبعة يمسكان الأنبوب ويوجِّهان الماء إلى ماريو.

ورمى العامل بنظرة قلقة إلى داوروكير، وتنحنح وقال لبرونيه:

ـ نودُّ أن نتحدَّث إليك.

فالتفت إليه برونيه من غير أن يترك الأنبوب، فأخفض العامل عينيه. كان برونيه مغتاظًا بعض الشيء: إنَّه لا يحبّ أن يُخيف الآخرين، وقال بجفاف:

ـ بعد ظهر هذا اليوم، عند الساعة الثالثة، في الساحة.

وفرك ماريو جسمه بخرقة من قميص كاكيّ، ثم ارتدى ثيابه، وقال:

ـ هيه! إنَّ هناك جديدًا، أيُّها الإخوان!

كان رجل طويل شديد السمرة يخطب وسط فريق من الأسرى، فقال ماريو مهتاجًا:

ـ إنَّه شابوش، السكرتير. إنّني ذاهب لأرى ما هناك.

ونظر إليه برونيه وهو يبتعد: إنَّ الأبله لم يُتح له أن يلفّ طمّاقاته، فهو يمسك واحدة في كلّ يد. وسأل عامل المطبعة:

ـ ما تظنّ أنّ هناك؟

وكانت لهجته لهجة عدم اكتراث، ولكن صوته لم يكن ليخدع: إنَّه الصوت الذي يتَّخذونه جميعًا، مئة مرَّة في اليوم، صوت الأمل. وهزّ برونيه كتفيه:

ـ قد يكون نبأ الروس ينزلون في «بريم»، أو الإنكليز يطلبون الهدنة: وهذا لا يغيِّر شيئًا.

ونظر إلى عامل المطبعة بلا ودّ. وكان الفتى الصغير يموت رغبة في أن ينضمّ إلى الآخرين، ولكنَّه لا يجرؤ. ولم يكن برونيه راضيًا عن حيائه: فما إن أوليه ظهري، حتى يمضي إلى هناك، فينزرع أمام شابوش، جاحظ العينين، متمدِّد المنخرين، مفتوح الأذنين على سعتهما، وكلُّه ثقوب للاستماع. وقال برونيه:

ـ اغسلني.

ونزع سرواله، وكان لحمه يبتهج تحت الدفق القابض، كرات من رذاذ، مليون كرة صغيرة من لحم، قوَّة؛ ودلَّك جسمه بيديه، وعيناه محدَّدتان في المتطلِّعين؛ وكان ماريو قد انسلّ وسط الجمع، ورفع أنفه المشمّر نحو الخطيب. يا إلٰهي، ليتهم يستطيعون فقط أن يفقدوا الأمل، ليت لديهم فقط «ما يعملونه». قبل الحرب، كان العمل هو الذي يشكِّل لديهم حجر الزاوية، ويقرِّر الحقيقة، وينظِّم علاقاتهم بالعالم. أمَّا وأنَّهم الآن لا يعملون شيئًا، فهم يعتقدون أنَّ كلّ شيء ممكن، إنَّهم يحلمون، ولا يدرون بعد ما هو الصحيح. هؤلاء المتنزِّهون الثلاثة، المتمهِّلون الليِّنون الذين يتقدَّمون في تموُّجات طبيعيّة طويلة، وعلى أسفل وجوههم بسمات نباتيّة، أتراهم قد استيقظوا؟ إنَّ كلمةً تتدحرج خارج أفواههم بين الفينة والفينة، كما في الحلم، ولا يبدو أنَّهم يلاحظون ذلك. بِمَ تراهم يحلمون؟ إنَّهم يصنعون، من الصباح حتى المساء، كأنَّه سُمٌّ ذاتيٌّ، الأنباءَ المثيرة التي حرموا نفوسهم منها؛ وهم يروون فيما بينهم كلّ يوم القصّة التي كفّوا عن القيام بها: قصَّة ملأى بالأحداث المسرحيّة وبالدم.

ـ يكفي.

فانخفض الدفق، تفجُّر زبدٍ بين الحصى. وتنشّف برونيه، وعاد ماربو نحوهما بادي النصر، أعمى، فتهادى لحظة ثم قرَّر أن يتكلَّم. وقال بلهجة عدم اكتراث مصطنعة:

ـ سنشهد زيارات.

فاصطبغ وجه عامل المطبعة:

ـ ماذا؟ «أيّة» زيارات؟

ـ العائلات.

فقال برونيه في سخرية: ـ صحيح؟ ومتى ذلك؟

فنهض ماربو، ونظر إليه في عينيه نظرة مثيرة:

ـ اليوم.

قال برونيه: ـ بكلِّ تأكيد. وقد أوصى على عشرين ألف سرير حتى يستطيع الأسرى أن يضاجعوا نساءهم.

فضحك داوروكير، ولم يجرؤ العامل على ألّا يضحك، ولكنَّ عينيه ظلَّتا جائعتين. وابتسم ماربو في طمأنينة:

ـ لا! لا! فهذا رسمي. وشابوش هو الذي قاله.

فقال برونيه وهو يتضاحك: ـ آه! إذا كان شابوش!

ـ وهو يقول إنَّ ذلك سيُعلَّق هذا الصباح.

فقال داوروكير: ـ سيُعلَّق على قفاي!

فابتسم له برونيه. وبدت على ماربو الدهشة:

ـ إنَّ الأمر جدّ: وقد قيل ذلك لغارتيزر أيضًا، قاله له سائق سيّارة شحن ألمانيّ، ويبدو أنَّها قادمة من أبينال ونانسي.

ـ من هي القادمة؟

ـ العائلات. لقد سارت أمس، على الدرَّاجات، ومشيًا على الأقدام

وفي العربات، وفي قطار البضائع، ونامت على القشّ، وفي دار البلديّة، وذهبت هذا الصباح تبتهل إلى القائد الألمانيّ (وأضاف) عجبًا! خذوا، خذوا! هذا هو الإعلان.

وكان ثمَّة شخص يلصق ورقة على الباب، وإذا بالجمع يتدفَّق ويتموَّج حول السلّم؛ وأومأ ماربو إلى الباب بحركة عريضة، وسأل بلهجة انتصار:

ـ ماذا ترون: هل على قفاك عُلِّق الإعلان؟ هل على قفاك؟

فهزّ داوروكير كتفيه. وارتدى برونيه على مهل قميصه وبنطاله منزعجًا أن يكون قد أخطأ. وقال:

ـ إلى اللقاء أيُّها الرفاق. أغلقوا الصنبور.

ومضى على مهل ينضمّ إلى الجمع الذي كان يتزاحم عند الباب؛ كان باقيًا حظّ واحد في ألَّا يكون ذلك إلَّا وهمًا كسائر الأوهام؛ كان برونيه يحتقر السعادات التي لا يستحقّها المرء، والتي تأتي بين الفينة والفينة لتملأ القلوب الجبانة، كحساء لذيذ، أو زيارة أسرة، إنَّ ذلك يعقّد العمل. وقرأ من بعيد، من فوق الرؤوس:

«إنَّ قائد المعسكر يسمح للأسرى بأن يتلقُّوا زيارات أُسرهم (قرابة مباشرة)، وستُعدّ قاعة في الطابق الأرضي لهذه الغاية. وستظلّ الزيارات مسموحًا بها حتى إشعار آخر، يوم الأحد من الساعة الرابعة عشرة حتى السابعة عشرة. ولا يمكن في حال من الأحوال أن تتجاوز عشرين دقيقة. فإذا لم يبرّر مسلك الأسرى هذا التدبير الاستثنائيّ، فإنَّه سيُلغى».

ورفع غودشو رأسه بصرخة سعيدة:

ـ يجب أن نردّ لهم هذه العدالة، فهم ليسوا حيوانات.

وإلى يسار برونيه، أخذ «غالو» القصير يضحك ضحكة غريبة نائمة.

فسأله برونيه:

ـ ما يضحكك؟

قال غالو: ـ إنَّه يأتي. يأتي قليلاً قليلاً.

ـ ما الذي يأتي؟

فبدا غالو مرتبكًا، وأتى حركة غامضة، ثم كفّ عن الضحك وردَّد:

ـ إنَّه يأتي.

وشقّ برونيه الجمع فدلف إلى السلّم: وحوله، في ظلٍّ الطابق الأرضي، كان الجمع ينغل، كأنَّ المكان بيت للأَرَض؛ وإذ رفع رأسه، رأى أيادي ممتقعة على الدربزين، وخطًّا لولبيًّا مرتعشًا من الوجوه الزرقاء، فدفع. ودُفع، وارتفع بجسمه وهو يشدّ على القضبان، فسحقوه على الدربزين الذي التوى؛ وطوال النهار، ظلَّ الرجال يصعدون ويهبطون بلا أدنى سبب؛ وفكَّر: «لا فائدة: فإنَّهم ليسوا أشقياء بما فيه الكفاية». لقد أصبحوا ملَّاكين وأصحاب إيرادات، والثكنة غدت لهم، وهم ينظِّمون بعثات إلى السقف، وإلى الأقبية، وقد اكتشفوا كتبًا في سقيفة. صحيح أنَّه ليست من عقاقير في مركز التمريض، وليس من أغذية في المطبخ، ولكن هناك مركز تمريض، وهناك مطبخ، وهناك أمانة سرّ، وحتى حلَّاقون: فهم يحسُّون أنَّهم رعايا. وقد كتبوا لعائلاتهم، ومنذ يومين، عاد زمن المدن يجري. وحين أمرهم القائد الألمانيُّ بضبط ساعاتهم على الساعة الألمانيّة، أسرعوا يطيعونه، حتى أولئك الذين كانوا، منذ شهر حزيران، يحملون، على سبيل الحداد، ساعات ميّتة في معاصمهم: فإنّ تلك المدَّة المبهمة التي كانت تنمو كالعشب الطفيليّ، قد اتّخذت صفة عسكريّة، فلقد أعاروهم وقتًا ألمانيًّا، وقتًا صحيحًا من أوقات المنتصر، هو نفسه الذي يجري في دانتزيغ وفي برلين: وقتًا مقدَّسًا. ولم يكونوا أشقياء بما فيه الكفاية: فهم محاطون، مقادون، يقدِّم لهم الغذاء والمأوى والإدارة، وهم غير مسؤولين. وفي هذه الليلة، كانت قصَّة هذا القطار، وها أنَّ العائلات ستأتي، محمَّلة الأذرع بالمعلَّبات والمؤاساة. كم سيكون من صياح، ومن دموع، ومن قبلات! «لقد كانوا بحاجة شديدة إلى هذا: فقد

كانوا حتى الآن متواضعين على الأقلّ. أمَّا الآن، فسوف يحسُّون أهمِّيَّتهم». ذلك أنَّ زوجاتهم وأمّهاتهم قد أُتيح لهنَّ الوقت الكافي لأن يخلقن لأنفسهنّ الأسطورة البطوليّة الكبرى «للأسير»، وهنّ آتيات لينقلن إليهم عدواها. وبلغ العنبر، فحاذى الممرّ، ودخل إلى قفصه وهو ينظر إلى رفاقه في غضب. إنَّهم هناك، مضطجعون على عادتهم، لا يفعلون شيئًا، يحلمون بحياتهم مرتاحين مضلَّلين. وكان لامبير يقرأ «الفتيات الصغيرات النماذج» وحاجباه مرتفعان، وهيئته عابسة مندهشة. وكانت نظرة واحدة كافية لإدراك أنَّ النبأ لم يبلغ العنبر بعد. وتردَّد برونيه: أيخبرهم إيّاه؟ إنَّه يتمثَّل عيونهم الملتمعة، وهياجهم الثرثار، «سيعرفونه في وقت مبكر بما فيه الكفاية». وجلس في صمت. وكان شنايدر قد هبط ليغتسل؛ ولم يكن الشتيمي قد صعد بعد؛ وكان الآخرون ينظرون إلى برونيه نظرة تململ. وسأل برونيه:

ـ ماذا هناك أيضًا؟

فلم يجيبوا على التوّ، ثم قال مولو وهو يخفض صوته:

ـ إنَّ في القفص السادس قملاً.

فانتفض برونيه وكزّ وجهه. وأحسَّ أنَّه ثائر الأعصاب؛ فزادت ثورة أعصابه، وقال في عنف:

ـ لا أريد قملاً هنا.

وتوقَّف فجأة، وعضَّ على شفته السفلى، وهو ينظر إليهم في عدم ثقة، فلم يتحرَّك أحد: لقد بقيت الوجوه التي التفتت نحوه كابية مرتبكة بعض الشيء. وسأل غاسو:

ـ ما الذي سنفعله يا برونيه؟

ـ نعم، نعم، أنتم لا تحبُّونني كثيرًا، ولكنْ حين تقع بنا مصيبة، فإنَّما تسعون للبحث عنِّي. وأجاب بلهجة ألطف:

ـ لم تريدوا أن تنتقلوا حين طلبت منكم.

ـ ننتقل إلى أين؟

ـ كانت هناك شقق حرّة، وكنت قد طلبت إليك يا لامبير أن ترى إذا كان المطبخ في الطابق الأرضيّ حرًّا.

قال مولو: ـ المطبخ؟ شكرًا لك، ننام على البلاط فنصاب بالمغص، فضلاً عن أنّه مليء بالحشرات.

ـ هذا أفضل من القمل. لامبير: إنّني أكلِّمك: هل ذهبت إلى المطبخ؟

ـ نعم.

ـ ماذا وجدت؟

ـ إنّه مشغول.

ـ طبعًا: كان ينبغي أن تذهب إليه منذ ثمانية أيَّام.

وأحسّ بخدَّيه يحتقنان، وارتفع صوته، فصاح:

ـ لن يكون هنا قمل! لن يكون قمل!

قال البلوندينه: ـ لا! لا! لا تغضب: فليس الذنب ذنبنا.

ولكنَّ الرقيب صاح بدوره:

ـ إنَّه على حقّ في أن يغضب ويزعق! إنَّه على حقّ! لقد شهدت أنا حرب الـ ١٤ برمّتها، فلم أَرَ قملاً قطّ، فلن أبدأ اليوم مثلكم بالقمل، أنتم الذين لا تعرفون حتى أن تغتسلوا!

وكان برونيه قد كظم غضبه، فقال بصوت هادئ:

ـ يجب اتِّخاذ تدابير مباشرة.

وقهقه بلوندينه: ـ نحن؟ نوافق تمامًا، ولكن أيّة تدابير!

قال برونيه: ـ أوَّلاً، يجب عليكم «جميعًا» أن تغتسلوا كلّ صباح؛ ثانيًا، يجب عليكم أن تتفلُّوا كلّ مساء.

ـ ماذا تقصد؟

ـ تتعرُّون تمامًا، فتأخذون ستراتكم وسراويلكم وقمصانكم فتنظرون إن كان في التشريحات صئبان. وإذا كنتم ترتدون زنانير من الفلانيل، فإنَّها تفضِّل ذلك المكان.

وتنهّد كاسو: ـ هذا مرح!

وتابع برونيه: ـ وإذ تأوون إلى النوم، تعلِّقون أمتعتكم بالمسامير، بما في ذلك القمصان: فسوف ننام عراة تحت الأغطية.

قال مولو: ـ خراء إذن! لا بدّ أن أُصاب بنزلة رئويّة!

فالتفت إليه برونيه بحيويّة: ـ أتى دورك يا مولو. إنَّك عشّ قمل، ولا يمكن لهذا أن يستمرّ.

قال مولو مختنقًا بالغيظ:

ـ ليس هذا صحيحًا، وليس عندي قمل.

ـ ربَّما لم يكن عندك الآن قمل، ولكنْ إن كان ثمَّة قملة على بعد عشرين كيلومترًا، فأنا واثق من أنّها ستلتصق بك ثقتي من أنّنا قد خسرنا الحرب.

فقال مولو بلهجة ضيق: ـ ليس من مبرِّر. لماذا بي، لا بك؟ الحقيقة أنَّه ليس من سبب لهذا.

فقال برونيه بصوت هادر: ـ بل هناك سبب على الأقلّ، هو أنَّك قذر كالخنزير!

فرماه مولو بنظرة سامّة وفتح فمه، ولكن جميع الآخرين أخذوا يضحكون ويصرخون:

ـ هو على حقّ، أنت منتن، ورائحتك كرائحة الفتاة الصغيرة التي تهمل نفسها، أنت وسخ، أنت قذر، إنّك تقطع لي قابليَّتي، فلا أستطيع أن أستمرّ في الطعام حين أنظر إليك!

وانتصب مولو وهو يحدِّجهم، وقال في اندهاش:

ـ إنّني أغتسل، بل ربَّما كنت أغتسل أكثر منكم، ولكنِّي لست

كبعض الذين يتعرُّون في وسط ساحة الشرف، بقصد اجتذاب الأنظار.

فوضع برونيه إصبعه تحت أنفه:

ـ هل اغتسلت أمس؟

ـ طبعًا.

ـ إذن أرِنا قدميك.

فوثب مولو في الهواء:

ـ هل أنت مجنون؟

وردّ ساقيه تحته، فجلس على عقبيه، على الطريقة التركيّة:

ـ إنّني لا أُري قدميّ للناس غالبًا.

فقال برونيه: ـ انزعوا حذاءه.

فارتمى لامبير وبلونديه على مولو، فكتّفاه وسمّراه على الأرض مقلوبًا، ودغدغ غاسو جنبيه، فارتعش مولو، وصرخ وزعق، وضحك وتنهَّد:

ـ كفى! كفى! يا جماعة! لا تكونوا حمقى! إنّني لا أستطيع أن أتحمَّل الدغدغات.

قال الرقيب: ـ إذن، الزمْ الهدوء.

فظلّ مولو فاغرًا، لا تزال الرعشات تهزّه. وكان لامبير قد جلس على صدره، وفكَّ الرقيب سير حذائه الأيمن، وشدّ، فانبثقت القدم، وامتقع الرقيب، فترك الحذاء ونهض فجأة، وقال:

ـ يلعن دين!

قال برونيه: ـ نعم، يلعب دين!

ونهض لامبير وبلونديه صامتين، ونظرا إلى مولو في اندهاش معجب. وعاد مولو إلى الجلوس، هادئًا وقورًا. وصاح صوت غاضب من القفص المجاور:

ـ هيه! ماذا تعملون، يا سكَّان الشقَّة ٤؟ إنَّ رائحة الزبدة العفنة تنبعث من عندكم!

فقال لامبير ببساطة:

ـ إنَّ مولو يخلع حذاءه.

ونظروا إلى قدم مولو: كان الإبهام الكبير أسود، وكان خارجًا من الجراب المثقوب الأسود.

وسأل لامبير: ـ هل رأيت باطن القدم؟ إنَّه ليس بعدُ جوربًا، ولكنَّه دانتيل!

وكان غاسو يتنفَّس في منديله، وكان البلوندينه يهزّ رأسه ويردِّد في لهجة احترام:

ـ آه! يا للبقرة! يا للبقرة!

قال برونيه: ـ هذا كاف. خبّئ قدمك!

فسارع مولو يُدخل قدمه في الحذاء. وتابع برونيه بجدٍّ:

ـ أنت يا مولو تشكِّل خطرًا عامًّا. وستتفضَّل على الفور فتذهب لأخذ حمَّام سريع. فإذا لم تغتسل في مدَّة نصف ساعة، فلن تُعطى طعامًا ولن تنام هنا هذا المساء.

فنظر إليه مولو في حقد، ولكنَّه نهض من غير أن يحتجّ، واكتفى بالقول:

ـ إذن، أنت الذي تأمر هنا؟

فتحاشى برونيه الإجابة؛ وخرج مولو، فأخذ الآخرون يقهقهون، ولكنّ برونيه لم يضحك؛ كان يفكِّر في القمل، كان يفكّر: «على كلّ حال، لن يكون عندي «أنا» «قمل».

وسأل بلوندينه: ـ كم الساعة؟ إنَّ معدتي أصبحت في قدمي.

قال الرقيب: ـ الظهر.

ـ الظهر، هي ساعة التوزيع. دور مَنْ بالسخرة اليوم؟

ـ دور غاسو.

ـ افرنقع إذن يا غاسو.

قال غاسو: ـ أمامنا متَّسع من الوقت.

ـ أقول لك افرنقع، حين تكون في السخرة، فإنَّ دورنا يأتي دائمًا في الأخير، فقال غاسو وهو يضع قبَّعته بغضب:

ـ كفى! كفى!

وخرج. وعاد لامبير إلى القراءة. وأحسّ برونيه تأكلات عصبيّة تسري بين راسليه؛ وحكّ لامبير فخذه وهو يقرأ، وكان بلوندينه ينظر إليه:

ـ هل لديك قمل؟

قال لامبير: ـ كلَّا، ولكن ذلك منذ جرى الحديث عنه.

قال بلوندينه: ـ عجبًا! وأنا أيضًا.

وحكّ عنقه:

ـ برونيه، ألا تشعر بالحكاك؟

قال برونيه: ـ كلَّا.

وصمتوا، وكان البلوندينه يحكّ رقبته المتشنِّجة، وكان لامبير يقرأ وهو يحكّ، وأدخل برونيه يديه في جيبه من غير أن يحكّ. وظهر غاسو ثانية على العتبة، بادي الغضب:

ـ هل تستهزئون بي؟

ـ أين الخبز؟

ـ الخبز! ليس ثمَّة أحد تحت، حتى المطابخ لم تُفتح بعد.

فرفع لامبير وجهًا مذعورًا:

ـ هل يعني هذا أنَّ الوضع سيعود كما كان في حزيران؟

كانت نفوسهم المتنبِّئة الكسول مستعدَّة دائمًا لتصديق الأسوأ أو

الأحسن. والتفت برونيه نحو الرقيب:

ـ كم الساعة معك؟

ـ الثانية عشرة وعشر دقائق.

ـ أأنت واثق من أنَّ ساعتك تمشي؟

فابتسم الرقيب ونظر إلى ساعته في رضى، وقال ببساطة:

ـ إنَّها ساعة سويسريّة.

وصاح برونيه بأفراد الشقَّة المجاورة:

ـ كم الساعة معكم؟

فأجاب صوت:

ـ الحادية عشرة وعشر دقائق.

فقال الرقيب بلهجة انتصار:

ـ ماذا قلت لكم؟

فقال غاسو في حقد:

ـ قلت لنا، الثانية عشرة وعشر دقائق، أيُّها الأبله!

ـ صحيح: الثانية عشرة وعشر دقائق في فرنسا، والحادية عشرة وعشر دقائق قي ألمانيا.

فقال غاسو وهو يغلي من الغضب:

ـ ممحون!

وتخطَّى جسم لامبير وتداعى للسقوط على الغطاء. وتابع الرقيب بهدوء:

ـ إنّني لن أتخلَّى عن الساعة الفرنسيّة في الوقت الذي تغرق فيه فرنسا في الخراء!

ـ ليس هناك بعد من ساعة فرنسيّة، أيُّها الساذج! فإنَّ الألمان قد فرضوا ساعتهم من مارسيليا إلى ستراسبورغ.

فقال الرقيب، مطمئنًا مصرًّا:

ـ ربَّما كان هذا. ولكن لم يُخلق بعد من يستطيع أن يغيِّر «ساعتي».

والتفت إلى برونيه وأضاف موضحًا:

ـ حين يلوذ الألمان بالفرار، ستكونون مسرورين جدًّا بأن تجدوا ساعتكم.

وصاح لامبير: ـ هيه! انظروا إلى مولو كشخصيّة محترمة!

ودخل مولو، متورِّدًا نضرًا: وعليه هيئة يوم الأحد. فأخذ الأفراد يضحكون:

ـ كيف وجدته يا مولو، هل هو لذيذ؟

ـ ما هو؟

ـ الماء.

فقال مولو بشرود: ـ نعم، نعم، لذيذ جدًّا.

فقال برونيه: ـ ممتاز! بعد اليوم، سترينا قدميك كلّ صباح.

فلم يبد على مولو أنَّه سمع، ورسم بسمة خفيّة ذات أهمِّيَّة:

ـ إنَّ هناك أخبارًا، يا جماعة، فاستعدّوا.

ـ ماذا، ماذا؟ أخبار؟ أيّة أخبار؟

والتمعت الوجوه واحمرّت وتفتّحت، وقال مولو:

ـ سوف نتلقَّى زيارات!

ونهض برونيه بلا ضجَّة، وخرج. كانت الأصوات تصرخ خلف ظهره، وحثّ خطاه دالفًا إلى غابة السلّم الصاعدة، وكانت الساحة غاصّة، الأفراد يدورون بهدوء في الرذاذ، الواحد تلو الآخر، وكانوا ينظرون جميعًا إلى داخل الدائرة التي يرسمون؛ كانت جميع النوافذ ملأى برؤوس تنظر: لقد حدث شيء ما. ودخل برونيه في الصفّ، فأخذ يدور هو أيضًا! ولكن بلا فضول: في هذا المكان نفسه، يحدث كلّ يوم شيء

ما، أفراد يتسمَّرون ويبدون على انتظار، بينما يدور الآخرون حولهم وهم ينظرون إليهم. ويدور برونيه، ويبسم له الرقيب أندريه:

ـ هذا برونيه، أنا أراهن أنّه يبحث عن شنايدر.

فسأله برونيه بحيويّة: ـ وهل رأيته؟

فقال أندريه مقهقهًا: ـ نعم وهو أيضًا يبحث عنك.

والتفت نحو الآخرين وقهقه:

ـ إنَّ هذين الاثنين قفا وقميص، دائمًا معًا، أو أحدهما يبحث عن الآخر.

وابتسم برونيه: قفا وقميص، ولمَ لا؟ إنَّه يتحمّل صداقته مع شنايدر لأنَّها لا تأخذ من وقته: إنَّها تشبه علاقة القارب، فهي لا تلزم بشيء؛ فإذا عادا يومًا من الأسر، فلن يتقابلا بعد أبدًا. صداقة بلا متطلِّبات، بلا حقٍّ، بلا مسؤوليّة: كلّ ما هنالك بعض حرارة في جوف المعدة. إنَّه يدور، وأندريه يدور بالقرب منه، في صمت. وفي وسط هذه الدوَّامة البطيئة؛ كان ثمَّة منطقة من الهدوء المطلق: رجال في ستراتهم، جالسون على الأرض أو على قِربهم.

ومرّ كلابو، فأوقفه أندريه:

ـ ما هؤلاء الفتيان؟

فقال كلابو: ـ معاقَبون.

ـ ماذا؟

فتخلَّص منه كلابو بنفاد صبر، وقال:

ـ قلت لك معاقبون.

وعادوا يدورون من غير أن يغادروا بعيونهم هؤلاء الرجال الجامدين البكم. ودمدم أندريه:

ـ معاقبون! إنَّها المرَّة الأولى التي أرى فيها معاقبين. عَلامَ هم

معاقبون؟ ماذا اقترفوا؟

وأشرق وجه برونيه: كان شنايدر، هناك، ملقًى على حافَّة الدوَّامة، يتفحَّص فريق المعاقبين الصغير وهو يفرك أنفه. وكان برونيه يحبّ طريقة شنايدر في إحناء رأسه إلى جانب؛ وفكَّر في سرور: «سوف نتحدَّث». كان شنايدر ذكيًا جدًّا، أذكى من برونيه. صحيح أنَّ الذكاء ليس هامًّا إلى حدٍّ بعيد، ولكنَّه يجعل العلاقات لذيذة. ووضع يده على كتف شنايدر وبسم له، فردّ له شنايدر بسمة غير مرحة. وكان برونيه يتساءل أحيانًا إذا كان يروق لشنايدر أن يلقاه: صحيح، أنَّهما لا يكادان يفترقان، ولكنْ إذا كان شنايدر يكنّ ودًّا لبرونيه، فإنَّه لا يكشف عنه غالبًا. وكان برونيه في الحقيقة، يحمد له ذلك: فهو يستفظع المظاهرات. وسأل أندريه:

ـ وإذن، لقد وجدته، صديقك شنايدر؟

فضحك برونيه، ولم يضحك شنايدر!

وسأل أندريه شنايدر:

ـ قل لي! لماذا هم معاقبون؟

ـ مَنْ؟

ـ هؤلاء الأشخاص؟

قال شنايدر: ـ إنَّهم ليسوا معاقين. وإنَّما هم الألزاسيُّون. ألا ترى غارتيزر، في الصفّ الأوَّل؟

قال أندريه: ـ آه! هكذا إذن!

وبدا عليه السرور، وظلّ لحظة بالقرب منهم، ويداه في جيبه، مكتفيًا، عارفًا، ثم اضطرب فجأة:

ـ ولماذا هم هنا؟

فهزّ شنايدر كتفيه: ـ إذهب فاسألهم!

وتردَّد أندريه، ثم اقترب منهم بخطًى بطيئة وهو يتظاهر باللامبالاة. وكان الألزاسيُّون جامدين قلقين، جالسين باستقامة، في اللاطمأنينة،

وستراتهم حولهم كالتنانير، وعليهم مظهر المهاجرين على ظهر سفينة. وكان غارتيزر جالسًا ويداه على فخذيه، وعيناه الكبيرتان الدجاجيّتان تتدحرجان في وجهه العريض. وقال أندريه:

ـ ماذا أيُّها الإخوة، هل هناك من جديد؟

فلم يجيبوا.. وتأرجح وجه أندريه المتردِّد فوق رؤوسهم المطرقة.

ـ هل من جديد؟

لا جواب.

ـ كنت أحسب أنَّ هناك جديدًا لرؤيتي إيَّاكم جالسين في دائرة. هيه، غارتيزر؟

وعزم غارتيزر على رفع رأسه، فنظر إلى أندريه في ازدراء.

ـ كيف حدث أنَّكم تجمّعتم، أنتم الألزاسيِّين؟

ـ لقد أمرونا بذلك.

ـ ولكنَّ السترات والأمتعة، هل قالوا لكم أن تأخذوها؟

ـ نعم.

ـ ولماذا؟

ـ لا أدري.

فاصطبغ وجه أندريه من الهياج:

ـ على كلّ حال، لا بدّ أنَّ لديكم فكرة ما؟

فلم يجب غارتيزر، وكانوا خلفه يتحدَّثون الألزاسيّة بنفاد صبر. وتصلَّب أندريه، مجروحًا، فقال:

ـ حسنًا. في هذا الشتاء، كنتم أقلّ افتخارًا، فلم تكونوا تتحدَّثون بها، لهجتكم الإقليميّة، أمّا وقد هُزمنا الآن، فإنَّكم لا تعرفون بعد أن تتحدَّثوا الفرنسيّة.

ولم يكلِّفوا نفسهم حتى رفع رؤوسهم؛ إنَّ اللغة الألزاسيّة هي هذا

الحفيف المتّصل الطبيعيّ لأوراق الشجر تحت الريح. وقهقه أندريه ونظره محدِّق في هذا المسرح من الرؤوس:

ـ ذلك أنّه ليس من الطريف أن يكون المرء فرنسيًّا، في هذا اليوم، أليس كذلك أيُّها الإخوة؟

فقال له غارتيزر بحيويّة:

ـ لا تحمل همّنا، فلن نبقى طويلاً فرنسيِّين.

فتردَّد أندريه، وقطّب حاجبيه، وبحث عن الردّ الصافع، فلم يجده، واستدار عائدًا نحو برونيه:

ـ وهكذا!

وارتفعت خلف ظهر برونيه أصوات مغتاظة:

ـ ما حاجتك إلى أن تحدِّثهم! ليس لك إلّا أن تتركهم وشأنهم. إنَّهم ألمان.

ونظر إليه برونيه، وجوه شرسة ممتقعة، لبن فاسد: الحسد. حسد البورجوازيِّين الصغار، تُجّار الحيّ الصغار، لقد حسدوا الموظَّفين ثم المكلَّفين الخصوصيِّين، والآن يحسدون الألزاسيِّين. وابتسم برونيه: ونظر إلى هذه العيون الملتهبة بالحسد، إنَّهم منزعجون أن يكونوا فرنسيِّين: فهذا أفضل من الاستسلام السلبي؛ وحتى الحسد، لا بدّ أنَّه يشغل نفسه.

ـ هل تراهم قد أعاروك أنت شيئًا، أو ساعدوك؟

ـ هل أنت مجنون؟ لقد رأيت من كان معه طعام، في الأيّام الأولى، وكانوا يأكلون تحت أنفك، وكأنَّهم على استعداد ليدَعوك تموت جوعًا وأنت فاغر الفم.

وسمع الألزاسيُّون، فأداروا نحو الفرنسيِّين وجوههم الحمراء والشقراء، لعلّ التضارب سوف يقع. صرخة بحّاء: وقفز الفرنسيُّون قفزة إلى الوراء، فوثب الألزاسيُّون على أقدامهم ووقفوا وقفة الاستعداد: وعلى درجات السلّم برز ضابط ألمانيّ، طويل، ضعيف البنية، ذو عينين

كهفيَّتين في وجه ملطّخ. وتكلَّم، فأصغى الألزاسيُّون، ومدّ غارتيزر عنقه وهو محمرُّ الوجه. وأصغى الفرنسيُّون كذلك، من غير أن يفهموا، في اهتمام مليء بالاعتبار. وهدأ غضبهم: فقد كانوا يشعرون أنَّهم يشاهدون حفلة رسميّة. والحفلة دائمًا تُثير الرضى. وكان الضابط يتكلَّم؛ والزمن يجري، صلبًا ومقدَّسًا، وكانت تلك اللغة الغريبة أشبه بلاتينيّة القدّاس؛ ولم يكن ثمَّة بعد من يجرؤ على حسد الألزاسيِّين. فهم قد تلبّسوا وقار كورس. وهزّ أندريه رأسه، وقال:

ـ إنَّ غمغمتهم، كلغة، ليست رديئة.

فلم يجب برونيه: إنَّ هذه علامات، فهم لا يستطيعون أن يمسكوا غضبهم أكثر من خمس دقائق. وسأل شنايدر:

ـ ماذا يقول؟

ـ يقول لهم إنّه قد أطلق سراحهم.

وكان صوت الضابط يخرج من سحنته السوداء بهزّات متحمِّسة؛ كان يصرخ، ولكنَّ عينيه لا تلتمعان.

ـ ماذا يقول؟

وترجم شنايدر بصوت منخفض:

ـ إنَّ الألزاس ستعود، بفضل الفوهرر، إلى صدر الوطن الأم.

والتفت برونيه إلى الألزاسيِّين، فإذا وجوههم بطيئة التعبير، كأنَّها متخلِّفة أبدًا عن عواطفهم. ومع ذلك، فقد احمرَّ وجه اثنين أو ثلاثة منهم. وتسلَّى برونيه. وارتفع الصوت الألمانيّ وتسارع، فقفز من سطح إلى سطح، ورفع الضابط قبضته فوق رأسه، ووقّع بمرفقيه صوته المجيد، فإذا الجميع منفعلون، كما يحدث إذ يمرّ العلم، أو الموسيقى العسكريّة، وانفتحت القبضتان، ووثبتا في الهواء، وارتعش الأفراد حين هدر الضابط: «هايل هتلر!» وبدا على الألزاسيِّين أنَّهم متحجِّرون؛ والتفت غارتيزر نحوهم، فصعقهم بنظره، ثم واجه القائد، وقذف ذراعيه إلى

أمام، وصاح: «هايل».

وسقط صمت غير ملحوظ، ثم ارتفعت الأذرع؛ وقبض برونيه بالرَّغم منه على معصم شنايدر وشدّه بقوَّة. وانطلقت الهتافات. وكان هناك من يهتف «هايل» في نوع من الاندفاع، وآخرون يكتفون بفتح أفواههم دون أن يطلقوا صوتًا، كالأشخاص الذين يتظاهرون بأنَّهم يرتِّلون في الكنيسة. وكان في الصفّ الأخير رجل شديد البأس، مطرق الرأس، ويداه في جيبه، يبدو وكأنه يتألَّم. وانخفضت الأذرع، فترك برونيه معصم شنايدر؛ وكان الفرنسيُّون صامتين، وعاد الألزاسيُّون يقفون وقفة الاستعداد، وكانت لهم وجوه مرمريّة بيضاء، وكانوا عميانًا وصمًّا تحت لهب شعرهم الذهبيّ. وألقى القائد أمرًا، فاهتزّ العمود، وابتعد الفرنسيُّون، ومشى الألزاسيُّون بين صفّين من الفضوليِّين. والتفت برونيه، فنظر إلى وجوه رفاقه اللاهثة. وكان يودّ أنَّ يقرأ فيها الغضب والحقد، فلم يَرَ فيها إلَّا رغبة عذبة ترفّ. وكان الحاجز البعيد قد انفتح؛ وكان القائد الألمانيّ واقفًا على الدرج ينظر ببسمة طيِّبة إلى العمود الذي يبتعد. وقال أندريه:

ـ مهما يكن! مهما يكن!

وقال صاحب لحية: ـ خراء إذن! حين أفكِّر بأنِّي وُلدت في «ليموج».

وهزّ أندريه رأسه، وردّد:

ـ مهما يكن!

وسأله «شاربان» الطبّاخ:

ـ ما الذي لا يعجبك؟

فقال أندريه: ـ مهما يكن!

وكان يبدو على الطبَّاخ المرح والحيويّة. وسأل:

ـ قل لي، أيُّها الرأس الصغير، إذا كان يكفي أن تصرخ «هايل

هتلر» حتى يعيدوك إلى بيتك، ألا تصرخ؟ إنَّ هذا لا يُلزم في شيء. أنت تصرخ، ولكنَّك لا تقول ما تفكِّر به.

قال أندريه: ـ أوه! أنا. بكلِّ تأكيد، أصرخ بما يريدون، ولكنَّهم هم الآخرين ليسوا كذلك: إنَّهم ألزاسيُّون، وإنّ لهم واجبات تجاه فرنسا.

وأومأ برونيه إلى شنايدر، فتسلَّلا والتجأا إلى الساحة الأخرى الخالية. واستند برونيه إلى الجدار، تحت القسم المسقوف من الساحة، تجاه الإصطبلات؛ وكان ثمَّة، غير بعيد عنهم، جنديٌّ جالسٌ على الأرض، ذو رأس مدبَّب، وشعر نادر، وكان يحيط ركبتيه بذراعيه. ولكنَّه لم يكن ليضايق أحدًا، وكان في هيئة معتوه القرية. ونظر برونيه إلى قدميه، وقال:

ـ هل رأيت الاشتراكيِّين الألزاسيِّين؟

ـ أيّ اشتراكيِّين؟

ـ لقد اكتشفنا اشتراكيّيْن في الألزاسيّين. وقد اتَّصل بهما داوروكير في الأسبوع الماضي، وكانا يريدان أن يلتهما كلّ شيء.

ـ وبعد ذلك؟

ـ لقد رفعا ذراعيهما مع الآخرين.

فلم يجب شنايدر بشيء: وحدَّد برونيه نظره في معتوه القرية، فألفاه شابًّا ذا أنف معقوف منقوش، أنف ثريّ. وكان الشرود المطمئن قد أقام على وجهه، وجه النخبة، الذي كيَّفته ثلاثون سنة من الحياة البورجوازيّة، مع تجعُّدات دقيقة وشفافيّات وجميع انحناءات الذكاء، ورفع برونيه كتفيه:

ـ إنَّها دائمًا القصَّة نفسها: تلمس شخصًا ذات يوم، فتجده موافقًا، فإذا كان اليوم التالي، لم تجد أحدًا، إذ يكون قد غيّر رأيه، أو يتظاهر بأنَّه لا يعرفك.

وأومأ بأصبعه إلى المعتوه:

ـ كنت معتادًا أن أعمل مع الرجال، ولكن لا مع هذا.

وابتسم شنايدر:

ـ «هذا» كان مهندسًا من عند تومبسون. ما يُسمّى بفتى المستقبل.

قال برونيه: ـ وإذن، فإنَّ مستقبله الآن قد أصبح خلفه.

وسأل شنايدر: ـ كم نحن في الواقع؟

ـ قلت لك إنّي لا أستطيع أن أعرف ذلك، فالوضع فضفاض. على كلّ حال، افرض أنّنا زهاء مئة.

ـ مئة على ثلاثين ألفًا؟

ـ نعم. مئة على ثلاثين ألفًا.

وكان شنايدر قد طرح السؤال بلهجة محايدة، ولم يقم بأيّ تعليق. ومع ذلك، فلم يجرؤ برونيه على النظر إليه، وتابع برونيه:

ـ هناك شيء لا يجري على ما يُرام. فإذا حسبنا على أسس ٣٦، فقد كان بوسعنا أن نجمع ثلث الأسرى.

قال شنايدر: ـ لسنا بعد في عام ٣٦.

فقال برونيه: ـ أعرف ذلك.

ولمس شنايدر منخره بطرف سبّابته:

ـ الواقع أنَّنا نختار المحتجِّين المعترضين خصوصًا. وهذا يفسِّر عدم ثبات زبائننا. إنَّ المحتجّ المعترض ليس هو بالضرورة المستاء؛ على العكس، فهو مسرور بأن يحتجّ ويعترض. فإذا عرضت عليه أن يستخرج النتائج ممَّا يقول، زعم أنّه موافق طبعًا، حتى لا يبدو عليه أنّه يفقد اعتزازه، ولكنْ ما إن توليه ظهرك، حتى يتحوَّل إلى تيّار هوائيّ: ولقد قمت بهذه التجربة عشر مرَّات.

قال برونيه: ـ وأنا أيضًا.

وقال شنايدر: ـ ينبغي أن نستطيع اختيار المستائين الحقيقيِّين،

جميع الأفراد اليساريّين الشجعان الذين كانوا يقرأون «ماريان» و«فاندرودي» والذين يؤمنون بالديموقراطيّة والتقدُّم.

قال برونيه: ـ نعم! صحيح.

وكان ينظر إلى الصلبان الخشبيّة في قمَّة الجرف والعشب الملتمع بالرذاذ؛ وأضاف:

ـ ألتقي بين الفترة والفترة بفتى وحيد يجرّ حذاءه بهيئة ناقهٍ كبير، فأقول في نفسي: هذا أحدهم. ولكن ماذا تريد أن تفعل؟ فما إن تقترب حتى يأخذهم الخوف، فكأنَّهم يحذرون من كلّ شيء.

قال شنايدر: ـ ليس هذا كلّ شيء. إنّني أميل إلى الاعتقاد بأنَّهم أشخاص يشعرون بالعار. فهم يعرفون أنَّهم مهزومو الحرب الكبار، وأنّهم لن ينهضوا أبدًا من هذه العثرة.

فقال برونيه: ـ إنَّهم في الحقيقة لا يحرصون على استئناف الصراع: إنَّهم يفضِّلون إقناع أنفسهم بأنّ هزيمتهم لا علاج لها؛ وهذا أيسر وأشدّ إغراء.

قال برونيه بين أسنانه، بلهجة غريبة:

ـ صحيح. إنَّ هذا يُعزّي.

ـ ماذا؟

ـ إنَّ ممَّا يعزِّي دائمًا أن تستطيع التفكير بأنَّ سقوطك هو سقوط الجنس كلّه.

فقال برونيه في اشمئزاز: ـ منتحرون!

قال شنايدر: ـ إذا شئت.

وأضاف برقَّة: ـ ولكنَّك تعرف أنَّ فرنسا، هي هُم؛ فإذا لم تدركهم، فإنّ ما تفعله لا يُجدي.

وأدار برونيه رأسه ونظر إلى المعتوه، فانسحر بهذا الوجه القاحل؛ وتثاءب المعتوه بشهوة وبكى.. وتثاءب كلب، تثاءبت فرنسا، تثاءب

برونيه: وكفّ عن التثاؤب؛ وسأل، من غير أن يرفع عينيه، بصوت منخفض وسريع:

ـ هل ينبغي أن نستمرّ؟

ـ بِمَ نستمرّ؟

ـ بالعمل.

وضحك شنايدر ضحكة جافّة لا تروق:

ـ تسألني أنا في هذا؟

فرفع برونيه رأسه بحيويّة، ففاجأ على شفتي شنايدر الغليظتين بسمة ساديّة مؤلمة توشك أن تمّحي. وسأل شنايدر:

ـ ما عساك تفعل إن تخلَّيت عن العمل؟

واختفت البسمة، وعاد الوجه فأصبح أملس ثقيلاً، هادئًا، بحرًا ميّتًا، لن أفهم شيئًا من هذا الوجه.

ـ ما أفعله: أنسحب، وأذهب فأنضمّ إلى الرفاق في باريس.

ـ في باريس؟

وحكّ شنايدر رأسه، فسأله برونيه بحيويّة:

ـ أتحسب أنَّ الأمر مشابه هناك؟

وفكَّر شنايدر:

ـ إذا كان الألمان مؤدَّبين..

قال برونيه: ـ أمّا هذا، فهم لا بدّ مؤدَّبون! يمكن أن تتأكّد من أنَّهم يساعدون العميان على عبور الشوارع.

قال شنايدر: ـ إذا كان الأمر كذلك، فلا بدّ أنّه مشابه.

واستقام فجأة، ونظر إلى برونيه في فضول لا ألم فيه:

ـ ماذا تؤمّل؟

فتصلّب برونيه: ـ إنّني لا أؤمل شيئًا: ولم أؤمل قطّ شيئًا، وأنا لا

أهتمّ بالأمل: وإنَّما أنا «أعرف».

ـ إذن، ما الذي تعرفه؟

ـ أعرف أنَّ الاتّحاد السوڤياتيّ سيدخل حلبة الرقص، عاجلاً أم آجلاً. أعرف أنّه ينتظر ساعته، وأريد أن يكون رفاقنا مستعدِّين.

قال شنايدر: ـ لقد انقضت ساعته. إنَّ إنكلترا ستكون هالكة قبل الخريف. فإذا كان الاتِّحاد السوڤياتيّ لم يتدخَّل، إذ كان ثمَّة أمل بخلق جبهتين، فلماذا تريده أن يتدخَّل الآن، ليكون وحده في القتال؟

قال برونيه: ـ إنَّ الاتّحاد السوڤياتيّ هو بلد العمّال. ولن يسمح العمّال الروس بأن تبقى البروليتاريا الأوروبيّة تحت الحذاء النازيّ.

ـ لماذا سمحوا إذن بأن يوقّع مولوتوف الميثاق الجرمانيّ السوڤياتيّ؟

ـ في تلك اللحظة، لم يكن ثمَّة شيء آخر يُفعل، إنَّ الاتِّحاد السوڤياتيّ لم يكن مستعدًّا.

ـ وما هو دليلك على أنّه الآن أكثر استعدادًا؟

فأطبق برونيه باطن كفِّه على الجدار في غيظ، وقال:

ـ لسنا في مقهى «لتجارة»، ولن أناقش ذلك معك: إنّني مناضل، ولم يسبق لي قطّ أن أضعت وقتي في افتراضات سياسيّة: كان لي عملي، وكنت أقوم به. أمّا ما دون ذلك، فكنت ألجأ فيه إلى اللجنة المركزيّة وإلى الاتِّحاد السوڤياتيّ؛ ولن أغيِّر اليوم مسلكي.

فقال شنايدر بحزن: ـ هذا هو تمامًا ما كنت أقوله، إنّك تعيش بالأمل.

فاغتاظ برونيه من هذه اللهجة الجنائزيّة: وخُيِّل إليه أنَّ شنايدر يتكلّف الحزن. فقال من غير أن يرفع صوته:

ـ اسمع يا شنايدر: ليس من المستحيل أن يكون المكتب السياسيّ قد سقط برمّته في الجنون، ولكنْ على هذا الأساس، ليس من المستحيل كذلك أن يسقط سقف هذه الساحة على رأسك. غير أنّك لا تقضي

حياتك في مراقبة السقف. وبعد هذا تستطيع أن تقول لي، إذا خطر لك، أنّك تؤمل في الربّ، أو أنّك تثق بالمهندس المعمار، فهذه كلمات: فأنت تعلم جيِّدًا أنَّ هناك قوانين طبيعيّة، وأنَّ البنايات قد اعتادت أن تظلّ قائمة حين تكون قد بُنيت وفقًا لهذه القوانين. وإذن؟ لماذا تريدني أن أقضي وقتي متسائلاً عن سياسة الاتِّحاد السوڤياتيّ، ولماذا تحدِّثني عن ثقتي بستالين؟ إنّني أثق به، أجل، وبمولوتوف وجدانوف، بمقدار ما تثق بصلابة هذه الجدران. وبعبارة أخرى، أعرف أنَّ هناك قوانين تاريخيّة، وأنّ بلد العمّال والبروليتاريا الأوروبيّة بفضل هذه القوانين، ذات مصالح واحدة. والحقّ أنّي لا أفكِّر بذلك غالبًا، كما أنَّك لا تفكِّر أكثر من ذلك بأسس بيتك: إنَّها الأرض تحت قدمي، والسقف فوق رأسي، وذلك يقين يحملني ويحميني ويُتيح لي أن أتابع الأهداف المحسوسة التي يرسمها لي «الحزب». إنَّك حين تمدّ يدك لتأخذ منظارك، فإنَّ حركتك وحدها تسلِّم بالحتميّة العالميّة، وكذلك، أنا: إنَّ أدنى فعلٍ من أفعالي يؤكِّد صراحة أنَّ الاتِّحاد السوڤياتيّ هو طليعة الثورة العالميّة.

ونظر إلى شنايدر في سخرية، وانتهى إلى القول:

ـ ماذا تريد؟ إنّني لست إلّا مناضلاً.

ولم يتخلَّ شنايدر عن هيئة الحزن. كانت ذراعاه متدلِّيتين، وعيناه كابيتين. فكأنَّه كان يريد أن يقنِّع حيويّة فكره ببطء حركاته. وقد لاحظ برونيه ذلك مرارًا: إنَّ شنايدر يحاول أن يبطئ ألمعيَّته، كما لو كان يريد أن يؤَقلم في نفسه نوعًا معيَّنًا من الفكر الصابر الثابت الذي يظنّ بلا ريب أنَّه نصيب الفلّاحين والجنود، لماذا؟ أليؤكِّد حتى أعماق ذاته تضامنه معهم؟ أم ليحتجّ على المثقَّفين وعلى الرؤساء؟ أم أنَّ ذلك بدافع من الادِّعاء والتظاهر بالعلم؟ وقال شنايدر:

ـ حسنًا، ناضلْ، يا عزيزي، ناضلْ. غير أنَّ عملك يشبه شبهًا غريبًا خُطَبَ مقهى «التجارة»: لقد جمّعنا بمشقَّة كبيرة زهاء مئة مثاليٍّ مسكين،

ورحنا نلقي عليهم الأنباء الكاذبة عن مستقبل أوروبا.

قال برونيه: ـ لا مفرّ من ذلك: فما داموا لا يعملون بعد، فإنِّي لا أستطيع أن أعطيهم شيئًا «يعملونه»، إنّنا نتحدَّث، ونتّصل فيما بيننا، فانتظر ريثما ينقلوننا إلى ألمانيا، وسترى جيِّدًا كيف نبدأ العمل.

فقال شنايدر بصوته الناعس: ـ أجل، سأنتظر، ويجب أن أنتظر. ولكنّ الخوارنة والنازيِّين لا ينتظرون. ودعايتهم أجدى كثيرًا من دعايتنا.

فزرع برونيه نظره في عينيه:

ـ ما الذي ترمي إليه، أخيرًا؟

فقال شنايدر مندهشًا:

ـ أنا... ولكنِّي لا أرمي إلى شيء. كنّا نتحدَّث عن صعوبات الاختيار..

فسأله برونيه بعنف:

ـ أيكون الذنب ذنبي إذا كان الفرنسيُّون قذرين، وليس لهم وازع ولا شجاعة؟ أيكون ذنبي إذا...

فاستقام شنايدر وقاطعه، وقد قست ملامحه، وغدا صوته من فرط السرعة والتأتأة بحيث يُظنّ أنَّ «شخصًا آخر» قد سرق فمه ليهين به برونيه، فصاح:

ـ أنت... أنت دائمًا... أنت القذر، أنت! إنَّ من السهل على المرء أن يتّخذ مظاهر الترفُّع حين يكون وراءه حزب، ومن اليسير على من يملك ثقافة سياسيّة، ومن تعوّد الضربات القاسية، أن يحتقر المساكين الذين لا يبدون حراكًا.

فلم ينفعل برونيه: وإنَّما آخذ نفسه أنّه قد فقد صبره، فقال:

ـ إنّني لا أحتقر أحدًا. أمّا الرفاق، فمن البديهيّ أنِّي أعطيهم جميع الظروف المخفَّفة.

ولم يكن شنايدر يُصغي إليه، وقد تمدّدت عيناه الكبيرتان، فبدا

وكأنَّه ينتظر حدثًا داخليًا. وفجأة أخذ يصرخ:

ـ نعم! إنَّه ذنبك! طبعًا إنَّه ذنبك!

فنظر إليه برونيه من غير أن يفهم: وكانت حمرةٌ خبيثة تحرّ خدّيّ شنايدر، هي أكثر من الغضب، ولكأنَّها حقد قديم، حقد عائليّ مكتوم منذ مدّة طويلة، وهو يبتهج أخيرًا بالانفجار. ونظر برونيه إلى هذا الرأس الهائل المحتدم بالغضب، هذا الرأس ذي الاعتراف العلني، وفكَّر: سيحدث شيء ما. وقبض عليه شنايدر من ذراعه، فأراه مهندس «التومبسون» الذي كان يُدير أصابعه في براءة. وكانت تلك لحظة صمت، لأنَّ شنايدر كان أشدّ انفعالاً من أن يستطيع الكلام؛ وأحسّ برونيه أنه بارد وهادئ: إنَّ غضب الآخرين يهدِّئه دائمًا. وانتظر؛ سيعلم عمّا قليل ما يخفيه شنايدر. وبذل شنايدر جهدًا عنيفًا:

ـ هذا أحدهم! أحد أولئك القذرين الذين لا وازع لديهم ولا شجاعة، رجل مثلي ومثل مولو ومثلنا جميعًا. ليس مثلك، بالتأكيد. «صحيح» أنَّه قد أصبح قذرًا، هذا «صحيح»، بل هو من الصحّة بحيث إنَّه اقتنع به هو بالذات. غير أنّي رأيته في «تول» في شهر أيلول؛ كان يستفظع الحرب، ولكنَّه كان يلوم نفسه، لأنَّه كان يعتقد بأنَّ لديه أسبابًا وجيهة للقتال، وأقسم لك بأنَّه لم يكن قذرًا أو جبانًا... ولكنَّك أنت تجعله كذلك. أنتم جميعًا متّفقون، بيتان مع هتلر، هتلر مع ستالين، وأنتم جميعًا تشرحون لهم أنّهم مذنبون ذنبًا مزدوجًا: مذنبون لأنَّهم خاضوا الحرب، ومذنبون لأنَّهم خسروها. وجميع الأسباب التي كانوا يبرِّرون بها قتالهم، إنَّما تنزعونها منهم الآن. هذا الفتى المسكين الذي كان يتصوَّر أنَّه ذاهب لخوض «الحقّ» و«العدل»، تريدون أن تقنعوه أنَّه انزلق بدافع الطيش في حرب استعماريّة؛ إنَّه لا يدري بعد ماذا يريد، ولا يعرف بعد ماذا فعل. وليس جيش أعدائه هو وحده المنتصر: وإنَّما أيديولوجيَّتهم أيضًا؛ أمّا هو، فيبقى هناك، ساقطًا خارج العالم وخارج

التاريخ، ومعه أفكارٌ ميّتة، وهو يحاول أن يدافع عن نفسه، وأن يفكِّر مجدَّدًا بالوضع. ولكن بأيّة وسائل؟ إنَّ وسائل تفكيره بالذات قد فسدت:

لقد أشعتم الحزن العميق والموت في روحه.

فلم يتمالك برونيه نفسه من الضحك، فسأل:

ـ ولكنْ، لمن تراك تتحدَّث، في آخر الأمر؟ إليَّ أنا، أم إلى هتلر؟

قال شنايدر: ـ إنّني أتحدَّث إلى محرِّر «الأومانيتيه»، إلى عضو الحزب الشيوعيّ، إلى الذي كتب يوم ٢٩ آب / ٣٩ على عمودين محيّيًا توقيع الميثاق الجرمانيّ السوفياتيّ.

قال برونيه: ـ ها نحن قد وصلنا.

فقال شنايدر: ـ أجل، ها نحن قد وصلنا.

قال برونيه بهدوء: ـ كان الحزب الشيوعيّ ضدّ الحرب، وأنت تعلم ذلك جيِّدًا.

ـ أجل، ضدّ الحرب. كان يهتف بذلك عاليًا، على الأقلّ. ولكنَّه في الوقت نفسه كان يقرّ الميثاق الذي يجعل الحرب لا مفرَّ منها.

فقال برونيه بقوَّة: ـ كلّا، بل إنَّ الميثاق كان حظَّنا الوحيد في منعها.

فانفجر شنايدر ضاحكًا: وابتسم برونيه وصمت. وكفّ شنايدر فجأة عن الضحك:

ـ ولكنْ نعم، انظر إليّ، انظر إليّ لحظة؛ اتّخذ هيئة طبيب الموتى. لقد فاجأتك مئة مرَّة وأنت تراقب الرفاق بعينيك الباردتين، فكأنَّما كنت تقوم بتحقيق. حسنًا، فماذا تحقَّقت؟ تحقَّقت أنّني نفاية السير التاريخيّ؟ اتّفقنا. نفاية إلى الحدّ الذي تريد. ولكنِّي لست ميّتًا، يا برونيه، «لست ميّتًا» مع الأسف. إنّي مدعوّ إلى أن أعيش سقوطي، فهو مذاق في فمي، ولن تفهم ذلك أبدًا. إنّك تجريديّ، وأنتم التجريديّين جميعًا، أنتم الذين صنعتم منّا النفاية التي نحن إيّاها.

وصمت برونيه، وهو ينظر إلى شنايدر: وتردّد شنايدر، وكانت عيناه قاسيتين مذعورتين، وكان يبدو وكأنّ على لسانه كلامًا غير قابل للإصلاح. وقد امتقع فجأة، وأقبلت غمامة من الإرهاب تغشى نظره؛ فأغلق فمه. وبعد لحظة، استأنف بصوته الخشن، الهادئ، الرتيب:

ـ طيّب، نحن أخيرًا في الخراء جميعًا، أنت ونحن، وهذا عذرك. صحيح أنَّك ما تزال تأخذ بالسير التاريخيّ، ولكن قلبك ليس بعد مؤمنًا به. إنَّ الحزب الشيوعيّ يتشكَّل من جديد بدونك، وعلى أسس تجهلها. فبوسعك أن تهرب، ولكنَّك لا تجرؤ، لأنَّك تخاف ممّا سوف تجده هناك: فالموت والحزن العميق في نفسك أنت أيضًا.

وابتسم برونيه: لا، ليس الأمر كذلك. لن يُهزم هكذا، وهذه كلمات لا تعنيه. وصمت شنايدر وارتعش: لم يحدث شيء بالإجمال. لم يحدث شيء على الإطلاق: إنَّ شنايدر لم يعترف بشيء، ولم يكشف شيئًا؛ كلّ ما في الأمر أنَّ أعصابه ثارت قليلاً. أمَّا المقطع المتعلّق بالميثاق الجرمانيّ السوفياتيّ، فربَّما كانت هذه هي المرَّة المئة التي يسمعه برونيه فيها منذ أيلول. ولا بدّ أنَّ الجنديّ قد أدرك أنَّ الحديث كان يجري عنه، فاستقام على مهل ومضى على قدميه الطويلتين العنكبوتيَّتين وهو يسير جانبيًّا كحيوان مذعور. «من» هو شنايدر؟ مثقَّف بورجوازيّ؟ فوضويّ يمينيّ؟ فاشيّ يجهل نفسه؟ إنَّ الفاشيِّين لم يكونوا كذلك يريدون الحرب. والتفت إليه برونيه: فرأى جنديًّا يرتدي الأسمال، متبرِّمًا ليس لديه ما يدافع عنه، ولم يبق له ما يفقده، وهو يفرك أنفه بهيئة شاردة. وفكَّر برونيه: «لقد أراد أن يؤذيني»، ولكنَّه لم ينجح في الحقد عليه. وسأله بلطف:

ـ إذا كان هذا ما تفكِّر به، فلماذا انضممت إلينا؟

فبدت على شنايدر هيئة الشيخوخة والتهدّم، وقال بصوت يدعو إلى الرثاء:

ـ حتى لا أبقى وحيدًا.

وساد صمت، ثم رفع شنايدر رأسه وعلى فمه بسمة متردِّدة:

ـ يجب علينا أن نفعل شيئًا، أليس كذلك؟ أيّ شيء. من الممكن ألّا نكون متّفقين على بعض النقاط...

وصمت برونيه. وبعد لحظة، نظر شنايدر إلى ساعته:

ـ إنَّها ساعة الزيارات، فهل تأتي؟

قال برونيه: ـ لا أدري، اذهب أنت، وربَّما لحقت بك.

ونظر إليه شنايدر لحظة كما لو أنَّه يريد أن يحدِّثه، ثم استدار مبتعدًا واختفى. انتهى الحادث، ووضع برونيه يديه خلف ظهره، وراح يتنزَّه في الساحة، تحت الرذاذ، ولم يفكِّر بشيء، وأحسّ نفسه أجوف مُصديًا، واستشعر على خدّه ويديه ذبذبات صغيرة مبتلّة. الموت في النفس والحزن العميق، حسنًا. وبعد ذلك؟ وقال في نفسه باحتقار: «إنَّ هذا من علم النفس!» وتوقّف، وفكَّر في الحزب. وكانت الساحة خالية، رماديّة بلا كثافة، وكانت تنبعث منها رائحة الأحد؛ إنَّها منفى. وفجأة أخذ برونيه يعدو، ودلف إلى الساحة الأخرى. وكان الرجال يتزاحمون عند الحاجز صامتين، وجميع رؤوسهم متَّجهة نحو الباب الكبير: «إنَّهم» هنا، خلف الجدران، تحت الرذاذ نفسه. ورأى برونيه ظهر شنايدر القويّ في الصفّ الأوَّل، فشقّ لنفسه ممرًّا، ووضع يده على كتفه. التفت شنايدر، فبسم له بسمة حارّة، وقال:

ـ آه، ها أنت ذا.

ـ هأنذا.

قال شنايدر: ـ إنَّها الثانية وخمس دقائق. وسيُفتح الحاجز عمَّا قليل.

وانحنى مرشّح إلى جانبهما نحو رفيق له، وتمتم:

ـ ربَّما كانت هناك نساء.

وقال شنايدر في حيويّة: ـ يسلّيني أن أرى مدنيِّين، فذلك يذكِّرني بيوم الأحد في المدرسة.

ـ هل كنت داخليًّا؟

ـ نعم، كنّا نصطفّ أمام قاعة الانتظار لنرى وصول الأهل.

وابتسم برونيه من غير أن يجيب: إنَّه لا يبالي بالمدنيِّين، وإنَّما هو مسرور لأنَّ جميع الرفاق كانوا حوله يبعثون لديه الحرارة. وفُتح الباب الكبير وهو يصرّ، فسرت في الصفوف تمتمة خائبة:

ـ هؤلاء هم فقط؟

إنَّهم زهاء ثلاثين، وقد رأى برونيه من فوق الرؤوس جمعهم الصغير الأسود المزدحم العنيد تحت المظلَّات. وذهب ألمانيّان للقائهم، فتحدَّثا إليهم وهمَا يبتسمان، وفحصا أوراقهم، ثم ابتعدا ليتيحا لهم الدخول. نساء وشيوخ، جميعهم تقريبًا في لباس أسود، جنازة تحت المطر؛ وكانوا يحملون حقائب وأكياسًا وسلالاً تغطّيها المناشف. وكانت النساء ذوات وجوه رماديّة وعيون قاسية وهيئة متعبة، وقد تقدّمن بخطى صغيرة، تتزاحم مؤخَّراتهنّ ويشعرن بالانزعاج من هذه العيون التي تلتهمهنّ. وتنهّد المرشّح:

ـ طزْ! كم هنّ بشعات!

قال الآخر: ـ إيه، هنالك ما يمكن عمله: انظر إلى تلك المؤخَّرة السمراء!

ونظر برونيه إلى الزائرات في ودّ. إنَّهنّ بالتأكيد قبيحات، وهيئتهنّ قاسية مغلقة، فكأنَّهنّ قادمات ليقلن لأزواجهنّ: «هل أنت مجنون حتى تقع في الأسر؟ فكيف تريدني أن أتدبَّر أمري وحدي مع الصغير؟» غير أنَّهنّ قد جئن مشيًا على الأقدام أو في عربات، يحملن سلال الأغذية الثقيلة هذه. إنَّهنّ دائمًا أنفسهنّ اللواتي يأتين وينتظرن، بلا حراك، ولا تعبير، أمام أبواب المستشفيات والثكنات والسجون: الدمى الجميلة

ذوات النظر الراعش تحمل الحداد إلى البيت، وقد لقي برونيه على وجوههنّ ـ بانفعال ـ ضيق السلم وبؤسه. كانت لهنّ تلك العيون المحمومة، اللاموافقة، الأمينة، حين كان أزواجهنّ يقومون بالإضراب «الإحتلاليّ»، فكنّ يأتين لهم بالحساء. أمّا الرجال، فقد كان معظمهم مسنِّين سمانًا أشدّاء ذوي هيئة هادئة. وكانوا يمشون ببطء وتثاقل، إنَّهم أحرار: فقد ربحوا حربهم في زمنهم، وهم يُحسُّون راحة الضمير. ومع ذلك، فهم يقبلون مسؤوليّة هذه الهزيمة التي ليست «هزيمتهم»؛ إنَّهم يحملونها على أكتافهم العريضة. لأنّ من ينجب طفلاً، عليه أن يدفع ثمن البلاط الذي يكسره. إنَّهم قادمون بلا غضب ولا خجل، ليروا الصبيّ الذي ارتكب آخر حماقة له كشابّ. وعلى هذه الوجوه نصف الفلّاحيّة، لقي برونيه فجأة من جديد ما سبق أن فقده: معنى حياته. كنت أتحدَّث إليهم فلا يستعجلون الفهم، وإنَّما يصغون بمثل هذه الهيئة من الهدوء العميق، وهم يتحسّسون قليلاً؛ وهم لن ينسوا بعد أبدًا ما فهموه. وعادت رغبة قديمة، فمدّت رأسها في قلبه: يجب أن أشتغل، وأن أحسّ على جسمي بأعينٍ راشدة مسؤولة. ورفع كتفيه، وانصرف عن هذا الماضي، ونظر إلى «الآخرين»، عصبة الثائري الأعصاب الصغار ذوي الوجوه اللامعبّرة الكازّة: ذلك هو نصيبي. لقد كانوا منتصبين على رؤوس أقدامهم، مادّين أعناقهم، يتابعون الزوّار بنظرة قرديّة، وقحة، جازعة. كانوا يعوِّلون على الحرب لتنقلهم إلى سنّ الرجال، ولتمنحهم حقوق ربّ الأسرة والمحارب القديم؛ وكان ذلك طقسًا احتفاليًّا للتدريب، فقد كان لا بدّ لهذه أن تطرد تلك، الحرب «العظمى»، العالميّة، التي خنق مجدها طفولتهم؛ ولا بدّ أنّها كانت أعظم، وأكثر عالميّة؛ فلو أطلقوا على الألمان، لأنجزوا مذبحة الآباء الطقسيّة التي بها يبدأ كلّ جيل في الحياة. إنَّهم لم يطلقوا على أحد، ولم يذبحوا شيئًا على الإطلاق. إنَّهم فوّتوا عليهم ذلك، فلقد بقوا صغارًا غير راشدين، وكان الآباء يمشون أمامهم في عرض، ينبضون بالحياة. كانوا يسيرون مكروهين، محسودين،

معبودين، مرهوبين، فيغرقون من جديد عشرين ألف محارب في طفولة الكسالى المرائية. وفجأة، التفت أحدهم وواجه الأسرى: فتراجعت جميع الرؤوس، وكان له حاجبان كثيفان أسودان وخدّان قرمزيّان، وكان يحمل رزمة ثياب بطرف عصاه. واقترب، فوضع يده على شريط الحديد ونظر إليهم بعينيه الكبيرتين المخطَّطتين بالدم، وتحت هذا النظر الحيوانيّ، البطيء، اللامعبر، الوحشيّ، كان الأفراد ينتظرون متوتّرين، ممسكين أنفاسهم، وعلى استعداد لأن يرفضوا: كانوا ينتظرون الصفعتين. وقال العجوز:

ـ ها أنتم أولاء، إذن!

وساد صمت، ثم، تمتم أحدهم:

ـ نعم، يا بابا: ها نحن أولاء.

فقال العجوز: ـ يا لها من مصيبة!

فتنحنح المرشّح واحمرّ وجهه؛ وقرأ برونيه على وجهه التحدّي المتشنِّج نفسه. أجل يا بابا، ها نحن أولاء: عشرين ألف رجل كانوا يريدون أن يكونوا أبطالاً، ولكنَّهم استسلموا بلا قتال في سهل منبسط. وهزّ العجوز رأسه، وقال بلهجة عميقة، ثقيلة:

ـ يا لكم من مساكين!

فسُرّي عن الجميع، وابتسموا له، وانحنت القامات نحوه. واقترب الحارس الألمانيّ فلمس ذراع العجوز بأدب، وأومأ له أن يبتعد، فلم يكن يلتفت إليه وقال:

ـ دقيقة واحدة، إنّني آتٍ.

وغمز الأسرى غمزة مشاركة، فابتسم الأفراد، وكانوا مسرورين لأنَّه عجوز لم تكن في عينيه برودة، عجوز عنيد من بلادهم، فأحسُّوا أنَّهم أحرار بالوكالة. وسأل العجوز:

ـ هل الأمر أقسى من أن يُحتمل؟

ففكَّر برونيه: هكذا. سيبدأون الأنين. ولكن عشرين صوتًا مرحًا أجابت:

ـ لا يا بابا، لا، لا، بل يمكن احتماله.

قال العجوز: ـ حسنًا، هذا أفضل، هذا أفضل.

ولم يبق لديه شيء يقوله لهم، ولكنَّه ظلّ هناك، وازنًا، مركومًا، صلبًا، فجرّه الحارس من كمِّه على مهل؛ وتردّد، واستعرض الوجوه بنظره، فكأنَّه يبحث عن وجه ابنه وبعد لحظة، صعدت إلى عينيه من البعيد البعيد فكرة، فبدا على هيئة متردِّدة، وقال أخيرًا بصوته ذي العقد:

ـ لو تعلمون، أيُّها الفتية، إنَّها ليست غلطتكم.

فلم يجب الأفراد بشيء: كانوا واقفين بصلابة، كأنَّها وقفة الاستعداد. وأراد العجوز أن يوضِّح فكرته، فاستطرد:

ـ لا أحد عندنا يفكِّر بأنَّها غلطتكم.

فظلّ الأفراد على صمتهم. وقال:

ـ إلى اللقاء، أيُّها الإخوة.

ومضى. عند ذلك، سرت فجأة في الجمع اوتعاشة، فأخذوا يصرخون بحماسة:

ـ إلى اللقاء، يا بابا، عمّا قريب! إلى اللقاء عمّا قريب!

وكانت أصواتهم تتضخَّم ما ابتعد العجوز، ولكنَّه لم يلتفت. وقال شنايدر لبرونيه:

ـ أرأيت؟

فانتفض برونيه، وقال:

ـ ماذا؟

ولكنَّه كان يعلم جيِّدًا ما سوف يقوله له شنايدر. وقال شنايدر:

ـ يكفي أن يوثق بنا بعض الشيء.

فابتسم برونيه، وقال:

ـ هل تبدو عليّ هيئة طبيب الموتى؟

قال شنايدر: ـ في هذه اللحظة، لا.

وتبادلا النظر في صداقة: وانفتل برونيه فجأة وقال:

ـ انظر إلى تلك المرأة.

كانت تعرج، وتوقّفت، قصيرة رماديّة، وتركت رزمتها تسقط في الوحل، ونقلت إلى يدها اليمنى الباقة التي كانت تحملها باليسرى، ثم رفعت ذراعها اليمنى فوق رأسها. ومضت لحظة، لكأنَّها انتصبت بالرَّغم منها، هذه اليد المنتصرة التي تشدّ كتفها وعنقها، وانتهت بأن قذفت الزهور بحركة مرتبكة أسقطتها على الأرض، فتناثرت، زهور حقول، ومنثور، وهندباء، وترنشاه: لا بدّ أنَّها قطفتها من حافَّة الطريق. وتدافع الرجال، فنكثوا الأرض؛ وقرصوا الأغصان بين أظافرهم الموحلة: ونهضوا وهم يضحكون فأروها الزهور كما لو أنّهم يحيُّونها. وأحسّ برونيه بانقباض في حلقه، فالتفت إلى شنايدر وقال غاضبًا:

ـ زهور! ماذا كانوا يقدِّمون لو كنّا ربحنا الحرب!

ولم تبتسم المرأة، بل أخذت رزمتها ومضت، فلم يكن يُرى بعد إلَّا ظهرها يتهاوى تحت المعطف المشمَّع، وفتح برونيه فمه ليتكلَّم، ولكنَّه رأى وجه شنايدر وصمت. وتخلّص شنايدر وهو يدافع جيرانه، وخرج من الصفوف. إنَّه لم يكن على ما يرام. وتبعه برونيه، فوضع يده على كتفه:

ـ ما بك؟

ورفع شنايدر رأسه، فصرف برونيه عينيه، وهو يحسّ الإنزعاج من نظره بالذات، نظر طبيب الموتى، وردّد، وهو ينظر إلى قدميه:

ـ قل، ما بك؟

وأصبحا وحيدين وسط الساحة، تحت الرذاذ. وقال شنايدر:

ـ شيء مريع!

وساد صمت، ثم أضاف: ـ أن نرى مدنيِّين من جديد.

وقال برونيه، من غير أن يرفع عينيه:

ـ يريعني هذا كما يريعك.

قال شنايدر: ـ الأمر بالنسبة إليك مختلف، فليس لك أحد.

وبعد برهة، فكّ شنايدر أزرار سترته، وبحث في جيبه الداخليّ، فأخرج منه محفظة مسطَّحة. وفكَّر برونيه: لقد مزّق كلّ شيء. وفتح شنايدر محفظته: لم يكن باقيًا فيها غير صورة بحجم بطاقة بريديّة. ومدّها شنايدر لبرونيه من غير أن ينظر إليها، فرأى برونيه امرأة شابَّة ذات عينين معتمتين. وكانت تحت العينين بسمة: ولم يسبق لبرونيه أن رأى شبيهًا لها. كان يبدو عليها أنَّها تعرف جيِّدًا أنَّ في العالم معسكرات اعتقال وحروبًا وأسرى مسجونين في ثكنات؛ كانت تعرف ذلك، وهي مع هذا تبتسم: وللمهزومين والمبعدين ونفايات التاريخ، كانت تمنح ضحكتها. مع ذلك، فقد بحث برونيه عبثًا في عينيها عن شعاع الإحسان الساديّ الكريه. إنَّها تبتسم لهم بسمة ثقة بهدوء، تبتسم لقوّتهم كما لو أنَّها كانت تطلب منهم أن يصفحوا عن المنتصرين عليهم. وكان برونيه قد رأى صورًا كثيرة في تلك الفترة، وابتسامات كثيرة. وكانت الحرب قد أفسدتها كلّها، فلم يعد النظر إليها ممكنًا. أمَّا هذه البسمة، فقد كان النظر إليها ممكنًا: لقد وُلدت اللحظة، وكانت موجَّهة إلى برونيه، إلى برونيه وحده، إلى برونيه الأسير، برونيه النفاية، برونيه المنتصر. وانحنى شنايدر فوق كتف برونيه، وقال:

ـ بدأتْ تتعب.

قال برونيه: ـ نعم، فلا بدّ من أن تقصّ أطرافها.

وردّ له الصورة وهي تتلألأ بالرذاذ، فمسحها شنايدر في عناية بطرف كمِّه وأعادها إلى محفظته. وتساءل برونيه: «هل هي جميلة؟» ولم يكن يدري؛ إنَّه لم يتح له الوقت الكافي لمعرفة ذلك. ورفع رأسه ونظر إلى

شنايدر، وفكَّر: «إنَّها إنَّما تبتسم له هو». وخُيِّل إليه أنَّه يراه بعينين أخريين. ومرّ شخصان شابّان، يضعان زهرتي منثور في عروتيهما، ولم يكونا يتكلَّمان، وكانت جفونهما تضفي عليهما هيئة متناولين هزليّة. وتبعهما شنايدر بالنظر؛ وتردّد برونيه، وصعدت إلى شفتيه كلمة قديمة، فقال:

ـ أجدهما مؤثِّرين.

فقال شنايدر: ـ صحيح؟

وكان صفّ الفضوليّين خلفهما قد تمزَّق، ودخل الزوَّار إلى الثكنة، ووصل داوروكير وهو يتهادى، يتبعه «بيران» وعامل المطبعة. وفكَّر برونيه: «صحيح، إنّها الساعة الثالثة». وكانت لهم، ثلاثتهم، وجوه مغلقة؛ وتضايق برونيه وهو يفكِّر بأنّهم قد تحدَّثوا فيما بينهم: فتلك أشياء لا يمكن منعها. وصاح من بعيد:

ـ ماذا، يا جماعة؟

فاقتربوا وتوقّفوا، وتبادلوا النظر على رهبة. وقال برونيه بصراحة:

ـ تكلَّموا، ما بكم؟

فأوقف عامل المطبعة عليه نظر عينيه الجميلتين القلقتين، وكان وجهه ينمّ حقًّا عن الاستياء، وقال:

ـ لقد قمنا دائمًا بما طلبته منّا، أليس كذلك؟

فقال برونيه نافد الصبر:

ـ نعم، نعم. وإذن؟

فلم يستطع عامل المطبعة أن يضيف شيئًا آخر، وإنَّما تكلَّم داوروكير بدلاً منه، من غير أن يرفع عينيه:

ـ إنَّنا نريد أن نستمرّ، وسنستمرّ ما طلبت منّا ذلك. ولكنّنا نعتقد أنَّ هذا عبث.

فلم يقل برونيه شيئًا. وقال بيران:

ـ إنَّ الأفراد لا يريدون أن يفهموا شيئًا.

وظلّ برونيه على صمته، فاستطرد العامل بصوت محايد:

ـ بالأمس فقط، تنازعت مع شخص، لأنِّي كنت أقول إنَّ الألمان سيأخذوننا إلى ألمانيا. فجنّ جنون الرجل، واتّهمني بأنّي من الطابور الخامس.

ورفعوا عيونهم، فنظروا إلى برونيه بعناد:

ـ لقد بلغ الأمر حدّ أنَّه لا يمكن بعد أن تُقال لهم كلمة سوء عن الألمان.

وجمع داوروكير شجاعته، ونظر إلى برونيه مواجهة:

ـ إنَّنا بصراحة يا برونيه لا نرفض أن نعمل، ولكنْ إذا باشرنا الأمر بطريقة خاطئة، فإنَّنا مستعدُّون بالبدء من جديد على طريقة أخرى. غير أنَّه ينبغي أن تفهمنا. إنَّنا نتنقَّل في كلّ مكان. ويندر ألَّا نتحدَّث في اليوم الواحد إلى مئتي شخص، فنسبر غور المعسكر؛ أمّا أنت، فإنّك بالضرورة ترى أقلّ منّا، فلا تستطيع أن تعرف ما نعرف.

ـ يعني؟

ـ يعني إذا أُطلق غدًا سراح العشرين ألف أسير، فإنّهم، بهذا الوضع، سيكونون عشرين ألف نازيّ.

فأحسّ برونيه بأنَّ الحرارة تصبغ وجنتيه، ونظر إليهم واحدًا بعد واحد، وسأل:

ـ أهذا هو رأيكم؟

فأجاب الثلاثة: «نعم».

وانفجر فجأة، فسألهم: هل أنتم جميعًا موافقون؟ فأجابوا أيضًا: نعم.

ـ إنَّ في الجمع عمّالاً وفلَّاحين، ويجب أن تخجلوا من التفكير بأنَّهم سيصبحون نازيِّين، وإلّا كان ذلك من خطأكم. إنَّ الإنسان ليس

حطبة، وإنَّما هو يتحرَّك، لو تعلمون، يقتنع: فإذا لم تنجحوا في تحريكهم، فمعنى ذلك أنَّكم لا تحسنون القيام بعملكم.

وأولاهم ظهره. وقام بثلاث خطوات، ثم عاد إليهم فجأة، مقدِّمًا أصبعه:

ـ الحقيقة أنَّكم تعتبرون أنفسكم قوّادًا؛ فأنتم تحتقرون رفاقكم. فاحفظوا هذا: إنَّ عضو «الحزب» لا يحتقر أحدًا.

ورأى عيونهم مشدوهة، فزاد غيظه وصاح:

ـ عشرون ألف نازيّ! هل أنتم مجانين؟ إنّكم لن تصنعوا منهم شيئًا إذا احتقرتموهم. حاولوا أوَّلاً أن تفهموهم: إنَّ في نفوسهم الموت والحزن العميق، هؤلاء الأشخاص، وهم لا يدرون بعد كيف يتصرَّفون. وسيستسلمون للشخص الأوَّل الذي يوليهم الثقة.

وأزعجه حضور شنايدر، فقال له:

ـ هيّا، تعال.

وإذ مضى، التفت نحو الآخرين الذين ظلُّوا بُكمًا ومشدوهين:

ـ أعتبر أنَّكم أصبتم بخوَر. وهذا أمرٌ قد نُسي. ولكن لا تعودوا بعد بهذا الخبط العشوائيّ. إلى الغد.

ورقي السلّم عدوًا، وشنايدر يلهث خلفه، ودلف إلى الشقَّة، وتداعى للسقوط على غطائه، ومدّ يده فتناول كتابًا: «أخواتهم» لهنري لافيدان. وراح يقرأ في تنبُّه، سطرًا فسطرًا، وكلمة فكلمة، وهدأت نفسه. وحين بدأ النهار يرمدّ، وضع الكتاب وتذكَّر أنَّه لم يتناول الغداء؟

ـ هل احتفظتم لي برغيفي؟

فمدّ له مولو، فقطع برونيه القطعة التي كان عليه أن يعطيها لعامل المطبعة غدًا، ووضعها في قربته، وأخذ يأكل. وبدا «كانتريل» و«ليفار» في فتحة الباب: كانت تلك ساعات الزيارات. وقالا من غير أن يرفعا رأسيهما: «مرحبًا، مرحبًا». وسأل مولو:

ـ ما لديكما من أنباء؟

قال ليفار: ـ يُقال إنَّ البعض قد هرب! ومن الذي يدفع الثمن؟ طبعًا، نحن.

قال مولو: ـ ها! هناك إذن جديد؟

فقال ليفار: ـ هناك أنَّ المعاون قد هرب.

ـ هرب؟ لماذا؟

كان هذا سؤال بلوندينه الذي جعلته المفاجأة وحشيًّا. وانقضى بعض الوقت قبل أن يهضم الأفراد النبأ، وكان في عيونهم بعض الذعر، وخوف خفيف يشبه خوف الجمع المتعب في المترو حين يأخذ مجنون في النباح العنيد، وردَّد غاسو بهدوء:

ـ هرب.

وكان الشتيمي قد وضع العصا التي ينحتها، وبدا قلقًا. وكان لامبير يمضغ في صمت، وعيناه ثابتتان قاسيتان. وبعد لحظة، قال في ضحكة استياء:

ـ هناك دائمًا من يعتقدون أنّهم أكثر استعجالاً من سواهم.

فقال مولو: ـ أو إنّه يحبّ المشي على الأقدام.

وكان برونيه ينتف برأس مديته أجزاء عفنة من الخبز، ويسقطها على غطائه؛ وكان يشعر بعدم الراحة. ودخل هواء الخارج الرماديّ إلى الغرفة؛ وفي الخارج، في المدينة الميّتة، كان ثمَّة رجل مطارَد يختبئ. أمّا نحن، فإنَّنا هنا، نأكل، وهذا المساء سننام تحت سقف، وسأل على مضض:

ـ كيف تمكّن من الفرار؟

فنظر إليه ليفار متصنِّعًا الأهمِّيَّة، وقال:

ـ احزر!

ـ لا أدري: من الجدار الخلفيّ؟

فهزّ ليفار رأسه مبتسمًا، وانتظر لحظة، ثم قال بلهجة انتصار:

ـ من الباب الكبير، في الساعة الرابعة بعد الظهر، تحت أعين الألمان!

فشدّه الرجال، واستمتع ليفار وكانتريل برهةً بالذهول العام، ثم أوضح كانتريل بصوته الحادّ السريع:

ـ لقد جاءت زوجته العجوز للزيارة، وكانت تحمل له ثيابًا مدنيّة في حقيبة، فغيّر المعاون لباسه في خزانة، ثم خرج متأبّطًا ذراعها.

فسأل غاسو مغتاظًا:

ـ ولكنْ، ألم يكن ثمّة أحد ليوقفه؟

فهزّ ليفار كتفيه:

ـ يوقفه؟ كيف تريد ذلك؟

قال غاسو:

ـ لو عرفته، أنا مثلاً، عند الخروج، لناديت ألمانيًّا فقبض عليه.

ونظر إليه برونيه في ذهول:

ـ هل أنت مجنون؟

فقال غاسو في غضب: ـ مجنون؟ يا لفرنسا المسكينة! إنَّ من يريد أن يقوم بواجبه اليوم، يُتَّهم بالجنون.

وألقى نظرة دائرة على الجميع إن كانوا يقرُّونه، وأجاب باندفاع أشدّ:

ـ سترى إذا كنت مجنونًا حين يلغون الزيارات. إنّني أؤكّد لك أنَّهم تركوهم يدخلون، ولم يكونوا مجبرين على ذلك. أليس هذا رأيكم، يا جماعة؟

فهزّ مولو ولامبير رأسيهما، وأضاف غاسو بلهجة قاسية:

ـ هذا صحيح أيضًا! لقد اتَّفق أنَّ الألمان لم يكونوا لمرَّة واحدة وحوشًا في هذا، فكيف نشكرهم؟ بأن نخرأ في أيديهم. سيثور غضبهم، ولن يكونوا على خطأ.

وفتح برونيه فمه ليصفه بأنَّه قذر، ولكن شنايدر رماه بنظرة سريعة وصاح:

ـ غاسو، إنّك كريه!

وصمت برونيه وهو يفكِّر بمرارة: «لقد سارع يشتمه ليمنعني من أن أُدينه». إنَّه لا يدين غاسو، ولا يدين قطّ أحدًا فهو يشعر أمامي بالعار بدلاً منهم، ومهما حدث، ومهما فعلوا، فقد اختار أن يكون معهم. «ونظر غاسو إلى شنايدر بعينين يلتمع فيهما الشرر، فردّ له شنايدر نظرته. وأخفض غاسو عينيه، وقال:

ـ حسنًا، حسنًا! هيّا، اعملوا على إلغاء الزيارات. أنا لا يهمّني ذلك: فإنّ أبويّ في «أورانج».

قال مولو: ـ وأنا، ما تظنّني؟ إنّني يتيم. ولكن يجب مع ذلك أن نفكِّر بالرفاق.

قال برونيه: ـ صحيح. ويليق بك جدًّا أن تقول ذلك يا مولو، أنت الذي تغتسل كلّ يوم بعناية كبيرة لتجنُّب الرفاق القمل.

فقال البلوندينه فجأة: ـ ليس الأمران متشابهين. صحيح أنَّ مولو وسخ، ولكنَّه لا يبعص سوانا. بينما ذاك شخص لا يخاف أن يغرق عشرين ألف شخص في الخراء لمصلحته الشخصيّة.

قال لامبير: ـ إذا قبض عليه الألمان فوضعوه في السجن، فلن أكون ممَّن يرثون له.

وقال مولو: ـ هل ترى إنَّ صاحبنا يذهب قبل ستَّة أسابيع من العودة؟ ألم يكن بوسعه أن يفعل مثلنا؟

فأقرّهم الرقيب لأوَّل مرَّة، وقال متنهِّدًا:

ـ هذه هي الشخصيّة الفرنسيّة، ومن أجل هذا خسرنا الحرب.

فقهقه برونيه، وقال لهم:

ـ هذا لا يمنع أنَّكم تودّون كثيرًا أن تكونوا مكانه، وأن تشعروا بالخجل لأنّكم لم تقوموا بالمحاولة.

فقال كانتريل بحيويّة:

ـ هذا ما يجعلك على خطأ. فلو جازف بشيء، بأيِّ شيء، طلقة بندقيّة في المؤخَّرة، لما أنكرت، فبالإمكان التفكير: إنَّه أحمق، رأس فارغ، ولكنَّه كان ذكيًا. فبدلاً من هذا، ذهب صاحبنا بهدوء، محتميًا بزوجته، كالجبناء. إنَّ هذا ليس فرارًا، بل هو إساءة للثقة.

وسرت في صلب برونيه رعشة باردة، فانتصب ونظر في عيونهم واحدًا بعد الآخر، وقال:

ـ حسنًا، إذا كان الأمر كذلك، فإنِّي أخبركم أنّي مساء الغد سأتسلّق الجدار وأهرب. وسنرى إن كان هناك من يشي بي.

فبدا عليهم الانزعاج، ولكنَّ غاسو لم يسقط في يده، فقال:

ـ لن نشي بك، أنت تعلم ذلك جيِّدًا، ولكن حين أخرج من هنا، فتأكّد أنّي سأقصدك لأعاقبك؛ لأنّك إذا هربت، فكن على ثقة بأنّ نتيجة عملك ستسقط على رأسنا.

فقال برونيه في ضحكة شاتمة:

ـ تعاقبني؟ أنت؟

ـ أوه! كفى.. إذا لزم الأمر، فسنكون عدَّة أشخاص.

ـ كلِّمني في هذا بعد عشرة أعوام، حين تعود من ألمانيا.

وأراد غاسو أن يجيب، ولكنّ ليفار قاطعه:

ـ لا تناقشه في هذا. فسوف يطلق سراحنا يوم ١٤. وهذا رسميّ.

فسأل برونيه وهو يقهقه: ـ رسميّ؟ وهل رأيته مكتوبًا؟

فتقصّد ليفار ألّا يردّ عليه، والتفت إلى الآخرين وقال:

ـ لم أره مكتوبًا، ولكنّ الأمر شبيه بهذا.

فأشرقت الوجوه في العتمة: لمبات راديو، معتمة ولبنيّة. وتأمّلهم ليفار في بسمة طيّبة، ثم أوضح.

ـ لقد قال هتلر ذلك:

فقال برونيه مشدوهًا: ـ هتلر!

وتجاهل ليفار المقاطعة، فاستطرد يقول:

ـ هذا لا يعني أنّي أحبّه، ذلك الشخص: إنَّه بكلٍّ تأكيد عدوّنا. والنازيّة لست معها ولا ضدّها: فمن الممكن أن تنجح مع الألمان، ولكنّ ذلك لا يناسب المزاج الفرنسيّ، غير أنَّ له ميزة، هتلر: إنَّه يفعل دائمًا ما يقول. لقد قال: في ١٥ حزيران، سأكون في باريس، فكان فيها، بل سبق ذلك.

وسأل لامبير: ـ وهل وعد بأن يُطلق سراحنا؟

ـ نعم. لقد قال: في ١٥ حزيران سأكون في باريس، وفي ١٤ تمُّوز سترقصون مع زوجاتكم.

وارتفع صوت خجول، هو صوت الشتيمي:

ـ كنت أحسب أنَّه قال: «سنرقص مع زوجاتكم. «نحن»: «نحن، الألمان».

فحدَّجه ليفار قائلاً: ـ وهل حضرت أنت خطابه؟

قال الشتيمي: ـ كلّا هذا ما قيل لي.

فقهقه ليفار، فسأله برونيه:

ـ وأنت، هل حضرته؟

ـ طبعًا حضرته! في «هاغونو»، كان للرفاق جهاز راديو، وحين دخلت، كان قد نطق بهذه العبارة.

وهزّ رأسه وردّد في تلمُّظ: «سنكون في ١٥ حزيران في باريس، وفي ١٤ تمُّوز، سترقصون مع زوجاتكم».

فردّد الأشخاص في جذل: ـ ها! في ١٥ حزيران في باريس، وسنرقص يوم ١٤ تمُّوز.

النساء. الرقص. وأخذ الأفراد يرقصون، وأعناقهم في أكتافهم، ووجوههم مقلوبة، وأكفّهم مطبقة على أشرعة الخيم. وقضقضت الأرض الخشبيّة، ودارت ورقصت الفالس تحت النجوم، بين الحروف الكبيرة لضاحية «شاتودان». وانحنى غاسو رقيقًا نحو برونيه، وشرح له بصوت منطقيّ:

ـ إنَّ هتلر ليس مجنونًا. فهل تشرح لي لماذا يُدخل مليون أسير إلى ألمانيا؟ مليون فم تطلب الطعام؟

قال برونيه: ـ ليجعلهم يشتغلون.

ـ يشتغلون؟ مع العمّال الألمان؟ ستكون معنويّات الألمان عظيمة حين يكونون قد تحدّثوا قليلاً معنا.

ـ بأيّة لغة؟

ـ بأيّة لغة كانت، بالزنجيّة: بالاسبيرنتو: لقد وُلد العامل الفرنسيّ خبيثًا، وهو نقّاد هُزأة وذكي، فيكفيه يومان حتى يفسدهم، الألمان، وبوسعك أن تثق بأنَّ هتلر قد فكَّر في ذلك. أوه! لا، إنَّه ليس مجنونًا. أوه! لا، وأنا مثل ليفار: لا أحبّه، ذلك الشخص، ولكنّي أحترمه، وليس هناك كثيرون أستطيع أن أقول عنهم مثل هذا.

فوافق الأشخاص برؤوسهم، في رصانة:

ـ يجب أن نعترف له بهذه الميزة: إنَّه يحبّ بلده.

ـ إنَّه رجل له مثل أعلى. ليس هو مثلنا بالتأكيد، ولكنَّه جدير بالاحترام.

ـ جميع الآراء جديرة بالاحترام، شرط أن تكون مخلصة.

ـ ونوّابنا نحن، ماذا كان مثلهم الأعلى؟ أن يملأوا جيوبهم، أجل، والنساء الصغيرات وكلّ ما هنالك. كانوا يشترون لأنفسهم الطعام اللذيذ بأموالنا. أمّا عندهم، فليس الأمر كذلك: إنّك تدفع ضرائبك، ولكنّك تعرف ما يفعلون بمالك. فكلّ عام، يرسل لك موظّف الضرائب رسالة: لقد دفعت يا سيِّدي كذا، فهذا يمثِّل كذا من العقاقير للمرضى أو كذا من الأمتار المربَّعة للأوتوستراد. أؤكِّد لك ذلك.

قال مولو: ـ إنَّه لم يكن يريد أن يحاربنا، بل نحن الذين أعلنَّا الحرب عليه.

ـ على رسلك، بل لسنا نحن الذين أعلنَّاها؟ إنّه دالادييه، وهو لم يستشر حتى مجلس النوّاب.

ـ هذا ما أقوله. والذي حدث أنّه هو، لو تعلم، ليس إنسانًا ذليلاً؛ لقد قال: إنّكم تبحثون عنِّي، أيُّها السادة، فسوف تجدونني وفي أقلّ من يومين رَكَلنا على القفا. حسنًا، والآن، أتظنّه مسرورًا مع مليون أسير؟ سوف ترى. سيقول لنا بعد أيَّام: إنَّكم أيُّها السادة تزعجونني، فابقوا في بيوتكم. ثم ينصرف إلى الروس، فيأكل البعض أنوف بعض. فرنسا؟ ما عساها تفيده؟ إنَّه غير محتاج إليها. سوف يأخذ منها الألزاس ثانية، بمثابة استعادة النفوذ. هذا صحيح. ولكنِّي أقول لك: طزْ في الألزاسيّين، فإنِّي لم أستطع يومًا أن أطيقهم.

فضحك ليفار لنفسه، بصمت: وكانت هيئته مزهوَّة، وقال:

ـ الكلام بسرِّك، لو أنّنا رزقنا، نحن، هتلرًا!

قال غاسو: ـ آه، يا صديقي المسكين! هتلر مع الجنديّ الفرنسيّ؟ مريع! في هذه الساعة، كنّا نكون في القسطنطينيّة. (وأضاف بغمزة عين جذلة) لأنَّ الجنديّ الفرنسيّ هو أفضل جنديّ في العالم حين يكون له قائد.

وفكَّر برونيه بأنّ شنايدر لا بدّ وأن يحسّ بالعار، فهو لا يجرؤ على

النظر إليه. ونهض، فأدار ظهره لأفضل جنود العالم، وفكّر بأنّه ليس ثمّة بعد ما يُعمل؛ وخرج. وتردَّد على السطيحة، ونظر إلى السلّم الذي يغرق في العتمة: كان المفروض في تلك الساعة أن يكون الباب مغلقًا. وللمرَّة الأولى، شعر بأنّه أسير. عاجلاً أم آجلاً، لا بدّ أن يدخل زنزانته، ويتمدَّد على الأرض الخشبيّة إلى جانب الآخرين ويصغي إلى أحلامهم. وكانت الثكنة تحته تضجّ، فترتفع صيحات وأغنيات عبر قفص السلّم. وقضقضت الأرض الخشبيّة، فالتفت بحيويّة: كان شنايدر يتقدَّم نحوه في الممرّ المظلم وهو يعبر آخر شعاعات النهار، واحدًا واحدًا. سأقول له: «قل لي! أتكون لك الشجاعة للدفاع عنهم!» وأصبح شنايدر بإزائه تمامًا، فنظر إليه برونيه ولم يقل شيئًا. وارتفق الحاجز، فأقبل شنايدر يرتفق بالقرب منه، وقال برونيه:

ـ إنَّ داوروكير هو الذي كان محقًّا.

فلم يجب شنايدر: ماذا تريد أن يجيبني؟ بسمة، زهور حمراء تحت الرذاذ، يكفي أن يولوا الثقة، قليلاً من الثقة، قليلاً جدًّا، آه! إنّني أصدِّقك، وردّد بغضب:

ـ لا جدوى! لا جدوى! لا جدوى!

إنّ الثقة لا تكفي، بكلِّ تأكيد. الثقة بمن؟ الثقة بأيّ شيء؟ لا بدّ من الألم، والخوف والحقد، لا بدَّ من التمرُّد والقتل، لا بدَّ من نظام حديديّ. أمّا حين لا يبقى لهم ما يفقدونه، وحين تصبح حياتهم أسوأ من الموت... وانحنى كلاهما فوق الظلام، فانبعثت رائحة غبار. وسأل شنايدر وهو يخفض الصوت:

ـ أصحيح أنَّك تريد أن تهرب؟

فنظر إليه برونيه من غير أن يُجيب، وقال شنايدر:

ـ سوف أشعر بالشوق إليك.

وقال برونيه بمرارة:

ـ ستكون الوحيد في ذلك.

وفي الطابق الأرضيّ، كان أشخاصٌ يغنُّون في جوقة: لنشرب كأسًا، لنشرب كأسين، نخب المحبِّين، أهرب، أشحط صليبًا على عشرين ألف رجل، أتركهم يموتون في خرائهم، أيكون لنا الحقّ بالقول: لم يبق ثمَّة ما يُفعل؟ وإذا كانوا ينتظرونني في باريس؟ وفكَّر في باريس باشمئزاز أدهشه عنفه. وقال: «لن أهرب: لقد قلت ذلك وأنا غاضب».

ـ إذا كنت تظنّ أنَّه ليس ثمَّة بعد ما يُعمل...

ـ هنالك دائمًا ما يُعمل. يجب أن نعمل حيث نكون، بالوسائل التي نملك. وفيما بعد: سنرى.

تنهَّد شنايدر. وقال برونيه فجأة:

ـ أنت الذي ينبغي لك أن تهرب.

فهزّ شنايدر رأسه نفيًا. وقال برونيه في خجل:

ـ إنَّ لك هناك زوجتك.

فهزّ شنايدر رأسه نفيًا، فسأله برونيه:

ـ ولكن لماذا؟ ليس لك هنا ما يمسكك.

فقال شنايدر: ـ سيكون كلّ مكان أسوأ.

لنشرب كأسًا، لنشرب كأسين، نخب المحبِّين. وقال برونيه:

ـ لتعش ألمانيا!

وللمرَّة الأولى ردّد شنايدر في شيء من الشعور بالعار:

ـ لتعش ألمانيا! نعم لتعش..

وطزْ في ملك إنكلترا الذي أعلن لنا الحرب.

سبعة وعشرون رجلاً، الشاحنة تصرّ، والقناة تتمطّى على طول

الطريق، ويقول مولو:

ـ في الحقيقة، ليست مهدَّمة إلى حدٍّ بعيد.

ولم يكن الألمان قد أغلقوا باب الممرَّات، وكان النور والذباب يدخل إلى الشاحنة؛ وكان شنايدر وبرونيه وعامل المطبعة جالسين على الأرض الخشبيّة، عند فتحة الباب، وسيقانهم تتدلَّى إلى الخارج، إنَّه يوم صيف جميل. وقال مولو بارتياح:

ـ أجل، ليست على الإطلاق مهدَّمة إلى حدٍّ بعيد.

ورفع برونيه رأسه: كان مولو واقفًا ينظر إلى الحقول والسهول تجري في رضى. وكان الطقس حارًّا؛ ورائحة الرجال قويّة؛ وكان شخص يشخر في جوف القاطرة. وانحنى برونيه: كان في الشاحنة قبَّعات ألمانيّة تلمع فوق البنادق. يوم صيف جميل، وكلّ شيء هادئ؛ القطار يجري والقناة تجري؛ ومن بعيد لبعيد يُرى طريقٌ حفرته قنبلة، أو حقل مُخَدَّد؛ وفي جوف الحفر، ماء يعكس السماء. وقال عامل المطبعة لنفسه:

«لن يكون القفز صعبًا».

فأومأ شنايدر إلى البنادق بهزّة كتف:

ـ سيصطادونك كالأرنب.

فلم يجب عامل المطبعة، وأطلّ كما لو أنَّه سوف يثب، فأمسكه برونيه من كتفه؛ وردّد عامل المطبعة مبهورًا:

ـ لن يكون ذلك صعبًا جدًّا.

فدغدغ له مولو رقبته:

ـ ما دمنا ذاهبين إلى «شالون».

ـ ولكنْ هل هذا صحيح؟ هل نكون ذاهبين إليها؟

ـ لقد رأيت البلاغ مثلي.

ـ لم يكن مكتوبًا أنّنا ذاهبون إلى شالون.

ـ صحيح، ولكن كان مكتوبًا أنَّنا باقون في فرنسا. أليس كذلك يا برونيه؟ فلم يجب برونيه على التوِّ: «صحيح» أنَّه كان في الليلة السابقة إعلان معلَّق على الجدار، يحمل توقيع القائد: «إنّ أسرى معسكر باكارا مرصودون للبقاء في فرنسا». وهذا لا يمنع أنَّهم الآن في القطار، محمولين إلى جهة مجهولة. وألحّ مولو:

ـ أصحيح هذا أم غير صحيح؟

وصاحت خلفهما أصوات نافدة الصبر:

ـ نعم، صحيح، صحيح، لا تضجرونا، فأنتم تعلمون جيِّدًا أنَّ هذا صحيح. وألقى برونيه نظرة إلى عامل المطبعة، وقال بلطف:

ـ هذا صحيح.

فتنهَّد العامل، وقال في بسمة مطمئنة:

ـ هذا طريف. أنا أشعر دائمًا بأنِّي غريب حين أسافر.

وضحك من قلبه، الآن، وهو متّجه إلى برونيه:

ـ قد أكون ركبت القطار عشرين مرَّة في حياتي؛ ولكن ذلك يُحدث لي كلّ مرَّة أثرًا عميقًا.

وضحك، فنظر إليه برونيه يضحك، وفكَّر: «إنَّه ليس على ما يرام». وكان لوسيان جالسًا إلى الخلف، وقال وهو يحيط كعبيه بذراعيه:

ـ كان المفروض أن يأتي أمِّي وأبي يوم الأحد.

وكان شابًّا رقيق الهيئة يضع نظّارات. وقال له مولو:

ـ ألا تفضّل أن تلقاهما في البيت؟

فقال الشابّ: ـ بلى طبعًا، ولكن ما دام المفروض أن يأتيا يوم الأحد، فقد كنت أفضّل أن نذهب يوم الاثنين.

فاحتجَّ ركَّاب القاطرة:

ـ هذا شخص كان يفضِّل أن يبقى ثلاثة أيَّام أخرى.. خراء إذن! إنَّ هناك من ينكرون الآن أنفسهم؛ يوم آخر، ولكن قل، لماذا لا تنتظر حتى الميلاد؟

فبسم لهم لوسيان برقّة، وقال موضحًا:

ـ إنَّهما ليسا بعد في سنِّ الشباب، لو تعلمون، فيسوؤني أن ينزعجا من أجل لا شيء.

قال مولو: ـ عجبًا! حين يعودان إذن، فستكون أنت الذي تستقبلهما.

قال لوسيان: ـ أودّ ذلك كثيرًا، ولكنْ لن يكون لي هذا الحظّ: فسيحتاج تسريحنا إلى ثمانية أيَّام على الأقلّ.

قال مولو: ـ من يدري؟ من يدري؟ مع الألمان، من الممكن أن تسير الأمور بسرعة!

قال جوراسيان: ـ إنَّ كلّ ما أطلبه شخصيًا، هو أن أصل إلى بيتي في موسم قطف الخزامى.

والتفت برونيه: كانت الشاحنة بيضاء من الغبار والدخان، وكان البعض جالسًا، والبعض الآخر واقفًا؛ وعبرَ جذوع مقوَّسة لغابة من السيقان، لمح وجوهًا هادئة مبتسمة بغموض. وكان جوراسيان رجلاً سمينًا ذا مظهر قاسٍ ورأس حليق وعصابة سوداء على عينه. وكان جالسًا القرفصاء ليحتلّ أصغر مساحة، وسأله برونيه:

ـ من أين أنت؟

ـ من مانوسك. كنت في البحريّة. وأنا في الوقت الحاضر أسكن مع زوجتي، ولا أحبّ أن تقوم بالقطاف من دوني.

وكان عامل المطبعة ما يزال ينظر إلى الطريق، وقال:

ـ لقد آن الأوان.

فسأله برونيه: ـ ما بك، أيُّها الرأس الصغير؟

ـ آن الأوان ليسرّحونا.

ـ نعم؟

قال عامل المطبعة: ـ كنت مُصابًا بالسويداء.

وفكَّر برونيه: «هو أيضًا!» ولكنَّه رأى عينيه اللامعتين المجوَّفتين، فصمت. وفكَّر: «سيلاحظ شأنه في وقت مبكر». وقال شنايدر:

ـ صحيح، أيُّها الرأس الصغير، لقد انقطعت عن إضحاكنا، فما بك؟

قال العامل: ـ أوه! لا شيء الآن.

وكان يودّ أن يشرح أمرًا ما، ولكنَّ الكلمات كانت تعوزه. وأدّى بحركة اعتذار، واكتفى بالقول:

ـ إنّني من «ليون».

وأحسّ برونيه بالانزعاج، وفكَّر: «لقد نسيت أنَّه كان من ليون. ها قد مضى شهران، وأنا أشغِّله من غير أن أعرف عنه شيئًا. وها هو الآن حارّ بإزائي، وهو يشعر بالحنين إلى بلده». وكان العامل قد انفتل إليه، فقرأ برونيه في أعماق عينيه لونًا من الرقّة القلقة؛ وسأل العامل فجأة:

ـ أصحيح أنّنا ذاهبون إلى شالون؟

فقال مولو نافد الصبر: ـ آه.. إنّك تطرح السؤال من جديد!

قال برونيه: ـ هيّا، كفى، هيّا! حتى ولو لم نكن ذاهبين إلى شالون، فسوف ينتهي الأمر بعودتنا.

قال عامل المطبعة: ـ بل ينبغي أن نذهب إلى شالون، ينبغي أن نذهب إلى شالون.

وبدا وكأنَّه يقوم بصلاته. وقال لبرونيه:

ـ أتعلم؟ لولاك لهربت منذ وقت طويل.

ـ لولاي؟

ـ نعم. كان ينبغي أن أبقى، ما دام هناك مسؤول.

فلم يجب برونيه، وفكَّر: «طبعًا، إنَّ هذا بسببي»، ولكنَّ ذلك لم يكنْ يسرّه قطّ. واستطرد العامل:

ـ سأكون اليوم في ليون. هل تتصوّر، إنّني مجنّد منذ عام ٣٧، وأنا لا أعرف بعد مهنتي؟

قال لوسيان: ـ ولكنْ سرعان ما تعتادها من جديد.

فهزّ العامل رأسه بهيئة عاقلة، وقال:

ـ أوه! ليس بهذه السرعة. سترى. إنَّ العودة إليها ذات مشقّة.

وظلّ جامدًا، فارغ النظرات، ثم قال:

ـ كنت لدى أهلي في المساء ألمّع كلّ شيء، فأنا لم أكن أحبّ أن أبقى من غير أن أعمل شيئًا، ويجب أن يكون كلّ شيء نظيفًا.

ونظر إليه برونيه من زاوية عينه: لقد فقد هيئته الواضحة المرحة، وكانت الكلمات تتدافع برخاوة خارج فمه؛ وباقات من الشعر الأسود تنمو بالاتّفاق على خدّيه الهزيلين. وابتلع نفقٌ شاحنات الرأس، ونظر برونيه إلى الثقب الأسود الذي يغرق فيه القطار، ثم التفت فجأة إلى العامل:

ـ إذا كنت تريد أن تهرب، فهذه هي اللحظة المناسبة.

قال العامل: ـ ماذا؟

ـ ليس عليك إلّا أن تقفز حين ندخل النفق.

ونظر إليه العامل، ثم غدا كلّ شيء أسود، وتلقّى برونيه دخانًا في فمه وعينيه، فسعل. وأبطأ القطار، فقال برونيه وهو يسعل:

ـ اقفز. هيّا اقفز!

ليس من جواب؛ وارمدّ النهار عبر الدخان، ومسح برونيه عينيه،

وغمرته الشمس دفعةً واحدة، وكان عامل المطبعة قائمًا هناك. فسأله برونيه:

ـ ماذا إذن؟

فطرف العامل بعينيه، وقال:

ـ وما الفائدة؟ ما دمنا ذاهبين إلى شالون.

فرفع برونيه كتفيه ونظر إلى القناة. وكان على حافّة الشاطئ قارب، وفوقه رجل يشرب، وتُرى قبّعته وقدحه وأنفه الطويل فوق الممشى. وكان آخران يسيران على الحافّة، وهما يرتديان قبّعة من القشِّ ويتحدَّثان بهدوء، ولم يتكلّفا حتى إدارة رأسيهما نحو القطار. وصاح مولو:

ـ هيه! هيه! يا جماعة!

ولكنَّهم كانوا قد أصبحوا خارج مدار النظر. حانة أخرى؛ جديدة كلّ الجِدّة: «صيد سمين!» وضربت أنغام بيانو راعشة صاهلة وجه برونيه، ثم اختفت؛ وإنَّما كان يسمعها الآن ألمان القطار، ورأى برونيه قصرًا لا يرونه بعد، قصرًا أبيض في نهاية حقل، يكتنفه برجان مروّسان؛ وكان في الحقل فتاة صغيرة تمسك دولابًا وتنظر برصانة وعبر عينيها الفتيّتين، كانت فرنسا بريئة عتيقة تنظر إليهم يمرّون. ونظر برونيه إلى الفتاة الصغيرة، وفكَّر في بيتان؛ وكان القطار يجري عبر هذه النظرة، عبر هذا المستقبل المليء بالألعاب العاقلة، والأفكار الطيِّبة، والهموم الصغيرة كان يجري نحو سهول البطاطا والمصانع وفبارك السلاح، نحو مستقبل الرجال الأسود والحقيقيّ. وكان الأسرى، خلف برونيه، يحرِّكون أيديهم؛ وفي جميع القاطرات، كان برونيه يرى أياديَ تحمل المناديل: ولكنَّ الصغيرة لم تكن لتجيب، وكانت تشدّ دولابها على جسمها. وقال أندريه:

ـ إنَّ بوسعهم أن يرسلوا لنا تحيّة: لقد كانوا مسرورين جدًّا، في أيلول، بأن نذهب فنحطِّم رؤوسنا دفاعًا عنهم.

قال لامبير: ـ صحيح، ولكن ما حدث، أنّنا لم نحطِّمها.

ـ وما معنى ذلك؟ أهو ذنبنا؟ إنّنا أسرى فرنسيُّون، ونحن نستحقّ تحيّة.

وبدا عجوز، وهو يصطاد بالصنَّارة، جالسًا على كرسيٍّ قابل للطيّ؛ ولم يرفع حتى رأسه. وقهقه جوراسيان:

ـ لقد استعادوا حياتهم الصغيرة الطيّبة.

قال برونيه: ـ هذا ما يبدو لي تمامًا.

وكان القطار يجري عبر السلام: صيّادو صنّارة، قوارب، مجذِّفون، وهذه السماء الصافية. وألقى برونيه نظرة خلفه، فرأى وجوهًا متمتمة متذمِّرة، ولكنَّها مفتونة.

قال مارتيال: ـ الكلام بسرِّكم، إنَّ العجوز ليس على خطأ. فبعد ثمانية أيَّام، سأذهب أنا نفسي للصيد.

ـ وبأيّ شيء تصطاد؟ بالصنّارة؟

ـ كلَّا، طزْ: وإنَّما بالقارب.

إنَّهم «يرونه»، تحرُّرهم؛ يلمسونه تقريبًا في هذا المنظر المألوف. فوق هذه المياه الهادئة. السلام، العمل سيدخل العجوز هذا المساء وهو يحمل سمكًا، بعد ثمانية أيَّام سيكونون أحرارًا: إنَّ الدليل هنا، رقيق موحٍ، وشعر برونيه بضيق.

ليس حسنًا أن يعرف وحده المستقبل. وصرف رأسه، فنظر إلى أزقَّة الطريق الآخر وهي تهرب. وفكّر: «ماذا أستطيع أن أقول؟ إنَّهم لن يصدِّقوني». وفكَّر بأنَّ عليه أن يبتهج، وبأنَّهم سيفهمون في آخر الأمر، وأنَّ بوسعه أخيرًا أن يعمل. ولكنَّه أحسّ إزاء كتفه وذراعه حرارة عامل المطبعة المحمومة، فأخذه اشمئزاز غامض شبيه بندم. وأبطأ القطار في سيره.

ـ ما هذا؟

فقال مولو بلهجة مزهوَّة ـ إنَّه تغيير السكَّة. إنّني أعرف هذا الخطّ.

فمنذ عشرة أعوام كنت رحّالة، وكنت أسافر عليه كلّ أسبوع. سترون: إنّنا نعطف إلى الشمال، والسكّة إلى اليمين تفضي إلى لونيفيل وستراسبورغ.

قال بلوندينه: ـ لونيفيل؟ ولكنّي كنت أحسب أنّنا سنمرّ بلونيفيل حتمًا.

ـ لا، لا. أقول لك إنّي أعرف الخطّ. من المرجَّح أن تكون السكّة إلى لونيفيل مقطوعة، وقد مررنا من طريق «سان ديا» لتجنُّبها، وها نحن الآن نصعد من جديد.

وسأل صوت «راميل» القلق:

ـ وألمانيا، إلى اليمين؟

ـ نعم، نعم، ونحن نسلك إلى اليسار. فهناك نانسي وبار ـ لو ـ دوك وشالون.

وأبطأ القطار وتوقّف. التفت برونيه ينظر إليهم. كانت لهم وجوه هادئة طيِّبة، وكان فيهم من يبتسم. إلّا «راميل»، أستاذ البيانو، فقد كان يعضّ شفته السفلى ويلمس نظّارتيه بهيئة مضطربة متورِّعة. وحدث مع ذلك صمت، ثم أخذ مولو فجأة يصرخ:

ـ هيه! الفراخ؟ قبلة أيّتها الغندورات، قبلة صغيرة!

فالتفت برونيه فجأة، فإذا هنّ ستّ بأثواب خفيفة وأذرع سمينة حمراء ووجوه نضرة، ستّ ينظرن إليهم، من وراء الحاجز. وأرسل مولو لهنّ قبلات، فلم يبتسمن؛ وأخذت سمينة سمراء، غير قبيحة، تتنهّد؛ وكانت التنهُّدات تعلو بصدرها الكبير، أمّا الأخريات، فقد كنّ ينظرن بعيون كبيرة حزينة: وكانت الأفواه الستّة تقلِّد حركات طفل يوشك أن يبكي في هذه الوجوه الريفيّة اللّامعبِّرة. وقال مولو:

ـ هيّا! هيّا! حركة لطيفة!

وأضاف، وقد أخذه إلهام مفاجئ:

ـ ألا تُرسلن قبلات لفتيان ذاهبين إلى ألمانيا؟

فارتفعت من خلفه أصوات احتجاج:

ـ هيه! لا سمح الله! لا تتحدَّث عن المصائب!

التفت مولو، في ارتياح كامل:

ـ اصمتوا! إنّي أقول لهنّ ذلك لكي يُرسلن لنا بسمة!

فضحك الأفراد وصاحوا: ـ هيّا هيّا!

وظلّت السمراء تنظر إليهنّ بعينيها الخائفتين، ورفعت يدًا متردِّدة، فأسندتها إلى شفتيها المتدليّتين ثم قذفتها بحركة آليّة. فقال مولو:

ـ أحسن من هذا! أحسن من هذا!

فصاح به صوت باللغة الألمانيّة، فسارع يُدخل رأسه. وقال جوراسيان:

ـ اخرسْ! إنّك ستسبِّب إغلاق القاطرة.

لم يجب مولو، ولكنَّه دمدم لنفسه وحده:

ـ كم هنّ فروج حمقاوات، نساء هذا البلد!

وأخذ القطار يصرّ، واهتزّ على مهل، فصمت الأفراد، وظلّ مولو ينتظر، فاغر الفم، والقطار يجري وبرونيه يُفكِّر: هذه هي اللحظة. وحدثت قضقضة مفاجئة، اهتزازة، ففقد مولو توازنه وتشبّث بكتف شنايدر وهو يطلق صرخة نصر:

ـ انتهى الأمر، يا جماعة، انتهى الأمر، فنحن ذاهبون إلى نانسي.

فضحك الجميع وصاحوا. وارتفع صوت راميل العصبيّ:

ـ هذا مؤكَّد إذن، إنَّنا ذاهبون إلى نانسي؟

فقال مولو وهو يشير إلى الطريق:

ـ ما عليك إلَّا أن تنظر.

وفعلاً انعطف القطار إلى اليسار، فرسم قوس دائرة، وكان بإمكان المرء في تلك اللحظة أن يرى المحرِّك، من غير أن يُطلّ.

ـ وبعد ذلك؟ توًّا إلى نانسي؟

والتفت برونيه، فإذا وجه راميل ما زال رماديًّا، وشفتاه الممتقعتان ما انفكّتا ترتجفان.

وسأل مولو مقهقهًا:

ـ توًّا؟ أتظنّ أنّهم سيغيِّرون لنا القطار؟

ـ لا، وإنّما أقصد: هل هناك تغيير سكّة آخر؟

فقال مولو: ـ بل هناك تغييران آخران. واحد قبل «فروار»، والآخر عند «بايني سورنوف».

ولكنْ لست بحاجة للاهتمام بذلك، فنحن ذاهبون يسارًا، دائمًا إلى اليسار، باتّجاه بار لو ـ دوك ـ وشالون.

ـ ومتى نتأكّد من ذلك؟

ـ ماذا تريد أكثر من هذا؟ إنَّنا متأكِّدون.

ـ أقصد بالنسبة لتغيِّير السكّة؟

قال مولو: ـ آه، إذا كان هذا ما تقصده، فلدى التغيير الثاني. إذا سلكنا اليمين، فهذا يعني ميتز واللكسمبورغ؛ أمَّا الثالث، فلا يُعوَّل عليه: فإلى اليمين خطّ ڤردان وسيدان.. وماذا تريدنا أن نفعل هناك؟

قال راميل: ـ إنَّه الثاني إذن، وهو القادم...

ولم يقل بعدُ شيئًا، وانطوى على نفسه، وركبتاه إلى ذقنه، بهيئة راعشة ضائعة. وقال أندريه:

ـ اسمع، إنّك تكاد تخرّينا. سوف تتأكّد عمّا قليل.

فلم يجب راميل، وهبط على الشاحنة صمت ثقيل، وكانت الوجوه لا معبِّرة، ولكنَّها متقلِّصة بعض الشيء. وسمع برونيه لحن هارمونيكا لطيفًا. قفز أندريه في الهواء:

ـ آه! كلّا، لا موسيقى!

فقال صوت من جوف الشاحنة: ـ إنَّ لي الحقّ بأن أعزف على الهارمونيكا.

وقال أندريه: ـ لا موسيقى.

صمت الرجل. وكان القطار قد أخذ يسرع قليلاً، ومرّ على جسر، فتنهّد عامل المطبعة:

ـ انتهت القناة.

وكان شنايدر نائمًا وهو جالس، ورأسه مهتز. وأحسّ برونيه الضجر، وهو ينظر إلى الحقول، فارغ الرأس. وبعد لحظة، خفَّف القطار سيره. فاستقام راميل، وعيناه شاردتان:

ـ ما هذا؟

فقال مولو: ـ لا تهتمّ. إنَّها نانسي.

وارتفع رمل السكَّة الحديديّة فوق القاطرة، وواجهوا آنذاك جدارًا. وفوق الجدار كان يمتدّ كورنيش من الحجارة البيضاء، وفوق الكورنيش دربزين حديديّ ذو ألواح متوازية، وقال مولو:

ـ هناك شارع، فوق.

وأحسّ برونيه فجأة أنّه مسحوق بعبء هائل، فقد انحنى الأفراد وهم يستندون إليه، مديرين رؤوسهم نحو السماء. ودخل الدخان في غيوم كبيرة إلى الشاحنة، فسعل برونيه، وقال مارتيال:

ـ انظروا إلى الجماعة فوق.

فارتدّ برونيه برأسه إلى الخلف، فأحسّ بشيء قاس، وكانت أيدٍ تدفع كتفيه: كان ثمَّة في الواقع شخص منحن على الدربزين. وعبر القضبان، كانت تُرى سترته السوداء وبنطاله المخطَّط، وهو يحمل محفظة جلديّة، ويبدو في الأربعين. وصاح مارتيال:

ـ مرحبًا.

أجاب آخر: ـ صباح الخير.

وكان له شارب أنيق في وجه هزيل صلب، وكانت له عينان زرقاوان شديدتا الصفاء.

وقال الأفراد: ـ مرحبًا! مرحبًا!

وسأل مولو: ـ كيف حال نانسي، هل هي مهدَّمة جدًّا؟

قال الرجل: ـ لا.

قال مولو: ـ هذا أفضل، هذا أفضل.

فلم يجب الرجل، وكان يحدِّق فيهم، بشيء من الفضول. وسأله جورسيا:

ـ وهل عاد الناس إلى أعمالهم؟

وصفَّر المحرِّك، فوضع الرجل يده حول أذنه وصاح:

ـ ماذا؟

فقام جوراسيان بحركات فوق رأس برونيه ليوضح أنّه لا يستطيع أن يصيح بصوت أعلى. وقال له لوسيان:

ـ اسأله عن أسرى نانسي.

ـ وماذا، بشأن الأسرى؟

ـ اسأله إن كان يعرف شيئًا عن الأسرى.

فقال مولو: ـ انتظرْ، إنَّ أحدنا لا يسمع الآخر بعد.

ـ اسأله بسرعة، فالقطار يكاد يسير.

وانقطع الصفير، فصاح مولو:

ـ الأعمال، هل عادت؟

فقال المدنيّ: ـ أتظنّ ذلك؟ وجميع الألمان الموجودون في المدينة؟

وسأل مارتيال: ـ وهل فتحت دور السينما من جديد؟

فسأل المدنيّ: ـ ماذا؟

فقال لوسيان: ـ طزْ! على قفانا دور السينما، حُلَّ عنّا أنت ودور السينما، ودعني أتحدَّث.

وأضاف: ـ والأسرى؟

فسأل المدني: ـ أيّ أسرى؟

ـ أليس من أسرى، هنا؟

ـ بلى، ولكن لم يبق بعدُ من أسرى.

وصاح مولو: ـ أين ذهبوا؟

فنظر إليه المدنيّ في شيء من الدهشة وأجاب:

ـ ولكنْ، إلى ألمانيا!

قال برونيه: ـ إيه! لا تدفعوني!

وتقوّس بكلتا يديه على الأرض الخشبيّة، وكان الأفراد يسحقونه ويصيحون معًا:

ـ إلى ألمانيا؟ هل أنت مجنون؟ تريد أن تقول إلى شالون؟ إلى ألمانيا؟ من قال لك إنّهم كانوا ذاهبين إلى ألمانيا؟

فلم يجب المدنيّ بشيء، وكان ينظر إليهم بهيئته الهادئة. وقال جوراسيان:

ـ اسكتوا يا جماعة، ولا تتكلّموا جميعًا معًا.

فسكت الأفراد، وصاح جوراسيان:

ـ وكيف عرفت ذلك؟

وانبعثت منه صيحة غاضبة، ثم قفز من العجلة حارس ألمانيّ، وحربته في بندقيّته، فارتمى أمامهم. وكان شابًّا فتيًّا محمرًّا من الغضب،

وكان يصرخ بالألمانيّة بلهجة سريعة جدًّا، وصوت أبحّ؛ وأحسّ برونيه بغتة أنّه قد تخفَّف من العبء الهائل الذي كان يسحقه، فلا بدّ أنَّ الأفراد قد عادوا إلى الجلوس بسرعة. وصمت الحارس، وظلّ قربهم، وسلاحه أمام قدمه. وكان المدنيّ ما يزال هناك، مطلًّا فوق الدربزين، وهو ينظر؛ وتمثّل برونيه، في ظلِّ القاطرة، جميع هذه العيون المحمومة التي ارتفعت تسائل في صمت.

وتمتم لوسيان خلفه: ـ إنَّها قذارة! قذارة!

وظلّ الرجل جامدًا، أبكم، غير نافع، ومع ذلك كان مليئًا بعلم خفيّ. وصفَّر المحرِّك، ودلفت إلى القاطرة دوّامة من الدخان، فاهتزّ القطار وعاود السير. وسعل برونيه. وانتظر الحارس أن تمرّ العجلة أمامه، فألقى فيها بندقيّته؛ ورأى برونيه أربع أيدٍ ذات أكمام خضراء تلتقطه من كتفيه وترفعه.

ـ أوَّلاً، ما يدريه هذا الفرج؟

ـ نعم، ما يدريه؟ إذا كانوا قد ذهبوا، فكلّ ما هناك أنّه رآهم يذهبون.

وانفجرت الأصوات الغاضبة خلف برونيه، وابتسم برونيه من غير أن يقول شيئًا.

قال راميل: ـ كلّ ما في الأمر أنّه يفترض ذلك، «يفترض» أنّهم ذهبوا إلى ألمانيا.

وأسرع القطار في سيره، وحاذى محطَّات كبيرة خالية؛ وقرأ برونيه على لافتة:

«باب خروج. ممرّ تحت الأرض». ومضى القطار. المحطّة ميِّتة. وكانت كتف عامل المطبعة ترتجف إزاء كتف برونيه. وانفجر العامل بوحشيّة:

ـ إنَّها قذارة إذن، أن يقول ذلك، من غير أن يكون متأكِّدًا.

قال مارتيال: ـ صحيح. إنَّه لقذر!

قال مولو: ـ وكيف! ليست هذه أشياء تُعمل. لا بدّ أنَّه فرجٌ غريب...

فردّد جوراسيان: ـ فرج؟ إنّك لم تنظر إليه! أقسم لك بأنّه ليس فرجًا، ذلك الشخص. كان يعلم ما يفعله، أؤكِّد لك.

ـ كان يعلم ما يفعله؟

والتفت برونيه، فابتسم جوراسيان بهيئة وحشيّة، وقال:

ـ إنّه واحد من الطابور الخامس..

قال لامبير: ـ وإذا كان على حقّ، يا جماعة؟

ـ اخرسْ أيُّها الفرج! إذا كنت راغبًا في الذهاب إلى ألمانيا، فتطوَّع، ولا تأت إلينا لتخرّينا.

قال مولو: ـ ثم طزْ! سنعرف الحقيقة عند مفترق السكَّة.

فسأل راميل: ـ ومتى نصل إليه؟

وكان أخضر اللون، يربت بأصابعه على معطفه.

ـ بعد ربع ساعة، أو عشرين دقيقة.

وكفّ الأفراد عن الكلام، وجعلوا ينتظرون. كانت وجوههم قاسية، وعيونهم ثابتة لم يعهدها برونيه منذ الكارثة. ثم سقط كلّ شيء في الصمت، فلم يكن يسمع غير صرير القاطرات. كان الطقس حارًّا، وكان بودّ برونيه أن ينزع سترته ولكنَّه لم يستطع، فهو محشور بين عامل المطبعة والجدار. وكانت قطرات من عرق تتدحرج على عنقه. وقال عامل المطبعة، من غير أن ينظر إليه:

ـ أوه! برونيه!

ـ ماذا؟

ـ هل كنت تسخر منِّي، حين قلت لي أن أقفز؟

فسأله برونيه: ـ لماذا؟

فأدار العامل إليه وجهه الطفوليّ الرقيق، الذي لم تكن التجعُّدات ولا الأوساخ ولا اللحية لتستطيع أن تشيخه، وقال:

ـ لن يكون في استطاعتي أن أتحمَّل الذهاب إلى ألمانيا.

فلم يجب برونيه بشيء. وقال العامل:

ـ لن أستطيع أن أتحمَّل ذلك. سوف أموت. إنّني متأكِّد أنِّي سأموت هناك.

وهزّ برونيه كتفيه، وقال:

ـ ستفعل كما يفعل الجميع.

قال العامل: ـ ولكنَّ الجميع سيموتون. الجميع، الجميع، الجميع.

وأخرج برونيه يدًا فوضعها على كتفه، وقال له بشغف:

ـ لا تثر أعصابك، أيُّها الرأس الصغير.

وكان العامل يرتجف، وقال له برونيه:

ـ إذا ظللت هكذا، فستنقل الخوف إلى الرفاق.

فجرض العامل بريقه، وبدت عليه الوداعة، فقال:

ـ أنت على حقّ يا برونيه.

وندّت عنه حركة يأس وعجز، وأضاف بحزن:

ـ أنت دائمًا على حقّ.

فابتسم له برونيه. وبعد لحظة، استطرد عامل المطبعة بلهجة صمّاء:

ـ كان ذلك إذن مزاحًا؟

ـ ما هو؟

ـ حين قلت لي أن أقفز. كنت تمزح؟

قال برونيه: ـ لا تهتمّ بذلك.

قال العامل: ـ وإذا قفزت الآن، هل تلومني؟

وكان برونيه ينظر إلى رؤوس البنادق التي كانت خارجة من العجلة متلألئة، وقال:

ـ لا ترتكب حماقات، فإنّك ستدقّ رأسك.

قال العامل: ـ دعني أجرّب حظّي، دعني أجرّب حظّي.

فقال برونيه: ـ ليست هذه لحظة مناسبة.

قال العامل: ـ مهما يكن، فإذا ذهبت إلى هناك، متّ. فما دام الأمر كذلك...

فلم يجب برونيه، وقال عامل المطبعة:

ـ قل لي فقط إن كنت تلومني؟

وكان برونيه ما يزال ينظر إلى رؤوس البنادق، فقال بهدوء وبرودة:

ـ نعم ألومك. وإنّي أمنعك من ذلك.

فخفض العامل رأسه، ورأى برونيه فكّه الذي يتحرّك.

وقال شنايدر: ـ إنّك فظّ إلى أبعد حدّ.

أَمال برونيه برأسه: كان شنايدر ينظر إليه نظرة قاسية. ولم يجب برونيه، بل تجمّع لدى العمود؛ وكان بودّه أن يقول لشنايدر: «إذا لم أمنعه من الوثوب، ألا ترى أنّه سيقتل نفسه؟» ولكنّه لم يستطع، لأنّ العامل سوف يسمعه؛ وأحسّ باستياء أنّ شنايدر يدينه. وفكّر: «إنّ هذه لحماقة»، ونظر إلى رقبة عامل المطبعة الهزيلة، وفكّر: «وإذا كان سيموت هناك؟» وفكّر: «خراء! إنّني لستُ بعدُ أنا». وأبطأ القطار: هذا موقف

تغيير السكّة. بكلِّ تأكيد، الجميع يعلمون أنَّ هنا نقطة التغيير، ولكنَّهم لا يقولون شيئًا». وتوقّف القطار، وساد الصمت. ورفع برونيه رأسه. وكان مولو منحنيًا فوقه ينظر إلى السكّة، فاغر الفم. وكان أزرق متجهِّمًا. وفي عشب الردم، كان يُسمع صوت صراصير تغنِّي. وقفز ثلاثة من الألمان إلى السكَّة ليزيلوا خدر سيقانهم، فمرُّوا أمام القاطرة ضاحكين. ثم أخذ القطار يسير، فاستداروا على أعقابهم وركضوا ليلحقوا بالمركبة. وأرسل مولو هديرًا:

ـ إلى اليسار، يا جماعة، إنَّنا ننعطف إلى اليسار!

واهتزَّت القاطرة وصرّت، حتى لكأنَّها ستنتزع نفسها من الخطّ. ومن جديد، أحسّ برونيه على كتفيه وزن عشرة أجسام منحنية إلى أمام، وكان الأفراد يصرخون:

ـ إلى اليسار! إنَّنا ذاهبون إلى شالون.

وعلى أبواب القاطرات الأخرى، ظهرت رؤوس سوداء من الدخان، وهي تضحك، وصاح أندريه:

ـ إيه يا شابو! إنَّنا ذاهبون إلى شالون.

وكان شابو مطلًّا من القاطرة الرابعة، وهو يضحك ويصيح:

ـ هذا قليل يا جماعة! هذا قليل!

وكان الجميع يضحكون، وسمع برونيه صوت غاسو:

ـ لقد خافوا مثلنا.

فقال جوراسيان: ـ أترون يا جماعة؟ لقد كان من الطابور الخامس.

ونظر برونيه إلى عامل المطبعة. فإذا هو صامت، وما يزال يرتعش، ودمعة تسيل على خدِّه الأيسر فتخطّ ثلمًا في الوسخ والفحم. وأخذ رجلٌ يعزف على الهارمونيكا، وآخر يغنِّي على الإيقاع: «سأبقى أمينًا لك، يا ثوبي الكاكيّ». أحسّ برونيه بحزن فظيع، وكان ينظر إلى السكّة التي

تجري، فتأخذه الرغبة في القفز. وكانت القاطرة في الرأس، والقطار يغنِّي، كقطارات ـ المفاجأة فيما قبل ـ الحرب. وفكَّر برونيه: «إنّ في النهاية مفاجأة»، وأرسل عامل المطبعة تنهُّدة ارتياح ورضى كبيرة، وقال:

ـ آه لا لا! آه لا لا!

ونظر إلى برونيه نظرة خبيثة، وقال:

ـ أنت، كنت تظنّ أنَّنا ذاهبون إلى ألمانيا.

فتصلَّب برونيه قليلاً، وأحسّ بأنَّ نفوذه قد مُسّ، ولكنَّه لم يجب بشيء. والواقع أنَّ عامل المطبعة كان يظهر بمظهر مصالحة، فأضاف بحيويّة:

ـ يمكن لكلّ إنسان أن يخطئ: فأنا نفسي كنت أظنُّ هذا، مثلك.

وصمت برونيه، وأخذ العامل يصفِّر، وقال بعد لحظة:

ـ سأخبرها قبل أن أذهب إليها.

فسأله برونيه: ـ من تقصد؟

قال العامل: ـ صاحبتي. وسوف تقع مغشيًّا عليها!

قال برونيه: وهل لك صاحبة؟ في سنّك هذه؟

قال العامل: ـ نعم. بل كان المفروض أن نتزوَّج، لولا قصّة الحرب هذه.

وسأل برونيه:

ـ وما عمرها؟

قال العامل: ـ ثماني عشرة سنة.

ـ هل التقيت بها في الحزب؟

ـ كلّا، في حفلة رقص.

ـ وهل تفكِّر مثلك؟

ـ في أيٍّ شيء؟

ـ في كلّ شيء.

قال العامل: ـ الحقيقة، لا أدري بمَا تفكِّر. وأعتقد أنَّها لا تفكِّر بشيء: فهي طفلة. ولكنَّها طيِّبة وعاملة.. ثم إنّها ملتفّة الجسم!

وحلم قليلاً، وقال:

ـ وربَّما كان هذا هو الذي أثار سويدائي. كنت مشتاقًا إليها. هل لك صاحبة، يا برونيه؟

قال برونيه: ـ ليس لديّ الوقت.

ـ إذن، كيف تدبّر أمرك؟

فابتسم برونيه، وقال: ـ أحيانًا، هكذا، بطريقة عابرة.

قال العامل: ـ أمَّا أنا، فلا أستطيع أن أعيش هكذا. ألا يعجبك أن يكون لك بيت حقيقيّ وبداخله امرأة صغيرة؟

ـ لن يكون لي ذلك أبدًا.

قال العامل: ـ نعم، نعم.

وبدا عليه الاضطراب، وقال كأنَّما يعتذر:

ـ أنا لست بحاجة إلى شيء كثير؛ وهي كذلك. ثلاثة كراسٍ وسرير.

وابتسم في الفراغ، وأضاف:

ـ لولا هذه الحرب، لكنّا سعيدَيْن.

وانزعج برونيه، فنظر إلى عامل المطبعة بلا ودّ؛ وعلى هذا الوجه الذي كان الهزال قد جعله شديد التعبير، قرأ شهوةً نهمة للسعادة، وقال على مهل:

ـ لم تقع هذه الحرب بطريق المصادفة. ثم إنَّك تعرف جيِّدًا أنَّنا لا

نستطيع أن نعيش سعداء في عهد الطغيان.

قال العامل: ـ أوه! كنت سأتَّخذ لنفسي ركني الصغير..

ورفع برونيه صوته، وقال له بجفاء:

ـ لماذا أنت شيوعيّ إذن؟ إنَّ الشيوعيِّين لم يُخلقوا ليدفنوا أنفسهم في الثقوب!

قال العامل: ـ من أجل الآخرين. كان في الحيِّ الذي أسكنه بؤس كثير، وكنت أودّ أن يتغيَّر ذلك.

قال برونيه: ـ حين ندخل في الحزب، فلا يبقى ما هو هامّ غير الحزب. كان ينبغي لك أن تعرف ما الذي تلتزمه.

فقال العامل بحيويّة: ولكنِّي كنت أعرفه. هل حدث أن رفضت يومًا ما كنتَ تطلبه منِّي؟ ولكن قل لي، حين أضاجع، لا يكون الحزب موجودًا ليحمل لي الشمعدان. فهناك لحظات..

ونظر إلى برونيه وتوقّف فجأة. ولم يقل برونيه شيئًا، وكان يفكِّر:

ـ إنَّه هكذا، لأنَّه يعتقد أنِّي أخطأت. ينبغي للمرء أن يكون معصومًا.

وكان الحرّ يشتدّ، والعرق يبلِّل قميصه، والشمس تصفع وجهه: يجب أن نعرف لماذا يدخل هؤلاء الشبّان جميعًا الحزب الشيوعيّ؛ فحين يدخله أحدهم بدافع من أفكار سمحة، فلا بدّ أن تأتي لحظة يُحسّ فيها بالضعف والتداعي. «وأنت، أنت، لماذا دخلته! أوه! لقد انقضى على ذلك وقت طويل، فليس له بعد من أهمِّيَّة، أنا شيوعيّ لأنَّني شيوعيّ، هذا كلّ ما في الأمر». وأخرج يده اليمنى، فمسح العرق الذي يبلِّل حاجبيه ونظر إلى الساعة: الرابعة والنصف. إنَّنا لسنا على وشك أن نصل، بالنسبة لهذه الدورات. سوف يغلق الألمان القاطرات هذه الليلة، فننام على سكَّة مرأب. وتثاءب. وقال:

ـ إنّك لا تقول شيئًا، يا شنايدر.

وسأل شنايدر: ـ وماذا تريد أن أقول؟

وتثاءب برونيه، ونظر إلى السكّة تجري، وكانت سحنة ممتقعة تقهقه بين الخطوط، ها، ها، ها.. وسقط رأسه، واستفاق منتفضًا، وكانت عيناه تؤلمانه، واندفع إلى الخلف ليتفادى الشمس، وقال أحدهم «حكمٌ بالإعدام»، وسقط رأسه، واستفاق مرَّة أخرى، فحمل يده إلى ذقنه المبلَّلة: لقد سال لعابي، فلا بدّ أنِّي نمت مفتوح الفم؛ واستبشع ذلك.

ـ هل تريد أن تفرغها؟

ومدّ له علبة مفتوحة من لحم القرد، وكانت ساخنة، فقال:

ـ ما هذا! آه، حسنًا.

وقلبها في الخارج، فسقط المائع الأصفر مَطَرًا على السكَّة.

ـ إيه! أرجعها بسرعة.

فمدّها من غير أن يلوي، فأُخذت من يده، وأراد أن يعود إلى النوم، ولكنَّ يدًا ضربته على كتفه، فأخذ العلبة وأفرغها. وقال عامل المطبعة:

ـ أعطني إيَّاها.

فمدّ برونيه العلبة إلى العامل الذي نهض على مشقَّة. ومسح برونيه أصابعه الرطبة بسترته؛ وبعد لحظة، امتدَّت ذراع فوق رأسه فأمالت علبة التنك، فتناثر الماء الأصفر وجرى قطرات بيضاء نحو الخلف. وعاد العامل إلى الجلوس وهو يمسح أصابعه، وترك برونيه رأسه يسقط على كتف العامل، وسمع أنغام الهارمونيكا، ورأى حديقة جميلة ملأى بالزهور، واستغرقه النوم. وأيقظته صدمة، فصاح:

ـ ماذا؟

كان القطار قد توقّف في الريف.

ـ ماذا؟

قال مولو: ـ لا شيء، بوسعك أن تعود إلى النوم: إنَّها «باني ـ سور ـ موز».

والتفت برونيه: كلّ شيء هادئ، لقد ألف الأفراد فرحتهم، وكان بينهم من يلعب الورق، وآخرون يغنُّون، وآخرون صامتون مسحورون يروون لأنفسهم الحكايات، وعيونهم ملأى بالذكريات التي يجرأون أخيرًا على أن يتركوها تصعد من أعماق قلوبهم؛ ولم يتنبَّه أحد لتوقُّف القطار، وغرق برونيه في النوم، وحلم بسهل غريب يجلس فيه حول نار كبيرة رجال عراة ذوو لحى رماديّة، هزيلة الأجسام كأنَّهم هياكل؛ وحين استيقظ، كانت الشمس قد انخفضت كثيرًا على الأفق، والسماء بنفسجيّة؛ وكانت بقرتان ترعيان في مرج، وكان القطار على سكونه، والأفراد يغنُّون؛ وعلى المنحدر، جنود ألمان يقطفون زهورًا، وكان ثمَّة جنديّ قصير سمين شديد البأس، ذو خدَّين أحمرين، اقترب من الأسرى وقد وضع بين أسنانه زهرة لؤلؤيّة، وهو يبسم لهم بسمة عريضة. فبسم له مولو وأندريه ومارتيال. وظلّ الألمانيّ والفرنسيُّون لحظة يتبادلون النظر باسمين، ثم قال مولو فجأة بالألمانيّة:

ـ سجاير.

فتردَّد الجنديّ والتفت إلى المنحدر؛ وكان رفاقه الثلاثة المنحنون يبدون مؤخَّراتهم، وبحث بخفَّة في جيبه، ثم قذف بعلبة سجايره إلى القاطرة؛ وسمع برونيه خلفه ضجَّة وصخبًا، ونهض راميل الذي لم يكن يدخِّن، فصاح بالألمانيّة وهو يبتسم:

ـ شكرًا.

فأشار له القصير السمين بأن يصمت. وقال مولو لشنايدر:

ـ اسأله إلى أين نحن ذاهبون.

وتحدَّث شنايدر بالألمانيّة إلى الجنديّ، فأجاب الجنديّ وهو يبتسم؛ وكان الآخرون قد فرغوا من قطف الزهور، فاقتربوا حاملين باقاتهم باليد اليسرى، والزهور متّجهة إلى أسفل؛ وكانوا الرقيب وجنديّين، وكان يبدو عليهم الجذل، وقد انخرطوا مشاركين في الحديث وهم يضحكون. وقال مولو وهو يبتسم أيضًا:

ـ ماذا يقولون؟

فقال شنايدر نافد الصبر:

ـ انتظر قليلاً، ودعني أفهم.

وألقى الجنود نكتة أخيرة وعادوا إلى المركبة، على غير ما عجل، وتوقّف الرقيب ليبوّل عند وتد القاطرة، ثم زرَّر فتحة بنطاله، وهو متباعد الساقين، ورمى إلى رجاله بنظرة، وفيما هم مديرون ظهورهم، قذف بعلبة سجاير إلى القاطرة.

وقال مارتيال بخرخرة سعيدة:

ـ ها! إنَّهم ليسوا حيوانات!

قال جوراسيان: ـ ذلك لأنّنا قد أُطلق سراحنا. فهم يريدون أن يتركوا لنا تذكارًا جميلاً.

قال مارتيال حالمًا: ـ هذا ممكن. إنَّ كلّ ما يفعلونه هو في الواقع من قبيل الدعاية.

وسأل مولو شنايدر: ـ ماذا قالوا؟

فلم يجب شنايدر؛ وكانت هيئته غريبة.

قال أندريه: ـ نعم، ماذا قالوا؟

فابتلع شنايدر ريقه بمشقّة، وقال:

ـ إنَّهم من هانوفر، وقد قاتلوا في بلجيكا.

ـ وإلى أين نحن ذاهبون، كما قالوا؟

فبسط شنايدر ذراعيه وابتسم، وقال بلهجة اعتذار:

ـ إلى «تريف».

قال مولو: ـ تريف؟ وأين هي معلّقة؟

فقال شنايدر: ـ في مقاطعة بالاتانيا.

وساد صمت غير محسوس، ثم قال مولو:

ـ تريف، في ألمانيا؟ لقد سخروا منك إذن!

فلم يجب شنايدر. وقال مولو في ثقة هادئة:

ـ إنَّ من يمرّ بـ «بارلودوك» لا يذهب إلى ألمانيا.

وظلّ شنايدر على صمته، فسأل أندريه بلا اكتراث:

ـ كانوا يضحكون أم ماذا؟

فقال لوسيان: ـ لقد رأيت جيِّدًا أنّهم كانوا يضحكون.

وقال شنايدر على مضض: ـ ولكنَّهم لم يكونوا يضحكون حين قالوا لي ذلك.

فسأله مارتيال في غضب: ـ ألم تسمع ما قال مولو؟ إنَّ الطريق إلى ألمانيا لا تمرّ بـ «بارلودوك». فليس هذا معقولاً.

فقال شنايدر: ـ إنَّنا لا نمرّ بـ «بارلودوك» وإنَّما ننعطف إلى اليمين.

فأخذ مولو يضحك: ـ آه! هذا لا! اسمحْ لي أن أعرف الطريق خيرًا منك. فإلى اليمين ڤردان وسيدان. وإذا تابعت إلى اليمين، فربَّما وصلت إلى بلجيكا، أمّا إلى ألمانيا، فلا!

واستدار نحو الآخرين بهيئة اقتناع مطمئن:

ـ ما دمت أقول لكم إنّي كنت أتجوّل في المنطقة كلّ أسبوع. وأحيانًا، مرّتين في الأسبوع!

أضاف هذه الجملة الأخيرة، ووجهه يعبِّر بيأس عن الاقتناع. وقال الأفراد:

ـ طبعًا، طبعًا، لا يمكن أن يكون مخطئًا.

قال شنايدر: ـ إنَّنا نمرّ باللكسمبورغ.

وجهد في أن يتكلَّم؛ وشعر برونيه، أنّه ما دام قد بدأ الكلام، فإنَّه يريد أن يغرس الحقيقة في رؤوسهم، وكان ممتقعًا، يتكلَّم من غير أن ينظر إلى أحد. وأدنى أندريه وجهه من وجه شنايدر وصاح به:

ـ ولكن لماذا نقوم بهذه الدورة؟ لماذا؟

وكان الأفراد يصيحون من خلفه:

ـ لماذا؟ لماذا؟ فهذه حماقة! لماذا؟ ما كان لنا إلّا أن نمرّ إذن بـ «لونيفيل».

فاحمرّ وجه شنايدر، والتفت تمامًا إلى جوف القاطرة، وواجه الذين يصرخون، فصاح في غضب:

ـ أنا لا أعرف شيئًا من هذا، لا أعرف شيئًا. ربَّما لأنّ السكك الحديد منسوفة، أو لأنَّ على الخطوط الأخرى قطارات ألمانيّة، فلا تجعلوني أقول أكثر ممَّا أعرف، وفكِّروا بما تشاءون.

وصاح صوت ثاقب من فوق جميعُ الأصوات الأخرى:

ـ لا حاجة بكم إلى الغضب يا جماعة، فسوف نعرف عمّا قليل.

وردّد الأفراد: ـ هذا صحيح، سنرى، سنرى.. ولا حاجة إلى جعل دمنا يغلي.

وعاد شنايدر إلى الجلوس من غير أن يُجيب. وبرز من القاطرة قبل الأخيرة رأس مجعّد الشعر، صاح بهم صوتٌ فتيّ:

ـ إيه! هل قالوا لكم يا جماعة إلى أين نحن ذاهبون؟

ـ ماذا يقول؟

ـ إنَّه يسأل إلى أين نحن ذاهبون.

وانفجر الأفراد في القاطرة، انفجروا ضاحكين:

ـ إنَّ هذا يجيء في أوانه. إنَّ حاسّة شمّه قويّة، فهذه لحظة مناسبة لهذا السؤال.

وانحنى مولو، وقد كوّر يديه حول فمه، وصاح:

ـ إلى قفاي!

واختفى الرأس المطلّ. وضحك الجميع؛ ثم انقطع الضحك. وقال جوراسيان:

ـ هل نلعب، يا جماعة؟ هذا أفضل من أن نختلق الأفكار.

فقالوا: ـ هيّا بنا.

تربَّع الأفراد حول معطف مطويّ إلى أربع، والتقط جوراسيان الورق فأخذ يوزِّعه. ورامبل يقرض أظافره في صمت؛ والهارمونيكا تعزف رقصة فالس؛ وثمَّة شخص واقف بإزاء الجدار الداخليّ يدخِّن سيجارة ألمانيّة، بهيئة تفكُّر. وقال، كأنَّما يحدِّث نفسه:

ـ إنَّ التدخين الآن لذَّة.

التفت شنايدر نحو برونيه، وقال له بلهجة اعتذار:

ـ لم أكن أستطيع أن أكذِّب عليهم.

فهزّ برونيه كتفيه من غير أن يجيب. وقال شنايدر:

ـ أَجل، لم أكن أستطيع.

قال برونيه: ـ ما كان ذلك ليجدي شيئًا، فلا بدّ أن يعرفوا ذلك عمَّا قليل.

ولاحظ أنَّه تكلَّم برخاوة. كان مغتاظًا من شنايدر، من أجل الآخرين.

ونظر إليه شنايدر نظرة غريبة، وقال:

ـ من المؤسف ألّا تعرف الألمانيّة.

فسأله برونيه مندهشًا: ـ ولماذا؟

ـ لأنَّك «أنت» كنت تكون مسرورًا بإخبارهم.

فقال برونيه في تعب: ـ أنت مخطئ.

قال شنايدر: ـ ومع ذلك، فإنّ هذا الرحيل إلى ألمانيا قد تمنّيتَه.

فقال برونيه: ـ نعم، لقد تمنّيته.

وعاد عامل المطبعة يرتجف، فأحاط برونيه كتفيه بذراعه وشدّه إليه بارتباك. وبهزّة من رأسه، أومأ إلى شنايدر نحوه وهو يقول:

ـ اسكتْ.

فنظر شنايدر إلى برونيه ببسمة مندهشة؛ وكان كأنّما يقول له: متى بدأت تهتمّ بتوفير الهموم على الناس؟ وأدار برونيه رأسه، ولكن ليرى وجه العامل النهم. كان العامل ينظر إليه، وشفتاه ترتعشان، وعيناه الكبيرتان الرقيقتان تدوران في وجهه الشفقيّ. كان برونيه يهمّ بأن يقول له: «هل كنت مخطئًا؟» ولكنَّه لم يقل شيئًا. نظر إلى رجليه تتدلّيان فوق العجلات الجامدة، وكان يصفِّر. ومالت الشمس، وكان الحرّ قد خفّ، وكان ثمّة فتى يهشّ على البقرات بعصاه، فتكردح ثم تهدأ وتمضي على الطريق بخيلاء؛ فتى يدخل إلى بيته، وبقرات تعود إلى الإصطبل، إنَّ هذا لخيبة! وفي البعيد البعيد، فوق أحد السهول، كانت طيور سود تحوم: ليس جميع الموتى في الأرض. ذلك القلق الذي كان يحفره، لم يكن برونيه يعرف بعد إن كان قلقه أم قلق الآخرين؛ والتفت إليهم ليبقيهم على بعض مسافة منه: وجوه رماديّة شاردة، هادئة تقريبًا، فعرف فيهم تلك الهيئة الغائبة لجموع ستلتهب بالغضب. وفكَّر: «هذا حسن. حسن جدًّا». ولكن بلا فرح. واهتزّ القطار، وسار بضع دقائق، ثم توقّف. وكان مولو

مطلًّا من القاطرة، يرقب الأفق، وقال:

ـ إنَّ نقطة تغيير السكَّة على بعد مئة متر.

قال غاسو: ـ ألا ترى أنَّهم يتركوننا هنا حتى الغد؟

قال أندريه: ـ ستكون معنويَّاتنا عظيمة!

وأحسّ برونيه، حتى عظامه، بجمود القطار الثقيل. وقال أحدهم:

ـ إنَّها حرب الأعصاب تعود.

وسرت في القاطرة طقطقة جافَّة، إنَّها ضحكة. وانطفأت. وسمع برونيه صوت جوراسيان الهادئ:

ـ «أتو وأتو».

وأحسَّ بهزَّة، فالتفت؛ كانت يد جوراسيان الذي يحمل «آس قلب» قد ظلَّت في الهواء، حين عاد القطار إلى السير؛ وانتظر مولو. وبعد برهة، أسرع القطار، ثم انبثق خطَّان حديديَّان من تحت العجلات، برقان متوازيان سيضيعان إلى الشمال، بين الحقول. وقال مولو:

ـ خراء! خراء! خراء!

وصمت الأفراد: لقد فهموا. وترك جوراسيان «آسه» يسقط على المعطف، وسوّى له الثنية؛ وكان القطار يسير بلطف وهو يلهث بانتظام، وكانت الشمس الغاربة تحمِّر وجه شنايدر، وقد بدأ الطقس يترطَّب. ونظر برونيه إلى عامل المطبعة، وأمسك به فجأة من كتفيه:

ـ لا ترتكب حماقات! أتسمع؟ لا ترتكب حماقات، يا صديقي، فتشنَّج الجسم الهزيل تحت أصابعه، فشدّ شدًّا أقوى، فتقلّص الجسم. وفكَّر برونيه. «سأمسكك حتى الليل». وعند الليل، يأتي الألمان فيغلقون القاطرة، حتى إذا جاء الصباح، تكون نفسه قد هدأت. وكان القطار يجري تحت السماء البنفسجيّة، في صمت مطلق: إنَّهم الآن يعرفون، في جميع القاطرات يعرفون. واستسلم عامل المطبعة كامرأة على كتف

برونيه. وفكَّر برونيه: «هل يحقّ لي أن أمنعه من أن يقفز؟» ولكنَّه ظلّ يشدّ: ضحكة خلف ظهره، صوت:

ـ صاحبتي التي كانت تريد طفلاً! يجب أن أكتب لها أن تدعو الجار إلى أن يتسلّقها.

وضحكوا. وفكَّر برونيه: «يضحكون من فرط الشقاء؟» وملأت الضحكة القاطرة، وصعد الغضب. وردّد صوت ضاحك:

ـ كم كنّا فروجًا حمقى! كم كنّا فروجًا حمقى!

سهل بطاطا، مصانع الصلب، المناجم، الأشغال الشاقَّة: بأيٍّ حقٍّ أمنعه من ذلك؟ وردّد الصوت:

ـ كم كنّا فروجًا حمقى!

وتدحرج الغضب وصعد. وشعر برونيه تحت أصابعه بتمايل الكتفين الهزيلتين، وتهافت العضلات الرخوة، وفكَّر، «إنَّه لن يستطيع أن يتحمّل المجازفة»، وضغط، بأيٍّ حقٍّ؟ وزاد ضغطه فقال عامل المطبعة:

ـ إنَّك تؤلمني.

وظلّ برونيه يضغط: إنَّها حياة شيوعيّ، فهو يخصّنا ما دام حيًّا. ونظر إلى هذا الوجه السنجابيّ الصغير: أجل، ما دام حيًّا. ولكنْ أما زال يعيش؟ لقد انتهى، فقد تحطَّمت النوابض، وهو لن يشتغل بعدُ أبدًا. وصاح عامل المطبعة:

ـ ولكنْ دعني! يلعن دين! دعني!

واستغرب برونيه نفسه؛ كان يمسك بين يديه هذه الجثَّة: عضوًا من الحزب لا يستطيع بعد أن يخدم. كان بودّه أن يحدِّثه، وأن يحثّه، وأن يساعده، فلا يستطيع.. فإنَّ كلماته «للحزب»، و«الحزب» هو الذي أكسبها معانيها، وفي داخل «الحزب» كان برونيه يستطيع أن يحبّ، ويقنع، ويعزّي. ولكنَّ عامل المطبعة قد سقط خارج هذا المغزل الضوئيّ

الهائل. ولم يكن لدى برونيه بعدُ ما يقوله له. غير أنَّ هذا الطفل ما يزال يعاني. ما دام هنا موت وهناك موت... آه! فليصمِّم! ومن الأفضل له أن يفرّ، فإذا بقي، فإنَّ موته سيجدي. وكانت القاطرة تضحك أكثر فأكثر؛ وكان القطار يجري ببطء، فكأنَّه موشك على التوقُّف. وقال عامل المطبعة بصوت مداور:

ـ أعطني العلبة، فيجب أن أبوّل.

فلم يقل برونيه شيئًا، ونظر إلى العامل، فرأى الموت. الموت، هذه الحرِّيّة.

وقال العامل: ـ خراء! ألا تستطيع أن تعطيني العلبة؟ أتريد أن أبوّل في ثوبي!

والتفت برونيه فصاح: ـ العلبة!...

ومن العتمة المتلألئة بالغضب، خرجت يد تمدّ العلبة، وازداد بطء القطار، وتردّد برونيه، ونقش أصابعه في كتف العامل؛ ثم ترك فجأة كلّ شيء، وأخذ العلبة، كم كنَّا فروجًا حمقى مع ذلك، كم كنَّا فروجًا حمقى! وكفّ الأفراد عن الضحك. وأحسّ برونيه بصدمة قاسية في مرفقه؛ لقد انزلق عامل المطبعة من تحت ذراعه.

ومدّ برونيه يده، فالتقط الفراغ: لقد سقطت الكتلة الرماديّة مطويّة إلى اثنين، طيرانًا ثقيلاً، وصاح مولو، وانسحق طيف على التراب المردوم، متباعد الساقين، متصالب الذراعين؛ وانتظر برونيه طلقات النار، وكانت «قد أصبحت» في أذنيه؛ وطفر عامل المطبعة بعد أن مسّ الأرض، وها هو ذا واقف، شديد السواد، حرّ. و«رأى» برونيه طلقات النار: خمسة إشعاعات فظيعة. وأخذ عامل المطبعة يعدو بحذاء القطار، لقد أخذه الخوف، فهو يريد أن يصعد، وصاح به برونيه:

ـ اقفزْ إلى المنحدر، يلعن دين، اقفزْ!

وصاحت القاطرة برمَّتها:

ـ اقفزْ! اقفزْ!

فلم يسمع العامل، وكان يكردح، فوصل إلى مستوى القطار، ومدّ ذراعيه وصاح:

ـ برونيه! برونيه!

ورأى برونيه عينيه المذعورتين، فهدر فيه:

ـ المنحدر!

ولكنَّ العامل أصمّ، وليس هو بعدُ إلّا هاتين العينين الهائلتين، وفكَّر برونيه: «إذا صعد بسرعة، فإنَّ له حظًّا بالنجاة» وانحنى: وكان شنايدر قد فهم، فزنَّره بذراعه اليسرى ليمنعه من السقوط. ومدّ برونيه ذراعيه؛ فلمست يد عامل المطبعة يده، وأطلق الألمان ثلاث طلقات، فتداعى العامل باسترخاء إلى الوراء، وسقط، وابتعد القطار، ووثبت ساقا العامل في الهواء، ثم سقطتا، وإذا العارضة والحصى أسود من الدم حول رأسه. وتوقّف القطار فجأة، ووقع برونيه على شنايدر، فقال وهو يكزّ بأسنانه:

ـ لقد رأوا جيِّدًا أنَّه سيصعد من جديد، فأردوه بطيب خاطر..

وكان الجسد هناك، على بعد عشرين خطوة، وقد أصبح شيئًا، أصبح حرًّا. «سأتَّخذ لنفسي زاويتي الصغيرة». ولاحظ برونيه أنَّه ما يزال يمسك العلبة في يده، لقد مدّ ذراعه للعامل من غير أن يتركها. إنَّها فاترة، وتركها تسقط على الحصى. وخرج أربعة ألمان من المركبة وركضوا نحو الجسد؛ وكان الأفراد، خلف برونيه، يدمدمون. وهكذا، أُطلق عقال الغضب. ومن إحدى قاطرات الرأس، خرج زهاء عشرة ألمان، فتسلَّقوا العارضة وواجهوا القطار، ورشَّاشاتهم في أيديهم. ولم يخف الأفراد، وهدر أحدهم خلف برونيه:

ـ يا للقذرين! يا للقذرين!

وكان الغضب باديًا على الرقيب الألمانيّ الضخم، فانحنى ورفع الجسد، ثم تركه يسقط وركله بقدمه.

والتفت برونيه فجأة:

ـ هيه لا! إنَّكم ستلقونني إلى الأرض!

كان عشرون شخصًا قد أطلُّوا، ورأى برونيه عشرين زوجًا من العيون الملأى بالقتل: ستكون هذه الضربة القاسية. وصاح:

ـ لا تقفزوا يا جماعة! فستعرِّضون نفوسكم للقتل.

ونهض على مشقَّة، وهو يصارعهم، وصاح:

ـ شنايدر!

فنهض شنايدر أيضًا، وأخذ كلّ منهما بقامة الآخر، وتشبَّثا، بواسطة الذراع الأخرى، بقوائم الباب.

ـ لن تمرّوا!

ـ وظلّ الأفراد يدفعون؛ ورأى برونيه هذا الحقد كلّه، حقده، أداته، فأخذه الخوف. واقترب ثلاثة ألمان من القاطرة، فصوَّبوا على الأفراد. وتمتم الأفراد، وكان الألمان ينظرون إليهم؛ ورأى برونيه المجعّد الضخم الذي كان يرمي إليهم بالسجاير: كانت له عينا قاتل. وتبادل الفرنسيُّون والألمان النظر، «إنَّها الحرب»: «إنَّها الحرب للمرَّة الأولى منذ أيلول ٣٩». وتراخى الضغط رويدًا رويدًا، وتراجع الأفراد، فأمكنه أن يتنفّس. واقترب الرقيب وقال:

ـ «هيناين، هيناين».

وتراكم برونيه وشنايدر إزاء الصدور، وكان خلفهم ألمانيّ يقفل الباب بالمزلاج، فما تلبث القاطرة أن تغرق في السواد، وتنبعث رائحة العرق والفحم، ويقرقر الغضب، وتضرب الأقدام الخشب، فكأنَّه حشد يمرّ.

وفكّر برونيه:

«إنَّهم لن ينسوا. وهذا كسب». وشعر بالضيق، وتنفَّس بصعوبة، وكانت عيناه مفتوحتين على الظلام: كان بين الفينة والفينة يحسّهما منتفختين كبرتقالتين ضخمتين، توشكان على تفجير محجريه. ونادى بصوت خفيض:

ـ شنايدر! شنايدر!

فقال شنايدر: ـ أنا هنا.

وتلمّس برونيه فيما حوله، وكانت به حاجة للمس شنايدر. وأخذت يدٌ يده فشدّتها:

ـ هذا أنت، يا شنايدر؟

ـ نعم.

وصمتا، جنبًا إلى جنب، واليد في اليد. وحدثت هزّة، وتحرّك القطار وهو يصرّ. ماذا فعلوا بالجثَّة؟ وأحسَّ نَفس شنايدر بإزاء أذنه. وفجأة، سحب شنايدر يده، وأراد برونيه أن يستبقيها، ولكنَّ شنايدر تخلَّص بانتفاضة، وذاب في الظلام. وظلّ برونيه وحيدًا متصلِّبًا، غير مرتاح، في حرارة تنُّور. وكان واقفًا على قدم، بينما كانت الأخرى محشورة فوق الأرض الخشبيّة، في خليط معقَّد من السيقان والأحذية. ولم يحاول أن يخلِّصها، فقد كانت به حاجة لأن يبقى في الموقّت: إنَّه عابر، وفكره عابرٌ في رأسه، والقطار عابر في فرنسا، وتدفَّقت الأفكار ملتاثة، فسقطت على السكَّة، خلفه، قبل أن يتمكَّن من تمييزها، وابتعد، وابتعد؛ على هذا النحو من السرعة، يمكن للحياة أن تُطاق. توقّفٌ تامّ: انزلقت السرعة وسقطت على قدميه؛ وكان ما يزال واثقًا من أنَّ القطار يسير: فهو يصرّ، ويصدم، ويرتجّ، ولكنَّه لم يكن يشعر بعدُ بالحركة. إنَّه في وعاء ضخم للقمامة، وهناك من يركله بقدمه. وخلف ظهره على

المنحدر، كان الجسد باقيًا، مجرَّدًا من العظام. وكان برونيه يعلم أنَّهم كانوا يبتعدون عنه كلّ لحظة، وكان يودّ أن يُحسّ ذلك، ولكنَّه لا يستطيع: فكلّ شيء يأسن. والليل وحده يمرّ حيًّا فوق الميِّت وفوق القطار الساكن. غدًا يغطِّيهما الفجر بالندى نفسه، وسيقطر اللحم الميِّت والفولاذ الصدئ بالعرق نفسه. غدًا تأتي الطيور السود.

في هذا الجزء الأخير من ثلاثيَّة دروب الحرِّيَّة يقول سارتر عن أبطاله: إنَّهم أحياء لكنَّ الموت لمسهُم. ثمَّة شيء انتهى؛ وأَسقطت الهزيمةُ عن الحائط رفوفَ القيَم. وفيما يحتفل دانيال، في باريس، بانتصار تأنيب الضمير، كان ماتيو، في قرية في منطقة اللورين، يقوم بجردةٍ للأضرار: السلام والتقدُّم والعقل، والحقّ والديموقراطيَّة والوطن، كلُّها، مهمَّشة. ولن يتمكَّن المرءُ أبدًا من إعادة لُحمتها.

ولكنْ هناك شيء ما يبدأ أيضًا: من دون درب محدَّد، من دون مَراجع ولا رسائل تمهيديَّة، بل من دون أن يكونوا قد فهموا ماذا حلَّ بهم، أخذوا يسيرون، لأنَّهم، بكلِّ بساطة، لا يزالون على قيد الحياة...

اعتُبرتْ دروب الحرِّيَّة أضخمَ الروايات الوجوديَّة وأروعَها. وقد استطاع سارتر أن يُدخل فلسفَته الوجوديَّة في متناول القرّاء جميعهم حين صبَّها في قالبٍ روائيٍّ فذّ.

لوحة الغلاف: مارك شاغال

دار الآداب
هاتف: ٠١/٨٦١٦٣٣
٠١/٧٩٥١٣٥

تصميم الغلاف: رفيق الجندي

ISBN: 978-9953-89-522-2
9789953895222